أسماء المدن تخلد سيدات من البيت المقدوني (السلوقي– البطلمي)

د. ميسون مدحت جاويد المرعشلي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية الثانية

قسم التاريخ

مقدمة[١]:

يتمحور البحث حول البدايات الأولى لفكرة إنشاء المدن التي حملت أسماء سيدات من الأسرة المقدونية المالكة، ويسلط الضوء على أسباب انتشار هذه الظاهرة ثم اختفائها، كما يتوخى الدقة في تتبع تاريخ نشأة هذه المدن وعلاقتها بأسماء الملكات، محاولاً التركيز على تاريخ ظهورها فيما إذا كان قبل أو بعد موقعة ابسوس عام٣٠١ ق.م، ويعرض الآراء المتضاربة لبعض المؤرخين الكلاسيكيين والكتَّاب حول هذا الموضوع، وأخيراً الجدل حول نسب وتاريخ تأسيس مدينتي تسالونيكي وكاساندريه أنموذجا لهذه المدن.

كان فيليب المقدوني أول من منح اسمه لمدينته – فيليبى Philippi – عام ٣٥٦ ق.م وكانت هذه الخطوة سابقة في عصره: "**حيث لم يسبق لأحد من قبل في العالم اليوناني أن أعطى اسمه لمدينة ارتبط بها من قبل**"[٢]. وقد سار الإسكندر على خطى أبيه

كمؤسس لمدينة الإسكندرية، كما حذا خلفاؤه حذوه من بعده إما لأسباب سياسية أو إيديولوجية، فاقترن اسم المدينة باسم من شيدها. ولعل سرعة انتشار هذه الظاهرة هي السبب الذي جعل المؤرخين ينسون أو يتناسون ما لهذا العمل المبتكر من أثر عظيم، ولهذا لم يحاول أحد منهم أن يتعرف على حجمها وامتداد تأثيرها إلا بعد وفاة الإسكندر الكبير وذلك لأول مرة.

الدعاية السياسية لارتباط سيدات البيت المقدوني بأسماء المدن:

يبدو أن الفشل كان قد صاحَبَ ظاهرة تسمية المدن بأسماء الملكات المقدونيات أو سواها من الأسرة المالكة منذ بدايتها بسبب السرعة الملحوظة التي رافقت انتشارها من جهة، وحجم الظهور الكبير للنساء المقدونيات في هذه الفترة من جهة أخرى، وكان ذلك كفيلاً لطمس كيف كان هذا الظهور في بدايته.

وترصد الدراسة التي بين أيدينا تطور هذه الظاهرة من أجل تحديد أولى المدن التي كانت السبب وراء انتشار هذه الظاهرة، ومتى كان ذلك، ولأي غرض؛ من أجل تحديد أولى المدن التي كانت نموذجاً يحتذى فيما بعد، إضافة إلى توضيح ماهية الظروف التي منحتها فرصة الانتشار الواسع.

وجدير بالذكر أنه من العسير على الباحث أن يتحقق من الهدف الأساسي والمحدد الذي كان وراء تأريخ تأسيس مثل هذه المدن[٣]. ولكن استناداً إلى الأدلة المتوفرة بين أيدينا وعلى الرغم من عدم انتظامها، سنحاول تقديم تفسير وتحليل لظاهرة إطلاق أسماء ملكاتٍ مقدونيات على المدن منذ أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع قبل الميلاد، وما ارتبط بهذه الظاهرة من أحداث.

بعد موقعة ابسوس[٤] Ipsus عام ٣٠١ ق.م. وبعد اكتمال عقد إمبراطورية الإسكندر الكبير تم تشييد عددٍ من المدن على يد خلفاء الإسكندر وسميت بأسماء نساء من الأسرة المقدونية. إذ يعتقد أن سلوقس Seleucus قام في هذه الفترة[٥]، بتشيد مدينة

لاوديكيا Laodicea وأباميا Apamea إضافة إلى مدينة أنطاكية التي نسبة إلى اسم والده. كما شيد لوسيماخوس Lysimachus في نفس الفترة تقريباً مدينة نيكايا Nicaea، وأيضاً بعد ذلك مدينة أرسينوي نحو عام ٢٩٠[٦]ق.م. وشيد بورروسPyrrhus مدينة حملت اسم برنيقى Berenice (والدة زوجته)، فيما بين عامي ٢٩٧ و ق.م.٢٩٤[٧]. كما خلَّد كذلك اسم زوجته أنتيجونى Antigone بتشييد مدينة حملت اسمها أيضاً (ابنة برنيقى)[٨]، وقامت أماستريس Amastris، ابنة أخ داريوس الثالث Darius وزوجة كل من كراتيروس Craterus، وديونيسيوس Dionysius ولوسيماخوس Lysimachus على فترات متعاقبة، بتشييد مدينة حملت اسمها أماستريس Amastris، حوالي عام ٣٠٠ق.م. ومن المرجح أن تكون أماستريس أول سيدة تؤسس مدينة تحمل اسمها. ولا ريب أن هذه النماذج المبكِّرة أصبحت نموذجا يحتذى لمن جاء بعدهم من حكام الفترة الهلنستية[٩]. وعلى سبيل المثال فقد شيد أنطيوخس الثاني مدينة لاوديكيا Laodicea في ليكيا Lycia على شرف زوجته نحو ٢٦١-٢٥٣ ق.م.، كما أعاد تشييد أباميا Apamea في فريجيا Phrygia على شرف والدته أيضاً.

ومن المرجح أن جذور تسمية المدن التي تم تشييدها بالفعل أو التي أعيد تشييدها باسم نساء ملكات يرجع إلى ما قبل ٣٠١ ق.م. ويرتبط باسم تسالونيكى Thessaloniki، ابنة فيليب الثاني، والأخت غير الشقيقة للاسكندر الكبير، وزوجة كاساندر Cassander، الذي حكم مقدونيا من حوالي عام ٣١٧ / ٣١٦ ق.م وحتى نحو عام ٢٩٨/٢٩٧[١٠].

بعد هزيمة ومقتل زوجة أبيها أوليمبياس Olympias تزوجت تسالونيكى من كاساند أوليمبيا[١١]. ووفقاً لما أورده ديودور، فإن كاساندر لم يؤسس علاقات قوية مع الأسرة الأرجيدية[١٢] فقط من خلال الزواج[١٣]، وقت أن أصبح ذا قوة وسلطان، وإنما ارتبط كذلك بأحداث كانت جلية بأن تنال منه كملك أو كونه كذلك، فقد وارى إلى الثرى فيليب أرهيدايوس Philip Arrhidaeus، وعَزَل الإسكندر الرابع Alexander IV وأمه

روكسانا، وبدأ لفوره حملة عسكرية، وشيد مدينة كاساندريا Cassandreia. ومع كل هذه العوامل مجتمعة شرع في حكم مقدونيا(١٤).

ويعود تاريخ شروع كاساندر في تأسيس مدينته إلى ٣١٦ ق.م ويفترض المؤرخون أنها كانت متزامنة مع الأحداث التي عرضها ديودور. بينما يرجح بعضهم أن يكون إنشاء مدينة كاساندريا قد تم في ٣١٥ ق.م(١٥). ودليلهم على ذلك الاجتماع الذي انعقد في مدينة صور Tyre في ذلك الوقت والاتهامات الموجهة إلى كاساندر الذي شيد موكباً للنصر في مدينة جديدة حملت اسمه(١٦) وكان رده في المقابل مذهلاً، فقد شيد إثر ذلك مدينة ثانية سماها باسم زوجته، ويرى البعض أن مؤسسها هو فيليب(١٧) فيما يذهب غيرهم إلى اعتبار تسالونيكي هي من أسس المدينة(١٨)، ورغم وجاهة الإدعاء إلا أن البعض يعتبره غير محتمل الحدوث.

ولا يقدم لنا مؤلف كتاب Epitome أية فريضة حول تاريخ تأسيسها، وإن كان قد ذكر ما يشير إلى أن تأسيس هاتين المدينتين وهما " كاساندريا وتسالونيكي "قد تم في الوقت ذاته.

ويمكن القول أنه لم يكن لتسالونيكي أي وجود على المسرح السياسي أثناء حكم كاساندر، وكل ما عرف عنها هو أنها أنجبت ثلاثة أبناء خلال فترة زواجها بكاساندر.

ولم تكن تسالونيكى (على عكس أخواتها غير الشقيقات) تمتلك من المؤهلات والقدرات ما يخولها أن تقوم بأي عمل يذكر.

غير أنها كانت حاسمة في تصرفاتها، مع استثناء محتمل وهو ما قامت به من الفترة التي سبقت وفاتها مباشرة. ولم يكن كاساندر يميل إلى إعطاء زوجته أي دورٍ بارزٍ حتى في الحياة العامة، وكان الأمر بالنسبة إليه يتمثل في الزواج بامرأة من الأسرة الأرجيدية وأن يمنح هذا الزواج القوة الحقيقية لتلك الأسرة (ولأن ما قامت به أوليمبياس وغيرها من نساء تلك الأسرة كان نذير شؤم له). وقد يبدو مقبولاً للوهلة

الأولى أن تكون تسالونيكى قد شيدت المدينة التي حملت اسمها حينما غدت أرملة من داخل البيت الملكي وربما وصية على العرش (وبعبارة أخرى، حينما شابه موقفها الآن موقف أماستريس Amastris سابقاً). لكن المناخ السياسي في مقدونيا بعد وفاة كاساندر يجعل مثل هذا الافتراض غير مقبول. فبعد وفاة كاساندر اعتلى العرش فيليب، وهو ابنه الأكبر من تسالونيكى؛ ولم تكن أمه وصية عليه آنذاك، ومن المحتمل أن وفاة هذا الابن قد منحت تسالونيكي فرصة الوصاية على العرش، لكن مدة الوصاية كانت مقتضبة، إذ ما لبثت أن لقيت حتفها على يد أحد أولادها في ظل ظروف يكتنفها الغموض وتَفتقر إلى المعلومات بحيث يصعب على الباحث أن يتصور أن تأسيس مدينة قد يتم في مثل هذا الوقت [١٩].

وفي الحقيقة: يؤكد استرابون وغيره من الباحثين[٢٠] مثل ديونيسيوس الهاليكارنيسي أن كاساندر نفسه هو الذي شيد المدينة وسماها باسم زوجته ، ويميل كثير من الباحثين إلى قبول مثل هذا الرأي مما يعني بالضرورة أن مدينة تسالونيكي قد تأسست ما بين ٣١٧-٣١٦ق.م.

وعلى أية حال: حتى لو أن تشييد المدينة قد تم في نهاية حكمه، فهي لا تزال تعتبر من أولى المدن التي شُيدت باسم سيدات البيت المقدوني، وتجمع الغالبية العظمى من الباحثين في تاريخ تأسيس مدينة تسالونيكي على رأيٍ موحدٍ يثبت أن تأسيس تسالونيكي قد تم بعد كاساندريا مباشرة[٢١].

ويقترح المؤلف ميكروياناكيس Mikrogiannakes فيما بعد تاريخاً آخر، إذ يشير إلى الاحتجاج الذي قدمه كاساندر في صور Tyre ويعتبره دليلاً يثبت أن تسالونيكى لا يمكن أن تكون قد شيدت زمن هذا الاحتجاج الذي حدث في صور عام ٣١٥. كما يؤكد أن أنتيجونوس Antigonus لم تشارك في تدميرها[٢٢]. متجاهلاً في رأيه هذا مطلب أنتيجونوس بتدمير المدينتين الأخيرتين. ويدعي أنتيجونوس[٢٣] أنه اعترض

على تدمير مدينة طيبة Thebes لأن الأوليثيين أعداء مقدونيا هم الذين أعادوا إعمارها، أما تسالونيكى التي بنيت مكان مدينة ثيمى Therme القديمة(٢٤)، فمن شأنها ألا تلقى مثل هذا الاعتراض. ويقر المؤرخ ديودوروس كذلك(٢٥) أن أنتيجونوس اتهم كاساندر بأنه لا يكف عن المطالبة بعرش مقدونيا. بيد أن تشييد مدينة وتسميتها باسم أحد أفراد الأسرة الملكية و هي زوجة مؤسسها في الوقت نفسه، كان أمراً لم يسبق له مثيل قبل ٣١٥ ق.م، كما أنه يمثل تأكيداً للسيادة على العرش، ومن المحتمل أن رغبة أنتيجونوس في تدمير تسالونيكى تعود إلى عام ٣١٥ ق.م، لكن كان من الصعوبة بمكان أن يجد ذريعة للقيام بذلك. لذا لا يعتبر غياب تسالونيكى عن قائمة أنتيجونوس دليلاً واضحاً على أن المدينة لم تكن قد تأسست في ذلك الحين، كما أن ذلك لا يعني بالضرورة أن أنتيجونوس لم يكن يعلم عن أمرها.

ولكن على الرغم من ضعف الأدلة التي تدعم صحة فرضية هذا الرأي، فقد تم قبول ما ذهب إليه ميكروياناكيس من أن تسالونيكى لم تكن قد شيدت قبل بعد عام ٣١٥ أو أن أنتيجونوس لم يكن يعلم شيئاً عنها، وليس هناك أي مبرر مقبول لتأكيد ميكروياناكيس على أن تسالونيكى قد شُيدت قرب نهاية حكم كاساندر لمقدونيا، وبعد عام ٣٠٥ ق.م بوقت قصير، وربما كان ميكروياناكيس يرجح هذا التاريخ لاعتقاده أن تلك الفترة شهدت بداية ظهور كاساندر، وكان كاساندر أول من حمل لقب ملك basileus وقد تزامن ذلك مع تأسيس مدينة تسالونيكى أيضاً.

ما من معلومات أكيدة تحدد لنا على وجه الدقة وبشكل لا خلاف عليه متى بدأ كاساندر في حمل لقب (ملك)(٢٦)، كما أنه حسب اعتقادنا ما من علاقة وثيقة تربط بين استخدام اللقب الملكي وبين تأسيس تسالونيكي Thessaloniki وتسميتها اسماً غير معروف سابقاً. وعلى النقيض مما سماه ميكروياناكيس Mikrogiannakes لم يكن كاساندر بحاجةٍ إلى تأكيد ارتباطه بالأسرة الأرجيدية من خلال زوجته، أو حتى لدعم مركزه كحاكم بعد ٣٠٥ ق.م أكثر من ذي قبل، ففي بداية حكم كاساندر لمقدونيا Macedonia

كان اثنان من ذكور الأسرة الأرجيدية لا يزالان على قيد الحياة. لذا لا يمكن لأحد أن يدّعي لنفسه عرشاً مقدونياً لا يزال قائماً، وحتى بعد ما قتل كاساندر، لم يتوضح موقفه في ذلك الحين ثم بدأ يتوضح لاحقاً، سيما بعد ٣١١ ق.م[٢٧]، ولما كان تأسيس المدن التي تحمل أسماء إناث من الأسرة الحاكمة لم يكن قد أصبح مبدأً ملكياً مستقراً بعد على نحوٍ مميّز، إذاً وبالتالي لا أساس لربط هذا المبدأ مع "فرضية ظهور اللقب الملكي" من الصحة.

ومن المرجح أن يكون كاساندر قد شيّد تسالونيكي بعد أن بسط سيادته الكاملة على مقدونيا بين ٣١٦-٣١١ ق.م ولا ريب في أن سلسلة الأعمال شبه الملكية التي وطد بها كساندر حكمه بعد ما تولى عرش مقدونيا كانت بمثابة السور الذي يحمي هذه المدينة الجديدة، وقد أشار ادامسW.L. Adams إلى صعوبة مهمة كساندر بعد ٣١٦ ق.م إذ قارن بين موقفه آنذاك ومواقف الحكام من بعده فقال: (كان كساندر يحاول أن يبسط سلطته الكاملة على كل أرجاء مقدونيا وكان عليه على العكس من أقرانه "المشي على حبل مشدود بين مطرقة ممارسة السلطات الملكية والتصرف كحاكم لها"[٢٨]، وبين سندان مواجهة تقاليد الحكم التي كانت راسخة ومتمركزة في محيط أسرة لم يكن منتميا إليها بحكم مولده بل كان عدواً لهم في الماضي وهذا ما فرض عليه أن يكون حذرا وارتجاليا في تصرفاته).

ولا ريب أن كساندر قد أرسى مبدأً جديداً وكان أول القادة الذين شيدوا مدناً حملت أسماءهم دون سواهم ،عندما أطلق اسم زوجته على المدينة التي شيدها للتّو، وقد شدد على أنه قام بعملٍ لم يسبق له مثيل، ولم يكرر ما أقدم عليه أسلافه من الأسرة الأرجيدية، إضافة إلى أن هذا العمل المبتكر عمّق أواصر العلاقة والارتباط بالأسرة الأرجيدية وبفيليب والد زوجته على وجه الخصوص وخلّد النصر لوالدها وللمقدونيين حيث كان في الحقيقة قادراً على تخليد اسم الرجل الذي يعتبره المقدونيون أعظم ملوكهم في سجل التاريخ[٢٩]، وكان اختياره لاسم مدينته الجديدة عملاً سياسياً ماهراً

بامتياز أكثر من عظمة فيليب نفسه، وذلك من خلال تسمية المدينة باسم زوجته ويمتاز موقع مدينة تسالونيكي بجملة من المزايا الجغرافية، وأهمها كونها تعتبر منفذاً للموارد الطبيعية في المناطق المقدونية النائية. كما يفترض أن يعود تاريخ تأسيسها إلى أوائل عهد حكم كاساندر.

لذلك يبدو محتملاً أن أول مدينة سميت باسم سيدة كان بعد عام ٣١٦ ق.م مباشرة ومن المرجح أن هذا العرف غدا شائعاً خلال عقد من الزمان أو بحلول عام ٣٠١ق.م.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ما هي أهمية الشروع في هذه العادة؟ وللإجابة على هذا السؤال، ينبغى أن نسأل أولاً عن أهمية أسماء المدن في العالم اليوناني – الروماني بشكل عام؟

إن تسمية مدينة أو مستعمرة عسكرية باسم شخص أو شيء معين بذاته لا يعني بالضرورة أن لهذا الشخص أو الشيء أهمية كبيرة. فقد تم تسمية بعض المدن الإغريقية بأسماء مهمة وعظيمة أخرى (آلهة – ملامح جغرافية...إلى غير ذلك). وقد أطلق الإسكندر الكبير ألقاباً على بعض المدن الهندية فعلى سبيل المثال لقّب إحدى المدن الهندية لقباً مماثلاً لاسم فرسه المفضل (بوكيفالوس) Bucephalus وأخرى على اسم كلبه (بيريتاس) Peritas.[٣٠]

وعلى أية حال ف . ان ما يعطي للأمر أهميته ليس مسمّى الملوك العظام كما أنه ليس مسمّى الملكات من النساء، فالأمر أكثر من مجرد تخليد أو تكريم أسماء النساء بإطلاقها على المدن، لأن أهمية الموضوع في الحقيقة تنبع من سياق الأحداث في تلك الحقبة التاريخية، ومن العلاقة ما بين تأسيس المدينة وتسميتها وبين التغييرات الطارئة على طبيعة الحكم المقدوني في فترة أواخر القران الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد.

ومن المحتمل أن يكون فيليب، ومدينته فيليبى في عام ٣٥٦، أول حاكم يطلق اسماً على منشأة باسمه؛ ثم حملت منشآت أخرى عديدة اسمه فيما بعد[٣١]. رغم أننا لا نختلف مع تارن Tarn[٣٢] الذي يرى أن ذلك كان عملاً ناتجاً عن ثورة لابن فيليب وهو الإسكندر وأنه سمى المدينة بنفسه في الوقت الذي كان فيه والده لا يزال على قيد الحياة إلا أن هذه الرؤية التي عفا عليها الزمن تستند على قراءة الموقف الهللنستى في مراحله المبكرة منه، ويميل إلى تبنيها جريفيث Griffith [٣٣]، ومن الصواب في رأينا أن نعتبر تأسيس مدينة الكساندروبوليس Alexandropolis في عام ٣٤٠ق.م دليلاً على ذلك الرأي، ولا شك أن موقف الإسكندر في معركة خايرونيا Chaeroneia دفع فيليب إلى تنصيب الإسكندر وريثاً شرعياً له، و احتكر مسمى المدن المنشأة، وسمح لابنه أن يسير على دربه تقديراً لمواقفه. ولكن على أية حال كان فيليب صاحب سياسة دعائية كبيرة، وكان يميل إلى استخدام أسماء أشياء لخدمة دعاية سياسية خاصة به.

وقد تناثرت في الشرق مدنٌ كثيرةٌ تحمل اسم الإسكندر أسس الكثير منها بنفسه خلال حكمه. أما بعد وفاته فقد أصبح تأسيس المدن وتسميتها بأسماء مؤسسيها عملاً مميزاً لأصحابه يخدم أغراضاً سياسية إضافة إلى التأكيد على الصورة الملكية العامة، لذلك انتهج خلفاؤه نفس المنهج، وراحوا يستخدمون الأرقام الملكية، وكان مسمى المدن المنشأة مثل كاساندريه Cassandreia يشكل البداية المميزة لأعمال الملوك القائمين عليها إضافة إلى كونه يمثل الخطوة الأولى نحو شرعية الحكم بدون الحاجة إلى أي تأكيد رسمي للسيادة .

من الواضح أن نموذج تأسيس الملك للمدن وتسميتها باسم مؤسسها أو من يلوذ به من الأسرة الحاكمة، والذي ابتدعه فيليب وابنه الإسكندر من بعده، فقد أصبح تقليداً في زمن خلفائهما وجزءاً واحداً يضاف إلى مجموعة كبيرة من التقاليد التي اتبعوها في طريقهم نحو بسط سيادتهم وترسيخ مطالبهم وتأكيد سلطتهم وأهمها: العبادة الملكية

للمتوفى أو للأحياء والأكاليل، وقد شكلت الألقاب التي تخلع على الرّجال والنساء جزءاً لا يتجزأ من هذه المجموعة .

أما في العالم الهلنستي فلم تكن مدينة إتروريا Etruria أو مدينة روما Rome عملاً دينياً رغم بعض الاحتفالات الدينيّة التي كانتا تشتركان بها، بل كانت عملاً سياسياً يهدف إلى تأكيد سلطة الملك والترويج لسيادته والإعلان عن أعماله واستناداً إلى هذا القول فقد كان مؤسس المدينة أحد المساهمين في توحيد الأجزاء السياسية في الدولة، مما أكسبه مزيداً من القوة سواءً أكانت المدينة جديدة أو مدينة أعيد تشييدها باسم جديد[٣٤].

ونخلص إلى: أن تسمية المدن بأسماء الملكات (وبأسماء آخرين من الأسرة الملكية مهما كان قليلاً فقد أصبح مألوفاً بعد موقعة ابسوس Ipsus في عام ٣٠١ مباشرة. ويعتقد كثيرون أن إطلاق أسماء أفراد الأسرة الملكية على المدن إنما يتضمن بالضرورة أنها تعتبر مدناً poleis حقيقية لا مستعمرات عسكرية؛ وأن تسميتها باسم السلالة الملكية يَفترض وجود علاقة بين المدينة ومشيدها، كما يستوجب مشاركة الملك في الاحتفال بها بشكل أو بأخر.

حتى لنجد أن المنشآت التي حملت أسماء أشخاص بذاتها تميل إلى توحيد مستقبل المدينة ودعوة الحاكم وأسرته إلى الخلود من خلال بقاء المدينة على قيد الحياة[٣٥].

ومثلما كانت تسمية المدينة باسم مشيدها تُعدُّ تأكيداً على القوة والسلطان، فإن تسمية المدينة باسم أحد أفراد الأسرة الملكية تُعدُّ تأكيداً على ذات الشيء رغم وجود بعض من الاختلاف فالحكام الذين يحصلون على السيادة واللقب الملكي على أساس إنجازاتهم الشخصية وقد يكون نصراً عسكرياً حققوه يتم بعدها التحرك بسرعة نحو التأكيد على هذا الحق بكونه ليس إنجازاً فردياً وإنما أسرياً ليضفي على إنجازاتهم الحكم الشرعي. وهذا التطور معروف من خلال عبادة الملك البطلمي بطلميوس الأول

"سوتير" وبرنيقي Berenice وفيلوتيرا Philotera[٣٦]. فقد كانت المدن تسمى بأسماء الأسرة الحاكمة وهذا جزء من الاتجاه الذي يصب في نفس الهدف العام: ألا وهو التأكيد على شرعية الحكم الأسري.

ولو أن تسالونيكى Thessaloniki في العقد قبل الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد كانت المدينة الأولى التي تسمى باسم سيدة **ملكية**، فربما Amastris حوالي ٣٠٠ كانت هي المدينة الثانية، وأصبح الأمر شائعاً فيما بعد، وصار ينظر إليه بعد ذلك على أنه تطورٌ سياسيٌ. لقد ابتدع كاساندر هذه العادة حتى تساعده في حل المشاكل الخاصة والتي قد تواجهه حين لم يكن حاكماً لمقدونيا Macedonia؛ وفعلاً مكنه ذلك أن يوطد صلته بابنة فيليب. بينما وجدت أماستريس Amastris أنه من المفيد لها أن تمارس سلطتها الملكية الخاصة وشرعيتها في الحكم عندما استقلت عن حكم ابنها؛ وقد وجدت في تأسيس مدينة باسمها ما يحقق أهدافها التي كانت هي تسعى إلى تحقيقها[٣٧]، وبعد ابسوس قلد الحكام الآخرون هذا المسلك للتأكيد على شرعية حكمهم. ومن اللافت للنظر أن المثال الأول هو الذي ارتبط بابنة فيليب. وقد لاحظ كوهين Cohen أنه لم يُبد أحد الذين خلفوهم اهتماماً بالزواج من الأسر الأخرى حتى بعد ابسوس، ويفترض أن هزيمة أنتيجونوس وهو أكثر من حمل الألقاب الملكية في عامي ٣٠٦ و٣٠٥ هي ما كشفت الحقيقة في الاعتراف بسيادة كل منهما[٣٨].

ليس الظهور المفاجئ لمسمى الملكات النساء مجرد صدفة وإنما هو في الواقع جزءٌ من تلك الظاهرة الجديدة: وهي ظاهرة تأسيس السلالة الشرعية للحكم.

والسؤال الآن: هل منح المدن أسماءَ الملكات من النساء قد يؤثر عليهن بأي شكل من الأشكال؟

الجواب: إن أسماء المدن لم تمنحهن أية قوة وسلطة حقيقية إلا إذا قمن بتشييدها بأنفسهن. ولنا في تسالونيكى المثال الأوضح في هذا الصدد. فقد ظلت ضعيفة لا

تساوي شيئاً. ولا تحظى مثل هؤلاء بالعبادة الملكية لكونهن تأسست المدن على أسمائهن فقط، وربما أقيمت لهن التماثيل وغيرها من المكرسات العامة وعلاقتها بهذه المدن[٣٩]. ومن جانب آخر ربما تتضمن تسمية المدينة باسم سيدة ما يدل على قوتها وأهميتها، أحياناً كما في حالة الإجلال الذي أظهره بورروس Pyrrhus لوالدة زوجته التي مدت له يد العون لاستعادة مملكته. ويمثل ظهور مسمى الملكات النساء في ذاته تطوراً أخر لظهور لقب النساء الملكات في البيت المقدوني في عام ٣٠٦ أو بعد ذلك بقليل[٤٠]. ولا ينقل اسم المرأة الملكة أو تسمية مدينة باسمها إليها رغم أنه أحياناً يتضمن أن المرأة منها، لكن كليهما يمثل أمثلة على نشأة ملكات النساء في أواخر القرن الرابع وقيامهن بالدور العام أكثر من الدور الخاص الذي ظهر قبل فيليب.

ومن المحتمل أن يكون تزامن الغياب الطويل للإسكندر عن مقدونيا، وندرة الرجال المتواجدين في المملكة الأرجيدية، وخصوصية نساء المملكة الأرجيدية، والحاجة إلى خلفاء لتولي السلطة الشرعية هو ما جعل الملكات من النساء يظهرن على الساحة أكثر من ذي قبل، ورغم أنها كانت المرة الأولى خلال نهاية الفترة الانتقالية وبداية حكم الأسر إلا أنهن لم يحرزن قوة وسلطة إضافية. من جهة أخرى فإن نشأة نساء ملكات العصر الهللينستي قد خلد بقاء تسالونيكى، وهو ما أعطى أساساً لوجود قاعدة يمكن أن توفر قوة حقيقية وليس فقط مجرد ظهور لهن. وبعبارة أخرى إن الذي سمّى هذه المدن كثيراً ما كان رجلاً وقلما كان امرأة وبذلك فقد خلّد الرجل أسماء تلك النساء فجعلوا فجعل شخصيات نسائية هامة.

الهوامش

(١) ارتأى الباحث نظراً لصغر حجم الموضوع وكونه يدور حول فكرة واحدة هـ ي تسمية المدن بأسماء سيدات ملكات أن يستغني عن وضع مخطط تفصيلي للبحث

(2) Griffith, G.T., *A History of Macedonia II*, Oxford 1979, p. 360.

لقد كان فيليب في الحقيقة أول من بادر إلى تسمية المدن بأسماء أشخاص، كما أنه كان أحد الذين وصلوا إلى مرتبة التأليه . لمزيد من المعلومات انظر :

A.H.M. Jones, *The Greek City from Alexander to Justinian* ,Oxford 1940, Fredricksmeyer, E.A.,"Divine Honors for Philip II," TAPA 109 (1979)pp.39-61.

وسواء أكان هناك علاقة بين التكريم بالتأليه ومسمى المدن المنشأة أم لم يكن ، فإن لكليهما صلة وثيقة بتغير مفهوم السلطة، ولاسيما السلطة الملكية، في أواخر القرن الرابع – ومن البديهي أن مثل هذه الأمور لم تعد تقبل الجدل الآن. لمزيد من المعلومات انظر:

C. Habicht, Gottmenschentum und griechische Städte2 Munich 1970, p. 16.

(٣) انظر على سبيل المثال المناقشات والملاحظات التي أبداها هاردلي في دراسته التالية:

R.A. Hadley, "The Foundation Date of Seleucia-On-The-Tigris", *Historia* 27 (1978) pp.228-230.

لقد كان من المألوف آنذاك أن يعزى تأسيس المدن إلى شخص آخر غير المؤسس الحقيقي، أو أن يكون المؤسس غير معروف. انظر المناقشات حول ذلك في:

G.M. Cohen, *The Seleucid Colonies, Historia* Einzelschriften 30, Wiesbaden 1978,p. 11.

(٤) **معركة إبسوس:** من أشهر وأهم المعارك التي خاضها سلوقس مع حلفائه _كاساندروس، ليسيماخوس و بطليموس ضد خصمه أنتيخونوس وابنه ديمتريوس، وكان النصر حليف سلوقس الذي غنم حصة الأسد من هذا التحالف

(٥) وعن أباميا Apamea ، والتي سميت باسم زوجة سلوقس، انظر:

J.-P. Rey-Coquais, "Apamea" in *The Princeton Encyclopaedia of Classical Sites*, 1976, pp. 66-67.

وقد كانت مدينة أباميا هي إحدى المدن التي أعيد تأسيسها. وعن لاوديكيا ،انظر:

M. Labrousse, "Laodicea Ad Mare," in *Princeton Encyclopaedia of Classical Sites* ,p 482 .

وقد سميت لاوديكيا باسم والدة سلوقس.

(٦) وعن نيكايا Nicaea: فقد شيدت في الأساس باسم أنتيجونيا Antigoneia (Strab. 12.565) وأعاد ليسيماخوس Lysimachus تشييدها لكن تحت اسم نيكايا Nicaea، على اسم زوجته، ابنة أنتيباتير. انظر في ذلك:

N. Bonacasa, "Nicaea", in *Princeton Encyclopedia of Classical Sites*,p 622-623.

كما أعاد ليسيماخوس Lysimachus تسمية إفيسوس Ephesus باسم أرسينويا Arsinoea، على اسم زوجته الأخرى، **أرسينوي ابنة بطلميوس الأول سوتير** (Strab. 14.1.21). انظر:

E.R. Bevan, House of Seleucus (London 1902),p 119.

وقد علم بوروس Pyrrhus ما لبرنيقي Berenice من أهمية في البلاط البطلمي لذا فقد منحها عظيم الاهتمام. وكسب منها عطاءً عظيماً بزواجه من ابنتها أنتيجوني ، وكان أرباحه من هذا الزواج سلاحاً وأموالاً وعتاداً كبيراً كانت حاجته إليها ماسة حينما استعاد إبيروس Epirus انظر:

N.G.L. Hammond, *Epirus* (Oxford 1967) 578-579, n. 2,

ويقترح أنه لم يطلق على المدينة هذا الاسم تبجيلاً وتشريفاً لوالدة زوجته فحسب وإنما كذلك احتفالاً بالقوات المصرية التي كانت قد قدمت له معونة كبيرة نحو ٢٩٧ ق.م.. انظر كذلك:

P. Garoufalias, *Pyrrhus, King of Epirus* (London 1979) 244, n. 9.

لقد أطلق بوروس Pyrrhus على المدينة اسمها من اسم برنيقي Berenice وسمى ابنه على اسم بطليموس. وأغلب الظن أن المدينة جاء تشييدها في بداية حكمه، وبالتأكيد قبل وفاة زوجته الأولى حوالي ٢٩٤ ق.م.

(٨) وانظر النقاش حول هذا الموضوع عند:

Hammond, *Epirus*,op.cit,p 278;Garoufalias,op.cit,p245,n.10;N.G.L. Hammond, "Antigonea in Epirus," *JRS* 61 (1971) 113-115.

(٩) انظر في ذلك:

S.M. Burstein, Outpost of Hellenism: The Emergence of Heraclea on the Black Sea (Berkeley Classical Studies 14, Berkeley 1974) 82.

G.E. Bean, "Laodicea ad Lycum," *Princeton Encyclopaedia of Classical Sites,p* 481-482).

(10) Strab.17. 21, 24.

وعن حياة تسالونيكي Thessalonice انظر:

H. Berve, *Das Alexanderreich* II (Munich 1926) 179-180

وعن كاساندر Cassander انظر:

W.L. Adams, "The Dynamics of Internal Macedonian Politics in the Time of Cassander," in *Archaia Makedonia* III (Thessaloniki 1977),pp 17-30.

وعلى الرغم من أن ديودوروس (Diodorus1.33.1) يدعي أن مروي Meroe في مصر قد سميت بذلك من قبل أم قمبيز Cambyses، فإن سترابون (Strabo 17.70 c) يرجع الاسم إلى أخت قمبيز أو زوجته، إلا أن الأمر يبقى محل جدل بينهما .

(١١) Diod. 19.52.1.

(١٢) وهي الأسرة الإغريقية الحاكمة التي حكمت مقدونيا من نحو ٧٠٠ وحتى ٣١٠ق.م.

(13) Duane A. March, "The Kings of Makedon: 399-369 BC". *Historia* Vol. 44, No. 3 (1995), pp. 257–282.

(14) Diod. 19.52.2.

(15)Diod. 19.52.2.

(16) Diod. 19.61.2-3.

وانظر في ذلك:

P. Briant, *Antigone le Borgne* (Paris 1973)pp 300-302

وذلك فيما يخص النقاش الدائر حول أهداف أنتيجونوس السياسية الوقوف ضد كاساندر. وعلى النقيض فإن بريانت Briant يقترح أن كاساندر Cassander كان وبشكل أساسي مسؤولاً عن محاولة تأسيس أسرة ملكية .

(١٧) انظر:

G. Bauer, *Die Heidelberger Epitome* (Diss. Leipzig 1914),p 69

والذي يقترح أن مثل هذا الأمر كان على نطاق محلي لا أكثر.

(18) *Ibid,69*

(19) Diod. 21.7.1.

(20) Vickers, "Hellenistic Thessaloniki," *JHS* 92 (1972) ; E. Will, *Histoire Politique du Monde Hellenistique* I (Nancy 1966), p46.

(21) Will op.cit,p46.

(22) E.I. Mikrogiannakes, "To Politikon Ergon Tou Kassandrou," *Archaia Makedonia* II (Thessaloniki 1973) 228.

(23) Diodorus. 19.61.2.

(24) M. Vickers, "Thessaloniki," in *Princeton Encyclopedia of Classical Sites* 912; Bakalakis, *passim*; Vacalapoulous 5.

(25)(Diodorus 19.61.2.

(26) (Diodorus 20.53.2)

يشير ديودور أن كاساندر Cassander اتخذ لقباً مماثلاً لألقاب غيره من الحكام إلا أن بلوتارخ Plutarch (Demetr. 18.1-3) استثناه من هذه القائمة، ويذكر بلوتارخ تحديداً أنه وعلى الرغم من أن خلفاءه الآخرين خلعوا عليه هذا اللقب، إلا أنه لم يستخدمه لنفسه. ويقترح إيرنجتون Errington أن كاساندر استخدم هذا اللقب فقط داخل مقدونيا Macedonia قبل عام ٣٠١. انظر أيضاً:

R.M. Errington, "Macedonian 'Royal Style' and its Historical Significance," *JHS* 94 (1974) 23-25

(27) R.H. Simpson, "The Historical Circumstances of The Peace of 311," *JHS* 74 (1954) 28.

(28) Adams,op,cit,p 24.

(٢٩) وفيما يتعلق بـ . فيليب ، خاصة مقارنة الإسكندر انظر:

A.B. Bosworth, "Alexander the Great and the Decline of Macedonia," *JHS* 106 (1986) 11-12

وكذلك:

M. Errington, "Alexander in the Hellenistic World'Antiquité Classique 22, [Geneva 1975])p 145-146,p 152.

(30) Strab. 15.1.29; Diod. 17.95.

(31) Griffith, *op,cit,* II,p 360-361.

(32) W. Tarn, *Alexander the Great* II (Oxford 1948) 249.

(33) Griffith, op. cit .II, pp 558.

(34)Cohen, *Seleucid Colonies ,op cit ,p* 84.

(35) M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* I (Oxford 1941) 479

(36). W.L. Adams op.cit,p24.

(37) Burstein, *Heracleaop.cit.* 82f.

(38) G.M. Cohen, "The Diadochoi and the New Monarchies," *Athenaeum* 52 (1974) 177-179.

(39) Vickers, "Hellenistic Thessaloniki," 166, n. 71

حيث أشار إلى أن كل من بطلميوس وبرنيقي قد شيدت لهما التماثيل تبجيلاً وتعظيماً لهما.

(40) G.M. Cohen, op.cit, p178.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر :

- Strabo, the geography,vol,12,14.and, vol 17 ,vol 19 .London,1938-
- Diodorous, bibliotheca historica,vol19,vol 20.

المراجع

1. L. Adams; "The Dynamics of Internal Macedonian Politics in the Time of Cassander," in *Archaia Makedonia* III (Thessaloniki 1977).
2. G. Bauer, *Die Heidelberger Epitome* (Diss. Leipzig 1914) 69
3. G.E. Bean, "Laodicea ad Lycum," *Princeton Encyclopaedia of Classical Sites* 481-482).
4. H. Berve, *Das Alexanderreich* II (Munich 1926)
5. E.R. Bevan, House of Seleucus (London 1902)
6. N. Bonacasa, "Nicaea", in *Princeton Encyclopedia of Classical Sites* .
7. A.B. Bosworth, "Alexander the Great and the Decline of Macedonia," *JHS* 106 (1986)
8. . Briant, *Antigone le Borgne* (Paris 1973)
9. S.M. Burstein, "Arsinoe II Philadelphos: A Revisionist View," in *Philip II Alexander the Great and the Macedonian Heritage*, edd.
10. Duane A. March, "The Kings of Makedon: 399-369 BC". *Historia* Vol. 44, No. 3 (1995),
11. M. Errington, "Alexander in the Hellenistic World," *Alexandre le Grande: Image et Réalité* (Foundations Hardt Entretiens Sur l'Antiquité Classique 22, [Geneva 1975])
12. Fredricksmeyer, E.A. , "Divine Honors for Philip II," TAPA 109 (1979.
13. P. Garoufalias, *Pyrrhus, King of Epirus* (London 1979) 244.

14. G.M. Cohen, *The Seleucid Colonies*, *Historia* Einzelschriften 30, Wiesbaden 1978

15. G.M. Cohen, "The Diadochoi and the New Monarchies," *Athenaeum* 52 (1974)

16. Griffith, G.T., *A History of Macedonia II*, Oxford 1979,

17. C. Habicht, Gottmenschentum und griechische Städte2 Munich 1970.

18. R.A. Hadley, "The Foundation Date of Seleucia-On-The-Tigris",*Historia* 27 (1978)

19. J.R. Hamilton, *Plutarch, Alexander: A Commentary* (Oxford 1969) .

20. N.G.L. Hammond, "Antigonea in Epirus," *JRS* 61 (1971) 113-115.

21. N.G.L. Hammond, *Epirus* (Oxford 1967).

22. A.H.M. Jones, *The Greek City from Alexander to Justinian* ,Oxford 1940,

23. M. Labrousse, "Laodicea Ad Mare," in *Princeton Encyclopaedia of Classical Sites*

24. E.I. Mikrogiannakes, "To Politikon Ergon Tou Kassandrou," *Archaia Makedonia* II (Thessaloniki 1973)

25. J.-P. Rey-Coquais, "Apamea" in *The Princeton Encyclopaedia of Classical Sites*, 1976

26. M. Rostovtzeff, *The Social and Economic History of the Hellenistic World* I (Oxford 1941).

27. *W. Tarn, Alexander the Great II (Oxford 1948)*

28. R.H. Simpson, "The Historical Circumstances of The Peace of 311," *JHS* 74 (1954)

29. M. Vickers, "Thessaloniki," in *Princeton Encyclopedia of Classical Sites* 912; Bakalakis, *passim*; Vacalapoulous 5.

30. E. Will, *Histoire Politique du Monde Hellenistique* I (Nancy 1966)

العلاقات التجارية بين الدولة السلوقية والهند وبلاد العرب

د. عبد المجيد حمدان

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة دمشق

المقدمة:

توفر التجارة الخارجية والداخلية للدولة المواد الأساسية التي تفتقر إليها، وبنفس الوقت تسمح للدولة بتصدير الفائض من منتجاتها. وبسبب الموقع المتميز الذي كانت تحتله الدولة السلوقية في قلب العالم القديم، لعبت التجارة دوراً مهماً في اقتصاديات هذه الدولة.

لقد كانت الدولة السلوقية مؤهلة بحكم موقعها، لأن تلعب دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، وبالفعل فقد حرص الملوك السلوقيون على تنشيط هذا الدور، من خلال تعيينهم أو إرسالهم سفيراً دائماً يقيم في الهند، منذ عهد الملك الهندي (تشاندراجوبتا).

لقد وضع السلوقيون نصب أعينهم هدفين رئيسيين:

الأول: هو اجتذاب التجارة الوافدة من الهند، ووسط آسيا وبلاد العرب، لكي تمر بالمناطق الخاضعة للدولة السلوقية بدلاً من مرورها بمصر.

الهدف الثاني: إيجاد أسواق في الغرب والشمال، تكون قادرة على استيعاب البضائع القادمة من الشرق، بالإضافة إلى منتجات الدولة السلوقية. وبالفعل فقد نجحت الدولة السلوقية في توطيد علاقتها مع جزيرة رودس في بحر إيجة، التي تمكنت من التحرر من هيمنة البطالمة على تجارتها، حيث أصبحت تستقبل السفن السلوقية كما تستقبل السفن البطلمية.

- أسباب توسع الدولة السلوقية خارج حدودها:

ولأجل التجارة اهتم السلوقيون اهتماماً كبيراً بالطرق التجارية حيث قاموا بإنشاء المدن والمحطات التجارية، لكي يتمكنوا من إحكام سيطرتهم على هذه الطرق التجارية. ومن أشهر هذه الطرق الطريق الذي يربط ما بين الهند ومدينة سلوقية دجلة، التي لعبت دوراً تجارياً مهماً في استقبال البضائع الوافدة من الهند، وربما كان من بين أهم الأهداف التي سعى إليها الملك أنطيوخس الثالث من وراء حملته الآسيوية هو فرض سيطرة الدولة السلوقية على طريق التجارة مع الهند.

ولما كان عرب مدينة (الجرهاء) في شرق الجزيرة العربية، قد نجحوا في إحكام سيطرتهم على تجارة الهند القادمة عبر الخليج العربي، والذين كانت لهم علاقات تجارية مع جنوب الجزيرة العربية، والهند، وبابل، وبلاط الأنباط، فقد حرص الملوك السلوقيون على إخضاع مدينة (جرهاء) لنفوذهم، من خلال وجود أسطول دائم في الخليج العربي، مما يمكنهم من المشاركة في التجارة الشرقية التي تصب في (جرهاء).

. يعتبر العامل الاقتصادي والسياسي من ضمن الأسباب الأساسية التي أدت إلى توسّع الدولة السلوقية خارج حدودها، كما أن السياسة الاقتصادية للدولة السلوقية هي

جزء من سياستهم العسكرية والاجتماعية من أجل الحفاظ عل ى الأج زاء المترامي ة الأطراف لهذه الإمبراطورية(١).

إن السياسة الاقتصادية والتجارية هي التي حددت سياسات الملوك السلوقيين في منطقة الخليج العربي، حيث رغبوا في التحكم بالطرق التجارية، كما حافظوا على وج ودهم النشط في هذه المنطقة منذ زمن سلوقس الأول، من أجل أن تستمر تجارتهم مع الهند، ومع جنوب شبه الجزيرة العربية (٢)، لذلك اهتم السلوقيون بالطرق البحرية التي تصل إلى الهند وإلى شبه الجزيرة العربية.

كما أنشؤوا المحطات التجارية في لاريسا /وخ الكيس/ واريثوس ا/ عل ى الجان ب العربي(٣).

كما اهتم سلوقس الأول بإقليم ما بين النهرين من خلال استغلال موارده، وكذلك موقعه الاستراتيجي في قلب الإمبراطورية السلوقية، لذلك أنشأ سلوقس الأول مدينة (سل لوقية دجلة) وجعلها عاصمة لميزوبوتاميا، لأنها تقع عند تقاطع الطرق البرية الهامة الت ي تتجه شرقاً إلى الساترابيات العليا، وغرباً إلى شرق البحر المتوسط، ومنه ا ت وزِّع البضائع المستوردة إلى بقية المناطق(٤).

لقد بذل أنطيوخس الأول سوتر بعد موت والده (٢٨٠ ق.م) (٥)، جهوداً جبارة من أجل هلينة أكبر قدر ممكن من أقاليم ميديا، وبارثيا وأريانا، وقوّى كل المدن الرئيسية التي أنشأها الإسكندر على طول الطرق التجارية الواصلة إلى الشرق الأق صى، لاس يما إسكندرية أريانا (حيرات)، وأنطيوخيا مارجيانا (ميرف)، وإسكندرية ف ي أراخوس يا (قندهار)، والإسكندرية على نهر إتيماندروس (هلموند)، كما أسس السلوقيون عدة مدن في شمال شرق إيران سيما إسكندرية على نهر سيحون، وأنطيوخيا في إس كوذيا(٦). وكان الملك السلوقي هو الذي يقرر كميات السلع التي يج ب أن ت ستوردها الدول ة السلوقية أو التي تصدرها(٧) .

- واردات الدولة السلوقية:

اعتمد السلوقيون على الأسواق الخارجية في الحصول على باقي احتياجاتهم، وبـ نفس الوقت لأجل إيجاد سوق لبيع بضائعهم، لذلك استوردوا النحاس والحديد مـ ن منـ اجم لبنان التي كانت تحت سيطرة البطالمة في الفترة السلوقية المبكرة. كمـ ا اسـ توردوا النحاس من مناجم أرجانا (Argana) قرب ديار بكر، ومن أميدا القديمـ ة (Amida)[٨]. وامتلك السلوقيون بعض مناجم الحديد والفضة الغنية في جبال طوروس ومناجم نحاس عمان وجزر البحرين. *كذلك استوردوا الذهب والفضة من مناجم إيـ ران، والبخـ ور،* والأحجار الكريمة، والتوابل، والعاج والقرفة من الهند، والحرير من الصين.

- صادرات الدولة السلوقية:

صدَّر السلوقيون: الزجاج والمنسوجات الذهبية، والفضة، والأواني الفخارية إلى الهند والصين[٩].

- علاقات الدولة السلوقية التجارية مع الدول الأخرى:

شكَّلت التجارة مصدراً هاماً من مصادر الدخل في العصر الـ سلوقي، وكـ ان للدولـ ة السلوقية علاقات تجارية مع بلاد الهند والصين في الشرق[١٠].

لقد كانت الهند محط أنظار الملوك السلوقيين، ومطمعاً لهـ م بـ سبب كثـ رة ثرواتهـ ا وغناها، لاسيما بالذهب، والأحجار الكريمة، والبخور، والتوابل، والعاج، بالإضافة إلى الفيلة الهندية، التي أصبحت السلاح الأساسي في المعارك الحربية بالنسبة لأي حاكم، وكذلك بسبب تحكم الهند بالطرق التجارية[١٠].

تعود بداية العلاقات بين الهند وغربي آسيا إلى بداية الدولة الفارسية منـ ذ أن قـ ضى قورش على كل القبائل المعادية التي كانت تقف عائقاً بين الهند ومنطقة غربي آسـ يا.

ثم توغل دارا الأول (٥٢١ . ٤٨٥ ق.م) في شمال غرب الهند وضم إلى مملكته دلتا نهر السند، التي أصبحت فيما بعد ولاية فارسية[١١].

وبما أن الهند أصبحت جزءاً من امبراطورية دارا، فإن الإسكندر المقدوني، حين قرر محاربة الفرس، وبناء إمبراطوريته الشرقية، كان لابد له من أن يغزوها، وفعلاً غزاها الاسكندر المقدوني في سنة (٣٢٧ ق.م)، وبعد أن انتهى من احتلالها ترك فيها حاميات إغريقية[١٢]. بعد هذا النصر قدّم بعض زعماء المنطقة عدداً من الفيلة كهدية للإسكندر، حيث ظهر فيما بعد الإسكندر المقدوني على إحدى العملات الفضية مرتدياً جلد الفيل كغطاء ليحتفل بانتصاره على الهند[١٣].

وبعد وفاة الإسكندر المقدوني في صباح يوم ١٣ حزيران (يونيو) سنة ٣٢٣ ق.م[١٤] اغتنم الأمير الهندي (تشاندرا جوبتا) فرصة الصراع بين القادة المقدونيين والملوك المحليين، حيث قام بثورته الوطنية، ضد الإغريق وطردهم من شمال الهند، وجعل من (باتا ليبوترا) عاصمة لمملكة ماجادا، والتي سميت باسم امبراطورية الماوريا[١٥].

- العلاقات التجارية بين الدولة السلوقية والهند:

بعد أن انتهى الصراع بين خلفاء الاسكندر، وقُسِّمت إمبراطوريته بين قواده حصل سلوقس الأول نيكاتور على القسم الأسيوي[١٦]، والذي حكم في الشرق، خلال الفترة الممتدة ما بين ٣١٢ . ٣٠٢ ق.م، حيث قام بغزو المقاطعات الهندية من أجل تأمين حماية حدوده الشرقية[١٧]، وفعلاً وصل سلوقس إلى أبواب الهند. لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بينه وبين (تشاندراجوبتا)، هذا الصدام استمر حتى بداية سنة ٣٠٢ق.م.

وإزاء صمت مصادرنا عن هذا الصراع لذلك لا نعرف شيئاً عن أحداثه، ولكنه من الجائز أن نقول أنه بسبب شدة مراس (تشاندراجوبتا) وإمكانياته الهائلة، ومن ناحية أخرى كفاية سلوقس وقدرة رجاله القتالية، لم يفلح أي من الجانبين في إحراز نصر حاسم على الآخر مما جعلهما أكثر ميلاً إلى التفاهم منهما إلى الاستمرار في خوض

غمار حرب ضارية غير مجدية. ويبدو أنه قد ساعد على حسم الموقف نداء الاستغاثة التي تلقاها سلوقس من حلفائه السابقين[١٨]، لوسيماخوس وكاساندروس، وبطلميوس ضد انتيجونوس[١٩]. لذلك اضطر سلوقس الأول إلى إنهاء الصراع معه وعقد معاهدة صداقة مع الملك الهندي في سنة ٣٠٣ ق.م[٢٠]. وقد تضمنت المعاهدة عقد مصاهرة بين الأسرتين المالكتين، كما حصل سلوقس على /٥٠٠/ فيل من فيلة الحرب (أو ١٥٠ فيل حسب بعض الدراسات المعاصرة)، وتأمين حدوده الشرقية مقابل التنازل لتشاندراجوبتا عن بعض المقاطعات الشرقية مثل: أراخوسيه وجدروسيه[٢١]، وجاندهارا = باروبافيساداي[٢٢].

إن الفوائد التي جناها سلوقس الأول من جراء هذه المقايضة لم تقتصر على مجرد عدد من الأفيال دعمت قوته العسكرية، وحققت النصر له في أبسوس، بل تعدتها إلى فوائد اقتصادية وتجارية هامة ساهمت في تكريسها سفارته الدائمة برئاسة (مجاستنس Megasthenes) في بلاط تشاندراجوبتا. كما أن سفارة مجاستنس أسهمت في إلقاء الكثير من الأضواء على بلاد تشاندراجوبتا، حتى يمكننا القول أننا ندين إلى مجاستنس بكافة معلوماتنا عن بلاط الملك الهندي. وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الملكين بفضل سفارة مجاستنس فترة طويلة من الزمن، إذ تحدثنا مصادرنا عن بعض العقاقير الطبية الغريبة التي أرسلها تشاندراجوبتا هدية ملكية إلى سلوقس، كما استمرت هذه العلاقة في عهد خليفتيهما، ويروى أن (أميتروخاتس Amitrochates) خليفة تشاندراجوبتا طلب من أنطيوخس الأول أن يرسل إليه تيناً وخمراً وفيلسوفاً ليعلمه الجدال والمناظرة، فأرسل إليه أنطيوخس التين والخمر، واعتذر عن إرسال الفيلسوف في رسالة قال فيها: «إن القانون الإغريقي يحرّم بيع الفلاسفة». وإذا كنا نشارك معظم مؤرخينا المعاصرين الشك في صحة هذه الرواية، فإننا لا نستطيع أن ننفي طيب العلاقة بين البلاطين في تلك الفترة. وينهض دليلاً على ذلك تلك الوفرة من النقود

السلوقية التي عثر عليها الآثاريون في مناطق شمال غرب الهند والتي تعود إلى عهد الملكين السلوقيين سلوقس الأول وأنطيوخس الأول[٢٣].

إن المساعي لإقامة علاقات طيبة بين الطرفين، لم تكن من الجانب السلوقي فقط، حيث يفترض بيفان إرسال سفراء هنود إلى البلاط السلوقي، قبل أن يرسل الملك الهندي (آسوكا) بعثاته التبشيرية[٢٤]. لقد بذل الملك آسوكا جهده في نشر البوذية، عن طريق سلسلة من المراسيم تعرف بمراسيم الصخور، وفي منشور الصخرة الثالثة عشر، يخاطب الملك آسوكا خمسة ملوك هيلينستيين من بينهم الملك آنتيوكا (أنطيوخس الثاني)[٢٥]. وبهذا الشكل تم الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية الودية بين خلفاء تشاندراجوبتا)، وخلفاء سلوقس، إن الاستمرار في عملية التبادل التجاري والاجتماعي والثقافي كان مفيداً وضرورياً لكلا الطرفين. وبعد الانفصال السياسي بين المملكتين، لم تقف أسرة الماوريا عائقاً ضد قيام تجارة نشطة بين الطرفين، كما استمرت حركة التجارة مع وادي نهر السند عبر الخليج العربي، براً وبحراً، وما يؤكد ذلك استمرار استيراد البضائع الهندية مثل: التوابل، والمجوهرات وخشب الساج والحرير من الصين[٢٦].

وما يؤكد استمرار تلك العلاقات التجارية، هو الهبات التي قدمها سلوقس الأول في سنة ٢٨٨ ق.م إلى معبد أبوللو في ديدوما بالهند، لقد تضمنت هذه الهبات عدة أشياء هي: عشرة تالنتات من اللبان، وواحد تالنت من المر، و/٢ مينا/ من القرفة الهندية، كما استمر استيراد اللبان من الهند واليمن، والقرفة كانت تأتي من الهند من إقليم القرفة Cinamo Fera region [٢٧]، ونبات القسط، (كوشتا = Kushta)*.

كما تم تجديد العلاقات السلوقية الهندية في عهد الملك أنطيوخس الثالث ٢٢٣ ـ ١٨٧ ق.م[٢٨]، أثناء حملته الشرقية ٢٠٦ ـ ٢٠٥ ق.م، حيث عَبَرَ أنطيوخس الثالث القوقاز

وهبط إلى الهند، ثم جدد تحالفه مع ملك الهند (سوفاجاسينوس)، كما جلب معه الفيلة من هناك حيث أصبح لديه /١٥٠/ فيلاً.

بعد ذلك عاد مع جيشه بعد أن ترك (أندروسيثنيس) ليجمع الأموال التي وافق الملك الهندي على دفعها للسلوقيين[٢٩].

كما نجح ملوك الدولة السلوقية بعد وفاة أنطيوخس الثالث عام ١٨٧ ق.م [٣٠]، في الحفاظ على استمرار العلاقات التجارية مع الهند، هذا ما أكده عرض أنطيوخس الرابع في احتفال موكب دفنه بالقرب من أنطاكية سنة ١٦٧ ق.م. حيث كان من أهم ما تم عرضه:

١ . ٤٢ عربة تجرها الفيلة الهندية.

٢ . كميات من زيت القرفة.

٣ . ٨٠٠ قطعة عاجية من أنياب الفيلة[٣١].

٤ . الأفاوية الهندية و.....

وخلال الفترة الأخيرة من تاريخ الإمبراطورية السلوقية في القرن الثاني قبل الميلاد، استمر الاتصال بين الهند والدولة السلوقية، رغم استقلال إقليم باكتريا* عام ٢٥٠ ق.م، وانفصال بارثيا في عام ٢٤٨ ق.م عن الإمبراطورية السلوقية [٣٢]. لقد نجح السلوقيون في استخدام الطرق الرئيسية التي تمر من هذه الأقاليم، حيث ربطوا شواطئ البحر المتوسط مع وسط آسيا والشرق الأقصى، وكذلك مع بلاد العرب[٣٣].

وفي نهاية القرن الثاني ق.م استمر تدفق مواد الترف الهندية والصينية والعربية، التي تحملها القوافل التجارية إلى الموانئ السورية رغم قيام الحكم البارثي في بعض الساترابيات الإيرانية، واحتلال ميثريداتيس الثاني البارثي لكلٍ من إقليمي بابل وميزوبوتاميا[٣٤]. لم تتأثر هذه التجارة في زمن ميثريداتيس الثاني، حيث قامت ولأول

مرة علاقات دبلوماسية بين الصين وبارثيا، هذه العلاقات أدت إلى تنظيم أفضل لطرق التجارة بين الصين وبارثيا، كما قامت العلاقات التجارية بين الدولة السلوقية وبارثيا، هذا ما أكدته خزائن العملة التي تم العثور عليها في فارس المعاصرة، والتي تعود إلى زمن السيادة البارثية، حيث وجدت الفضة والذهب السلوقي جنباً إلى جنب مع العملات البارثية والباكتيرية[٣٥].

كما تم العثور في العصور الحديثة، في شمال منغوليا على منسوجات صوفية من سوريا، تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، هذا يؤكد استمرار العلاقات التجارية بين سورية والشرق الأقصى والهند[٣٦].

- الطرق التجارية التي سلكتها القوافل التجارية من آسيا والهند إلى الدولة السلوقية:

يخيم بعض الغموض فيما يتعلق بتفاصيل أوضاع الطرق التي كانت التجارة الشرقية تسلكها إلى الغرب سواء في عهد الفرس أم في الفترة السلوقية، ومع ذلك فإن بعض مصادرنا رغم قلتها تساعدنا في إلقاء بعض الأضواء عليها:

إن الطرق الرئيسية للتجارة الشرقية في عهد الفرس وفي بواكير العصر الهلنستي كانت ثلاثة طرق:

أولها طريق الشمال.

وثانيها الطريق الأوسط.

وثالثها طريق الجنوب.

أ . طريق الشمال:

تقتصر معلوماتنا عن الطريق الشمالي، على أنه كان يمر بمدينتي كابول وباكترا (بلخ) حتى مصب نهر (جيحون Oxos) ثم يعبر بحر قزوين ويسير محاذياً لنهري (قورش

وفاسيس Phasis) إلى البحر الأسود. ويبدو أن قلة معلومات مؤرخينا عن هذا الطريق جعل بعضهم يعتقد بأن هذا الطريق كان قليل الأهمية في العصر الهلنستي(٣٧). وبعد وفاة سلوقس انقطعت صلة السلوقيين بالبحر الأسود ولم يعد لهم أي اهتمام بعد ذلك بأي طريق شمالي(٣٨).

ب . الطريق الأوسط:

يبدو أن الطريق الأوسط لم يكن طريقاً واحداً بل عدة طرق، الطريق الأول كان مائياً تشقه السفن من الهند إلى الخليج العربي، ثم تنطلق من هناك صوب بابل عن طريق (جرهاء).

الطريق الثاني كان أقل أهمية، وهو طريق بري يخرج من الهند ويمر بمدينتي برسبوليس وسوسا قاصداً بابل(٣٩).

الطريق الثالث وهو الأهم كان برياً أيضاً، ويتجه إلى بابل عبر تاكسيلا وباكترا واكباتانا وغيرها. ويبدو أن البضائع المتجمعة في بابل كانت تجتاز أراضي الجزيرة متجهة شمالاً إلى (نصيبين Nisibis) حيث ترفدها بضائع التجارة الأرمنية وتنتقل جميعها إلى (الرها Edessa)، ثم تتابع سيرها إلى دمشق وصور عبر خالكيس وحمص(٤٠).

ج . الطريق التجاري الجنوبي:

كان هذا الطريق يسير من الهند بحراً إلى المستودعات التجارية القائمة على الساحل الجنوبي لبلاد العرب، حيث كان أصحاب السفن الهنود ينزلون بضائعهم، فتصبح جزءاً من تجارة بلاد العرب(٤١)، الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة إلى حد أنهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول مضيق باب المندب. وكانت هذه السلع وكذلك سلع بلاد العرب تسلك إلى الشمال طريقين لم يكن أحدهما مستعملاً

بكثرة قبل العصر الهلنستي، وهو الطريق البحري في محاذاة الشاطئ الأفريقي أو شاطئ بلاد العرب حتى أقصى الشمال في البحر الأحمر. أما الطريق الآخر والذي كان أكثر أهمية من الأول فهو الطريق البري القديم الذي كان يُعرف باسم «طريق البخور» ويمر بسبأ ومعين ويثرب والعلا أو (ددان Dedan) وايله أو العقبة والبتراء[٤٢]، (وكان يأتي إليها طريق آخر من جرهاء على الساحل الغربي للخليج الفارسي) ودمشق وصور.

لقد كان الأنباط بفضل مهارتهم التجارية وموقع عاصمتهم البتراء، يتحكمون في تجارة طريق الجنوب[٤٣]، كما أنهم أقاموا علاقات تجارية جيدة مع مصر حيث صدَّروا لها الفيلة الهندية[٤٤]. ومنذ بداية العصر الهلنستي كان البطالمة الأوائل بحكم سيطرتهم على جوف سورية وأغلب شاطئ فينيقية يسيطرون على أهم منافذ طريقي الوسط والجنوب لوقوع هذه المنافذ في نطاق ممتلكاتهم. وكان ذلك من أسباب الصراع بين دولتي البطالمة والسلوقيين، سيما وأن طريق الوسط كان يجتاز الإمبراطورية السلوقية والذي تقع أهم منافذه وكذلك أهم منافذ طريق الجنوب في المنطقة التي سيطر عليها السلوقيون منذ موقعة ابسوس، كما استغل السلوقيون طرق الإمبراطورية الفارسية القديمة[٤٥].

تجارة الدولة السلوقية مع بلاد العرب:

تركز اهتمام السلوقيين على التجارة لذلك حاولوا التحكم في طريق البخور[٤٦]، لأن البخور كان يعتبر من أهم السلع التجارية التي تنقل عبر طريق البخور إلى أغلب حضارات العالم القديم.

كان عرب جنوب شبه الجزيرة العربية يحتكرون تجارة البخور وكذلك منتجات الهند، وكانوا لا يسمحون للسفن الهندية بتجاوز ميناء قنا باليمن، لذلك اعتقد الإغريق بأن القرفة يتم إنتاجها في بلاد العرب مع العلم بأنها من إنتاج الهند[٤٧].

كان البخور يزرع في إقليم ظفار عمان حالياً، وفي الهند، وجزر الصومال، وجزيرة سوقطري(٤٨)، وكان يُنقل من مناطق إنتاجه إلى ساحل البحر، ثم يتم تجميعه في ميناء قنا بجنوب اليمن، وميناء موسخا Mosch* (خوررووري حديثاً)(٤٩)، وميناء سياجروس Syagrus (رأس فرتك الآن)، ومن هذه الموانئ كان يُنقل البخور إلى سائر عواصم العالم القديم.

ومن ميناء قنا كان ينقل البخور بحراً أو براً ماراً بشبوة عاصمة حضرموت ثم إلى تمنع عاصمة قتبان ثم إلى مأرب عاصمة سبأ ثم إلى معين إلى نجران ثم يتابع سيره شمالاً ماراً بمحطة العلا (ددان) ثم إلى البتراء عاصمة الأنباط. لقد كان الأنباط يستطيعون توجيه التجارة حسب رغبتهم وأرباحهم، إما إلى البطالمة أو إلى السلوقيين (٥٠). لذلك اتخذت الدولة السلوقية عدة إجراءات، من أجل الإحتفاظ بوجود نشط في الخليج العربي، حتى يتمكنوا من الوصول إلى التجارة الهندية، وتجارة التوابل والمواد العطرية في جنوب شبه الجزيرة العربية(٥١)، لذلك تركز اهتمام السلوقيين في شمال شرق شبه الجزيرة العربية، حيث أنشأوا عدة موانئ على ساحل الخليج العربي، وهي: لاريسا، وخالكيس، وأرثيوسا، كما أنشأوا سلوقية على البحر الإرتيري وأنطيوخيا برسيس على الجانب الفارسي.

ومن أجل حماية السلوقيين لتجارتهم في الخليج، عملوا منذ البداية على توطيد سيطرتهم فيها، والاحتفاظ بإسطول سلوقي يعمل في مياه الخليج من أجل نشر الأمن في المنطقة وحماية تجارتهم في منطقة الخليج العربي(٥٢) ومما يؤكد وجود هذا الإسطول السلوقي، هو أن أحد الملوك السلوقيين يُعتقد الملك أنطيوخس الرابع... أرسل قائده نومينيوس لمحاربة الفرس، حيث استطاع هزيمتهم في معركتين أحدهما بحرية والأخرى برية(٥٣).

كما أن بوليبيوس عندما يتحدث عن حملة أنطيوخس الثالث على جرهاء، يقول: أبحر إلى جزيرة تيلوس في حوالي عام ٢٠٥ ق.م، ثم غادرها قاصداً سلوقية، هذا أيضاً تأكيد على وجود الأسطول السلوقي(٥٤).

كما تم العثور على عدد من المكتشفات الأثرية السلوقية في الخليج العربي، في عدة أماكن، هذا يؤكد على نشاطهم الاقتصادي في المنطقة من خلال وجود الأسطول السلوقي، الذي يجب أن تكون له عدة مواقع على جانبي الخليج من أجل أن تتمكن السفن التي تحرس الخليج من التوقف لفترات طويلة عند الضرورة، أو من أجل التزود بالمؤن التي تحتاجها السفن التجارية، لذلك تعتبر هذه المواقع مواقع عسكرية مجهزة بكل ما تحتاجه السفن(٥٥).

كما يؤكد ذلك اكتشاف مستوطنة إغريقية في جزيرة إيكاروس (فايلاكا) يعود تاريخها إلى نحو سنة ٣٠٠ . ٢٥٠ ق.م، هذه المستوطنة تعتبر المستوطنة الإغريقية الأولى، وتمثلها القلعة التي يوجد فيها مزاران. وفي داخل القلعة يوجد مزار أرتميس الذي تم العثور فيه على خزنتي نقود، منها نقود مؤرخة من عهد الإسكندر الأكبر في ٣٣٦ ق.م، ونقود سلوقية تعود إلى عهد سلوقس الأول وحتى عهد أنطيوخس الرابع ١٦٤ ق.م. هذه النقود صادرة عن دار سك (جرهاء) ودور السك الملكية الموجودة في سوسا أو في سلوقية دجلة(٥٦)، كما تم العثور على عدد كبير من التماثيل الطينية المحروقة، وعلى عدد من الأواني التي تحمل لمعة خضراء، والشبيهة تماماً بالأواني المكتسفة في سلوقية دجلة وسوسا و(أوروك Uruk) ومواقع رافدية أخرى(٥٧).

من خلال هذه الأدلة، ومن خلال معرفتنا بأن أنطيوخس الثالث قد قام بزيارة جزيرة تيلوس، بعد حملته على جرهاء، يتضح لنا بأن أهداف السياسة السلوقية كانت تجارية بالدرجة الأولى، وكذلك التحكم في الطريق البحري وحماية التجارة التي تمر منه إلى بلاد ما بين النهرين وإلى منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط. كما أن الوسائل التي

اتخذها السلوقيون لتحقيق تلك السياسة كانت عسكرية من خلال الاحتفاظ الدائم بأسطول قوي في الخليج العربي تدعمه مواقع عسكرية تقع على ساحل الخليج العربي(٥٨).

إن التواجد السلوقي في تلك الجزر كان عسكرياً من أجل حماية المراكز العسكرية، أيضاً كان لهذا التواجد دور اقتصادي، هذا ما أكدته الاكتشافات الأثرية التي تمت في جزيرة (إيكاروس) وهي عبارة عن كتابة على حجر تتألف من أربعة وأربعين سطراً، لكن هذه الكتابة لم تحل رموزها حلاً تاماً بسبب وجود كسور في الحجر وفقدان حروف بعض الكلمات، يعتقد أنها تعود إلى أيام الملك سلوقس الثاني كالينيكوس ودونت في حوالي سنة ٢٣٩ ق.م، هذه الكتابة تفيد بأن الملك سلوقس الثاني قد بعث برسالة إلى أهل إيكاروس في شأن عزمهم على إقامة معبد في تلك الجزيرة وتعيين كهان لها حيث وافق الملك على إقامة المعبد ودفع تكاليف بنائه(٥٩).

أيضاً عثر في الإمارات العربية المتحدة في إمارة أم القيوين في موقع الدور على تتدراخما تعود إلى أيام الملك سلوقس الثالث وسلوقس الرابع، تزن (١٤،٥٢) غرام، رسم على وجه العملة ملك يرتدي الديايديما* ووجه له لحية قصيرة، وينظر ناحية اليمين، أما على ظهر العملة فكانت توجد صورة الإله أبوللو جالساً على الصخرة المقدسة لمعبد أبوللو في دلفي، التي تعد مركز الأرض (٦٠).

كما عثر في موقع الدور أيضاً على تترادرخما فضية محشْمة تعود لسلوقس الثالث تزن (١٦،٠٧) غرام (٦١).

إن النشاط التجاري السلوقي كان قوياً في منطقة الخليج في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد، هذا النشاط التجاري كان واضحاً، من خلال الدور التجاري الذي لعبته مدينة الجرهاء(*) وعلاقتها مع الملوك السلوقيين.

كانت مدينة «جرهاء» من أهم المراكز التجارية خلال العصر السلوقي، حيث كانت تسيطر على الطريق البحري الممتد على طول الساحل الغربي للخليج العربي، الذي تأتي عبره تجارة الهند[٦٢]. كما كانت مدينة (جرهاء) تسيطر على طرق القوافل العظمى لبلاد العرب التي تربطها بالبتراء عاصمة الأنباط [٦٣]، وكذلك تسيطر على الطريق الذي يربطها ببلاد العرب السعيدة[٦٤].

إن السلوقيين كانوا يحصلوا على بضائع شبه الجزيرة العربية والهند من أهل جرهاء، هذه البضاعة، كانت تتألف من: المر، واللبان، وبعض المواد العطرية، والتي كانت مطلوبة بشكل كبير من قبل سكان الإمبراطورية السلوقية، من أجل طقوس العبادة. وهناك بضائع هندية كانت تنقل إلى الأراضي السلوقية عن طريق تجار أهل جرهاء كان من بينها البخور والقرفة[٦٥].

إذاً نستطيع القول بأن النشاط التجاري لجرهاء كان مرتبطاً بالظروف السياسية التي تمر بها المنطقة، وعلاقة السلوقيين بجرهاء ارتبطت أيضاً بتلك التغيرات السياسية، فأحياناً نجد بأن جرهاء كانت تقيم علاقة جيدة مع السلوقيين، وأحياناً أخرى تقيم علاقات مع مصر[٦٦]، هذا ما أكدته وثائق البردي البطلمية، من أن البخور الجرهائي كان يصل إلى مصر في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وتذكر إحدى الوثائق البردية المؤرخة في سنة ٢٦١ ق.م. أن مصر استوردت من سورية البخور الجرهائي والمر وبضائع أخرى كانت تأتي من شبه الجزيرة العربية.

لقد ظلت العلاقات جيدة بين (جرهاء) والسلوقيين إلى أن قام الملك أنطيوخس الثالث بحملته المشهورة ضد جرهاء في نحو سنة ٢٠٥ ق.م. حيث يصف لنا بوليبيوس هذه الحملة فيقول: لقد توسل الجرهائيون إلى الملك ألا يأخذ منهم الهبات التي منحتها لهم الآلهة، وهما: السلام الدائم والحرية. لقد وافق الملك أنطيوخس الثالث على طلبهم،

لذلك كرّم الجرهائيون الملك أنطيوخس، حيث منحوه هبة تتكون من خمسمائة تالنت من الفضة، وألف تالنت من البخور، ومئتي تالنت من زيت المر(٦٧).

كما قام أنطيوخس الثالث بحملته الشرقية، والتي كان من نتائجها توقيع معاهدة مع الملك الهندي (سوفاجاسينوس)، إذاً لقد كان هدف أنطيوخس من هذه الحملة هو تقوية العلاقات التجارية مع وادي كابول، وزيادة حجم التبادل التجاري على طول الطريق الجنوبي، وتقول ساليه: أن المعاهدة المبرمة بين الطرفين ربما تضمنت فقرات اقتصادية وتجارية بالإضافة إلى الاتفاق على تزويد أنطيوخس الثالث بفيلة الحرب(٦٨)، لقد كانت البضائع الهندية تأتي عن طريق الخليج العربي ثم تنتقل إلى سوسا، بعد ذلك تنقل بالقوافل إلى سلوقية دجلة، وما يدل على ذلك هو الزيادة الملحوظة للنقود التي سكت في دار سك سلوقية دجلة والمكتشفة في سوسا والتي تعود إلى عهد الملك أنطيوخس الثالث بعد حملته الشرقية (٦٩).

إن هدف أنطيوخس الثالث من حملته على جرهاء لم يكن مجرد إيقاف القوافل من خدمة مصر البطليمية، ولو كان هدفه وقف علاقات الجرهائيين مع مصر لكان قد دمر جرهاء، ولكنه أراد من جرهاء إعادة توجيه تجارتها نحو إمبراطوريته، هذه التجارة الحرة، والخاضعة للضرائب مفيدة جداً للخزانة السلوقية كما أن جرهاء كانت تتاجر مع الأنباط في القرن الثالث قبل الميلاد(٧٠).

فتجارة الجرهائيين مع البتراء عاصمة الأنباط كانت فرعاً من تجارتهم مع سورية السلوقية، ولكن هذه التجارة ربما كانت تتم بصورة غير شرعية، من وجهة النظر السلوقية(٧١).

يعتقد تارن بأن الأنباط ربما قد تم منعهم من المتاجرة بمنتجات جنوب شبه الجزيرة العربية على يد البطالمة، حيث نجح بطليموس الثاني فيلادلفوس ٢٨٤ . ٢٤٦ ق.م، في انتزاع التحكم في طريق بخور مأرب . البتراء، بعيداً عن يد الأنباط باستيلائه

على الطريق جنوب البتراء، وتأسيس مستعمرة (أمبلوني) على ساحل الحجاز، كميناء يمكن من خلاله تحويل سلع القوافل الآتية من جنوب شبه الجزيرة العربية، وشحنها من هناك مباشرة إلى ميناء ميوس هورموس في مصر، وهكذا يتجاهل الأنباط، ويلغي دورهم التجاري، وبهذا الشكل يكون من المريح للجرهائيين أن يشحنوا بضائعهم براً إلى البتراء[٧٢].

إن اهتمام السلوقيون بتأمين تجارة الخليج العربي، واهتمامهم بجرهاء يدل عليه السور القديم الذي توجد آثاره في جرهاء والذي يبلغ عرضه (٨ م)، وطوله (٣٠٠٠م) والذي يعود إلى فترة الحكم السلوقي، إن ذلك السور يدل على مدى الاهتمام الكبير من قبل السلوقيين بتحصين هذا الموقع التجاري[٧٣].

إن التجارة السلوقية وصلت إلى مستوى ممتاز مع الشرق في عهد الملك أنطيوخس الثالث منذ أن قام بحملته الشرقية، ثم زيارته إلى جرهاء وكذلك في عهد الملك سلوقس الرابع وأنطيوخس الرابع، ظلت العلاقات التجارية مع الهند والجزيرة العربية جيدة ولكن بشكل أقل عما كانت عليه في عهد أنطيوخس الثالث.

وبصفة عامة كانت عهود كل من الملوك أنطيوخس الثالث وسلوقس الرابع وأنطيوخس الرابع، تمثل أفضل فترة نشاط تجاري في الخليج العربي خلال القرن الثاني قبل الميلاد. لقد كانت سورية المفصل الهام ومركز الاتصال بين القارات القديمة الثلاث، فهي مركز الانطلاق إلى الشرق، أي إلى الصين وبلاد شرق آسيا وإلى الغرب[٧٤].

ولكن هذه السياسة السلوقية تم التخلي عنها عندما بدأ التوسع البارثي في إيران وإقليم بابل في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. وإن المعلومات عن خلفاء أنطيوخس الرابع طفيفة ومحدودة وخاصة التي تتحدث عن صراعاتهم مع البارثيين، ويبدو أن أنطيوخس السابع سيديتيس ١٣٨ . ١٢٩ ق.م كان آخر ملك سلوقي انهمك في شؤون

إقليم بابل، ومن المحتمل أيضاً في إقليم البحر الإرتيري، قبل أن تتم هزيمته هناك على يد فراتيس Phraates البارثي في عام ١٢٩ ق.م[٧٥].

وهكذا فإن زوال الحكم السلوقي في إقليم بابل ومن ثم فقدان مقاطعة البحر الإرتيري، وفقدان الخليج العربي، نتج عنه إضمحلال موازٍ في التجارة البحرية في الخليج، ومن ثم هجر المواقع الساحلية ومواقع الجزر، وما يؤكد ذلك هو هجر مواقع قلعة إيكاروس بعد القرن الأول قبل الميلاد. كما أن آخر اكتشافات مؤرخة بدقة، هي العثور على جرار روديسية عليها ختم الصانع، تعود إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، فمن خلال فحص أختام الجرار الروديسية تبين أن انتهاجها بين ٢٢٥ و ١٥٠ ق.م ، كما أن هذه الجرار الروديسية وجدت بأعداد كبيرة في سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وسوسا في فارس[٧٦].

ومن ناحية أخرى اقتفى السلوقيون خطوات الإسكندر في الاهتمام بإرسال البعثات الإستكشافية، حيث أرسل سلوقس الأول بعثة لاستكشاف شواطئ بحر قزوين، كما أرسل حملة أخرى لدراسة منطقة نهر سيحون، لقد حفّزت التقارير التي قدمتها البعثة إلى سلوقس على التفكير في شق قناة بين بحر قزوين والبحر الأسود، كان هدف الملك السلوقي من وراء التفكير في شق هذه القناة، هو خدمة التجارة بين آسيا وأوروبا[٧٧].

- التجارة الداخلية للدولة السلوقية:

أما فيما يتعلق بالتجارة الداخلية، فعلى الرغم من الجهد الفائق الذي بذله السلوقيون الأوائل، لانتشار تداول النقود، وأهمية ذلك في رواج التجارة[٧٨]، وهذا أدى بالفعل إلى سهولة تبادل السلع، بين أقاليم الدولة السلوقية، إلا أنه من الصعب أن نقول بوجود تجارة داخلية نشيطة، ويرى السبب في ذلك إلى وجود ما يشبه الاكتفاء الذاتي في داخل كل إقليم على حدة، ومن ثم فليست هناك حاجة إلى تبادل السلع مع الأقاليم الأخرى[٧٩]، ويجب ألا يغيب عن البال أن الزراعة كانت تأتي في المقام الأول بالنسبة

للحياة الاقتصادية في المستعمرات، أو أنه كان لكل مدينة إغريقية إقليمها الزراعي الذي كان جزءاً لا يتجزأ منها ويمدها باحتياجاتها. ولاشك في أنه يكون من باب المجازفة غير المقبولة علمياً الزعم بأنه لم تكن هناك صلات تجارية بين مراكز الاستيطان الإغريقي، وباقي مراكز العمران في الإمبراطورية السلوقية[٨٠].

الخاتمة:

إن الموقع المتميز الذي كانت تحتله الدولة السلوقية، في قلب العالم القديم، ساعدها في أن تلعب دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، وقد أدت فتوحات الإسكندر إل ى حدوث طفرة في معرفة الأوروبيين بمنتجات الشرق، وإقبالهم عليها، وكاذ ت الدول ة السلوقية مؤهلة بحكم موقعها لأن تلعب دور الوسيط التجاري، وقد حـ رص المل وك السلوقيون على تنشيط هذا الدور، ومما هو جدير بالذكر أنه كان للسللوقيين سفير دائم في الهند، منذ عهد ملك الهند تشاندراجوتبا.

ورغم أن الموقع الجغرافي ساعد عل ى سـ هولة الاتـ صال بينهم ـا، إلا أن العام ل الاقتصادي كان الدافع الرئيس لقيام هذه العلاقات التجارية بـ ين الط ـرفين، كمـ ـا أن اختلاف منتجات هذه البلاد وحاجة كل طرف لمنتجات الطرف الآخر، دفعتهما إل ى عملية التبادل التجاري، لذلك كانت القوافل التجارية البحرية القادمة من الهند تصل إلى شبه الجزيرة العربية، وتفرّغ حمولتها فيها من اللبان والمـ ـر والأحجـ ـار الكريمـ ـة، والعاج، والقرفة، والتوابل.. ومن ثم يقوم التجار اليمنيون بإيصالها إلى الدولة السلوقية وإلى البتراء والأنباط، هذه التجارة درّت أرباحاً وفيرة على الدولة الـ سلوقية، لـ ذلك اهتمت بحماية طرق التجارة من اللصوص وقطاع الطرق سواء في البر أم في البحر، من خلال شق وتعبيد الطرق وإنشاء المحطات والأسواق التجارية، لذلك عمّ الازدهار الاقتصادي الدولة السلوقية. وهكذا فقد لعبت التجارة بين الدولة السلوقية والهند وشـ به الجزيرة العربية، دوراً رئيسياً في هذه الفترة، هذا ما أكدته الآثار المكتشفة في الدول ـة

السلوقية والهند وشبه الجزيرة العربية. إذاً لقد كان هدف الدولة السلوقية من حروبها في الهند وجرهاء هو تحقيق أمنها وسلامة تجارتها.

إذاً نستطيع القول بأن التجارة السلوقية وصلت إلى مستوى ممتاز مع الشرق في عهد الملك انطيوخس الثالث وسلوقس الرابع، ولكن هذه السياسة السلوقية تمّ التخلي عنها عندما بدأ التوسع البارثي في إيران وإقليم بابل في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد.

وهكذا فإن زوال الحكم السلوقي في إقليم بابل وشبه الجزيرة العربية أدى إلى اضمحلال التجارة في الدولة السلوقية. ومنذ وفاة انطيوخس السابع في سنة ١٢٩ق.م.

إلى أن احتلها الرومان عام ٦٤ق.م ثم حولوها إلى ولاية رومانية.

الهوامش

1 – Rostovtzeff (M) , Social and ad Economic History of the hellenitic World. 3 Volumes , Oxford. 1941 ,P.430.

2 – Sherwin – white (Susan) and Kuhrt (Amelie) From Samakhand to Sardis A New aooroach to the Sefeucid empire, Duckworth, London, 1974, P. 65.

3 –Pliny, N. H. VI . XXX II. 159.

4 – Salles (jeam – Francois), op. cit, p. 89.

٥ . مفيد رائف العابد. سورية في عصر السلوقيين، دمشق، ١٩٩٣، ص٦٦.

6 – Rostovtzeff (M) , the Cambridge Ancient History, vol VII, Cambridge, 1928, P. 174.

7 – Rostovtzeff (M) , Social and Economoc History of the Hellenistic world, zvolumes, Oxford, 1941, P. 730.

8 – Rostovtzeff (M) , Social Ec., P. 1174.

٩ . علي أبو عساف: **طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم**، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٣٩ . ٤٠ ، دمشق، ١٩٩١ ، ص٧٧.

10 – Strabo , Xv. 2. 14.

١١ . فيل (أرنست): **تدمر وطريق الحرير**، ترجمة: إيمان سنديان، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد ٤٢، دمشق ١٩٦٦ ص٩٤.

12 – Sherwin – white (Susan) and Kuhet (Amelie), op. Cit . PP. 91 – 20.

١٣ . دي لاسي أوليري: **علوم اليونان وسبل انتقالها إلى الغرب**، ترجمة: وهيب كامل، مراجعة زكي علي، مجموعة الألف كتاب رقم ٣٩٥، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٤٩.

١٤ . جوستاف لوبون: **حضارات الهند**، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة ، ١٩٤٨، ص٢١٠.

15 – Yehya (Lutfi. A. W.). Trade Relations india and Egypt, influences and interactions. Mary publications and the Indian councif for cultural Relations , Pompay. 1993. P.57.

١٦ . خليل سارة: **تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية**، دمشق، ٢٠٠٨، ص٨٥.

١٧ . جوستاف لوبون: المرجع السابق، ص٢١١.

١٨ . و.و.تارن، ج. ت. جريفيت: **الحضارة الهلينستية**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، سلسلة الألف كتاب رقم ٤١١، القاهرة، ١٩٦٣، ص٥٥.

١٩ . دي لاسي أوليري: المرجع السابق، ١٥٠.

٢٠ . مفيد رائف العابد: **سورية في عصر السلوقيين من الإسكندر إلى بومبيوس**، دمشق، ١٩٩٣، ص٥٦.

٢١ . عاصم أحمد حسين: **دراسات في تاريخ وحضارة البطالمة**، القاهرة، ١٩٩١، ص١٩.

22 – Strabo , Xv.2.9.

23 . مفيد رائف العابد: المرجع السابق، ص٥٧.

24 – Steabo , XV.2.9.

٢٥ . مفيد رائف العابد: المرجع السابق، ص٥٨.

26 – Bevan (Edwyn R.) , op.cit, Vol. I .,P. 297.

27 – Fraser (P. M.) , Ptolemaic Alexandria, three volumes, Oxford, 1972, P. 311.

٢٨ . ساطع محلي: **على طريق الحرير**، دمشق، ١٩٩٤، ص ١٩.

29 – Schoff (Wilfred H.) , the periplus of the Erythraean sea , 10, p. 26.

* . نبات القسط: هو أحد التوابل العطرية الذي يستخدم في صناعة العطور والوصفات الطبية، وهو منتج هندي، ينمو في وادي كشمير انظر.

Schoff (Wilfred H.), Ibid., p 168.

٣٠ . مفيد رائف العابد: **دراسات في تاريخ الإغريق**، دمشق، ١٩٧٩، ص٢٧٦.

31 – Polyb. XI. 39. 11 – 13.

٣٢ . مفيد رائف العابد: **دراسات في تاريخ الإغريق**، المرجع السابق، ص٢٤٦.

33 – Polyb , XXX. 25 – 26.

٣٤ . هارولد أيدريس بل: **مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها**، ترجمة: عبد اللطيف أحمد علي، بيروت، ١٩٧٣، ص٤٣.

35 – Toutain (Jules), the Economic life of the Ancient World, london, 1930, P. 140.

٣٦ . جورج فاضل حوراني: **العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى**، ترجمة: يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٥٨، ص٤٥.

37 – Rostov . (M), Soc. And Ec., p. 864.

٣٨ . و. و. تارن، ج. ت جريفيت: المرجع السابق: ص٢٥٦.

٣٩ . مفيد رائف العابد: **سورية في عصر السلوقيين**، دمشق، ١٩٩٣، ٣٧٠.

٤٠ . السير وليم وودثورب تارن: **الحضارة الهلينستية**، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢٥٦.

٤١ . مفيد رائف العابد: المرجع السابق، ص٣٧١.

٤٢ . مفيد رائف العابد: نفس المرجع، ص٢٧١.

٤٣ . السير وليم وود ثورب تارن: المرجع السابق، ص٢٥٧.

٤٤ . مفيد رائف العابد: المرجع السابق، ص٢٧١.

٤٥ . مفيد رائف العابد: نفس المرجع، ص٢٧١.

٤٦ . السير وليم وود ثورب تارن: المرجع السابق، ص٢٥٨.

٤٧ . فوزي مكاوي: **الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني**، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٥٨.

٤٨ . إبراهيم نصحي: **دراسات في تاريخ مصر في عصر البطالمة**، القاهرة، ١٩٨٤، ص١٤٨.

49 – Fraser (P.M.) , OP . cit , p. 181.

٥٠ . و. و. تارن: المرجع السابق، ص ٢٧٣.

51 – Schoff (Wilfred . H.), the Periplus of the Erythraen sea , Chap, P. 33.

* ميناء موسخا: يقع ميناء موسخا في الجزء الشرقي من سهل ظفار بعمان.

٥٢ . إبراهيم نصحي: المرجع السابق، ص١٤٨.

53 – Tarn (W.W.) , Ptolemy II and Arabia , J. E.A. vol. XV. 1929. P. 11.

54 – Rostov. (M) , soc . and . Ec. P. 458.

55 – Pliny. N. H. VI. XXXII. 152.

56 – Polyb . XIII. 9.5.

57 – Salles (jean Francois), op . Cit., P. 97.

58 – Potts (D. T.) , The Arabian Gulf in Antiquity, vol, II From Alexander The Great to the of islam, Oxford, 1990, P. 173.

59 – Salles (Jean Fransois), Ibid., P.85.

60 – Salle (Jean Feansois) , Ibid., p. 108.

٦١ . جواد علي: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء الثاني**، بيروت، ١٩٨٠، ص٣٢.

* الديادیما: اسم فارسي لعصابة الرأس وهي عبارة عن قطعة قماش زرقاء عليها نقاط بيضاء اعتمدها الإسكندر المقدوني بعد انتصاره على داريوس رمزاً للملكية ثم ظل خلفاؤه يعتمدونها من بعده. انظر مفيد رائف العابد: المرجع السابق ص١٨٠.

6٢ – Potts (D. T.), op . cit. , vol. II. P. 271.

6٣ – Potts (D. T.), Ibid., P. 288.

٦٤ . منيرة الهمشري: **(المرجع السابق)** ص١٨.

* تقع مدينة جرهاء في شمال شرق شبه الجزيرة العربية على الجانب الغربي للخليج العربي.

65 - Rostov. (M) , soc . and . Ec. P. 457.

66 - Strabo , XVI. 4. 18.

٦٧ . فيليب حتي: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة: جورج حداد، عبد الكريم رافق.. بيروت، ١٩٥٧، ص٣٠٠.

68 – Potts (D.T.), op. cit. , Vol. II., P. 84.

69 – Polyb, XIII. 9.4 – 5.

70 –Salles (Jean Francois), op. cit., 91.

71 - Potts (D.T.), op. cit. , Vol. II., P. 94.

72 - Potts (D.T.), op. cit. , Vol. II., P. 96.

73 - Potts (D.T.), Ibid, p. 95.

74 - Tarn (W.W.) , Ptolemy II and Arabia , Ibid, p. 22.

٧٥ . لطفي عبد الوهاب يحيى، **العرب في العصور القديمة**، الاسكندرية، ١٩٨٨، ص١٣٢.

٧٦ . ساطع محلي: **على طريق الحرير**، دمشق، ١٩٩٤، ص ٩.

77 - Salles (Jean Francois), op . Cit., p. 91.

78 - Salles (Jean Francois), op . Cit., p. 98.

79 – Rostovtzeff (M.), Social and Economic History of the Hellenistic World 3 volumes, Oxford, 1941, p. 701.

٨٠ . أبو اليسر فرح: المرجع السابق، ص١٨٧.

٨١ . مفيد رائف العابد: المرجع السابق، ص٢٧٧.

٨٢ . خليل سارة: المرجع السابق، ص١٦٢.

٨٣ . مفيد رائف العابد، **سورية في عصر السلوقيين**، ص٦٦.

* فيلكه: جزيرة تقع في أعالي الخليج العربي، قبالة خليج الكويت، سميت قديماً ايكاروس راجع: محمد السيد عبد الغني: **شبه الجزيرة العربية**، ص٩٥.

٨٤ . محمد السيد عبد الغني: **شبه الجزيرة العربية**، مصر والتجارة الشرقية القديمة، الاسكندرية، ١٩٩٩، ص٩٥.

* اقليم باكتريا: يقع بين نهر جيحون Oxus وجبال هندكوش في شرق إيران القديمة، عاصمته باكترا (بلخ في افغانستان)، هارولد أيدريس بل: المرجع السابق، ص ٤٣.

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

1 – Rostovtzeff (M.), Social and Economic History of the Hellenistic World . volumes 3 , Oxford, 1941.

2 – Pliny, the Natural History.

3 – Polybius, the Histories.

4 – Sherwin white (susan) and Kuhert (Amilie) From. Samarkhand to Sardis A New Aooroach to the Seleucid empire, Duckworth, London, 1993.

5 – Yehya (Lutf A.W.) Trade Relations India and Egypt, influences and interactions . Mary publications and the Indian council for cultural Relations , Pompay. 1993.

6 – Bevan (Edwyn. R.) , the house of seleucus , london. 1902.

7 – Fraser (P. M.) , Ptolemaic Alexandria, three volumes, Oxford, 1972.

8 – Toutain (Jules), the Economic life of the Ancient World, london, 1930.

9 – Tarn (W.W.) , Ptolemy II and Arabia, london, 1929.

10 – Potts (D. T.) , The Arabian Gulf in Antiquity, vol, II From Alexander The Great to the Coming of islam, Clarendon Press, Oxford, 1990.

11 – Strabo, Geography.

قائمة المراجع العربية

١- إبراهيم نصحي: دراسات في تاريخ مصر في عصر البطالمة، القاهرة، ١٩٨٤.

٢- أبو اليسر فرح: الشرق الأدنى في العصرين الهللينيستي والروماني، القاهرة، ٢٠٠٢.

٣- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الثاني، بيروت، ١٩٨٠.

٤- جورج فاضل حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة: يعقوب بكر، القاهرة، ١٩٥٨.

٥- جوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة: عادل زعيتر ، القاهرة، ١٩٤٨.

٦- خليل سارة: تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية، دمشق، ٢٠٠٨.

٧- دي لاسي أوليري: علوم اليونان وسبل نقلها إلى الغرب، ترجمة: وهيب كامل، مجموعة الألف كتاب رقم٣٩٥، القاهرة، ١٩٦٢.

٨- ساطع محلي: على طريق الحرير، دمشق، ١٩٩٤.

٩- السير وليم. وود ثورب تارن: الحضارة الهلينستية، القاهرة، ١٩٦٦.

١٠- عاصم أحمد حسين: دراسات في تاريخ وحضارة البطالمة، القاهرة، ١٩٩١.

١١- علي أبو عساف: طريق الحرير والطرق التجاريه الأقدم، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٣٩ . ٤٠، دمشق، ١٩٩١.

١٢- فوزي مكاوي: الشرق الأدنى في العصرين الهلينستي والروماني، القاهرة، ١٩٩٩.

١٣- فيل (أرنست): تدمر وطريق الحرير، ترجمة: إيمان سنديان، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، العدد ٤٢، دمشق، ١٩٩٦.

١٤- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: جورج حداد، عبد الكريم رافق، بيروت، ١٩٥٧.

١٥- لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، الإسكندرية، ١٩٨٨.

١٦- محمد السيد عبد الغني: شبه الجزيرة العربية، مصر والتجارة الشرقية القديمة، الإسكندرية، ١٩٩٩.

١٧- مفيد رائف العابد: سورية في عصر السلوقيين من الإسكندر إلى بومبيوس، دمشق، ١٩٩٣.

١٨- منيرة الهمشري: سياسة السلوقيين تجاه مدن شرق الجزيرة العربية (الجرهاء ثاج) مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، العدد ٤٢ ، ١٩٩٢.

١٩- هارولد أيدريس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها، ترجمة: عبد اللطيف أحمد علي، بيروت، ١٩٧٣.

٢٠- و. و. تارن، ج. ت. جريفيث: الحضارة الهلينستية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، سلسلة الألف كتاب رقم ٤١١، القاهرة، ١٩٦٢.

المعابد في سورية خلال العصر الروماني

د. مأمون عبد الكريم

جامعة دمشق

لاقى المعبد السوري الكثير من الاهتمام والرعاية لدى السكان المحليين حيث كان يُعدُّ بيت الإله ويشكل ملاذاً لهم يُقرِّبهم من آلهتهم المعبودة، فاكتسب شكلاً معمارياً ملائماً للغرض المراد منه، ويتميز غالباً بسمات أساسية متشابهة تبعاً لكل عصر من العصور القديمة مما مكَّن الباحثين من استقراء تطوره المعماري عبر الأزمنة وإيجاد خصوصية للمعبد السوري.

قدَّمت الدراسات الأثرية التي أجريت على العديد من المعابد في سورية صورة واضحة عن السمات المعمارية التي تميزت بها خلال العصر الروماني، وهي سمات محلية واضحة متأثرة إلى حد ما بتأثيرات كلاسيكية، أظهرت تنوعاً كبيراً في أشكالها التي اتسمت بعدة خصائص متشابهة أحياناً ومختلفة أحياناً أخرى، حملت في مجملها السمات المحلية لكن بدرجات متفاوتة حسب كل منطقة. ولا يمكن فصل المعبد السوري خلال العصر الروماني عن العصور السابقة بل يمكن تتبع تطور المعبد بكافة أنماطه عبر العصور المختلفة، لذلك سوف نستعرض المعابد حسب المناطق وذلك لفهم خصوصيات كل منها، حيث يمكن تصنيف المعابد في سورية من حيث المخطط إلى نمطين أساسيين:

أولاً: النمط غير المنتظم:

يتكون هذا النمط من المعابد من مجموعة قاعات بنيت وفق مخطط عشوائي إلى جوار بعضها البعض، وتكون بعض هذه المعابد ذات شكل بسيط يتشابه بعضها من حيث المخطط بالوحدات السكنية، ولا تتميز بموقع هام ضمن المدينة بل قد تتواجد المعابد ملاصقة أحياناً للمباني السكنية في المدينة كما في معابد مدينة دورا أوروبوس، (الشكل ١) التي تتميز عن المساكن باتجاه هياكلها نحو الشرق، ويكون المذبح الرئيس المقام أمام الهيكل موجوداً بين باب هذا الأخير وباب المعبد، ويمكن استثناء معبد أرتميس نانايا من هذه القاعدة لأن الأعمال التوسعية التي طرأت على الهيكل لم تبق مساحة كافية بين الهيكل والمدخل لاحتواء جميع المؤمنين أمام المذبح ولهذا السبب تم نقل المذبح إلى جنوب الهيكل. يوجد عادة نوع من تنظيم المساحات المخصصة للمعبد كبناء مدخل المعبد والمذبح والهيكل على محور واحد يتوضع عليه ولكن دون الوصول إلى حد بناء هندسي دقيق.

والجدير بالذكر أن المعابد في دورا أوروبوس تحمل صفات معمارية رافدية (تقنيات ومواد البناء، أشكال المخططات)، أكثر منها كلاسيكية بالرغم من تواجد بعض الصفات المشتركة معها في بعض عناصر الزخرفة أو المخطط الذي قامت عليه.

ثانياً: النمط المنتظم والهندسي الشكل:

هو النمط الذي يبنى فيه المعبد على أساس مخطط دقيق تفرضه سلطة معينة، وهذا النمط نجده في العديد من المعابد في سورية ويتميز بوجود عناصر المعبد الرئيسة كالمدخل والمذبح والهيكل على محور واحد مستقيم، يقع في وسط التمنوس (الفضاء المقدس) مثل معبد جوبيتر في دمشق، ومعبد بل في مدينة تدمر، ومعبد شيخ بركات في منطقة قلعة سمعان في شمال سورية، وأحياناً يكون فيها مندمجاً مع إحدى واجهات التمنوس كمعابد شمال – غرب تدمر.

ولكن قد تطرأ بعض التشويهات على مخطط المعابد على حسب طبوغرافية الأرض القائمة عليها مما يستوجب ميلان في البعض منها أو تسوية لبعض الأماكن بشكل يتوافق قدر الإمكان مع المخطط المراد تنفيذه، فمثلاً في معبد نبو في تدمر، جاء المخطط على شكل شبه منحرف مع الحفاظ على محورية الأجزاء الرئيسية التي تؤلف المعبد كما أنه تم تسوية بعض الأجزاء في معبد بعلشمين في سيع، جنوب سورية، بسبب عدم استواء الأرض ووجود نتوء صخري استلزم تلك الإجراءات لتنفيذ مخطط هندسي منتظم للمعبد. كذلك الأمر بالنسبة إلى ما تم إنجازه في توسيع معبد بعلشمين في تدمر الذي لاقى الكثير من الاهتمام والإتقان والتنظيم الدقيق الداخلي إلا أنه بشكل عام قد يوحي بأنه يندرج ضمن قائمة المعابد غير منتظمة الشكل (١).

أهم المعابد في سورية:

معابد دورا أوروبوس:

تتسم المعابد الموجودة في دورا أوروبوس بالنمط غير المنتظم، حيث تحمل سمات شرقيةً رافديةً أكثر منها كلاسيكية، حيث لم يكتشف أي هيكل (سيلا) من النمط الكلاسيكي في هذه المدينة، مع العلم أنها كانت تحمل بعض التأثيرات الكلاسيكية في أجزاء معينة من المعبد كالعناصر الزخرفية الكلاسيكية التي تزينها وكذلك بعض الأعمدة وغيرها (٢).

١- **معبد أرتميس** Artmis: بُني المعبد تكريساً للإلهين أرتميس، وأبولون، اللذين اعتُبرا مؤسسين للسلالة السلوقية(٣)، لكن الإلهة كانت تعرف فيه باسم نانايا البابلي، ويتألف المعبد من ثلاثة مشاكٍ مصفوفة في حجرة يسبقها رواق متطاول ومجّهز في الواجهة بطريقة غير متناسقة بمصلى على شكل مصطبة، أعيد بناؤه كاملاً خلال ثلاثينات القرن الأول قبل الميلاد وتم توسيعه فيما بعد، وضمَّ في فنائه مبنىً معزولاً عن قاعات الولائم المتوزعة حوله. كانت أرتميس تُعبد في دورا أيضاً في هيكل آخر

حيث كان اسمها المحلي ازنتكونا، لكن جنود الحامية الرومانية في القرن الثاني طابقوه مع منيرفا Minerva[4] . نجد في هذا المعبد مصليين ويسبق كلا" منهما مدخل، ويرجع أحد المصليين إلى بداية القرن الأول بحسب كتابة مكتشفة.

٢- **الهيكل المسمى بالمقبرة** والواقع خارج السور بُني في عام ٣٣ ق.م كان مكّرساً للإلهين بل ويرحيبول[٥]، يشتمل في صدر فنائه على غرفة مربعة مع مشكاة من الشكل نفسه في مواجهة المدخل.

٣- **معبد أترغاتيس** Atargatis: بني بين عامي ٣١ و٩٢ ميلاديين، يقع هذا المعبد في وسط المدينة، كان لهذا المعبد مدخل مزود بدرجات ويحتوي على ثلاث مشاكٍ في صدر القاعة، عثر في داخله على نقش بارز يمثل الإلهة أترغاتيس والإله حدد[٦].

٤- **هيكل زيوس كيريوس** Zeus Kryios: يقع خلف السور الغربي وهو عبارة عن هيكل صغير يتألف من سور يستند إلى سور المدينة ويحتوي على مذبح مؤرخ بعامي ٢٨ و ٣١ ميلاديين[٧]، (الشكل ٢).

٥- **معبد غدّه (المصائر)** Gaddé: كان يقسم إلى جزئين منفصلين لكل منهما باحة وهيكل، كان الجزء الأقدم الذي يرجع إلى عام ١٥٠ ميلادي يشتمل على مصلى أعمق من المعتاد مع ثلاث مشاكٍ كانت تحفظ النقوش خفيفة البروز لربتي المصير ولملكبل الشمسي التي قدمها كاهن تدمري. يتم الدخول إليه عبر مدخل مغطى باللوحات الجدارية وبالمثل كان المصلى الآخر يشتمل على عدة مشاكٍ مخصصة لنصب منحوتة (الشكل ٢).

٦- **معبد ازنتكونا** Azzanathkonna: يقع خلف السور الشمالي ويعود بناؤه إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للميلاد ويحتوي على هيكلين مقدسين.

٧- **هيكل الآلهة التدمرية:** يقع في إحدى زوايا سور المدينة كان يتألف نحو عام ٥٠ ميلادي من فناء يتقدم مصلى رئيساً مستطيل الشكل، عرضه أكبر من عمقه، وتحيط به الملحقات وقد أضيف إليه فيما بعد العديد من الغرف. كان الهيكل مكرَّساً لزيوس الذي لم يكن يتصف بأي شيء تدمري من نوع خاص، لكن اللوحات الجدارية المتأخرة فيه تمثل صوراً لآلهة ويُضحِّي أمامها جنود وحدة تدمرية.

٨- **معبد أفلد** Aphlad يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من السور وهو مكرّس لإله مدينة عنة على الفرات، شغلت صورة هذا الإله المحارب على نقش خفيف البروز ووضعت في صدر مصلى معزول بني في عام ٥٤ ميلادي وأضيف إليه فيما بعد مصلىً آخر.

٩- **هيكل زيوس ثيوس** Zeus Theos: بني نحو عام ١١٤ميلادي وهو عبارة عن غرفة عريضة ومزودة بمدخل، وقد وضعت على جدارها في الصدر صورة ملونة للإله في ثيابه العسكرية في وضعية الوقوف، يتوّج بأكاليل النصر، أما مشاهد التضحية فقد مثلت على الجانبين الصغيرين، (الشكل ٣).

١٠- **معبد زيوس مجيستوس** Zeus Megistos: يقع في الجهة الجنوبية- الشرقية من المدينة، ويعود بناؤه إلى عام ١٦٩ ميلادي، كان مخططه غير منتظم مثل المعابد الأخرى، يتألف من ثلاث غرف في حين أن معبد أدونيس أترغاتيس الذي يرجع تاريخه إلى عام ١٥٢ ميلادي كان يتألف من خمسين غرفة منها العديد من المصليات التي أضيفت تباعاً.

١١- **المعبد العسكري:** يتألف من قاعة واحدة ويعود إلى العصر الروماني وهذا التاريخ مثبت من خلال نص مكتشف في هذا المعبد، سمي بهذا الاسم لأن الجنود الرومان كانوا يرتادونه.

١٢- **معبد بل** Bêl: يقع في الزاوية الشمالية الغربية من السور ومكرّس للآلهة التدمرية، يعود إلى عصر سيطرة البارثيين على المدينة، ويشتهر هذا المعبد باللوحات الجدارية التي تم الكشف عنها في عام ١٩٢٢ ميلادي(٨).

١٣- **المعبد الشمالي** Temple nord: يقع شمال شرق المدينة، لم ينقب عنه بشكل كاف ولازلنا نجهل اسم الإله المكرّس له هذا المعبد.

١٤- **معبد الميثرايوم**: **Mithraeum**، كان مكرّساً للإله ميترا(٩)، يعود تاريخ بناؤه إلى عام ١٦٨ ميلادي ويقع بالقرب من السور الغربي في الجهة الشمالية منه وله مخطط مستطيل الشكل، أعيد بناء هذا المعبد عام ٢٤٠ ميلادي.

١٥- **الدولشينوم** Dolichenius: يقع في الجهة الجنوبية-الغربية من قصر دوكس ريباي له مخطط مستطيل غير منتظم، مرَّ بناؤه بثلاث مراحل بين ٢١١ و٢٥١ ميلاديين. وقد كُرّس للإله دوليشنوس الذي كان يعرف في العصر الروماني بجوبيتر الذي كان ذو شعبية كبيرة لدى الجيش.

١٦- **معبد أدونيس**(١٠): يقع في الجهة الغربية من المدينة بالقرب من باب تدمر، كان مكرّساً لإله فينيقي ويعود إلى عصر سيطرة البارثيين على المدينة. بني هذا الصرح الفريد من قبل أشخاص قدموا من الساحل وهذا ما دلّ عليه وجود فخاريات ذات أنماط ساحلية في المعبد، بدلاً من الفخاريات التي ترجع بنمطها إلى بلاد الرافدين التي وجدت في مستودعات المعابد الأخرى في المدينة.

تدمر ومنطقتها:

تعد مدينة تدمر من أكثر المدن غنى لعدد المعابد المهمة التي لا تزال تحافظ على حالتها المعمارية بشكل جيد وهي تعود إلى فترة ازدهار المدينة خلال القرون الثلاثة الأول بعد الميلاد ومن هذه المعابد:

١- **معبد بل:** من أهم المعابد في تدمر خاصة وفي سورية عامة، كان مكرّساً للإله بل بشكل أساسي وللثالوث الإلهي الذي يضم الرب بل – ويرحبول "رب الشمس" وعجلبول "رب القمر". دُشّن سنة ٣٢ م وتم الانتهاء من بنائه في القرن الثاني الميلادي وتهدم خلال الحرب التي قامت بين تدمر والرومان سنة ٢٧٢م [١١].

يتألف هذا المعبد من الهيكل الرئيس الذي يقع في وسط باحة مربعة واسعة (تمنوس) تبلغ أبعادها ٢١٠×٢٠٥م، ويحيط بها سور مزود بأروقة محمولة على أعمدة ذات تيجان كورنثية ويوجد درج لولبي في الزاوية الشمالية كان يؤدي إلى سطح الرواق. كما يوجد أمام هذا الهيكل عدة ملحقات مذبح الأضحيات، وحوض التطهر، وقاعة للولائم (الشكل ٤).

نجد في هذا المعبد التأثيرات الكلاسيكية المتمثلة في التيجان الأيونية، والكورنثية، والجبهات المثلثية والبنية العامة للهيكل. أما العناصر المحلية فتتمثل بالأبراج فوق الهيكل وكذلك وجود محرابين داخل الهيكل كما أن بوابة الهيكل شبيهة بالبوابات المصرية، أما بالنسبة للزخارف الموجودة في هذا المعبد فهي غنية ووفيرة من الأشكال النباتية والهندسية والحيوانية.

يتم الدخول للمعبد من خلال درج عريض ينتهي برواق خارجي له ثمانية أعمدة يفضي إلى بوابة ذات ثلاثة مداخل وعلى طرفيها يوجد برجان مزخرفان، كما يوجد في الجهة الغربية ممر في أسفل الرواق كان مخصصاً للحيوانات المعدة للأضاحي.

شيد الهيكل على مصطبة مرتفعة، بشكل عرضاني بدلاً من امتداده الطولاني على محور البوابة، يحيط به رواق محمول على أعمدة مخددة وتيجان ذات زخارف كورنثية نقشت عليه مشاهد دينية وأسطورية وزخارف حيوانية ونباتية وهندسية (الشكل ٥).

في داخل الهيكل يوجد محرابان كانا مخصصين لوضع تماثيل الآلهة على الطريقة المحلية الشرقية حيث توضع التماثيل داخل المحاريب، على عكس اليونانيين الرومان الذين يضعون تماثيلهم في الهيكل فوق قواعد. وكان المحراب الجنوبي مخصصاً للرب بل والمحراب الشمالي لباقي الأرباب. زيّن سقف المحرابين بزخارف دينية بطريقة رائعة(١٢).

٢- **معبد نبو:** يقع هذا المعبد إلى الغرب من قوس الشارع المستقيم(١٣)، حيث تم البدء ببنائه في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي وتم الانتهاء منه في نهاية القرن الثاني الميلادي، تعرض للتدمير في عام ٢٧٢ ميلادي (الشكل ٦).

كرس المعبد للإله نبو (يطابق باليونانية أبولون)، ويتألف من الهيكل الذي بني على منصة وسط باحة المعبد ويتجاوز طوله العشرين متراً وعرضه التسعة أمتار. يحيط بهذا الهيكل رواق محمول على اثنين وثلاثين عموداً من الطراز الكورنثي، أما في الداخل فإننا نجد محراباً لتمثال الإله وبقربه توجد آثار درج صاعد نحو السقف المزين بالشراريف التي حملت على الأعمدة الدورية، كما يوجد مذبح مشيد من الحجر الكلسي بني أمام الهيكل (١٤).

يحيط بالمعبد سور خارجي على شكل شبه منحرف غير منتظم حيث تقع البوابة الرئيسة في جهة الجنوب تكتنفها ثلاث غرف متصلة مباشرة بالأورقة الداخلية حول باحة المعبد، كما يوجد كذلك خزان ماء لتطهر الكهنة.

٣- **معبد بعلشمين:** يقع هذا المعبد في الجهة الشمالية من المدينة تم تكريسه للإله بعلشمين (سيد السموات وإله المطر والخصب في تدمر). بني في القرن الثاني للميلاد وكان قد بني فوق معبد أكثر قدماً منه يعود إلى بداية القرن الأول للميلاد لم يبق من آثاره سوى غرفة المائدة وبعض الأروقة ومدفن عتيق (الشكل ٧-٨).

يتألف المعبد من هيكل وباحتين شمالية وجنوبية بهما أروقة، يحمل هذا المعبد بعض الخصائص الشرقية كالعضائد الخارجية والنوافذ وعدم وجود الأساس المدرج تحت الهيكل[١٥].

٤- **معبد اللات:** يقع هذا المعبد في الحي الغربي من المدينة وقد كرّس للربة الأم عند العرب، وربة الحرب، ورمزها الأسد وتقابل الربة أثينا عند اليونان. يعود تاريخ هذا المعبد إلى القرن الثاني الميلادي. أظهرت التنقيبات أن هذا المعبد بني فوق معبد أقدم منه يعود إلى القرن الأول للميلاد.

يتألف المعبد من مدخل رئيسي ينفتح على رواق من ستة أعمدة يفضي إلى الهيكل ذي الأبعاد (١٩م × ١٠م) وكان يحيط به رواق محمول على أعمدة كورنثية الطراز ويقع الهيكل وسط ساحة مستطيلة واسعة بأبعاد (٧٢×٢٨) [١٦] (الشكل ٩).

٥- **معبد بلحمون ومناة:** يقع هذا المعبد في قمة الجبل الغربي (المنطار في تدمر)، بني عام ٨٨ ميلادي، وقد كرّس لإله كنعاني وللإلهة مناة (إلهة القدر).

تم التعرف أيضاً على نحو عشرين معبداً صغيراً في البادية السورية، وهي عبارة عن مبان مربعة الأضلاع غير منتظمة المخطط ذات أبعاد متوسطة تقريباً، تتميز بوجود دكة في مواجهة المدخل مخصصة لحمل نقش بارز. وكان بعضها معزولاً، يزود أحياناً بقاعة تستخدم كقاعة للولائم ومكان لعبادة الآلهة.

أما أكثر المعابد تطوراً فنجده في خربة سمرين باسم معبد أبجل وقد أُسِّس في عام ١٩٥ميلادي، يتشكل الناوس فيه من غرفة واقعة عند مقدمة مغارة صغيرة، وهو يحتوي على دكة (مصطبة)، كانت تحمل نقشاً بارزاً للعبادة ويوجد أيضاً باحة غير منتظمة وفي وسطها كان يوجد بناء صغير يلعب دور مصلى آخر ويحيط بها عدة غرف خصص بعضها كقاعات للولائم.

أما هيكل اللات الصغير في خربة الصانة، فهو أبعد في البادية باتجاه شمال غرب تدمر ويتألف من غرفتين متطاولتين متجاورتين. تشير الدلائل الأثرية بأن البادية السورية كلها كانت غنية بهياكل من هذا النوع ومكرسّة لدى شعب بدوي أو تحضّر منذ فترة وجيزة(١٧).

أما في موقع أسرية، الذي يقع بين تدمر وحلب وسط البادية السورية، فيمكن من خلال التزيينات المعمارية الموجودة تأريخ هذا المعبد إلى أواخر العهد السيفيري(١٨)، إلا أن الكتل المعاد استخدامها عند المقطع الجانبي السفلي للمنصة تشير إلى أنه كان يوجد في هذا الموضع بناء أقدم (١٩). يتألف المعبد من بناء ذي بهو معمد، والهيكل المتبقي منه في حالة حفظ جيدة وهو غني بالزخارف المختلفة. يؤدي درج في الجدار الشرقي من الهيكل إلى الأعلى وبالتأكيد نحو السطح وقد غطي الهيكل بآجر.

معابد المنطقة الجنوبية:

تُعدُّ هذه المنطقة من المناطق الغنية بالمعابد ذات السمات المحلية الواضحة على الرغم من وجود عناصر زخرفية كلاسيكية فيها ويَعدُّ معبد سيع في منطقة السويداء من أهم وأقدم المعابد في جنوب سورية حيث يتألف من هيكل رئيسي يتوسط فناءً واسعاً محاطاً بأروقة يوجد في صدره هيكلان أحدهما للإله بعلشمين والآخر أصغر منه عثر عند جداره على تمثال سيا (الإلهة الحامية)، وثمة هيكل ثالث يفضي إلى الباحة الأولى للمعبد لكنه أحدث ويمثل مخططاً مختلفاً.

يتألف هيكل بعلشمين من غرفة مربعة الشكل طول ضلعها بين ٧ و٨ أمتار تتوسطها أربعة أعمدة على شكل مربع وضعت كَحَلٍ تقنيٍ لدعم سقف قاعة ذات أبعاد كبيرة، وقد كان الهيكل محاطاً بسور مربعٍ ويتقدمه عمودان عند المدخل، وعند واجهته كان يوجد برجان. (الشكل ١٠-١١)

أما معبد سيع الثاني فهو عبارة عن مبنى متطاول يتألف من هيكل مربع الشكل شبيه بمخططات المعابد المعروفة في بلاد الأنباط ذات الشكل المربع، مثال (معبد قصر البنت في البتراء)، كما يوجد في المنطقة ذاتها (اللجاة) معبد آخر صغير الحجم واقع في منارة حنو، على طرف الطريق الروماني وهو مصلى مربع طول ضلعه نحو ٤ أمتار تقريباً ولا حوامل داخلية فيه.

طرحت بعض الفرضيات حول تأثر الشكل المعماري للمعابد المربعة الموجودة في هذه المنطقة ببعض الصروح المقدسة في إيران، لكن يكتنف هذا الموضوع بعض الغموض حول وصول هذا التأثير المعماري إلى منطقة حوران والتبرير الديني له أيضاً، وبشكل عام فإنه لا يمكن فصل معابد هذه المنطقة عن البيئة الواحدة التي تجمعها مع بعض المناطق الجنوبية التي تجاورها نوعاً ما كتلك المعابد الموجودة في منطقة البتراء فهي ذات هيكل مربع الشكل ولهذه المعابد أربعة أعمدة في الداخل(٢٠).

تمتاز معابد المنطقة الجنوبية بواجهاتها وبمداخلها الغنية بالمنحوتات المختلفة والتزيينات الجدارية والتماثيل النصفية حيث حملت صفة بارزة عن غيرها من المعابد، فالواجهات التي تزينها المنحوتات المصورة في سيع نسور بعلشمين السماوية، أسود أترغاتيس أو اللات، تماثيل نصفية مع قرن الخصب على رؤوس الأعمدة وتمثال نصفي شعاعي الشكل للشمس على باب الفناء ذي الدكات والذي يكرر تزيين مداخل الهيكل الرئيس.

كما تعد المشاكي الجانبية عنصراً معمارياً يميز مداخل تلك المعابد في سيع، ويوجد في هيكل معبد في السويداء صفات لهياكل حوران في العصر الروماني (٢١).

ومن أحد الأساليب المعمارية التي عرفتها المعابد المبنية في منطقة حوران تشييد الأقواس في الهيكل من أجل حمل السقف، مثال على ذلك الهيكل الموجود في موقع عتيل الذي لا يزال القوس الداعم للسقف قائماً فيه حتى الآن.

هناك أسلوب معماري آخر ميّز معابد تلك المنطقة هو احتواء بعض هياكلها على حنية وظيفتها الرئيسة أنها تحوي تمثالاً كغيرها من المشاكي الموجودة في واجهات صروح مختلفة في سورية، في مناطق أخرى. ففي المعبد المسمى كليبة في مدينة شهبا وهو على شكل إيوان مفتوح يضم عدة محاريب كانت توضع فيها تماثيل العائلة الإمبراطورية العائدة لفيليب العربي، ولدينا بناء آخر قريب من الكليبة، يدعى بالهيكل سداسي النمط وشبيه به وهذان الصرحان ينتميان إلى النمط المعماري اليوناني الروماني، المتبع في بناء معابد النيمفاي (حوريات الماء)، مع كونهما غير مجهزين بمنشآت مائية[٢٢].

إن وجود الحنية في بعض هياكل المعابد بمنطقة حوران هو نموذج محلي حوراني خالص، تملك هذا العنصر أيضاً الأبنية المعروفة باسم Prétoire وتعني مقر الحاكم، كما يوجد شبيه له في منطقة الصنمين يحتوي هيكل الصرح مربعاً بني سنة ١٩١ ميلادي، يضم تمثال ليتخي في مشكاة. يتشابه هيكل الصنمين مع مقر الحاكم في المسمّية حيث يوجد في كلا المعبدين حنية بين حجرتين ملحقتين [٢٣] (الشكل ١٢).

أما في منطقة القنوات فقد بني على أحد سفوحها ثلاث مصاطب يعلوها ثلاث معابد حيث ينتصب على المصطبة الأولى الواقعة عند الحافة الجنوبية معبد كرس للإله زيوس ماغيستوس يعود الجزء الأصلي منه إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي حيث بني فوقه مبنى جديد بعد أن تم تدمير الهيكل المركزي في مطلع القرن الثالث الميلادي (الشكل ١٣).

وفوق المصطبة الثانية الواقعة إلى الغرب من الأولى بني المعبد المسمى بالمعبد ذي الصالة العريضة الذي يتميز بالهيكل ذي الوجهة الأفقية وعلى المصطبة الأخيرة والأدنى منهما شيد معبد ذو بهو معمد حيث يحوي الهيكل حنية بثلاث صدفات وإلى الشرق منه يقع فناء محاط بأبهاء معمدة.

بالإضافة إلى المعابد المذكورة يوجد معبد بني أيضاً على مصطبة في موقع بارز سمي بمعبد رابوس نسبة إلى الإله المحلي رابوس وجرى على المعبد عدة تطورات خلال الفترة الممتدة من العصر الهلنستي وحتى القرن الثالث الميلادي.

وأخيراً لدينا معبد ربات المياه في القنوات وهو بناء مغلق من ثلاثة جوانب، تتجه واجهته المفتوحة نحو الوادي، ويشبه البناء المغطى بشكل مقبب معابد ربات المياه الإيطالية(٢٤).

دمشق ومنطقتها:

لم يعثر في المدن الكبرى مثل إنطاكية، دمشق، اللاذقية، الخ على معابد واضحة المعالم من العصر الروماني على الرغم من أنها بقيت تحافظ على أهميتها كمدن كبرى في العصر الذي تلاه ولكن يوجد في مدينة دمشق بقايا معبد سمي جوبيتر، الإله الروماني الذي يقابله الإله المحلي حدد، الذي كرس من أجله المعبد. حيث كان يتألف في العصر الروماني من فناء واسع يسمى التمنوس محاط بسورين أحدهما داخل الآخر، يوافق السور الداخلي منهما حالياً سور المسجد الأموي وكان الهيكل يقوم في الوسط تحت فناء المسجد الحالي ولم يبق منه شيئاً وهو يعود إلى القرن الثاني الميلادي(٢٥).

تتواجد الهياكل التي لا تزال في حالة جيدة من الحفظ في المناطق المنعزلة البعيدة عن التجمعات الكبرى وأحد أهم هذه الهياكل هو قصر نمرود في جبال لبنان الشرقية حيث دلت كتابة موجودة فيه على أنه يعود إلى القرن الأول الميلادي-٥٦ ميلادي- حيث أحيط هذا المبنى خلال القرن الأول بصف من الأعمدة دورية الطراز. وكذلك يوجد معبدان محفوران في الصخر في موقع عين منين حيث نجد العديد من الملحقات تابعة لهذين المعبدين مع بقايا لسور دفاعي، يبدو من خلال الدراسات التي تمت في الموقع على أن المعبد الكبير قد بني في العصر الروماني وربما كان مكرساً للإله جوبيتير أما

المعبد الصغير فقد بني بعد المعبد الأول خلال نفس العصر وقد تحول المعبد الكبير إلى كنيسة خلال العصر البيزنطي[٢٦].

أما في منطقة الضمير الواقعة شمال شرق دمشق فيوجد هيكل لا زال محافظاً على حاله عدا السقف، بني في منتصف القرن الثالث الميلادي (٢٤٥ ميلادي) وكان يدعى ناوس أيخالاس، ويعني بالآرامية هيكل أيخالاس، وهو يحوي بابين ولا تزال عند الزوايا أبراج متوجة بشرافات وعلى ما يبدو أن السقف كان مسطحاً.

أما في جبل حرمون فيوجد معبد برقش وهو مستطيل الشكل يحوي حنية في داخله وممرات على جوانبه الثلاثة الخارجية مع مدخل مستقل من الخلف، بني في مستوٍ أخفض من عتبة باب المدخل، وكامل الجزء الأمامي من المبنى بني في فترة لاحقة.

يوجد أيضاً معبد رحلة، الذي يقع في المنطقة ذاتها ويتألف من هيكل يحوي تزييناً كاملاً من المشاكي ذات الأعمدة الصغيرة المتوضعة على جانبي المشكاة المركزية وعلى ما يبدو كان يستخدم لعرض التماثيل وبالتالي ينتمي للعائلة نفسها التي ينتمي إليها تيخيون الصنمين أو مقام شهبا[٢٧].

معابد وسط سورية:

1- معبد الشمس:

بالرغم من أهمية معبد الشمس في مدينة حمص خلال العصر الروماني فإننا اليوم لا نملك معلومات كافية عن طبيعة هذا المعبد وعن شكله المعماري أو حتى عن موقعه بشكل دقيق، علماً أن المؤرخ هيروديان مثلاً تحدث في كتابه عن تاريخ الأباطرة الرومان حول هذا المعبد وأهميته الدينية على مجمل المنطقة ولكن المعلومات الأثرية غير متوفرة باستثناء بعض الصور المنقوشة على المسكوكات التي ضربت في هذه

المدينة والتي تعطي بعض الإشارات حول عناصره وعن شكله الكلاسيكي من خلال وجود الرواق الأمامي والجبهة المثلثة[٢٨].

يصف هيروديان في كتابه عن تاريخ الأباطرة الرومان هذا المعبد فيقول:

"لقد تم بناء معبد كبير على شرف إيلاجبلوس Elagabalos، وهو مزين بكمية كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. وهذا الإله لم يكن معبوداً في هذه المدينة من قبل السكان المحليين فحسب، بل من قبل كل الحكام الفرس والملوك البرابرة المجاورين الذين كانوا يتنافسون بين بعضهم البعض لتقديم الأعطيات كل عام. أما تمثاله الشعائري فلم يكن يشبه تماثيل الإغريق والرومان، الذي لم يكن من صنع الإنسان، ولم يكن يقصد منه تمثيل الذات الإلهية. وهو عبارة عن قطعة كبيرة من الحجر، مستديرة ومدببة من طرفها الأعلى على شكل مخروط، ولونها أسود. ويتحدث سكان المدينة عنه كما لو كان قد سقط من السماء، ويشيرون إلى آثار صغيرة لحزوز وأثلام، يريدون أن نرى فيها الصورة غير التامة للشمس، لأنهم ينظرون إليه بحب".

يشير ر.توركان R.Turcan في قراءته لهيروديان Herodian إلى أن هذا الأخير لا يعطي أية معلومات عن عمارة المبنى وبنيته ووظيفته، ولا عن شكل المذبح. وبالنسبة له تساعدنا نقود الإمبراطورين كركلا وإيلاجبال (إيلاجبلوس) Heliogabal ثم أورانوس انطونيوس على تخيل شكل هذا المعبد الضخم، فهو عبارة عن "حرم واسع ذي شكل مستطيل محاط بالأعمدة من جهاته الأربع، ويرتفع على مصطبة عالية، أما الدخول إليه فيتم عبر درج كبير. ويبدو أن هذه المصطبة كانت لتسوية الحدبة في الأرض حيث كان رمز الإله، الحجر الأسود ذو الرأس المدبب، منتصباً، وهو الذي تظهر صورته بين الأعمدة في وسط الواجهة وخلف نسر على قطعة نقد كركلا. وفي مثلث الواجهة، نستطيع تمييز الهلال، بالإضافة إلى شكل مستطيل لم نتمكن من تفسير معناه" (الشكل ١٤).

ويضيف أيضاً: لقد كان الحجر الأسود معروضاً للعبادة، وهو محمي بحاجز بين مظلتين كبيرتين تلمع عليهما الأحجار الكريمة. وأمام هذا الرمز شبه المخروطي، بين حاملتي شموع مشتعلتين، وضعت منضدة التقدمات، وتحتها نقود أورانوس انطونيوس التي تظهر أمفورة كبيرة وعريضة. ولابد أن هذا الوعاء كان يحوي الماء المقدس الذي يتم رشه، والخمر الذي كان يحفظ ليسفح على الضحايا والمذبح ساعة التضحية. وتظهر لنا نقود أخرى لكركلا وأمه جوليا دومنا مذبحاً صرحياً لا يمكن أن يكون قائماً في قدس الأقداس (السيلا) في الحرم، بل في وسط باحة كبيرة مغلقة تابعة للمعبد، والتي كانت تشبه تلك الموجودة في معبد بعلبك أو تدمر.

ويذكر أيضاً أن الكتلة المتوازية المستطيلات للمذبح ترتفع على قاعدة ذات درجة مزدوجة. وتحيط بها أعمدة ذات جذوع منحوتة كما يبدو. وكان متوجاً بكورنيش مقولب بارز كثيراً تحمل زواياه عنصراً تزينياً. أما الواجهة فكانت تضم مجموعتين من الكوى ذات الأعمدة أو الدعامات تأوي ست صور للآلهة أو (الجن؟) المرتبطة بإله الشمس. فإذا افترضنا أن الجهات الأربع للمذبح كانت تحمل العناصر نفسها، فلابد أن نتصور وجود أربع وعشرين كوة تظهر آلهة إيميسا. والأرجح أن الصور البارزة كانت مدعمة بالألوان لتبهر الحجاج والسياح كما تفعل اليوم تزيينات بعض الكنائس البيزنطية. وفي النقود المسكوكة التي تظهر صورة جوليا دومنا، تبدو زوايا الجزء العلوي من المذبح وكأنها على صورة وجه سبع. وتعلو المذبح الشعلة المقدسة، لكن العديد من قطع النقود تظهر كوتين توأمين تنتميان على الأغلب للواجهة خلف المذبح وليس لبنية المذبح نفسه.

لقد اختفى المعبد بما فيه موقعه على الرغم من أهميته. ووفقاً لعادل عبد الحق كان المعبد موجوداً ضمن المدينة نفسها، في الجامع النوري الذي احتفظ ببعض بقايا المعبد القديم(٢٩)، أما توركان فيعتقد أن هذا المعبد كان يقع تحت كنيسة مسيحية مكرسة

لجميع القديسين، ثم تحت جامع حمص الكبير، جامع ابن لوبلادا، حيث ظهرت البقايا النادرة لقاعدة المبنى الوثني [٣٠].

وخلافاً لعبد الحق وتوركان، يعتقد م. موصلي أن المعبد كان على تل إيميسا، وقد أسس فرضيته هذه إثر اكتشاف مذبح عام ١٩٧٤ كان مكتوباً عليه بالإغريقية: "وهب ميداوس بن غولاسيس Maidoas bn Golasis هذا المذبح لإله الشمس إلغابل" (إيلاجبلوس)، وكذلك اكتشاف رأس سبع في الموقع نفسه[٣١].

ونظراً لأبعاد هذا المذبح التي لا تتجاوز المتر المربع، يبدو من الصعب القبول بهذه الفرضية، والأدهى من ذلك أن وزن هذا المذبح يجعله سهل النقل، ووفقاً لنص هيروديان ونقود إيميسا، كان التمثال الشعائري عبارة عن حجر كبير وهذا المذبح، الذي قد يكون عائداً لأحدهم، لا يمكن أن يثبت أن معبد الشمس كان على تل إيميسا (الشكل ١٥).

أما جيفري كينغ G. R. D. KING الذي قام بإجراء التنقيبات الأثرية على تل حمص خلال عدة مواسم بين عامي ١٩٩٥ و١٩٩٩ فهو يرى أنه لا يوجد دليل أثري من التل الأثري يدعم أو لا يدعم فرضية وجود المعبد على التل، إلا أن اسم إله حمص إيلاجبلوس أي إله الجبل (رب الجبل) قد يدعم هذه الفرضية لاسيما أنه لا يوجد في مدينة حمص أي جبل طبيعي ومن الممكن أن يرتبط الجبل بتل القلعة نفسها. ويشير كذلك بأنه لم يتوصل في التنقيبات التي قام بها في التل الأثري إلى الطبقات الرومانية في القلعة (التل) لكنه يؤكد بأنه عثر على كميات كافية من الفخار الذي يدل على السكن في الموقع خلال العصر الروماني، إلا أنه بالمقابل يؤكد أيضاً على عدم العثور على آثار معروفة أخرى يمكن أن تدل على وجود بناء روماني حقيقي مثل المعبد. يستعرض كينغ أيضاً فرضية وجود المعبد في جامع نوري في المدينة القديمة وبرأيه فإن البقايا الأثرية في هذا المكان ضئيلة جداً غير كافية لإثبات وجود معبد في هذا

المكان. أخيراً وأمام ضعف الأدلة الأثرية الموجودة حالياً حول وجود المعبد على التل الأثري أو في جامع نوري يطرح وارفيك بول WARWIEK BALL فرضية عدم تبعية المعبد إلى حمص مثيراً احتمال أن طقوس معبد إيميسا لم تُقَم في حمص، بل كانت تقام في معابد بعلبك الضخمة، يضيف بول أن طبوغرافية المكان ونقص المواد الأثرية في حمص يبرهن على أن بعلبك كانت مركزاً للعبادة تلك(٣٢). ويرى جيفري كينغ بأن فرضية وارفيك بول هي فرضية تشد الاهتمام ولاسيما أن التنقيبات الجارية أو السابقة لم تثبت خطأها أو صحتها(٣٣).

نعتقد أنه من غير الممكن القبول بهذه الفرضية الأخيرة التي تتناقض مع كتابات المؤرخين وخاصة هيروديان الذي أعطى معلومات وافية عن طبيعة هذا المعبد في حمص وليس في مكان آخر، كما أن كتابات المؤرخين تشير بوضوح إلى ممارسة الطقوس الدينية في هذه المدينة من خلال تواجد الإله إيلاجبلوس في مدينة حمص.

إن الطريقة الوحيدة لحل هذه المشكلة هي التنقيب في مكان الجامع إن وجدت فرصة لذلك، وكذلك الاستمرار في أعمال التنقيب على التل على الرغم من تعرض السويات الأثرية لهذا التل إلى التخريب بفعل الأعمال التي كانت تهدف إلى بناء القلعة خلال العصور الإسلامية أو تلك الأعمال التي قام بها الجيش الفرنسي خلال فترة الاحتلال حيث يمكن أن يساعد ذلك على تقدم الأبحاث.

٢- معبد حصن سليمان:

يقع معبد حصن سليمان في محافظة طرطوس، ويعد من أهم المعابد في سورية نظراً للميزات التي تمتع بها هذا المعبد في القرن الثاني قبل الميلاد، وفقاً للنصوص التاريخية، حيث منحه الملك السلوقي ملكية قرية بيتوسيسي وحق اللجوء اليه والإعفاء من الضرائب(٣٤).

كُرِّس بناء المعبد إلى زيوس بيتوسيسي (إله الصواعق والمطر والخصب) [٣٥]، حيث أن بقايا المعبد الحالية تعود إلى العصر الروماني، ويتألف المعبد من هيكل على شكل بناء معمّد قائم على مصطبة، لم يبق منه سوى جزء من جدرانه وعلى ما يبدو كان مبنياً فوق هيكل أقدم منه كان يعود إلى منتصف القرن الأول الميلادي. من المؤكد أن المعبد في شكله الحالي يعود بناؤه إلى القرن الثاني الميلادي، بني بفضل جهود وأموال السكان المحليين[٣٦]. كان يحيط بالهيكل سور التمنوس (١٣٤×٨٥م) الذي بني في القرن الثالث الميلادي في حين تم تشييد مذبح ضخم في عام ١٨٥-١٨٦م[٣٧] (الشكل ١٦).

٣- هيكل الحوريات في أفاميا:

يقع عند تقاطع الشارعين الرئيسين الكاردو والديكومانوس، وهو هيكل ضخم مبني على مصطبة وقد زين بمشاكٍ كانت تشتمل بعددها على تماثيل من الرخام وتمثل الآلهة الرئيسية يونانية- رومانية. وكانت تنتهي على حوض مستطيل ويعلوها نوع من هيكل صغير وجبهة من الرخام الأصفر أما التبليط فهو عبارة عن مربعات شطرنجية من بلاطات وردية وخضراء. ويبدو أن المجموع كان مقبباً بقباب ربعية. وهذا النوع من القباب هي نصف أو ربع قبة كانت مستخدمة في المعابد الرومانية. أما هيكل الحوريات حصراً فكان محاطاً بسلسلة من ثمانية عشر عمودا" متوضعة على شكل نصف دائرة. أما معبد زيوس بيلوس والذي يشرف على الساحة ولم يتبق منه سوى أساس المبنى فيبدو أن هذا المعبد الذي دُمِّر في الفترة المسيحية كان ذا أبعاد هائلة حسب كتابات المؤرخين [٣٨].

القرى الأثرية في المرتفعات الكلسية (المدن الميتة):

تعود المعابد في هذه المنطقة إلى القرن الثاني الميلادي وقد تمت دراسة أربعة معابد رومانية، تتواجد على قمم الجبال وهي:

أ- زيوس مدباخوس ويعني زيوس المذبح، يقع على قمة جبل الشيخ البركات، فالسور في هذا المعبد مزود بالأروقة أما الهيكل (السيلا) فهو بناء ذو واجهة مؤلفة من أربعة أعمدة و قائم على مصطبة في وسط التمنوس، يرجع بناء المعبد إلى نهاية القرن الأول الميلادي وإلى عام ١٤٣ ميلادي وعلى الرغم من حالة الحفظ السيئة في هذا المعبد إلا أنه يمكن التعرف على التقسيمات الداخلية فيه (الشكل١٧).

ب- معبد زيوس تورباراكوس (الجبل المبارك) يقع على قمة جبل سرير، في منطقة سرمدا في محافظة إدلب، وتم إنجاز بنائه على مرحلتين بين عامي ١١٦ و١٥٠ الميلاديين، يتألف من هيكل ضيق ومقدمة الهيكل أعرض من الهيكل، وقد تحول المعبد خلال العصر البيزنطي إلى دير.

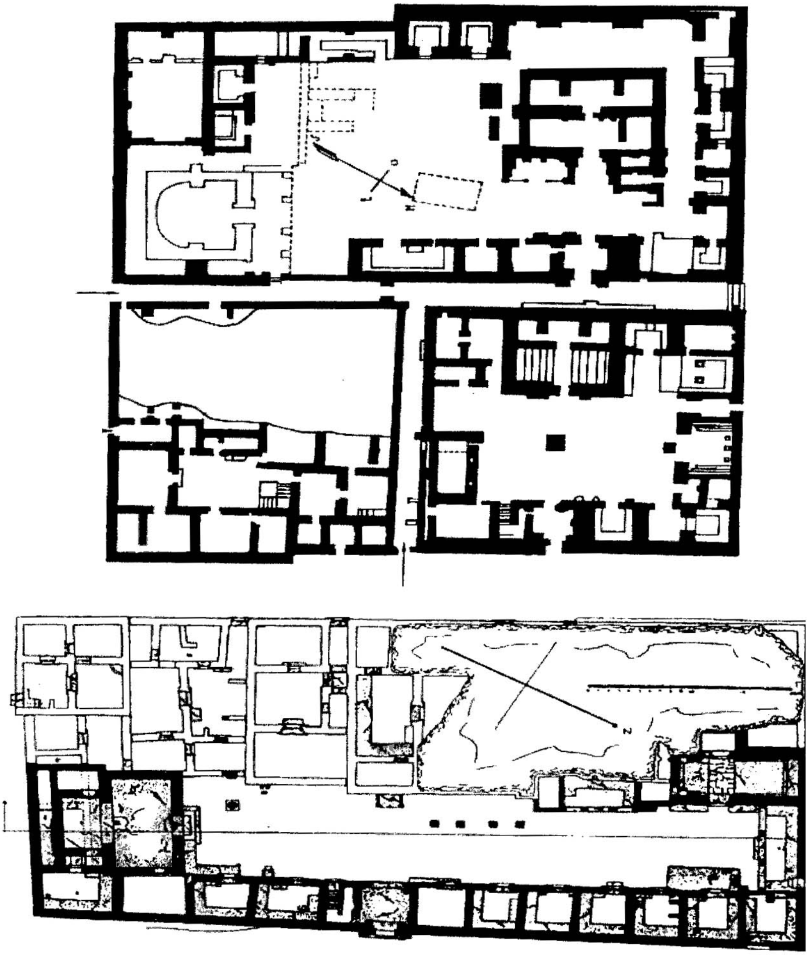
ت- معبد زيوس دوسوس في قرية باقرحا في جبل باريشا، يعود إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين ولازال التمنوس وأجزاء من الهيكل باقية حتى وقتنا الحالي، حيث يعطي لنا صورة واضحة عن طبيعة المعبد الذي بني وفق مخطط كلاسيكي وهو غني بالزخارف المختلفة ذات السمات المحلية والكلاسيكية (الشكل ١٨-١٩).

ث- معبد زيوس سيموس سمبلتيوس في قرية قلعة كالوتا في جبل سمعان، تم بناؤه سنة ١٣٠ ميلادية ويبدو أنه كان مؤلفاً من معبدين، تم تدميره خلال العصر البيزنطي وذلك لبناء كنيسة في مكانه، كما أعيد استخدام أحجار جدران المعبدين السابقين.

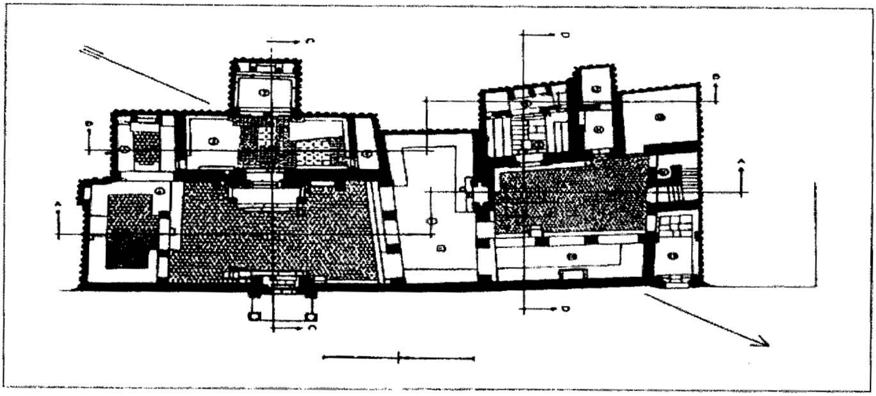
كانت هذه المعابد مكرسّة للإله السوري في أشكاله المحلية التي هُلّنت لتوها وقد بنيت خارج القرى على عكس المعابد في جنوب سورية [٣٩]

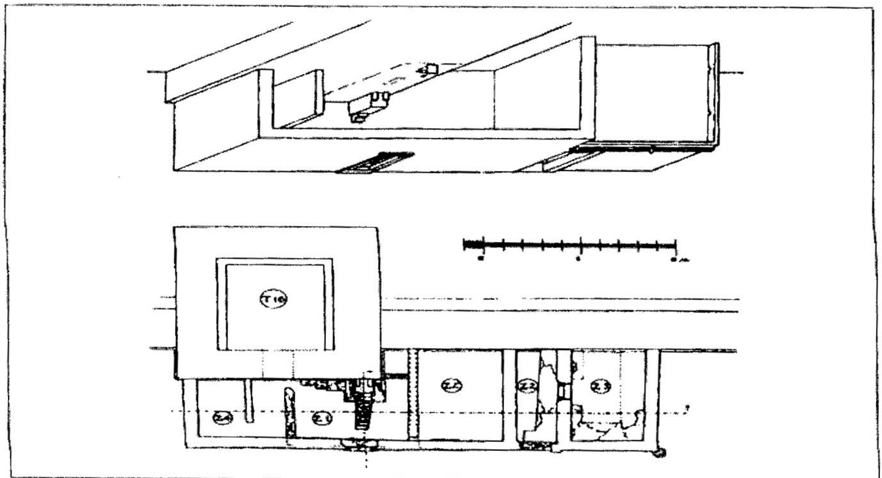
أخيراً بالرغم من التأثيرات الوافدة إلى سورية خلال العصور الكلاسيكية التي كان لها الأثر الكبير على عمارة المعابد وظهور عناصر معمارية عديدة ذات الأصل الكلاسيكي إلا أن الطابع المحلي بعناصره المختلفة بقي موجوداً فيها بقوة.

يمكن القول أن المعابد في سورية كانت حاملة لإرثين: الأول إرث العمارة الكلاسيكية ويتمثل في الشكل الخارجي والعناصر الزخرفية المختلفة وكذلك الجبهات المثلثة في الهيكل، ووجود الأروقة الأمامية للهيكل التي حددت شكله الخارجي. أما الإرث الثاني فهو الطابع المحلي الذي يتجلى في التنظيم الداخلي للهيكل من خلال وجود المحراب أو ثلاث حجرات أو وجود الحنية أو مشكاة إضافة إلى شكل السقف المسطح وأبراج الزوايا والشرافات ولا ننسى الزخارف المختلفة ذات المواضيع المحلية. لقد تم التعامل مع العناصر المعمارية الكلاسيكية بانفتاح ثقافي وتمت الاستفادة منها في عمارة معابدهم وذلك للتأقلم مع ثقافة اليونان والرومان دون تشويه لتقاليدهم المحلية. لذلك يمكننا القول بأن العمارة السورية لم تبق مقلدة أو تابعة إنما أبدعت وأعطت وأغنت الحضارة الإنسانية وعلى كل الصعد وعبر العصور التاريخية المتعاقبة.



الشكل 1: معبد أرتيميس- أتارغتيس- ادونيس (دورا أوروبوس)
من:J-M.DENTZER, 1989, p299

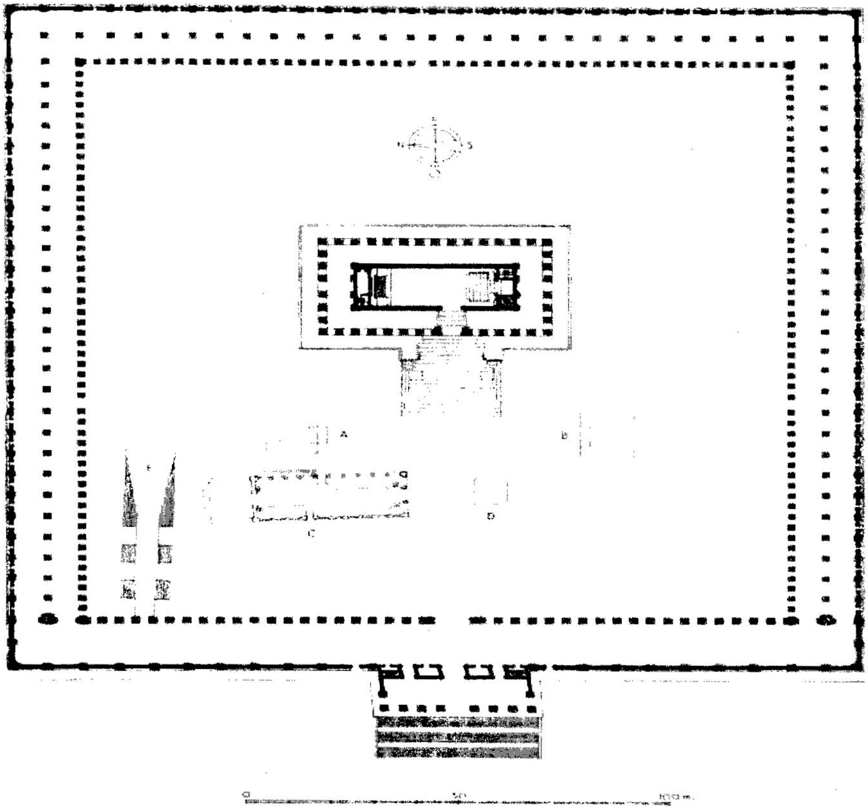




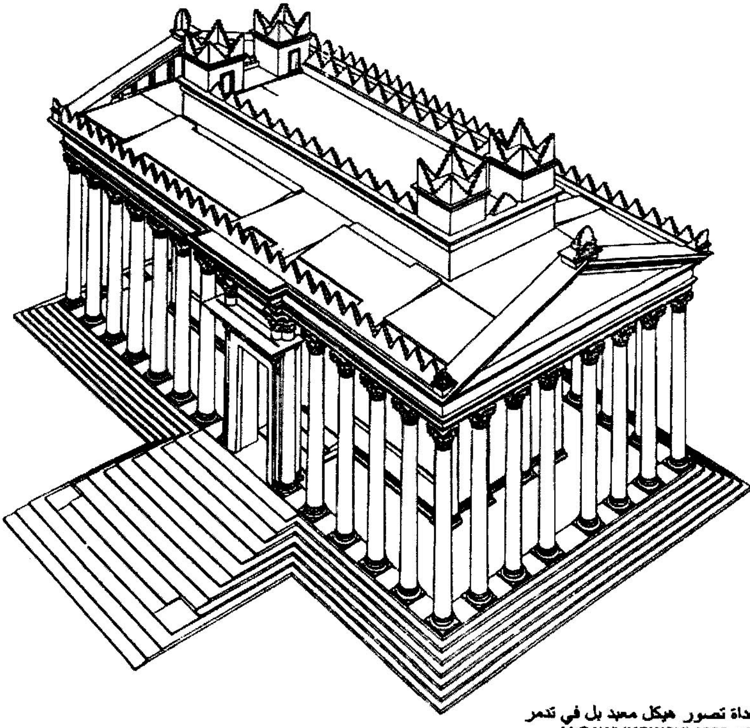
الشكل 2 :معبد غدة في الأعلى وفي الأسفل معبد زيوس كيريوس في دورا أوربوس
عن:J-M.DENTZER, 1989, p300



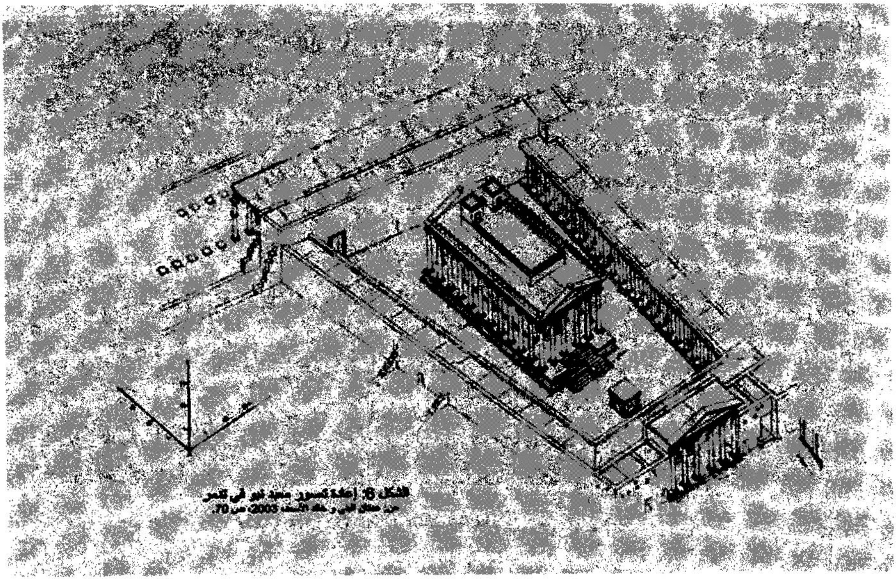
الشكل 3: رسومات على جدران هيكل معبد زيوس تيوس في دورا اوربوس
عن: M.GAWLIKOWSKI, 1989, p326



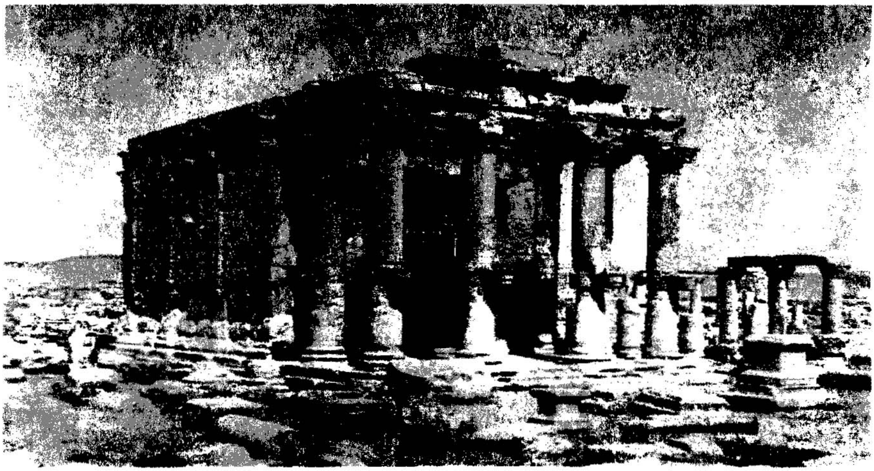
الشكل 4: مخطط معبد بل في تدمر
من: H.SEYRIG.R.DURU et E.WILL, 1968 et 1975

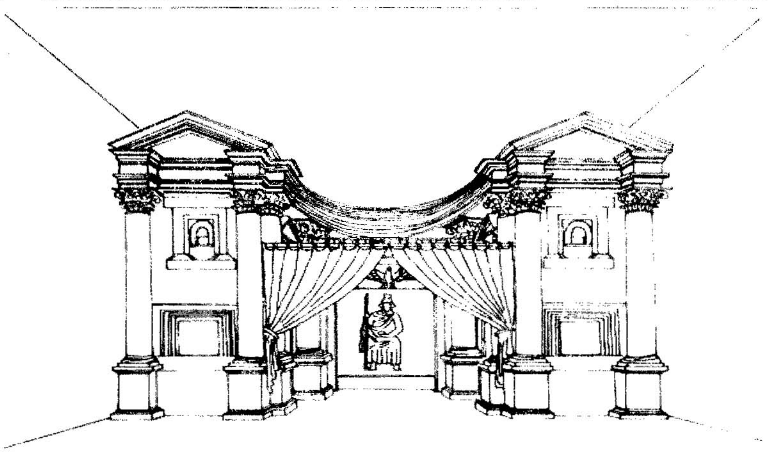


الشكل 5: إعداة تصور هيكل معبد بل في تدمر
عن: M.GAWLIKOWSKI,1989, p341

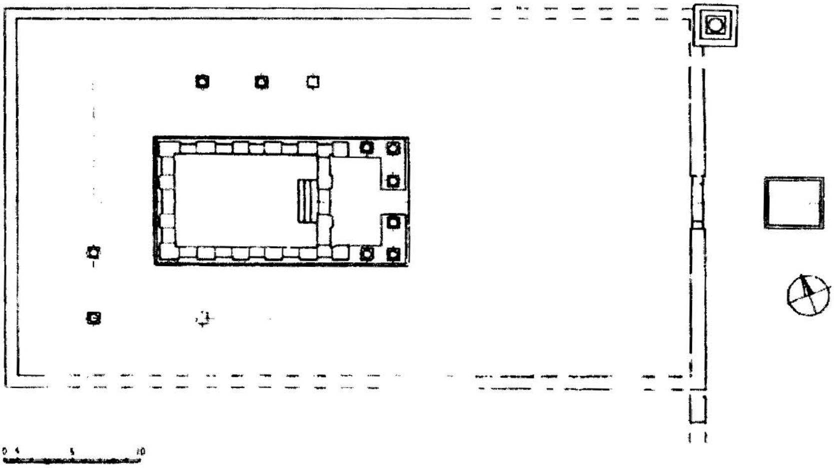


الشكل 18: إعادة تصور معبد بل في تدمر
عن: معاذ الديري و خالد الأسعد 2003، ص 70.

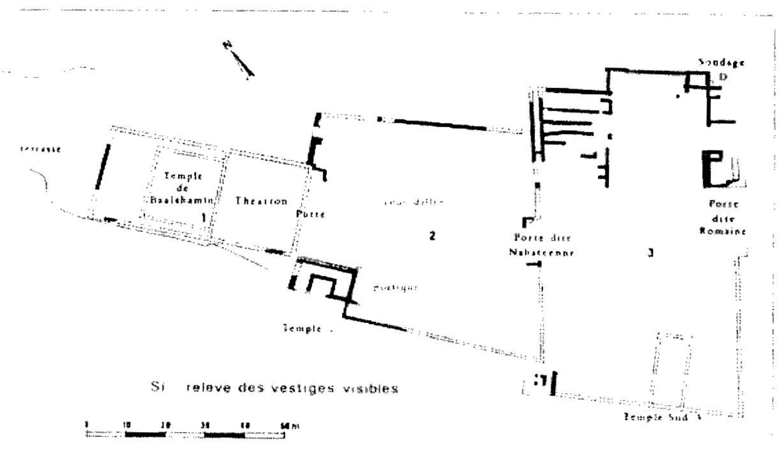




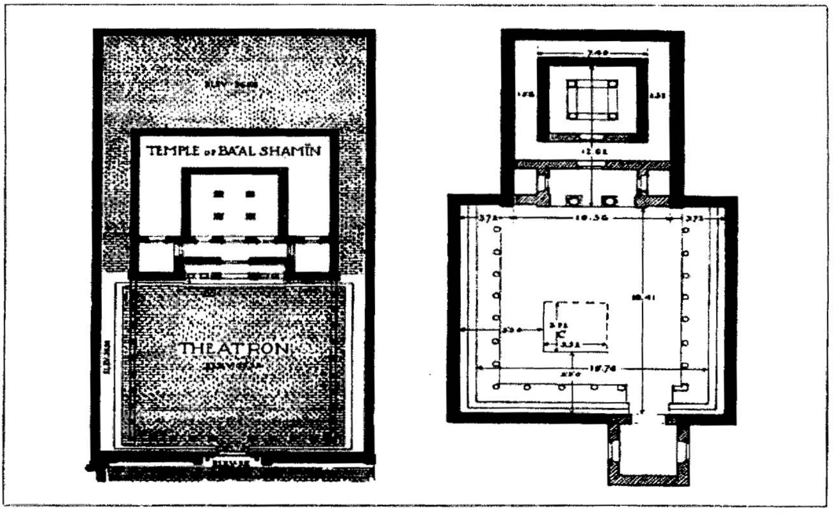
الشكل 8: هيكل معبد بعلشمين و إعادة تصور التنظيم الداخلي للهيكل
عن: J-M.DENTZER,1989,p343



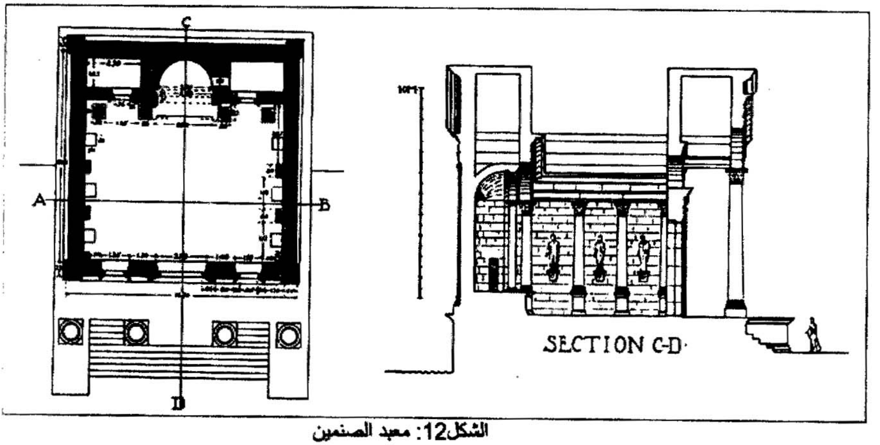
الشكل 9: معبد اللات في تدمر
عن:M.G.AWLIKOWSKI,1989,p344



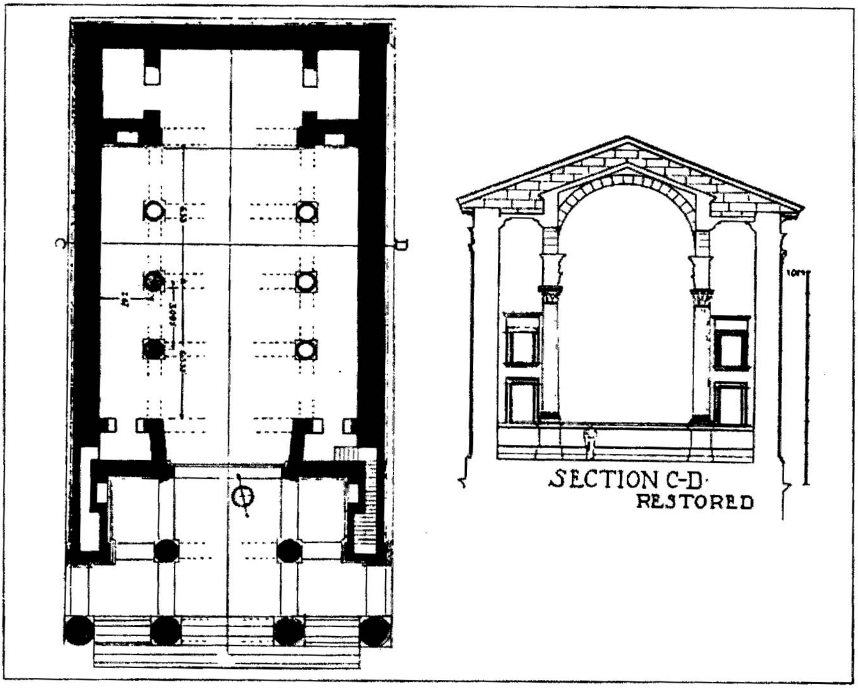
الشكل10: مخطط معبد بعلشمين في سيع
عن:J-M.DENTZER,1989, p303



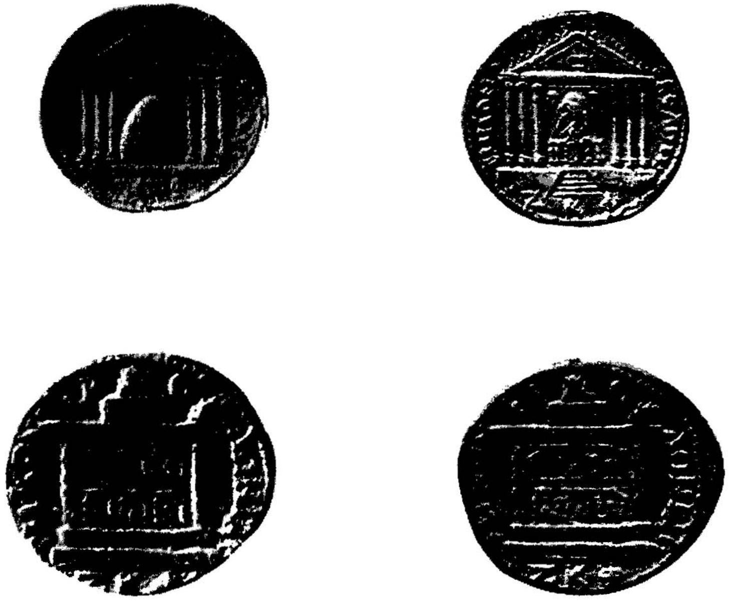
الشكل11: معبد بعلشمين في سيع
عن: M.GAWLIKOWSKI,1989, p328



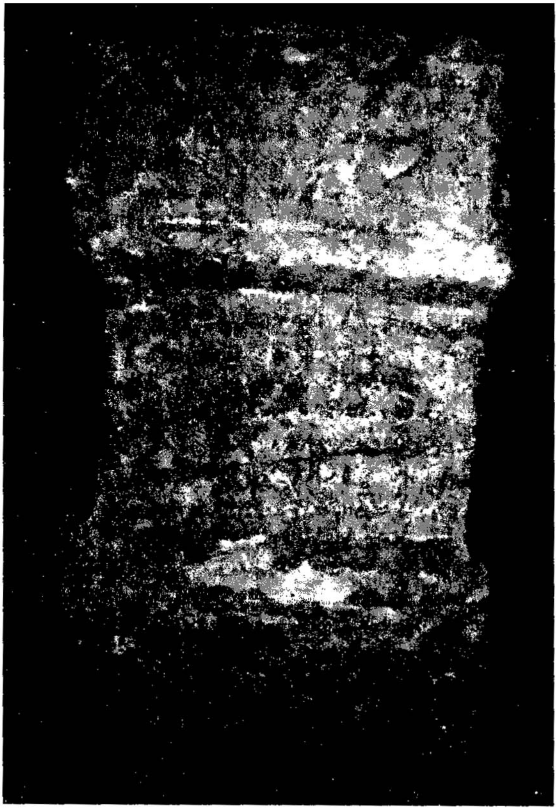
الشكل12: معبد الصنمين
عن: M.GAWLIKOWSKI,1989,p333



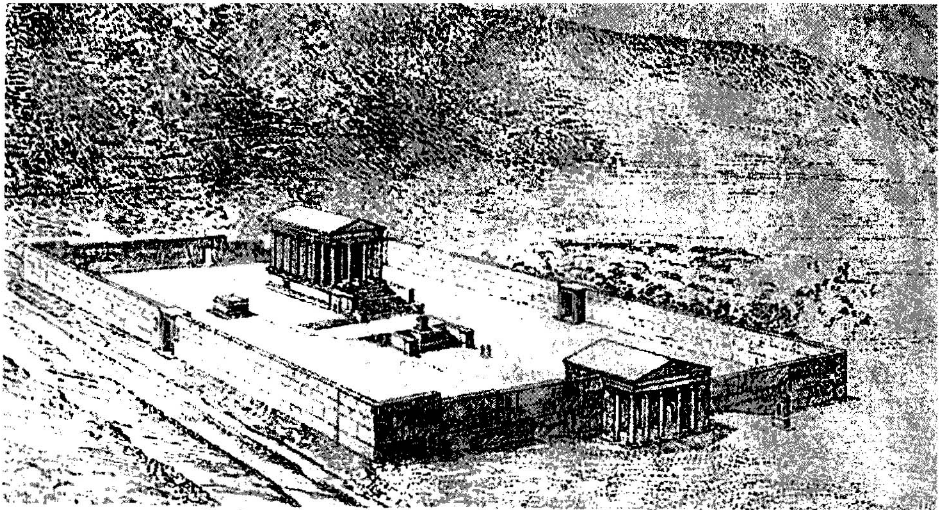
الشكل13: معبد زيوس في قنوات
عن:M.GAWLIKOWSKI,1989,p332



الشكل 14: مسكوكات أورنيوس أنطونينوس التي ضربت في حمص منتصف القرن الثالث الميلادي، حيث نرى في الصور العلوية واجهة معبد الشمس في مدينة حمص وفي الأسفل صور المذبح.

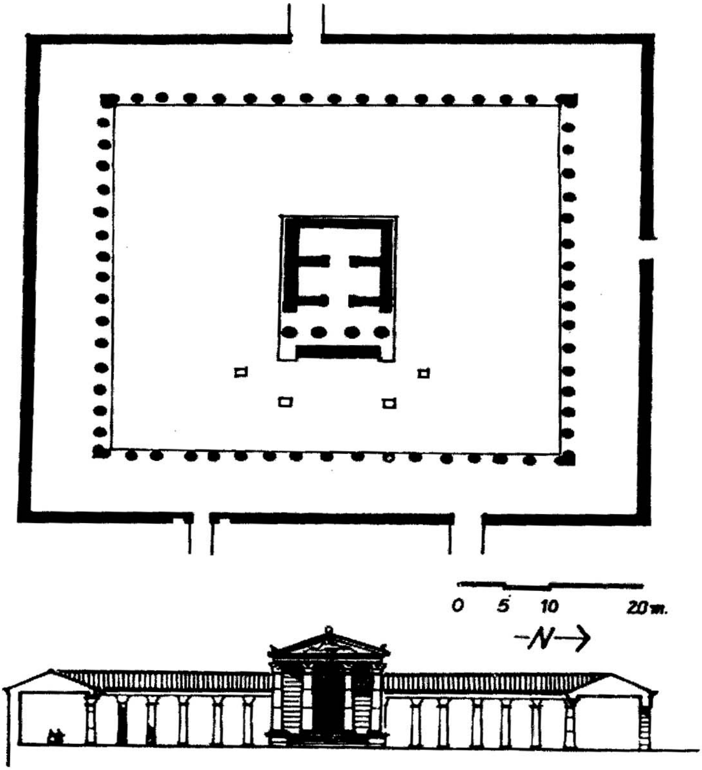


الشكل15: مذبح مكتشف في التل الأثري بمدينة حمص



الشكل 16 إعادة تصور لمعبد حصن سليمان

عن: M.SARTRE,2001,P.921



الشكل 17: مخطط وواجهة معبد شيخ بركات
عن: j-M.DENTZER,1989,p299



الشكل 18: الواجهة الخلفية لهيكل بقرحا



الشكل 19: الواجهة الامامية لهيكل بقرحا

الهوامش

1 J-M.DENTZER, Le sanctuaire syrien, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Saarbrücken, 1989, P.297-322.

(٢) حول معابد دورا أوروبوس انظر :

فرايبرجر، كلاوس: المباني الدينية في دورا أوروبوس، **الجزيرة الد سورية: التـ راث الحضاري والصلات المتبادلـ ـة**، دمـ شق، ٢٠٠٢، ص٢٨٥-٢٨٦. وانظـ ـر كـ ذلك: دانتزر، جان ماري وغافليكوفسكي، ميشيل: **المعبد السوري**، ترجمة موسـ ـى ديـ ـب خوري، دمشق، ١٩٩٦.

M.GELIN, *Histoire et urbanisme d'une ville à travers son architecture de brique crue, l'exemple de Doura-Europos*, Thèse de Doctorat, Université de Paris 1, 2000.

حول نفس الموضوع انظر كذلك سلسلة من المنشورات التي صدرت عن البعثة بـ ـين الأعوام ١٩٨٦ و ١٩٩٠و ١٩٩١-١٩٩٣ مـ ـن قبـ ـل: P.LERICHE –M.GELIN- *Doura-Europos: Etudes*, Paris.

(٣) أرتميس: هي ربة الصيد، ارتبط اسمها بالقمر أما أبولون فارتبط اسمه بالشمس.

(٤) منيرفا: إلهة رومانية تطابق أثينا عند اليونان، عرفت بأنها إلهة الحرب وحاميـ ـة المدن.

(٥) بل: كبير الأرباب التدمريين وهو رب السموات والأرض يوازي زيـ ـوس عنـ ـد اليونان وجوبيتير عند الرومان. أما يرحبول فهو رب الشمس في تدمر.

(٦) أتارغاتيس: إلهة سورية حامية المدينـ ـة، كانـ ـت معروفـ ـة فـ ـي مدينـ ـة منـ ـبج (هيرابوليس) في شمال حلب. وهي هيرا (زوجة زيوس) في شكلها العام لكن لهـ ـا

صفات أثينا وأفروديت (إلهة الحب) وأرتميس (ربة الصيد، ارتبط بأسد مهابالقمر) ونمسيس (ربة العدالة). حول هذا الموضوع راجع: تيكسدور، خافيير: الحياة الدينية في سوريا قبل الإسلام، ترجمة موسى ديب الخوري، دمشق، ١٩٩٦.

(٧) كانت الأماكن المقدسة والمذابح والرموز ومواضيع العبادة تصبح في بعض الأحيان في الشرق الأدنى تجريدات تحل محل الألوهة نفسها. في العصر الهلنستي. تبرز التدوينات اليونانية هذه الصفة للديانة في المشرق بتقديمها لرموز ولمواضيع عبادة زيوس. ففي شمال سورية "المذبح" الإلهي باسميه اليونانيين زيوس مدباخوس Zeus Madbachus و زيوس بوموس Zeus Bomos أو بتيل الإلهي زيوس بتيلوس Zeus Betylos. كانت الإلهة في سلوقية ممثلة في معبدها برمزها القديم الصاعقة أو كان الإله يدعى ابيكوس Epekoos أي الذي يستمع " لأن الإله استمع لصرخة كلماته" أو كان يدعى كيريوس Kyrios أي سيد أو رب. (راجع: تيكسدور، خافيير: ١٩٩٦، ص ٢١-٢٢.

(٨) حول هذه اللوحات انظر:

J.BALTY, La peinture en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, II, Saarbrücken, 1989, P.525-636.

(٩) ميترا: إله النور وحامي الحقيقة عند الفرس وكان معبوداً لدى الجيش الروماني في مدينة دورا أوروبوس.

(١٠) أدونيس يقابل تموز في المشرق العربي.

(١١) حول هذا المعبد انظر :

H.SEYRIG , R.DURU et E.WILL, *Le temple de Bêl à Palmyre*, Paris, 1975.

(١٢) البني، عدنان و الأسعد، خالد: **تدمر أثرياً وتاريخياً وسياحياً**، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٦٨.

(١٣) نبو : هو ابن رب بل وأمين سر مجمع الأرباب وكان مولجاً بمصائر البشر، يوّحد عادة مع الرب أبولون (البني، عدنان والأسعد، خالد: ٢٠٠٣، ص ٦٩).

(١٤) حول هذا المعبد انظر:

A.BOUNNI, *Le sanctuaire de Nabû à Palmyre*, Paris,

15 P.COLLART et J.VICARI, *Le sanctuaire de Baal shamîn à Palmyre*, Rome,1969.

16 M.GAWLIKOWSKI., Le temple d'Allât à Palmyre, *RA*, 1977, p.253-282.

17 D.SCHLUMBERGER, *La Palmyrène de Nord-Ouest*, Paris, 1951.

(١٨) يمتد هذا العهد من ١٩٣ الميلادي وحتى ٢٣٥ ميلادي.

19 R. GOGRAFE, Die Datierung des temples in Isriye, *Damaszener Mitteilungen*, 7, 1993, p.45-61.

(٢٠) حول معابد البتراء:

زيادين، فوزي: قصر البنت، **حولية دائرة الآثار الأردنية**، عدد ١٢، عمان ١٩٨٧.

الشياب، عاطف : **تخطيط المعابد النبطية في جنوب الأردن**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٠.

J.MCKENZIE, *The architecture of Petra*, Oxford, 1990. F.ZAYADINE, *Petra and the Caravan Citié*, Amman, 1990, P.115-130.

(٢١) يوجد هياكل أخرى في العديد من المواقع مثل سليم-مشّنق-عتيل وجران الخ وهي عائدة كلها إلى العصر الروماني.

22 D.SAURDEL, *Les cultes du Hauran à l'époque romaine*, paris, 1952. P.ARNAUT, Les naiskoi en Syrie méridionale, dans : *Hauran* 1-2, Paris, 1986.

23 E.WILL, Le sanctuaire de la Déesse syrienne (*Explor.Archéol.Délos*), Paris, 1985.

(٢٤) فرايبرغر، كلاوس: قنوات: أعمال التنقيب والأبحاث في المدينة القديمة، **أمكنة وأزمنة**، معهد الألماني، دمشق، ٢٠٠٥، ص ٨١-٨٧.

(٢٥)انظر :

R.DUSSAUD, Le temple de Jupiter Damascènien, *Syria*, 3, 1922, p.219-231. D.SACK, Damaskus , Die stadt intra muros, *DaM2*, 1985, p.207-220. J.SAUVAGET, Le plan antique de Damas, *Syria*, 26, 1949, p.315-326. C.WATZINGER et K.WULZINGER, *Damaskus*, Berlin-Leipzig, 1921.

(٢٦) عميري، إبراهيم: مار تقلا-عين منين: دراسة معمارية أولية، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، العدد ٤١، وزارة الثقافة، ٢٠٠١، ص ٧٣-٨٥.

(٢٧) ميشيل غافليكوفسكي، ١٩٩٦، ص ٦٦.

(٢٨) حول هذا المعبد انظر:

HERODIEN, *Histoire impériale depuis la mort de Marc Auréle*, livre V, Londres-Cambridge, 1970, II, p3-75. TURCAN R, *Héliogabale et le sacre* du Soleil, Paris, 1985.

(٢٩) عبد الحق، سليم: موجز في تاريخ مدينة حمص، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، العدد ١، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٥١. ص

30 R.TURCAN, 1985, p.26.

(٣١) الموصلي، ماجد: **موجز في تاريخ مدينة حمص**، حمص، ١٩٨٤.

32 W.BALL, *Rome in the East. The transformation of an empire*. Routledge: London and New York, 2000, p.37-47.

(٣٣) جيفري، كينغ: أعمال تنقيب أثرية في قلعة حم ص س ورية ١٩٩٥-١٩٩٩، ترجمة فيصل عبدالله، **مجلة دراسات تاريخية**، العددان ٨٣-٨٤، دمشق، ٢٠٠٣،ص ٣-٤٥.

(٣٤) جاهد الملوك السلوقيون في بعض الأحيان لاستمالة المدن بتقديم بعض الميزات لها مثل الإعفاء الضريبي أو الحصانة. :كانت الحصانة خ لال الع صر الهلن ستي مرتبطة أساساً بقبول اعتراف الحاكم بقدسية وبحرم ة المك ان المق دس. (راج ع: تيكسدور، خافيير: ١٩٩٦، ص ٢٧.)

(٣٥) بيتوسيسي: اقترن اسم القرية مع اسم زيوس، الإله الرئيس في القرية.

(٣٦) البني، عدنان: المعابد السورية القديمة " حصن سليمان" و " القضبون" نموذجاً، **عدنان البني أُثاري على درب الحضارة**، وزارة الثقافة، دم شق، ٢٠٠٨، ص ٧٠-٧٧.

37 M.GAWLIKOWSKI, 1989, P.337.

(٣٨) بالتي، جانين وبالتي، جان شارل: **دليل أفاميا**، دمشق، ١٩٩٩، ص ٢٤.

(٣٩) حول المعابد هذه المنطقة انظر:

O.CALLOT, La christianisation des sanctuaires romains de la Syrie du Nord, , *Topoi*, 7, 1997, p.734-750.

P-L.GATIER, Villages et sanctuaires en Antiochène autour de Qalota, *Topoi*, 7, 1997, p.751-775.

المراجع العربية

البني، عدنان و الأسعد، خالد: **تدمر أثرياً وتاريخياً وسياحياً**، دمشق، ٢٠٠٣.

البني، عدنان: المعابد السورية القديمة " حصن سليمان" و " القضبون" نموذجاً، **عدنان البني أُثاري على درب الحضارة**، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٨، ص ٧٠–٧٧.

الشياب، عاطف : **تخطيط المعابد النبطية في جنوب الأردن**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٠.

الموصلي، ماجد: **موجز في تاريخ مدينة حمص**، حمص، ١٩٨٤.

تيكسدور، خافيير: **الحياة الدينية في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة موسى ديب الخوري، دمشق، ١٩٩٦.

دانتزر، جان ماري و غافليكوفسكي، ميشيل : **المعبد السوري**، ترجمة موسى ديب خوري، دمشق، ١٩٩٦.

بالتي، جانين وبالتي، جان شارل : **دليل أفاميا**، ترجمة موسى خوري، دمشق، ١٩٩٩.

زيادين، فوزي: قصر البنت، **حولية دائرة الآثار الأردنية**، عدد ١٢، عمان ١٩٨٧.

عبد الحق، سليم : موجز في تاريخ مدينة حمص، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، العدد ١، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٥١.

عميري، إبراهيم: مار تقلا–عين منين: دراسة معمارية أولية، **الحوليات الأثرية العربية السورية**، العدد ٤١، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠١، ص ٧٣–٨٥.

فرايبرغر ، كلاوس : المباني الدينية في دورا أوروبوس، **الجزيرة السورية : التراث الحضاري والصلات المتبادلة**، دمشق، ٢٠٠٢، ص٢٨٥-٢٨٦.

فرايبرغر، كلاوس، قنوات : أعمال التنقيب والأبحاث في المدينـة القديمـة، **أمكنـة وأزمنة**، معهد الألماني، دمشق، ٢٠٠٥، ص ٨١-٨٧.

كينغ، جيفري: أعمال تنقيب أثرية في قلعة حمص سـورية ١٩٩٥-١٩٩٩، ترجمـة فيصل عبدالله، **مجلة دراسات تاريخية**، العددان ٨٣-٨٤، دمشق، ٢٠٠٣،ص ٣-٤٥.

المراجع الأجنبية

ARNAUT P., Les naiskoi en Syrie méridionale, dans : *Hauran* 1-2, Paris, 1986.

BALTY J., La peinture en Syrie, *Archéologie et histoire de la Syrie*, II, Saarbrücken, 1989, P.525-636.

BALL W., *Rome in the East. The transformation of an empire*. Routledge: London and New York, 2000,

BOUNNI A., *Le sanctuaire de Nabû à Palmyre*, Paris,

CALLOT O., La christianisation des sanctuaires romains de la Syrie du Nord, , *Topoi*, 7, 1997, p.734-750.

COLLART P et VICARI J., *Le sanctuaire de Baal shamîn à Palmyre*, Rome,1969.

DENTZER J-M., Le sanctuaire syrien, *Archéologie et histoire de la Syrie*, Saarbrücken, 1989, P.297-322.

DUSSAUD R, Le temple de Jupiter Damascènien, *Syri*a, 3, 1922, p.219-231.

GATIER P-L., Villages et sanctuaires en Antiochène autour de Qalota, *Topoi*, 7, 1997, p.751-775.

GAWLIKOWSKI M., Le temple d'Allât à Palmyre, *RA*, 1977, p.253-282.

GELIN M., *Histoire et urbanisme d'une ville à travers son architecture de brique crue, l'exemple de Doura-Europos*, Thèse de Doctorat, Université de Paris 1.

GOGRAFE R., 1993, Die Datierung des temples in Isriye, *Damaszener Mitteilungen*, 7, p.45-61., 2000.

HERODIEN., *Histoire impériale depuis la mort de Marc Auréle*, livre V, Londres-Cambridge, 1970, II, p3-75.

LERICHE P et M.GELIN., *Doura-Europos: Etudes*. Paris, 19986-1993.

MCKENZIE J., *The architecture of Petra*, Oxford, 1990.

SACK D., Damaskus , Die stadt intra muros, *DaM2*, 1985, p.207-220.

SAURDEL D., *Les cultes du Hauran à l'époque romaine*, paris, 1952.

SAUVAGET J., Le plan antique de Damas, *Syria*, 26, 1949, p.315-326.

SCHLUMBERGER D., *La Palmyrène de Nord-Ouest*, Paris, 1951.

SEYRIG H , DURU R et WILL E., *Le temple de Bêl à Palmyre*, Paris, 1975.

TURCAN R., *Héliogabale et le sacre* du Soleil, Paris, 1985.

WATZINGER C et WULZINGER K., *Damaskus*, Berlin-Leipzig, 1921.

WILL E., Le sanctuaire de la Déesse syrienne (*Explor.Archéol.Délos*), Paris, 1985.

ZAYADINE F., *Petra and the Caravan Citié*, Amman, 1990.

التصوير على المسكوكات العربيّة الإسلاميّة

د. خالد كيوان
قسم الآثار
كلّية الآداب
جامعة حلب

مخطط البحث

. مقدّمة
. صورة الخليفة الواقف على درهم ساساني . عربي
. صور العمائر على الدراهم الساسانية . العربية
. أسماء القصور على النّقود العربيّة والإسلاميّة
. التّمثيلات والزّخارف النّباتية والحيوانيّة على الفلوس النّحاسية الأمويّة المعرّبة
. التّمثيل الآدمي على النّقود العباسيّة
. التّمثيل الحيواني على النّقود العباسيّة
. تمثيل الموسيقى على النقود البويهية
. التّنجيم والفلك على النّقود السلجوقيّة
. التّمثيل الحيواني على النّقود السلجوقيّة
. التّمثيل الحيواني على النّقود الإيليخانيّة
. نقود عهد الأتابكة (الدول) الأرتقية والزّنكيّة
. لماذا حملت العملات الإسلامية الأرتقية تمثيلات آدميّة؟

. صور كاملة لملوك في وضعيّات الوقوف متأثرة بالنقود البيزنطية
. وضعيّات الملوك على صهوات الخيول
. وضعيّات الجلوس على العرش
. تمثيل الرؤوس الجانبيّة والمواجهة وأنصاف الأجساد المرتديّة الدّروع
. نقود قطب الدين سكمان الثاني بن محمّد (٥٨١-٥٩٧هـ ./ ١١٨٥-١٢٠٠م)
. التّمثيل الآدمي لعدّة أشخاص على النّقود الأرتقيّة
. التّمثيل الحيوانيّ على النّقود الأرتقية والزّنكية:
. نقش النسر برأس مزدوج
. نقش حيوان السانتور
. الرّموز على النّقود الزنكيّة
. التّمثيل الآدمي على النّقود الأيوبية
. تمثيل ربّات النصر
. الأشكال الهندسيّة على النّقود الأيوبيّة
. التصوير بأنواعه على النّقود المملوكيّة
. التشكيلات الفنية على النّقود المملوكيّة
. الزّهرة والنجوم والأشكال الهندسيّة
. التزيّينات المرافقة للخطوط في العهد المملوكي
. الخاتمة

. مقدّمة:

لمْ نجد تعبيراً أدق وأبلغ من لفظة التـ صوير التـ ي تعنـ ي بـ اللغتين الفرنـ سية والإنكليزية (**Iconographie**) والتي نقصد من خلالها التعبير عن جميـ ع التّمثـ يلات والتشكيلات الفنّية المنقوشة على المسكوكات العربيّة الإسلاميّة بما فيها مـ ن مـ شاهد آدميّة وحيوانيّة وزّخارف نباتيّة والرّموز التي تمّ نقشها على المسكوكات بـ دءاً مـ ن دينار الخليفة الواقف الذي أصدره خامس خلفاء بني أميّة[١] عبد الملك بن مروان عام (٧٤هـ . / ٦٩٣م)، ثمّ الانتقال إلى المسكوكات المعرّبة من قبل الخليفة نفسه في سـ نة (٧٧هـ . / ٦٩٧م)، وما حملته من صور متنوّعة لا سيّما الفلوس النّحاسيّة، وسـ نقوم بعرض هذه التشكيلات وما ينطوي تحتها من رموز شخـ صية أو تـ شكيلات تزينيّـ ـة مصنّفةً حسب الموضوع أو الترتيب الزمني. وقد يخطر ببال المرء أنّ النّقود العربية الإسلاميّة كانت خاليةً تماماً من أيّة أعمال تـ صويريّة، إلا أنّ المتتبـ ع لهـ ذه النّقـ ود سيلاحظ أنّها حملتْ تشكيلات متنوّعة الزخارف بين الفينة والأخرى إمّا بدوافع سياسية كالنقود التي أصدرها عبد الملك بن مروان قبل فترة التعريب الكاملـ ـة للنقـ د كتحـ دٍّ لإمبراطور بيزنطة، أو تلك النّقود التي أراد سلاطين عصرها إبراز قوّة شخـ صيتهم وهيبتهم كالنّقود التي أصدرها الظاهر بيبرس وحملتْ لقب قسيم أمير المـ ؤمنين وزاد عليها الملوك الذين جاؤوا من بعده ألقابهم التشريفية نحو لقب: (السلطان المعظم الملك الأشرف...) إضافةً إلى نقش سبع البر أو النسور لما يمتلكه هذان الحيوانان من قـ وّةٍ وهيبةٍ في البرِّ والجّو، أو تلك التي تشير إلى اعتقادات سحريّة نحو الاعتقـ اد بالفلـ ك والتّنجيم، فكانت الشمس والهلال والنّجوم أحد تمثيلاتهم المهمّة لا سيّما فـ ي العهـ ود السلجوقية والأتابكيّة والزنكيّة والأيوبيّة والمملوكيّة، أو التي اعتمدتْ على التـ شكيلات الهندسيّة كالدوائر والمربّعات والمثلّثات المتقاطعة والمنحنيات بهدف التـ زيين فقـ ط، ومن التشكيلات ما كانت تتزين به الكتابة المنقوشة بالخط الكوفي أو النـ سخي نحـ و

التوريقات والشّدّات أو الأشكال الهندسيّة كالدائرة والمربع. هذا وسنستعرض كلّ ما يمكن مشاهدته من تشكيلات في هذا البحث لعلنا نستوفيه الحقَّ وما نحن نصبو إليه.

. التّمثيل الآدميّ المنقوش على المسكوكات قبل فترة التّعريب:

يعتبر عالم النّميات (مايلز **Miles**) أنّ الدينار الذي حمل صورة الخليفة الواقف يعتمر الكوفيّة، ويقبض على السيف، يشاطر طراز الإمبراطور الواقف الذي ظهر على النّقود البيزنطيّة من حيث الشكل العام، لكنّها صورة عربيّة إسلامية وضعت لتتحدى الدّولة البيزنطية المسيحيّة. فقد صوّر السوليدوس البيزنطي الإمبراطور يضع على رأسه تاجاً يعلوه صليب، ويمسك بالصّولجان الذي في نهايته صليب. بينما حمل الدينار الإسلامي صورة الخليفة واقفاً معتمراً الكوفية مجرّداً سيفه على أعداء الإسلام. وقد حمل هذا الدينار التاريخ (٧٤هـ ./٦٩٣ . ٦٩٤م) أي بعد انتصار عبد الملك على جستنيانوس الثاني في معركة سبستوبوليس، وتحرّره من دفع الجزية التي كانت تُدفع قبل هذا التاريخ من قبل المسلمين بالدنانير البيزنطية (السوليدوس). وتبع دينار الخليفة الواقف عدّة دنانير من النّموذج نفسه صدرتْ في العامين (٧٥ و٧٦ هـ).



دينار الخليفة الواقف(٢)



الصليب المحوّر القائم على ثلاث درجات

أمّا السلف لدنانير الخليفة الواقف، فتتجلى بعملية التحوير التي قام بها عبد الملك بن مروان على السوليدوس البيزنطيّ الذهبيّ . الذي حمل في مركز الوجه ثلاثة أشخاص (الإمبراطور وولديه) . بمسح الصّلبان عن تيجان الأباطرة. بينما حمل مركز الظهر نقش الصليب المرفوع على ثلاث درجات، فقام عبد الملك بعملية تحوير الصليب على مركز الظهر ليصبح عموداً في نهايته كرة، وأحاطه بالكتابات العربيّة الكوفيّة، وقد صدر هذا الدينار عن دمشق سنة (٧٣/٧٤هـ . ٦٩٣/٦٩٤م)[٣]. وفي هذه العملية ردّ الإمبراطور البيزنطي بإصدار السوليدوس الذي حمل صورة السيد المسيح، فقابله عبد الملك بأنْ أصدر دينار الخليفة الواقف عام (٧٤هـ ./٦٩٣ . ٦٩٤م)[٤].





وجه ظهر

جوستنيانوس الثاني

السيد المسيح خلف رأسه صليب كإشارة لعملية الصلب ممسكاً بيده اليسرى الإنجيل المقدّس

نلاحظ هنا أوّل صورة نُقشتْ على المسكوكات الصادرة من قبل خليفة عربي إسلامي وإنْ دارتْ بعض النقاشات حول هذه الصورة بأنّها لا تمثّل عبد الملك بن مروان بل معاوية بن أبي سفيان استناداً إلى رواية المقريزي (١٣٦٥ .١٤٤١م) في رسالته المعروفة: (**شذور العقود في ذكر النّقود**): "**وضرب معاوية أيضاً دنانيراً**

عليها تمثاله متقلّداً سيفاً، فوقع منها دينار رديء في يدّ شيخ من الجند، فجاء به معاوية ورماه به، وقال: يا معاوية إنّا وجدنا ضربك شرّ ضرب، فقال له معاوية: لأحرمنّك عطاءك، ولأكسونّك القطيعة"(٥). فإذا كانت رواية المقريزي صحيحة، قد يكون معاوية أوّل من ضرب دينار الخليفة الواقف، وليس عبد الملك بن مروان كما هو شائع، لكن التاريخ الذي عاش فيه المقريزي بعيد جدّاً عن الفترة التي تمّ فيها إصدار دينار الخليفة الواقف.

. صورة الخليفة الواقف على درهم ساساني . عربي:

تكرر نقش صورة الخليفة الواقف عبد الملك بن مروان وهو يضع السيف على خصره وذلك على الدنانير الذهبية والفلوس النحاسيّة المضروبة وفق الطراز البيزنطي . العربي أو الدراهم الساسانية . العربيّة، ومن نماذجها درهم ساساني حمل في مركز الوجه صورة كسرى ملك الفرس وحوله: (لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله)، وفي مركز الظهر صورة الخليفة الواقف وإلى يساره عبارة: (خلفة الله) ويمينه: (أمير المؤمنين) وقد صدر هذا الدرهم سنة (٧٥ هجري) أي بعد عام من وضع صورته على الدنانير البيزنطية، ممّا يؤكد على المحاولات الأولى لتعريب الدراهم الكسروية والدنانير البيزنطية والتحدّي ليس فقط لإمبراطور الرّوم البيزنطيين بل للفرس أيضاً، وتعميم صورته هذه ما هو إلا إشارة للقوّة.



صور العمائر على الدراهم الساسانية . العربية:

من الشيء النادر الذي لمْ تحظ به النّقود العربيّة الإسلامية طوال فترة تاريخها احتواؤها على صور العمائر كالمحاريب، ومن جهتنا لا نرى هذا الأمر إلا على النّقود الأموية قبل فترة التعريب التي تمّت من قبل عبد الملك بن مروان. فقد وقع بين أيدينا درهم ساساني . عربي احتوى في مركز الوجه على صورة عبد الملك بن مروان مستبدلاً التّاج الفارسي الذي كان يعلو رأس الملك الفارسي بكوفية ويشهر سيفه على مستوى صدره وحوله آية التوحيد: (لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله)، وبمعنى آخر أنّه حافظ على صورة الخليفة الواقف التي جاءتْ على دراهمه الكسروية المُعاد ضربها. بينما حمل مركز الظهر صورة محراب بشكل عمودين يعلوهما قوس وإلى اليسار عبارة: (خلفة الله) واليمين: (أمير المؤمنين) وبوسطه صاعقة. ومن الملفت للنظر قيام عبد الملك بن مروان بتقليد العمائر التي سادتْ على النّقود اليونانية والرّومانية من حيث حملها واجهات المعابد المخصّصة للآلهة، وقد أراد عبد الملك من نقش المحراب التعبير عن عبادة الله الخالق الواحد، لا سيّما الآية التي نقشها فيما بعد على نقوده أثناء التعريب الكامل سنة (٧٧ هجرية). والتي قال الله تعالى فيها: (الله أحد الله الصمد لمْ يلد ولمْ يولد)، وبالفعل تمّ استبدال هذا الرسم الممثّل بالمحراب بهذه الآية التي وردتْ على الدراهم والدنانير الأمويّة بعد التعريب الكامل للنقد.





أسماء القصور على النّقود العربيّة والإسلاميّة:

حفظتْ لنا النّقود الإسلامية كثيراً من الأمور المهمّة للتاريخ الإسلامي والعربيّ ومنها ذكرها لأسماء بعض القصور الكبيرة المعروفة إقليمياً التي لعبتْ دوراً مهمّاً في الحكم خلال العصر الإسلامي على الصعيد العسكري نظراً لقوّتها ومناعتها ومنها على الصعيد الأمني للحيلولة دون وصول يد اللصوص وغيرهم إليها. وهناك الكثير من المميّزات لبناء القصر ونظراً لأهمّيته ظهرتْ أسماؤها على الدنانير والدراهم كأسماء لدور الضرب إذ كانت دور الضرب في الفترتين اليونانية والرّومانية في المعابد لكننا هنا نلحظها في القصور، ومن أقدم دور الضرب التي حملتْ أسماء تلك القصور قديماً لدى العرب والمسلمون خاصّةً في العهد العباسيّ:

. **قصر السلام:** أنشأه الخليفة العباسي المهدي عام ١٦٤هجرية، وسكن فيه في عام ١٦٦ هـ . في منطقة تسمّى (عيساباد) بالعراق، وأنشأ فيه داراً لسك الدنانير والدّراهم وقد ضربتْ فيه النّقود من عام (١٦٧ إلى ١٦٩ هجرية).

. **قصر بن هبيرة:** ينسب هذا القصر لوالي العراق المشهور يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري الغطفاني (كانت توجد نقود عباسية تدعى الهبيريّة نسبةً إلى ضاربها عمر بن هبيرة)، ولقد شوهد اسم القصر لاسيّما على دينار عباسي عام (٣٥٠ هجري) بعهد الخليفة العباسي (الطائع بالله).

. **قصر الطين:** عُرف عند أهل السِّير والتّاريخ كما شوهد اسمه على درهم عباسي عام (٢٩٥هجري) بعهد الخليفة العباسي (المكتفي بالله).

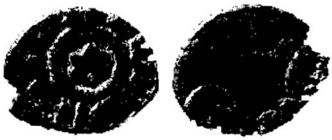
. **القصر الفاخر:** هو قصر شهير تمّ بناؤه ببغداد أو دار السلام قديماً وطوّره الخليفة المقتدر بالله ووضع داراً للسكّ فيه، وقد شوهد درهم عباسي للخليفة المكتفي بالله عام (٢٩٥ هجري) يحمل اسمه (انظر: موقع الحسيني للعملات القديمة، شرح واف موثّق بصور النّقود).

. التّمثيلات والزّخارف النّباتية والحيوانيّة على الفلوس النّحاسية الأمويّة المعرّبة:

حملت بعض الفلوس الأمويّة أشكالاً حيوانيّة كنقش رأس حصان أو جسم فيل واقف وحوله عبارة (لا إله إلا الله) أو أسد أو طائر البط أو طيور أخرى باسطة الأجنحة أو السّمك كنقود بيسان في الأردن، أو رأس كبش مواجه ذو قرنين كبيرين في دائرة يحيط بها من الخارج عبارة: (لا إله إلا الله وحده) بينما حمل الوجه الثّاني دائرة وحولها عبارة (محمد رسول الله)، أو مشاهد نباتيّة كالفروع النباتية والأغصان وشجر النخيل والرّمان، أو تشكيلات هندسيّة كالدوائر في مركز النقد بهدف التزيين فقط، أو فلكيّة كالهلال والنجوم كالنجمة الخماسية والسداسيّة كما سادت نقش العقرب على فلس من بيسان بفلسطين مغفل عُرف بفلس العقرب. وقد سادتْ هذه الزخارف فقط على الفلوس التي كانت تستخدم للعمليات التجارية البسيطة وأكثرها صادر في بلاد الشام كدمشق وبيسان وبعلبك، وتعتبر هذه الأشكال كعنصر تزيني فقط لا يكمن وراءه أي دافع ديني أو سياسي.



نجمة وهلال إصدار بعلبك سنة ١٢٠ هـ .



نجمة وهلال إصدار ١٣٦ هـ .



شجر النخيل

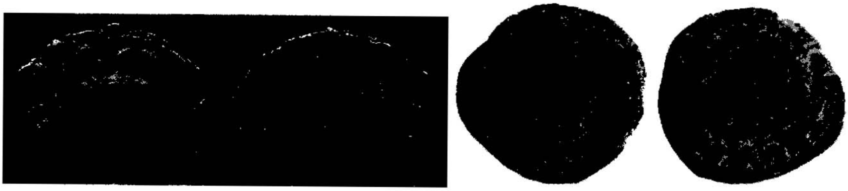


الأسد

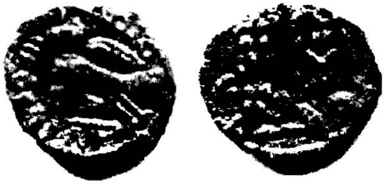


سمكة قرش

فلس أموّي حمل الرّمان وحولها (محمّد رسول الله)



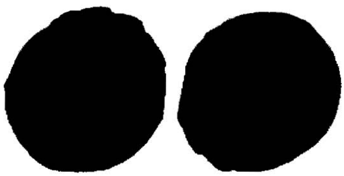
طائر البط في سنة (٩٠هجريّة)



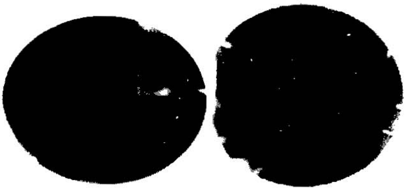
فلس أموي طائر يطير يساراً سنة ٧٠٠م



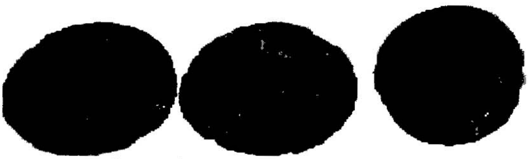
فلس أموي ضرب دمشق سنة ٧٠٠م



فلس أموي حمل رأس كبش

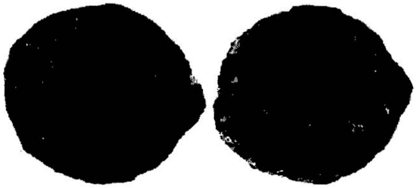


فلس العقرب وحوله عبارة: (لا إله إلا الله وحده)



فلوس نحاسية صغيرة حملت نقش فيل واقف متجهاً يساراً فوقه عبارة (لا إله إلا الله)

من النّقود النّحاسية الصادرة في القدس بين عامي (٦٩٧-٧٤٩م) في العهد الأمـ ويّ فلسٌ حمل عبارة (لا إله إلا الله) وغصن نباتي يتفرّع إلى أربعة فروع، وفي الظهـ ر عبارة (محمّد رسول الله).



من جهة أخرى يذكر لنا المقريزي في كتابه النّقود الإسلاميّة المسمّى بشذور العقود في ذكر النقود (ص٩) أنّ هناك عملةٌ ضربتْ في سنة (٤٢هجرية) لمعاوية بن أبي سفيان يظهر فيها على صهوة حصان متقلّداً سيفه، ولمْ يضف شيئاً غيره، وقد وُجد فلس نحاسي أموي مشابه لما ذكره المقريزي في كتابه وربّما يكون لمعاوية بن أبي سفيان، وإذا ثبت علمياً نعتقد أنّه سوف يعاد النظر حقاً في دراسة الفلوس النّحاسية الأمويّة الأولى لاسيّما أنّ الجميع يعلم أنه في عهد عبد الملك بن مروان بدأ تعريب الفلوس النحاسية.



فلس معاوية بن أبي سفيان؟ (الوجه: لا إله إلا الله وحده. الظهر معاوية على صهوة حصان؟)

. التّمثيل الآدمي على النّقود العباسيّة[٦]:

بدأ الناس بتقبّل التّماثيل وابتعادهم عن عبادة الأوثان وذلك مع تقدّم الأيام وفي زمن العباسيين. إذ أصبح لا خشية من العودة إلى تقديسها أو عبادتها، فأقام المنصور في قبة قصره ببغداد تمثال فارس بيده رمح ولعلّه كان للاستدلال على اتجاه الريح، كما أنشأ الأمين حركات له على دجلة في أشكال الأسود والنّسور والحيتان، وجعل المقتدر بالله في مقرّه تماثيل فرسان وطيور، وقد ترجم ذلك على النّقود التي لوحظت في عهد العباسيّين. حيث لجأ خلفاء بني عبّاس إلى تقليد النّقود الساسانيّة التي حملت صورة ملك الملوك الفارسي، والنّقود البيزنطيّة التي حملت أيضاً صورة الإمبراطور الرّوماني . البيزنطي من خلال ضرب صورهم على وجوه النّقود بشكل مواجه وبتأثير أيضاً من تلك الشعوب التي انضوتْ تحت لواء دولتهم وحكمهم قادمين من شتّى أصقاع العالم حاملةً معها أفكارها وتقاليدها وفنونها، إلى جانب نقش صور الحيوانات التي ظهرتْ على نقود أخرى. إذ قام الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠ هـ .) بسكّ دراهم . بعضها محفوظ في متحف برلين . عُرفت بدراهم الصلة والدعاية، حيث حملت في مركز الوجه صورة الخليفة المقتدر بالله بثيابه المزركشة جالساً على طريمة بوضعيّة تصالب القدمين واضعاً يده اليسرى على خصره ورفع باليمنى كأس الشراب، يحفُّ بالنّقش المركزي في الثلث العلوي من جهة اليمين كلمة (المقتدر) ومن جهة اليسار (بالله)[٧]، وعلى الوجه الآخر الخليفة؟ جالساً على طريمة بوضعيّة تصالب القدمين يعزف على العود، وهناك نقود تجسّده على صهوة حصان كأنّه محارب، أحدها محفوظ بمتحف العراق، أو مثّلته جالساً بتأثير من الوضعيّات الشرقيّة التي تكرّرت على الأواني الفخارية والسّجاد، وهناك نقد محفوظ في روسيا بمدينة سانت بترسبورغ في متحف التراث من عهد المقتدر بالله يُمَثّل على الوجه جملٌ بسنامين متجه نحو اليمين وعلى الوجه الثاني صورة نسر باسط الجناحين سنشاهده بكثرة على

النقود في الفترات السلجوقية والأيوبية والمملوكية. ضُرب هذا الدرهم بمدينة الـ سلام (سنة؟).



المقتدر بالله. صورة جمل ونسر. مدينة السلام

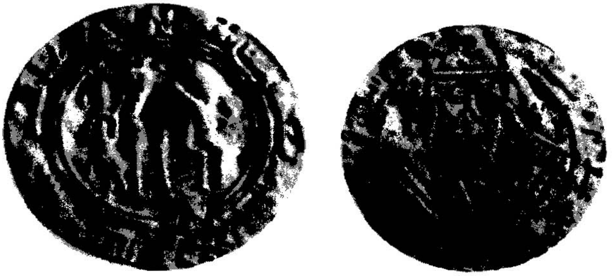


١ ـ الوجه: المقتدر بالله (ثور جالس). الظهر : الخليفة فوق صهوة حصان (لله جعفر). ٢٩٥ـ٣٢٠م

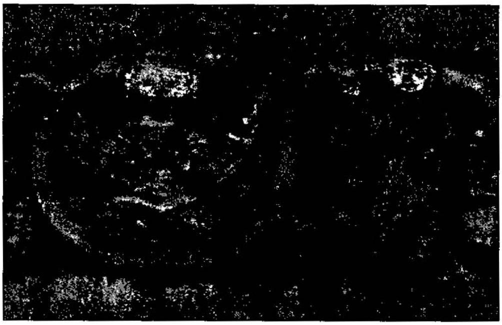
Numismatische zeitung, von Lutz Ilisch, Munster. P24-28.

٢ـ الوجه: المقتدر بالله (جالسا على طريسة بيده اليمنى كأس) (المقتدر بالله). الظهر : الخليفة جالسا على طريسة يعزف على عود ٢٩٥ـ٣٢٠م

كما قام المتوكّل على الله (٧٦٣–٧٨٥هـ .) بسكّ صورته، بينما حمل الوجـ ـه الآخـ ـر صورة رجل يقود جملاً(٨). كما ظهرتْ صورة الخليفة المقتدر بالله على العمائر فـ ـي تركية جالساً ممسكاً كأساً كأنّه يحاكي رسومات قصر الحير الغربي (العهد الأمـ ـوي) المتأثِّرة بالفنّين الساسانيّ والرّومانيّ.



صورة المتوكّل على الله (٧٦٣-٧٨٥هـ .) بينما حمل الوجه الآخر صورة رجل يقود جمل

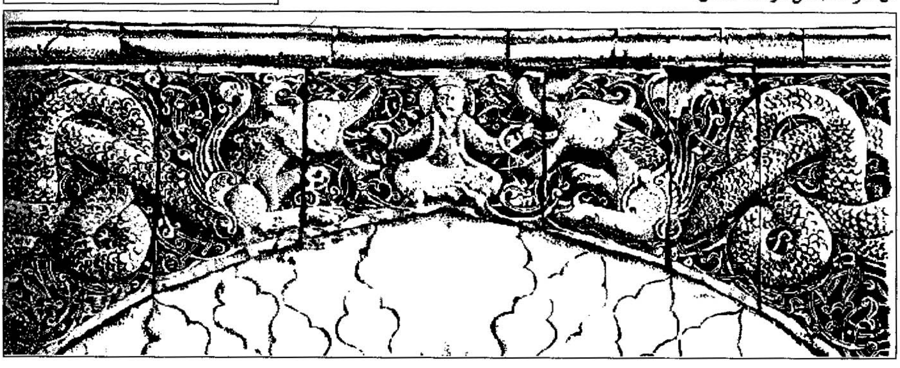


أحد الخلفاء العباسيين [جعفر المقتدر بالله ؟؟]
وأحد حراسه من الجنود الأتراك.



نموذج لبعض الزخارف على جدران إحدى دير
أختمر ؟؟ -شرق تركية- تعود إلى فترة 915-912 م

زخارف على إحدى البوابات في بغداد - ح.
1221 م. هدم الباب عام 1917 م. الرسم مأخوذ
من مدونات بعض الرحالة الألمان.





صورة أثرية رسمت باليد على سجادة
للخليفة جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله
ابن هارون الرشيد العباسي

مصدر: موقع الأشراف العباسيون



مسكوكة من الفترة العباسية
دراهم فضية ضربت في نيسابور
على الصورة الخليفة العباسي جعفر المتوكل على الله

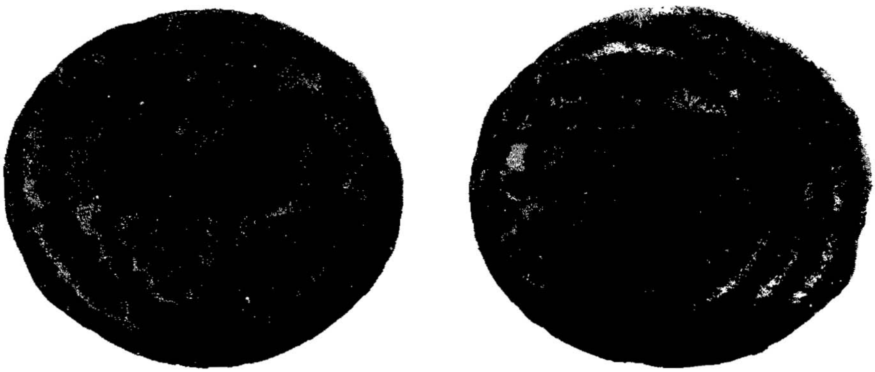




أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (908-931 م) ، مسكوكتين من الفترة العباسية - المتحف الوطني، برلين

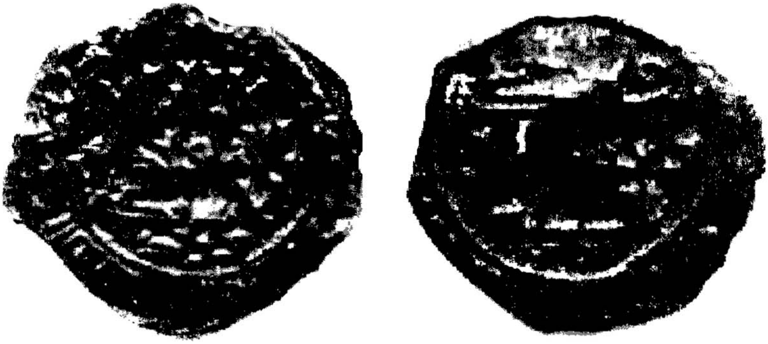
. التّمثيل الحيواني على النّقود العباسيّة:

لمْ تختلف الفلوس العباسيّة عن سابقتها من الفلوس الأمويّ ـة، فق ـد حمل ـت م ـ شاهد متشابهة، منها ما رافق الخليفة حين مُثّل ممتطيّاً صهوة حصان، ومنها ما حمل نق ـش خيلٍ بلا فارس على فلس عباسي نادر صُنِّف عالمياً بالحروف اللاتينية (R R R) أي نادر جداً، ومن الممكن أنّه ضُرب عام (٢٢٨ هجرية) تحت حكم الخليف ـة العباس ـي الواثق بالله، إذ حمل الوجه الأوّل للفلس وفي المركز (محمد رسول الله)، بينما حم ـل الوجه الآخر صورة حصان يتمطّى بدون فارس، أمّا مأثورات الط ـوق فه ـي غي ـر واضحة.

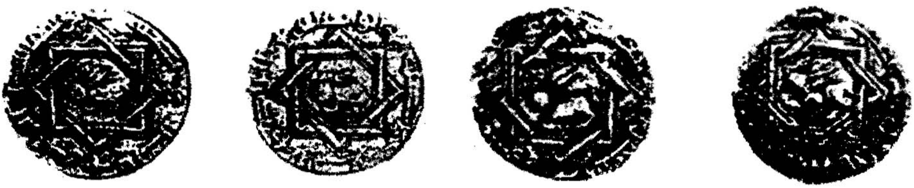


فلس الواثق بالله حمل نقش حصان بدون فارس

وهناك فلوس حملت نقش غزال في عهد الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣م) أو المعتصم ٨٣٣-٨٤٢م أو ٢١٧هـ . أو ٢١٩هـ . وهي صادرة عن خزنة حلب. كما حملت بعض الدراهم الفضية صورة أرنب يعدو جهة اليمين ضمن مربعين متقاطعين ليشكلا زخرفة هندسية، وذلك في عهدي الخليفتين المقتدر بالله والراضي بالله.



فلس نحاسي من إصدار خزنة حلب في عهد المأمون ٨١٣-٨٣٣م

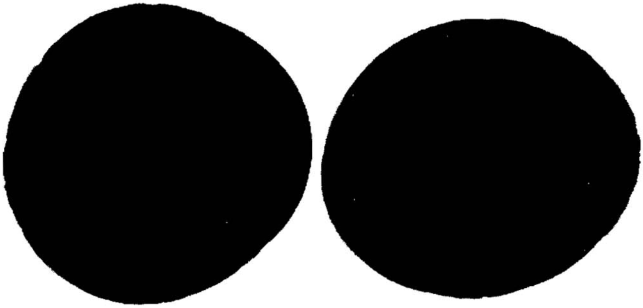


٢ درهمان فضيّان ١

١ـ صورة أرنب يعدو يميناً، صادر في عهد المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ)

٢ـ صورة أرنب يعدو يميناً، صادر بعهد الراضي بالله (٣٢١-٣٢٩هـ)

إضافةً إلى ذلك فقد حظيت الفلوس النحاسية العبّاسية بحملها مشاهد نباتية كتمثيل زهرة ذات ثلاث بتلات، حيث حمل مركز الوجه عبارة التوحيد: (لا إله إلا الله وحده)، وحمل الوجه الثاني الزهرة وحولها عبارة (محمّد رسول الله).



وقد أورد فون لوتز (Von Lutz Ilisch) في بحثه المعنون بـ . (Munzgeschenke und Geschenkmunzen in der mittelaterlichen islamischen Welt, Jahergang 198, p. 85)

صورةً منقوشةً في منتصف وجه النقد مكرّرةً نفسها على مركز الظهر، وتمثّل أسداً ينقضُّ على ثور تقليداً للنقود الإغريقية والرّومانية، وكذلك النّقود الفارسية التي تمّ سكّها في بيبلوس (جبيل) على الساحل السوري في القرنين الخامس والرابع ق.م. ينسب هذا النّقد للخليفة المطيع لله، صادر بمدينة السلام سنة ٣٦٠هـ .. كما أنَّ هناك نقد حمل في منتصفه صورة نسر باسط الجناحين يتجه برأسه نحو اليسار، صادر أيضاً بمدينة السلام سنة (٣٦٣هـ .).



٢ ١

١ـ الوجه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ضرب بمدينة السلام سنة ثلث وستين وثلثمائة. (أسد ينقضُّ على ثور)

ـ الظهر: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم المطيع لله أمير عز الدولة. (أسد ينقضُّ على ثور)

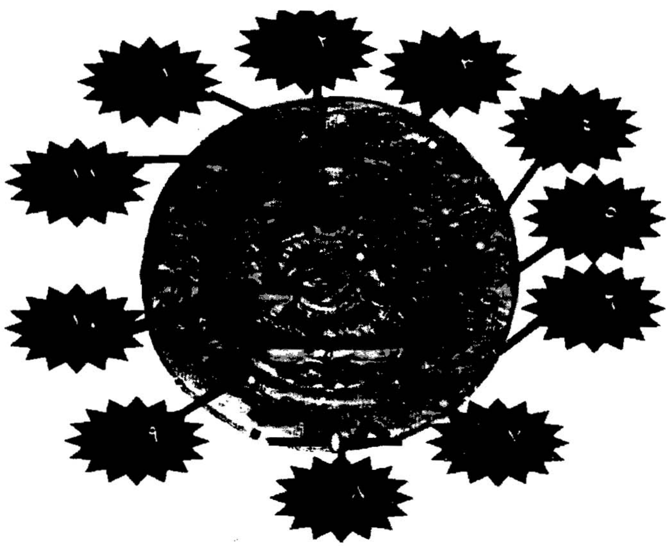
٢ـ الوجه نفسه. (أسد ينقضُّ على ثور)

ـ الظهر: المركز نسر باسط الجناحين، رأسه متّجه لليسار. العبارة نفسها.

Numismatische zeitung, von Lutz Ilisch, Munster. P11-12.

. تمثيل الموسيقى على النقود البويهية:

تذكر لنا المصادر العربيّة أنّ الأمير البويهي المسمّى عزُّ الدولة أبو منصور بختيار حكم بغداد (مدينة السلام) بين عامي (٣٥٦ . ٣٦٧هـ .)، وقد تقدّم للزواج من ابنة الخليفة العباسي الطائع بالله الذي حكم بين عامي (٣٦٣ .٣٨١هـ .)، وتمّت الموافقة من الخليفة الطائع بالله والمباركة للأمير البويهي بهذا الزواج ففرح كثيراً وبعث بالذهب والجواهر الرائعة لعروسته ومن نوادر هذه القصة هذا الدينار المشروح أدناه والذي يعتبر من نقود الصلة:



١ . دينار ذهبي ٢ . عصر الدولة البويهية ٣ . في عهد الأمير عز الدولة ٤ . ضرب بعام (٣٦٥) هجرية ٥ . الوزن التقريبي للدينار المعروض (٢)غ ٦ . قطره (٣٥) ملم ٧ . المعدن: ذهب مصقول. ٨ . الشكل العام: دائري ٩ . نوع الخط: كوفي ١٠ . سجل بالمركز: صورة لفتاة وبيدها آلة العود ١١ . سجل بالطوق: (لا اله إلا الله وحده لا شريك له ضرب في مدينة السلام سنة (٣٦٥) هجرية).





لا إله إلا الله محمد رسول الله صل الله عليه وسلم
الطائع لله الأمير عز الدولة
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ضرب بمدينة السلام
سنة خمس وستين وثلثمائة

. التّنجيم والفلك على النّقود السلجوقيّة[٩]:

يقول الدكتور إلياس بيطار في وصفه للنّقود السلجوقيّة: (...وكان سلاطين الـ سلاجقة الذين حكموا العراق قد منحوا لأنفسهم عديداً من الألقاب العجيبة حملتها المسكوكات). وقد ضرب السلاجقة الدنانير الذهبيّة والدراهم الفضيّة والفلوس النحاسيّة، ومن ميّزات الدراهم أنّها حملت نقش فارس متقن التنفيذ على صهوة حصان، كما حملـ ـت صـ ـور السلاطين ورؤوسهم، متأثّرين بالنقود الأوروبيّة والبيزنطيّة، إضافةً إلى حملها رموزاً حيوانية وطبيعية كالأسد والنجمة والشمس كإشارةٍ إلى الفلك والتنجيم. حيـ ـث تعتبـ ـر صورة النّقد الفضّيّ التالي الذي ضربه كيخسرو بن كيقباذ منذ سنة (٦٣٨هـ . .) فـ ـي كونية أو سيفاس من أهمِّ المشاهد التي عبّر من خلالها عن حبه لزوجته الكردية أولاً، وعن علاقتيهما بعلم التنجيم ثانياً، فهي تمثّل من وجهة علم الفلـ ـك كوكـ ـب الـ شمس وحلوله في برج الأسد والجوزاء[١٠]. ومن الملفت للنظر أنّ نقش الأسد ظهـ ـر علـ ـى

النّقود الأمويّة من ثمّ الأرتقية . السلجوقيّة قبل أنْ يظهـ ر علـ ى النّقـ ود الأيوبيّـ ة والمملوكيّة لا سيّما ارتباطه الوثيق بالظاهر بيبرس عندما تبنّاه كرمزٍ له تحـ ت اسـ م (سبع الببر).





الوجه: السلطان الأعظم غياث الدنيا والدين كيخسرو بن كيقباد وحوله ضرب بكونية في سنة اربعين وستماية
الظهر: صور أسد متجه نحو اليسار فوقه شمس مشعة ونجمة واسم الخليفة العباسي الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين

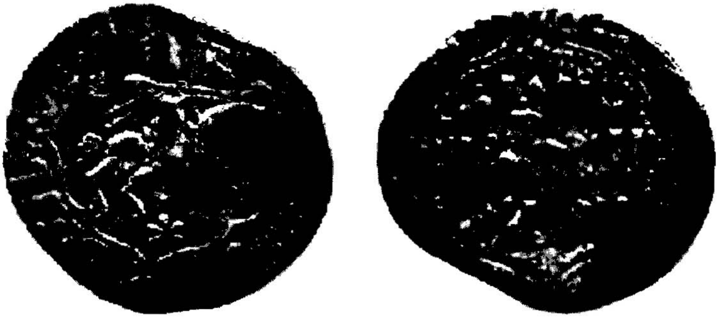


قطعة نقدية فضّية في إشارة للفلك والأسد، وهي من العهد السلجوقي ضُربت في سيفاس في تركية مضروبة في عهد كيخسرو الثاني في ظل الخليفة العباسي المستنصر (٦٤٠هـ ./ ١٢٤٢م)

Cf. American Numismatic Society, AH 640/CE 1242, weight 2.92 g., dia. 23 mm.

. التّمثيل الحيواني على النّقود السلجوقيّة:

بدأتْ التّمثيلات الآدمية بشكل صريح وواضح بالظهور عل ى النّق ود من ذ الفت رة السلجوقية التي تعتبر أساس التمثيل الآدمي على النّقود الأرتقية فيما بعد، وقد حظيْ تْ بالشجاعة والقوّة التي تشكّل أحد أهمِّ المعاني التي أرادها أمراء السلاجقة التعبير عنها حين مثّلوا أنفسهم يمتطون صهوات الخيول يمسكون بالقوس والنشاب يرمون أعدائهم بها أو يظهرون حبّهم للفروسية والصيد، تماماً كتلك النّقود التي أصدرها قلج أرسلان في مدينة سيفاس في عهد الخليفة المستعصم.



درهم سلجوقي: قلج أرسلان ١٢٤٨-١٢٥٧م في عهد الخليفة المستعصم ١٢٤٢-١٢٥٨

درهم ضرب في سيفاس

. التّمثيل الحيواني على النّقود الإيليخانيّة:

الإيليخانيون هم من التتار الذين قاموا على أنقاض الدولة العباسيّة بعد أنْ قتل هولاكو آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله (٦٥٦هـ .)، وقد اهتدى بعض هؤلاء التتار إل ى الإسلام وتسمّوا بالإيليخانيين، وقد حملتْ نقودهم عدّة تمث يلات ن ذكر منه ا النّ سر المواجه الذي سنراه فيما بعد على النّقود الأرتقية والمملوكية.



درهم فضي إيليخاني ضرب في نيسابور بين عامي ١٢٨٤-١٢٩١م

. نقود عهد الأتابكة (الدول) الأرتقية والزّنكيّة[١١]:

تعني كلمة أتابك: الوصي أو المؤدِّب أو المعلم لأمراء الأتراك الذين كان يعهد بـ أمر تربيتهم لحداثة سنّهم إلى بعض الأمراء البارزين. بـ دأتْ التـ سميّة أيـ ـام الـ سلاجقة، واستمرّتْ في عصر المماليك في مصر، فكان يطلق على الأمير الذي كانت تعهد إليه إمارة العسكر، ومنه شاع لقب أتابك العسكر، والأتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر تركي الأصل عمل لدى السلطان جلال الدولة ملكشاه. وآقسنقر: كان والياً على حلـ ـب في الفترة ٤٧٨ – ٤٨٧ هـ ./ ١٠٨٥ – ١٠٩٤م من قبـ ـل جـ ـلال الدولـ ـة ملك شاه السلجوقي. دخل ابنه زنكي سنة ٥٢١هـ ./ ١١٢٧م بغداد، ونُصّب والياً عليهـ ـا، ثـ ـمّ دخلت في حوزته الموصل، وسنجار، وجزيرة ابن عمر، وحرّان. في سنة ٥٢٢هـ . . ضمّ إليه حلب وبعض المدن السّورية مؤسّساً الدّولة الأتابكية في الموصل. تميّز عهـ ـد عماد الدين بدفاعه المجيد ضد الصليبيين فحرّر إمارة الرّها، تمّ اغتياله وهو يحاصـ ـر قلعة جعبر انقسمتْ الدّولة بين ولده محمود الذي حكم سورية ووقف في وجه الصليبيين وأخيه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة. انتهتْ دولـ ـة الأتابكـ ـة فـ ـي

سورية بموت محمود نور الدين الشهيد. وفي سنجار، والموصل، وميافارقين، وجزيـ رة ابن عمر على يد الأيوبيين. ثمّ انقرضوا نهائياً باستيلاء المغول سنة ٦٦٠هـ ./ ١٢٦٢م.

أمّا الأرتقيون، فهم بنو أرتق من سلالة تركمانية حكمتْ في جنوب الأناضـ ول، فـ ي ديار بكر وشمال الفرات بين عامي (١٠٩٨-١٢٣٢م)، وبعض الفروع حتّـ ى العـ ام (١٤٠٨م). كان مقرُّ حكمهم في ماردين و ديار بكر. وبعد انتصار السلاجقة في ملاذ كرد جاء الأرتقيون إلى الأناضول مع القبائل التّركية الأخرى، وقـ د كـ ان مؤسّـ س السلالة "أرتق بن أكسب" حاكماً على القدس وفلـ سطين مـ ن قبـ ل الـ سلاجقة عـ ام (١٠٨٦م)، خلفه أبناؤه سنة (١٠٩١م) من ثمّ قام الفاطميون بطردهم من فلسطين سنة ١٠٩٨ م، ففرّتْ الأسرة إلى شمال العراق واستطاعتْ أنْ تؤسّس إمارة جديدة، حيـ ث أسّس "سكمان" (١٠٩٨-١١٠٤ م) فرعاً حكم في ديار بكر وحـ صن كيفـ ا (١٠٩٨-١٢٣٢م)، كما قام أخوه الغازي (١١٠٤-١١٢٢ م) . الذي شغل منذ العام ١١٠١ م منصباً مهمّاً في دولة العباسيين (متصرف بغداد) . بتأسيس فرع حكم فـ ي مـ اردين وميافارقين (١١٠٤-١١٠٨م) ثمّ فرع آخر حكم في خرتبرت (هـ اربوت) (١١٨٥-١٢٣٣م).

حكمت الأسرة في البداية رسميّاً تحت سلطة السلاجقة ثمّ و ضعتْ نفسها تحت سـ لطة الزنكيين ثمّ الخوارزمشاهات. ولمْ تعرفْ دولة الأرتقيون الاستقلال الحقيقـ ي إلا مـ ع ظهور الإمارات الصليبية في بلاد الشام فقد بلغتْ الدولة أوجها في عهد نصر الـ دين محمود (١٢٠١-١٢٢٢م) في ديار بكر. قضى الأيوبيون سنة (١٢٣٢م) علـ ى هـ ذا الفرع، ثمّ جاءتْ نهاية فرع ماردين على يد الخرفـ ان الـ سود (القراقويونلـ و) سـ نة ١٤٠٨م.

. لماذا حملت العملات الإسلامية الأرتقية تمثيلات آدميّة؟

تميّزتْ عملات الدولة الأرتقية التي سكتْ في شرق تركيا وشمال سوريا فـ ي مدينـ ة ماردين وأجزاء من العراق مع حدود تركيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بأنّها

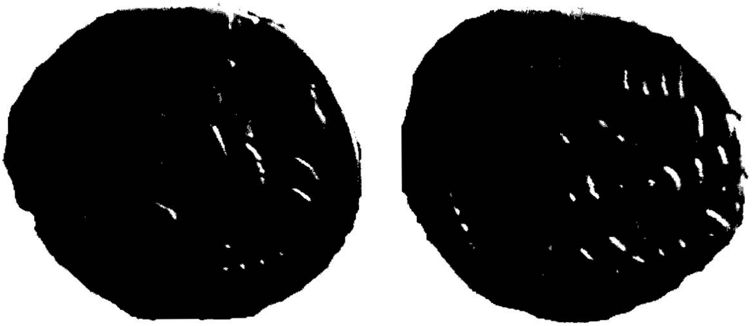
حملتْ صوراً للملوك والسّلاطين ورموزاً حيوانيّة وحربيّة بالرغم من أنّ العملات الإسلامية قبلها منذ فترة طويلة لمْ تكن تحمل أي صور نظراً لتحريم التصوير في الإسلام، باستثناء نقود عبد الملك بن مروان قبل التعريب الكامل ونقود الخليفتين العباسيين المقتدر بالله والمتوكل على الله.

ومن الملاحظ أنّ المسكوكات الإسلامية الأرتقية تحتوي على صور آدميّة مستمدّة من نمط العملات الرّومانية منذ (١٠٠٠) سنة قبل إنتاج المسلمين لعملاتهم، فلماذا كان أسلوب السّكِّ يميل إلى النّمط الرّوماني؟ لقد كانت أسرة ابن أرتق تنحدر من سلالة تركية حكمتْ إقليم ديار بكر في جنوب شرق تركيا وجزء من العراق وماردين شمال سوريا من خلال فرعين: حصن كيفا وعميد أو آمد بين عامي (١٠٩٨-١٢٣٢م)، وفي ماردين شمال سوريا بين عامي (١١٠٤-١٤٠٨م). كوفئ مؤسّس الأسرة أو الدولة الأرتقية أرتق بن أكسب نظير خدماته للسلطان السلجوقي في ظلِّ عهد السلاجقة بأنْ منح له حكم فلسطين في عام (١٠٨٦م) وبعد فترة وجيزة (حوالي ست سنوات تقريباً) اضطّروا للخروج من فلسطين بعد أنْ دحرهم الفاطميون الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك. بعدها اضطّر سليل الأسرة معين الدين زنكي إلى العودة إلى ديار بكر في عام (١١٠٢م) وأقام عاصمة دولته هناك، في حين أنّ المسلمين كانوا يتعاملون ويحاربون مع الغزاة الصليبيين المعادين الذين أتوا من أوروبا، ويبدو أنّه كانت توجد علاقة تسامح تكافلي بين النساطرة والسريان المسيحيين وبين المسلمين الأرتقيين في أراضيهم إذ ارتقى بعض المسيحيين على الساحة في أثناء حكم الأرتقيين وأصبح لهم تأثير ما على مجال الفنّ والأدب والعلوم والمعمار والرّموز المستعملة على العملات، ويُقال أنّ أحد الرجال السريان المسيحيين ويدعى سمعان كان عالماً في علم النّفس والفنون، وكان بمثابة مستشار معتمد في القصر لدى الحاكم وقد أثّرتْ أفكاره على فنِّ سكِّ العملات بإضافاته المأخوذة من القدماء البيزنطيين والرّومان. أصدر حاكم ماردين الأرتقي مجموعةً رائعة من القطع النّقدية التي حملت في الوجه صوراً مسيحية وعلى

الخلف كتابات بالخطِّ الكوفي الإسلامي، وقد استمدت هذه الزخارف من العهدين البيزنطي والرّوماني إضافةً للسلوقي وهي تعبّر عن العظمة ظهور الصدرية الحربيّة (الدّرع)، ونصف الجسد تُذكّر مثلاً بالعملات اليونانيّة لأنطيوخوس السابع إيفريجيت، وإنّ هذا مثير للاهتمام في حدِّ ذاته، ويعتبر أنطيوخس السابع أعدل ملوك الأسرة السلوقية، وقد حكم في وقت متأخّر وكانت هناك مجموعة من الأباطرة المعروفين آنذاك بالقسوة. كذلك نظهر على عملات الأرتقيين تصاميم أخرى مميّزة عليها صور تماثيل نصفية تتوجّه يميناً ويساراً أو إلى الأمام وتكون مختلطةً مع الخطِّ الكوفي مثل تلك العملات الرّومانية التي كانت تصدر في المقاطعات الخاضعة لهم والتي تضاهي العملات الرّومانيّة . البيزنطية المسيحية التي حملتْ صورة السيد المسيح في وقت لاحق على النّقود البيزنطيّة الصادرة في القسطنطينية حيث عينيه تنظر نحو السماء. فمن الواضح وعلى الرغم من معاصرة الأرتقيين للدولتين الفاطمية والأيوبية إلا أنّهم تأثّروا في سكِّ عملاتهم بالأساطير والعظمة ورموز أخرى من الحضارة الإغريقية والرّومانية والشرقية (بلاد فارس)، بل والبيزنطية، فخلطوا بين الرّموز وكانوا بذلك أوّل الحكّام أو أوّل دولة إسلامية تسكُّ عملات حملتْ صوراً آدمية، بالإضافة أنّهما عبّرتْ عن الازدواجية باستخدام أسلوبين، فوجه النّقد سكَّ وفق الطراز الرّوماني أو البيزنطي أو الفارسي بينما الظهر كان وفق الطراز العربي الذي استخدم الخط الكوفي ليذكر اسم الحاكم وألقابه كالنقود الفاطمية. ونتناول هنا التمثيلات التي ظهرت عليها النّقود الأرتقية:

أ . وضعيّات الملوك على صهوات الخيول:

ظهرت عدّة وضعيّات لملوك أو سلاطين على النّقود يمتطون صهوات الخيول الواثبة بخطوات طويلة وكأنّهم محاربون في ساحات القتال، ومن هؤلاء (السلطان المعظم قلج أرسلان بن مسعود، السلطان النّاصر سليمان شاه)، بينما حمل الوجه الآخر كتابات عربيّة تشير إلى الأسماء والألقاب.



الوجه: السلطان المعظم قلج أرسلان بن مسعود. الظهر: فارس على جواده



الوجه: السلطان الناصر سليمان شاه. الظهر: صورة لفارس على جواده



أرتقي: ناصر الدين أرتق أرسلان ١٢٠١-١٢٣٩ في عهد الخليفة المستعصم ١٢٤٢-١٢٥٨ فلس ضرب في ماردين

هنالك فلس نحاسي حمل الوجه دائرة يحيط بها كلمة (السلطان ناصر...أرسلان) وفي مركز الدائرة عبارة نستطيع أنْ نقرأ منها كلمة (محمّد)، بينما حمـ ـل الوجـ ـه الآخـ ـر صورة فارس على صهوة حصان يمسك بالقوس والنِّشاب تأهباً لرميـ ـه، أي أنْ هـ ـذا المشهد يعتبر من مشاهد الفروسية.



ب . صور كاملة لملوك في وضعيّات الوقوف متأثرة بالنقود البيزنطية:

تشبه هذه النّقود طراز نقود البندقيّة أو النّقود الأوروبيّة ذات الإشارات المسيحيّة من حيث تمثيلها في مركز الوجه صورة شخص واقف يمسك بكتاب، بينما حمل مركز الظهر صورة شخصين واقفين يمسكان بصليب، ومن أمثال هذه النّقود ما تمّ إصداره بحلب في عهد نور الدين محمود.



زنكي: نور الدين محمود ١١٤٦-١١٧٣، حلب

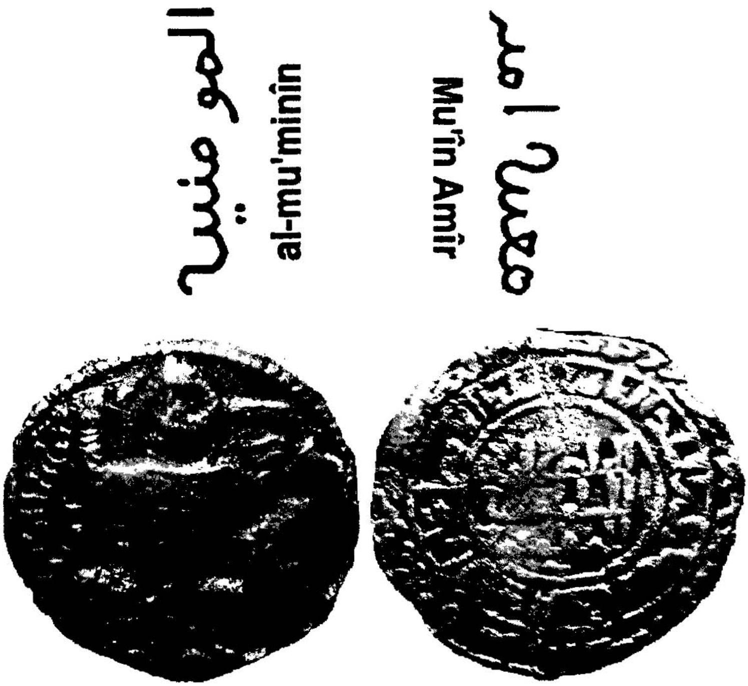
ج . وضعيّات الجلوس على العرش:

أصدر حصن كيفا وآمد (عميد) دراهم للأمير فخر الدين قره أرسلان بين عامي (٥٣٩-٥٧٠هـ . ١١٤٨-١١٧٤م) حملت صورة السيد المسيح جالساً على العرش تقليداً للنقود البيزنطيّة المضروبة في الغرب التي سادتْ في الفترة نفسها، أو النّقود التي أصدرها حسام الدين أرتق أرسلان وهو جالس على قدميه تغطي صدره الصدرية الحربيّة، رافعاً يده اليمنى ليحمل سيفه بوضعية مألوفة في الفنِّ الصيني وغيره من الفنون الشّرقيّة ليظهر السيف خلف رأسه.



درهم فخر الدين قره أرسلان ٥٣٩-٥٧٠هـ . ١١٤٤-١١٧٤م

حمل النقد أعلاه صورة للسيد المسيح تحيط برأسه هالة نورانية، وهو جالس على عرش ذي مسندٍ عالٍ ويضع يده اليمنى على ذراع العرش، ويده اليسرى في منتصف صدره حاملاً الكتاب المقدّس، ولقب الحاكم "معين أمير المؤمنين" بالعربية على يمينه ويساره، وحول هذا المشهد دائرة مزدوجة.

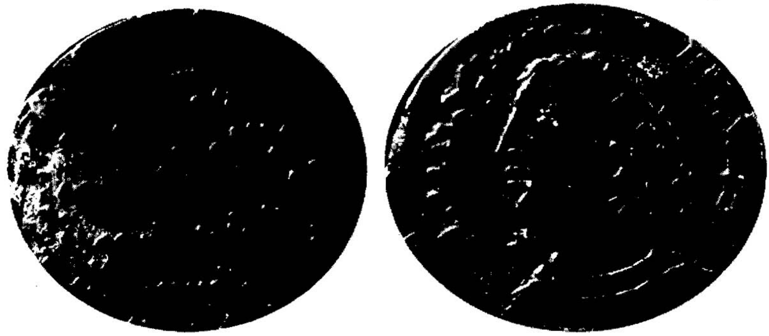


درهم حسام الدين أرتق أرسلان ٥٨٠-٥٩٧هـ . ١١٨٤-١٢٠١م

د . تمثيل الرؤوس الجانبيّة والمواجهة وأنصاف الأجساد المرتديّة الدّروع:

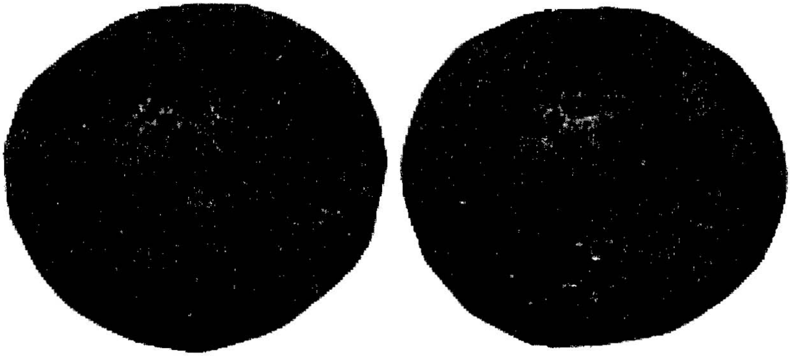
من صفات هذه النّقود أنّها حملتْ في مركز الوجه رأسين مواجهين تحيط بهما آية التوحيد والرسالة: (لا إله إلا الله)، (محمّد رسول الله)، (المستنجد بالله)، (أمير المؤمنين). كما حملت نقود أخرى صادرة في ماردين بتركيا في مركز الوجه رأسين مواجهين وكلمة (الحمد الله...)، وفي مركز الظهر هالة دائرية مؤلّفة من مجموعة نقاط متسلسلة كحبّات السّبّحة وفي وسطها ما يشبه الشمس واسم (نجم الدين ألبي بن إيلغازي بن أرتق). كما أصدرتْ الموصل فلوساً حملت في مركز الوجه رأساً يعلوه

ملاكان مجنّحان لسيف الدين غازي الثاني، أو صورة رأس قطب الدين غازي وابنه في مجموعة من النّقود الصادرة في ماردين، أو تلك الفلوس التي تمثّل صورة جانبيّة نصفيّة أو أماميّة كنقود معز الدين سنجر شاه بن غازي الثاني حيث ضُربت على غرار النّقود التي حملت صور أباطرة الرّومان حين مثّلته بزّيه العسكري وبوضعية جانبيّة، وبالأسلوب نفسه ضرب بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله نقوده متأثّرين بالنقود البيزنطية التي حملت رؤوساً مواجهة.



مودود بن محمود المسعود ركن الدين (٦١٩-٦٣٠هـ ./ ١٢٢٢-١٢٣٢م)





المستنجد بالله   أرتقي: نجم الدين آلبي ابن إيلغازي ابن أرتق

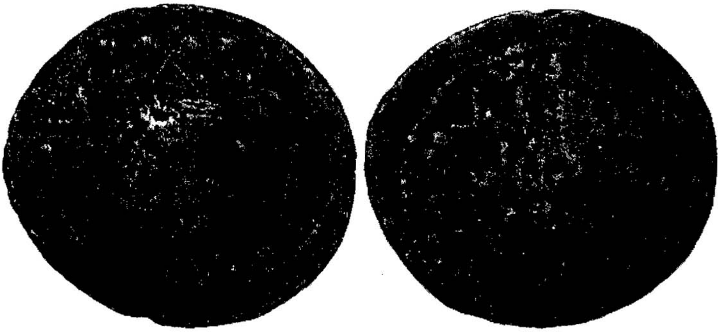
١١٥٢   -١١٧٠ماردين

يعكس النموذج أدناه استخدام الصّور على النقود، حيث نلاحظ المزج بين عناصر الحضارتين البيزنطية والتركية ممّا يؤكد على تنفيذ مشروع محدد في عملية سكِّ النقود إذ ظهر هذا النقد في السنة نفسها التي انتشرتْ فيها النقود المماثلة لهذا النموذج الأرتقي في ماردين، وهذا شيء غير مفاجئ فالشخصية المتوّجة على الوجه الأمامي هي تمثيل بيزنطي بشكل واضح من حيث نحت الوجه بشكل أمامي أو التاج المكلل بربّات النصر فهي توحي بأنّها امرأة من الطبقة المالكة.



فخر الدين قره أرسلان ٥٣٩-٥٧٠هـ . ١١٤٤-١١٧٤م

إنّنا نفهم من اختيار هذه الصور على النقود الأرتقية بأنّها تشير إلى شرعية حكمهم، فعندما تظهر صورة حاكم بيزنطي على نقد تركماني فهدف استخدامها التأكيد على أنّهم ورثوا مصطلح "الحق في الحكم". هذا المصطلح كان مهمّاً أيضاً للفنانين والفلكيين لفهم المنطقة الحاكمة. كما أنّه من المنطق بأنّ هذه الرّموز استخدمتْ لأغراض فلكية ربّما للإشارة إلى الترابط مع الأرض والتناسب مع المواضيع الفلكية والسماوية.



زنكي ـ أتابكي سيف الدين غازي الثاني ١١٧٠–١١٨٠م موصل

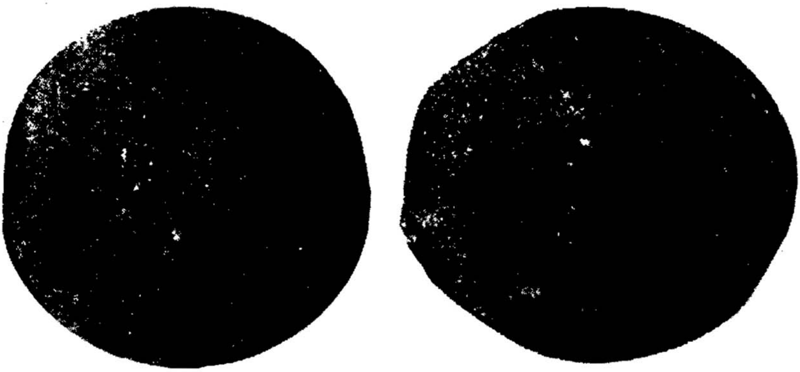


نقش الشمس وفي الأعلى ربّتا نصر مجنّحتان:

سيف الدين غازي ابن مودود (٥٦٨هـ ./١١٧٢م)

. نقود قطب الدين سكمان الثاني بن محمّد (٥٨١-٥٩٧هـ ./ ١١٨٥-١٢٠٠م):

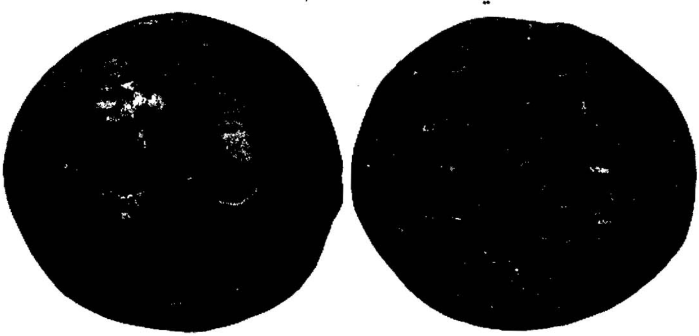
ضرب قطب الدين سكمان نقده الأوّل لتأكيد وصوله للخلافة في حصن كيفا سنة (٥٨١ هـ .) إلى جانب نقش اسم الحاكم الأيوبي الأمير الناصر صلاح الدين كأوّل ظهور لاسمه في حصن كيفا وآمد. كما ظهر اسم صلاح الدين أيضاً لأوّل مرّة على نقد أرتقي في ماردين في عهد يولوك أرسلان وفي السنة نفسها، ممّا يؤكد على التوسع الأيوبي في سنة ٥٨١هـ ./ ١١٨٥م). هذا ويظهر اسم قطب الدين سكمان الثاني على بعض النقود بدون ذكر اسم أو لقب الحاكم الأيوبي، ممّا يؤدي إلى الاعتقاد بأنّ قطب الدين سكمان قد بدأ حكمه سنة (٥٨١هـ .) كحاكم مستقلٍّ إلا أنّه خضع للسيطرة الأيوبية بعد فترة وجيزة.



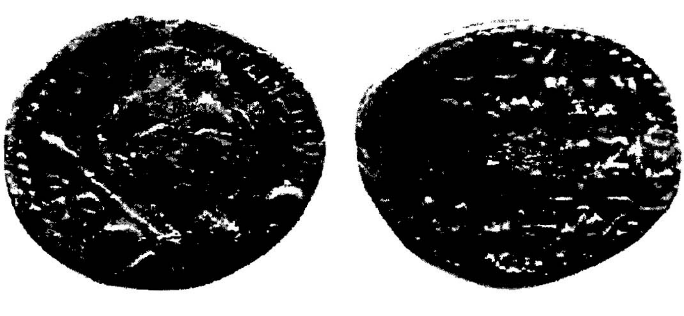
قطب الدين سكمان الثاني بن محمّد (٥٨١-٥٩٧هـ ./ ١١٨٥-١٢٠٠م)

ضرب قطب الدين سكمان نقوده الأولى بتأثير مستوحى من النقود الساسانيّة لا سيّما من دراهم شابور الأوّل فوضع صورته على النقود الأرتقية التي تميّزت بالتاج الذي يعلو رأسه، ومن الجدير ذكره أنّ شابور كان أسطورةً حقيقيةً ومحتلاً عظيماً تمكّن من أسر الإمبراطور الرّوماني فاليريان سنة (٢٦٠م) لذلك لم يتمّ تمجيده فقط في الأدب

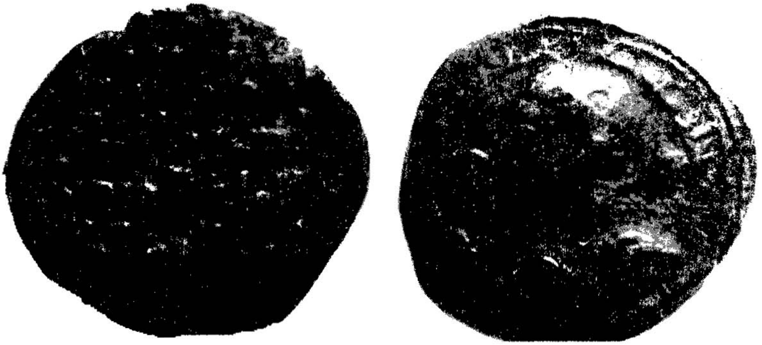
الفارسي والقصّص الشعبية. فقد صور فاليريان الأسير وهو راكع أمام شابور الذي كان جالساً على حصانه على الحجر التذكاري الذي مازال محفوظاً غرب إيران.
إنّ كثرة هذه الصور على النقود التركمانية المنقوشة بكتابات عربيّة تشير إلى أصلها المستوحى من الشرق الفارسي إلى جانب استخدام نماذج بيزنطيّة كانت متداولة في بداية إصدار هذه النقود ممّا يثير الشّك في قدرة الأرتقيين على إنتاج نقد جديد في تلك الفترة، ولكن مع تطوّر هذه النقود تغيّر هذا المفهوم بشكل تلقائي، فهناك نقود لشخصيات تاريخية معروفة تؤكّد على شرعية الحكم التركي. لكننا لسنا على يقين بأنّ الأمراء الأتراك شاركوا في اختيار هذه الأشكال على النقود، وعلى كل حال كانوا هم المستفيدين من هذه الرسالة التي حملتْ صورهم.



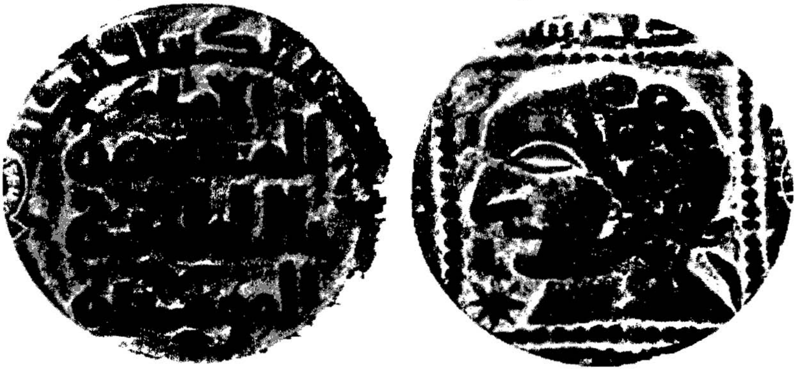
أرتقي: قطب الدين غازي ٥٧١هـ . / ١١٧٦-٥٥٩هـ . /١١٨٤م ماردين



أرتقي: قطب الدين سكمان الثاني ١١٨٥-١٢٠٠م ساد في كيفا وآمد



تمثال نصفي جانبي: فلس زنكي زمن معز الدين سنجر شاه بن غازي الثاني. مضروب سنة ٥٩٦هـ ./ ١١٩٩م

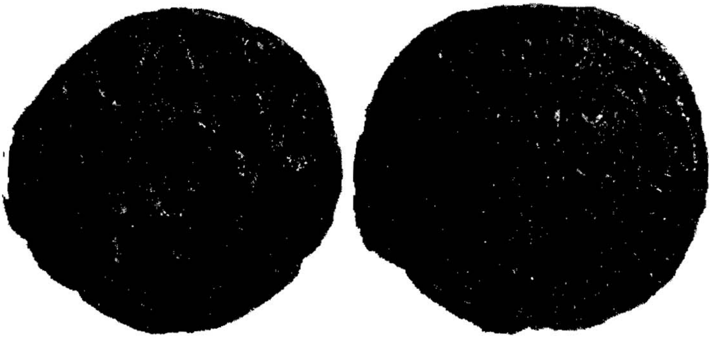


رأس جانبي وتحت الذّقن نجمة: من المسكوكات الزّنكيّة (أرتقي أو تركماني) في الجزيرة (بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله ٦٣١-٦٥٧هـ ./١٢٣٤-١٢٥٩م) زمن الخليفة العباسي المستنصر بالله أمير المؤمنين

. التّمثيل الآدمي لعدّة أشخاص على النّقود الأرتقيّة:

تأثّر الأرتقيون بأنماط النّقود الفاطمية . الرّومانية بمعنى (التأثير المزدوج) من خلال الكتابة المنقوشة في عدّة أطواق على غرار ما سكّه الفاطميّون . والتي يمثلها الفلـ س أدناه . بينما يظهر التأثير الرّوماني بشخص جالس على العرش ومن حولـ ـه ثـ ـلاث

شخصيّات تحيط به تشبك أياديها بعضها ببعض، وهي من الصور الغريبة التي ظهرتْ على فلوس يولق أرسلان بن إيلغازي حسام الدين في عهد صلاح الدين الأيوبي، كتعبير عن ولائهم للناصر يوسف بن أيوب، أمّا التأثير الفاطمي فيظهر بنمط توزيع الكتابة ضمن الأطواق.



يولق أرسلان بن إِيلغازي حسام الدين (٥٨٠-٥٩٧هـ ./ ١١٨٤-١٢٠٠م)

. التّمثيل الحيوانيّ على النّقود الأرتقية والزّنكية:

أ . نقش النسر برأس مزدوج:

ظهرتْ على النّقود الأرتقية والزّنكية مجموعةً من المشاهد الحيوانيّة لا سيّما تلك المضروبة في سنجار بمنطقة الجزيرة وماردين منها نقش نسر برأسين حمل اسم (الإمام أحمد) وهذا النّسر سنراه لاحقاً على النّقود المملوكيّة. نعتقد أنّ السلاجقة الأتراك قد تبنّوا نقش النسر ذو الرأس المزدوج وأنّهم استوحوه من نقش حثّي قديم ساد في الأناضول، وقد أصبح في فترةٍ لاحقة شعاراً للنبالة في أوروبا الغربية. وهذا الاستنتاج مقبول جداً بما أنّ رمز النسر ذي الرأس المزدوج قد ظهر في موقع (أياهويوك) قبل الفترة الحثّية (٢٣٠٠-٢٠٠٠ ق.م). كما أنّه عثر على ختمٍ حثّيٍّ في أوجاريت حمل هذا النقش أيضاً.

إنّ الرموز السلجوقية . كالنسر برأس مزدوج . تظهر بشكل أساسي في القرن الثالث عشر الميلادي ونشاهدها على تماثيل حجرية في مدن: (كوينا وارزريوم، وفي منارة شيفت، والمدرسة اليعقوبية، وفي ديفرجي في المسجد الكبير). وفي كوباد آباد في قصر روم سلجوق هناك أشكال فلكية تؤرّخ بين عامي (١٢٢٠- ١٢٣٠م) تضمُّ نقش النسر ذي الرأس المزدوج ويذكر اسم السلطان المنقوش في صدر النسر. هذا الرمز ساد على النقود الزنكيّة العائدة لعماد الدين زنكي الذي ضرب كميّةً منها في سنجار سنة (١١٨٧م).

لقد تمّ الاتفاق على أنّ هذا الرمز يمثّل أذرع الإمبراطورية الأرتقية في حصن كيفا وآمد. ومن الملاحظ بأنّ الزنكيين استخدموا هذا الرمز على نقودهم في سنجار قبل خمسة وعشرين عاماً من ظهورها على نقود حصن كيفا المحكوم من قبل الأرتقيين، في حين يرى (لين بول) أنّ هذا النقش أرتقي الأصل، ولكنَّ هذا الرمز قد ظهر في العديد من الثقافات الشرقية والغربية قبل ظهورها على النقود التركية، فقد اكتشف في بلاد الرافدين رمز النسر ذو الرأس المزدوج يعود إلى عهد سلالة أور الثالثة (٢١٢٥-٢٠٢٥ ق.م)، إضافةً إلى ظهور نقش النّسر في الفنِّ الإغريقي القديم على تمثال عاجي من فترة إسبرطة. في حين تبنى السكيثيون أو أعادوا استخدام هذا النقش وهم الذين نقلوه في القرن الثاني إلى الهند وسيلان. علاوة على ذلك فقد ظهر هذا النسر على لوحةٍ جدارية في القرن السابع الميلادي في كيزيل في تركستان، كما ظهر هذا النقش في بغداد خلال القرن العاشر أثناء احتلال البويهيين الذين سبقوا السلاجقة والزنكيين والأرتقيين. وكمثال آخر فقد اكتشف في دمشق خنجر حمل نسراً برأسين مؤرّخ بين عامي (١٢٦٥ و١٢٧٩م)، وهناك لوحة مرمرية كانت موجودة في كنيسة ميافارقين تؤرّخ حوالي العام (١٢٠٠م) حملت النسر. في حين ازدانت بعض قطع الحلي النحاسية المطلية بالذهب والعائدة إلى القرن الثالث عشر المكتشفة شمال سورية أو في الجزيرة بنقش النسر، وهناك حجر منقوش في باريس يمثّل تعويذة من القرن

(١٢-١٣م) تحمل النسر على أحد وجهيها أمّا الوجه الآخر فحمل حيواناً رباعي الأرجل وله رأسان بشريان.

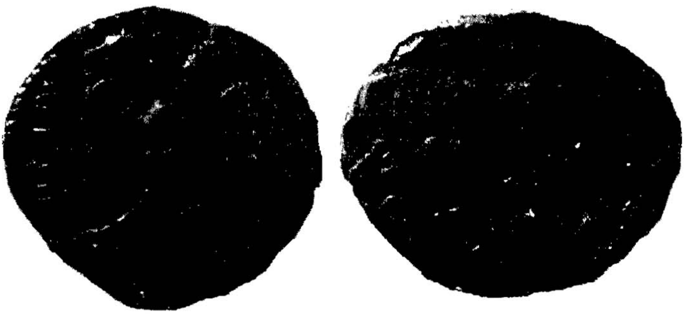
أما في أوروبا فإنّ أوّل من استخدم نقش النسر ذي الرأس المزدوج . إن صحَّ ذلك هو الإمبراطور الألماني في أواسط القرن الرابع عشر، وبسبب تواجده في كل مكان تمّ الاعتقاد من قبل علماء القرن التاسع عشر أنّ هذا النقش انتقل من أوروبا إلى الشرق الأوسط أثناء الحروب الصليبية ومن ثمّ استخدمه المسلمون. لكن هذا الأمر غير منطقي، كما يصعب التصديق بأنّ هذه الصورة انتقلتْ من الأرض المقدّسة إلى ألمانيا من خلال الصليبين، كما أنّ الاستخدام البيزنطي لهذه الصورة يعود إلى القرن العاشر أيضاً.

إنّ الدلائل كثيرة على وجود النقش في أوروبا قبل ألمانيا حيث حملت نقود الحجاج الإنكليز بين عامي (١٢٦٠-١٢٩٠ م) صورة النسر ذي الرأس المزدوج، وحملته أيضاً نقود أندرونيسيوس الثاني (١٢٨٢- ١٣٢٨م). واستُخدم في إيطاليا في القرن الثالث عشر بعد أنْ ساد نقشه على أدوات صقلية . عربية، ونجده على نقد في صربيا- بلغاريا لمايكل شيشمان (١٣٢٣- ١٣٣٠م). إنّ كلَّ هذه الأمثلة تسبق ألمانيا في استخدام النسر. كذلك لا بدَّ من وجود سبب فلكي لاستخدام هذا النقش على هذه النّقود الأرتقية، فقد كان الأرتقيون يهتمّون بالسحر وبكوكب عطارد على وجه الخصوص مع برجيه الجوزاء والعذراء. ففي برج الجوزاء يظهر النسر بشكل مزدوج، لذلك ظهر النسر ذو الرأس المزدوج. كما يعتقد البعض أنّ هذا النسر يرتبط برمز "جانوس" الإله الرّوماني حارس بوابات السماء الذي له رأسان. إضافةً إلى ذلك فإنّ النسر ذا الرأس المزدوج يوضّح أهمية كوكب المريخ الذي يؤثّر على تحركات البشر من خلال تمثيله مع برج الجوزاء نقش النسر ذي الرأس المزدوّج.

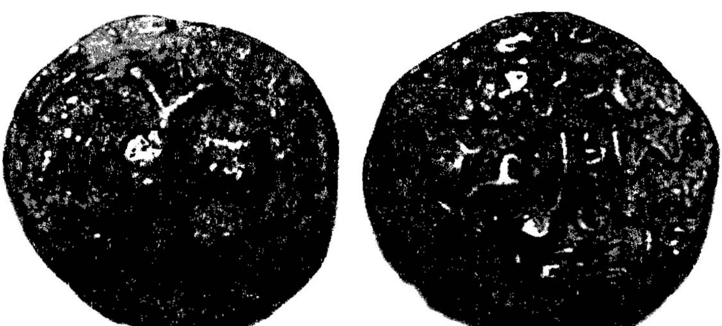


نسر برأسين متعاكسي الاتجاه وعلى صدره كلمة الإمام أحمد

المسكوكات الزنكية في سنجار . عماد الدين زنكي بن مودود (١١٧٠-١١٩٧م)



أرتقي: فلس ضرب في ماردين في عهد نصر الدين محمد ١٢٠٠-١٢٢٢م



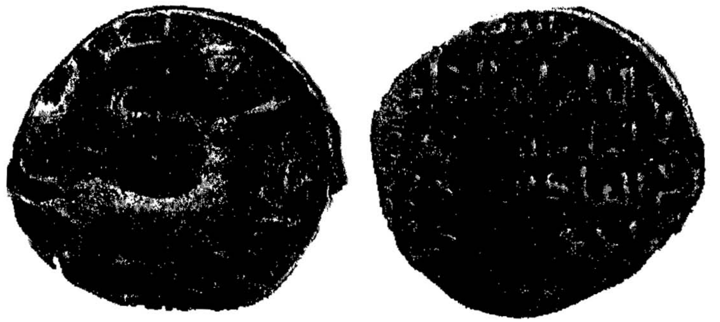
زنكي . أتابكي: قطب الدين محمّد بن زنكي، ضُرب في سنجار

ب . نقش السانتور:

السانتور أو القنطور هو حيوان خرافي ساد في الفنون الإغريقية، تأخذ مقدّمته شكل إنسان وباقي الجسم شكل حصان، وقد تمّ تمثيل القنطور على النقود الأرتقية حيث أصدرتْ ماردين فلوساً حملتْ في الوجه اسم نصر الدين أرتق أرسلان (١٢٠١-١٢٣٩م)، وفي الوجه الثاني صورة (سانتور خرافي) بجسم حصان ومقدّمة إنسان يمشي باتجاه اليمين، وما هذه الصورة إلا تقليد للنقود الرّومانيّة والإغريقيّة.



نصر الدين أرتق أرسلان



درهم فضّي أرتقي ضرب في ماردين بعهد نصر الدين أرتق أرسلان ١٢٠٠-١٢٣٩م في ظل الخليفة العباسي الناصر والملك العادل نور الدين بن محمود زنكي ١١٩٦-١٢١٨م

ج . تمثيل ربّات النصر:

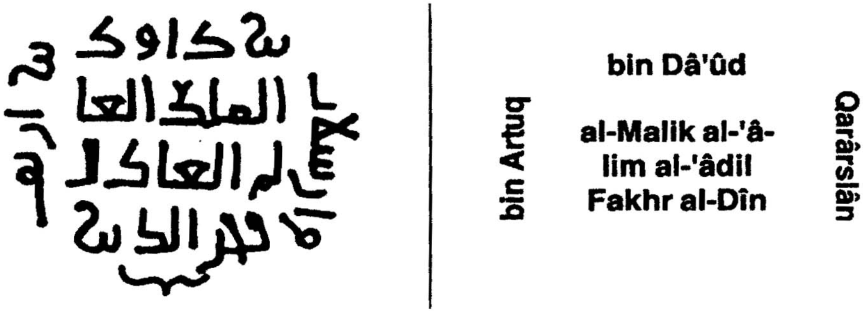
يعدُّ هذا النمط من النماذج المفضّلة على النقود التركمانية البرونزية وله أصول تعود لما قبل الإسلام في الفنّين الإغريقي والرّوماني، وحسب معظم المصادر فقد لاحظ لين بول أنّ الوجه الأمامي لهذا النقد تمَّ استعارته من السوليدوس الذهبي لقسطنطين الكبير الذي ضرب سنة (٣٣٥م) في سيسينيوم في بانونيا (يوغوسلافيا سابقاً)، الذي نقش عليه (SIS).



وصف النقد أعلاه:

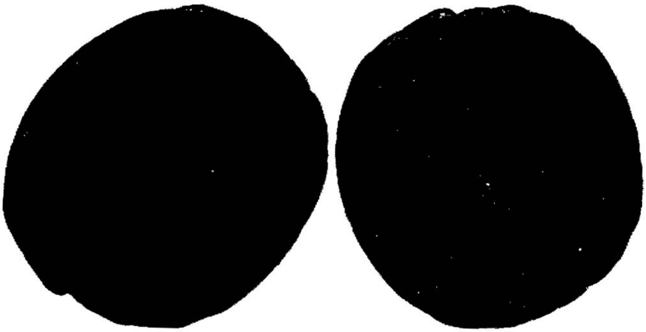
الوجه الأمامي: ملاك مجنّح يمثِّل (فيكتوريا) بشكل جانبي تنظر إلى جهة اليمين، مرتديةً ثوب الخيتون وأحياناً تمسك بيدها اليسرى إكليلاً أو سعفة نخيل أو رقيماً أو صدفةً كتب فيها (**VOTXXX**). وهناك نقش (فيكتوريا قسطنطين المعظمة **VICTORIA CONSTANTINI AVG**) نُقشت بالأحرف الرّومانية حول المشهد السابق وأحياناً نقش مكان الضرب (سيزيوم **SIS**).

الوجه الخلفي: نقوش عربية بالخط الكوفي موزّعة على ثلاثة أسطر وقد تمَّ التركيز في بعض النقود على الزخارف التي نُقشت ضمن دائرة. ونقش اسم الحاكم بألف واحدة (قره أرسلان).



. الرّموز على النّقود الزنكيّة:

ظهرتْ على النّقود الزّنكيّة من وحدة الدّراهم الفضّية صور تمثّل الصاعقة والنّجوم الممثّلة بخطوط منحنيّة لا سيّما على الدّراهم الصادرة في الجزيرة في عهد المعظّم محمد بين عامي (٦٠٥-٦٤٨هـ . ١٢٠٩-١٢٥١م).



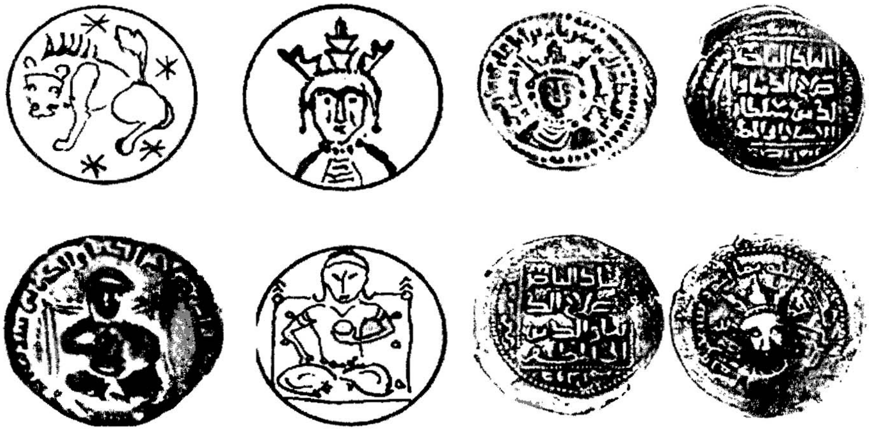
المعظّم محمد (٦٠٥-٦٤٨هـ . ١٢٠٩-١٢٥١م).

. التّمثيل الآدمي على النّقود الأيوبية[١٢]:

ظهر التمثيل الآدميّ والحيوانيّ على النّقود الأيوبيّة النّحاسية المضروبة بالجزيرة فقط، إذ ظهر صلاح الدين الأيوبي في صورة نصفية أمامية متوّجاً بالتّاج الساسانيّ الـ ذي تعلوه الأجنحة، وذلك على قطعة نحاسية من إصدارات نصيبين. كما ظهر في مشاهد أخرى جالساً على العرش، وأحياناً ظهر في رفقة نمرٍ أو ربّما ضبعٍ جاثيّاً وحوله عدّة

نجوم. وهذا المشهد متأثّر إلى درجة كبيرة بالنّقود الساسانية . الكسروية من حيث التّاج، والنّقود البيزنطية من حيث التّمثيل المواجه، كما يستمد روحيّته من النّقود السلجوقية من حيث التّمثيل الحيواني.

صلاح الدين الأيوبي على رأسه تاج ساساني والصورة الأخرى جالساً بالإضافة إلى صورة الضبع أو السبع
الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين



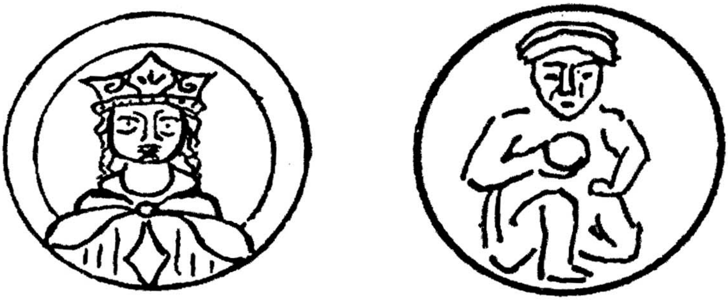
ظهر أيضاً اسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على فلوس نحاسية من إصدار ماردين حملتْ على الوجه الآخر صورة ملوك الأرتقيين بشكل جانبي وتمثالاً نصفياً يضع على رأسه تاجاً يشبه سور المدينة، وربّما صدر هذا النّقد عن الأرتقيين كولاء للسلطان صلاح الدين.

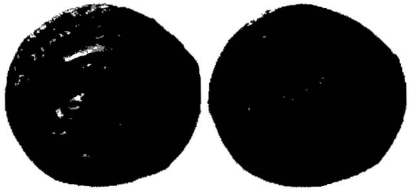


الملك الناصر يوسف بن أيوب صلاح الدنيا والدين أمير المؤمنين

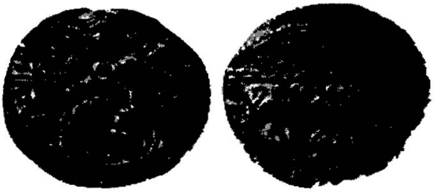
في حين ظهرت صور نصفية أماميّة أو صور ملوك جالسين كنقود الملك العادل الأوّل (٥٩٦هـ .) والأوحد نجم الدين أيوب (٦٢٧هـ . .)، والأشرف موسى الأوّل (٦٤٨هـ .) وذلك على فلوس الجزيرة وميافارقين وسنجار. كما حملت بعض نقود صلاح الدين أو غيره صورة نمر أو صورة السلطان جالساً بشكل أمامي، وكأنّها تستمدّ روحيتها من النّقود البيزنطيّة الصادرة في القرن العاشر، ومن النّقود الباكرة للزنكيين والأرتقيين.

سيف الدين أبو بكر بن أيوب الملك العادل ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م ضرب بميافارقين

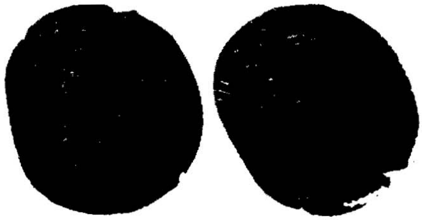




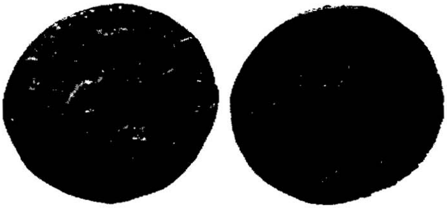
الأوحد نجم الدين أيوب (٦٢٧هـ)



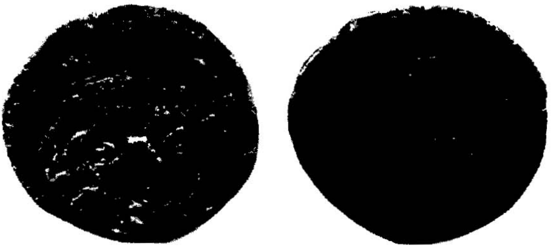
الأشرف موسى الأوّل في وضعية الركوع (٦١٥هـ)



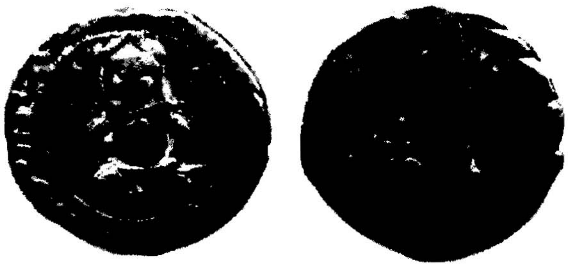
صلاح الدين الأيوبي



الأشرف موسى الأوّل يحمل كأس (٦١٢هـ)



درهم الأشرف موسى ١٢١٠-١٢٢٠ ضرب في ميافارقين في عهد الملك الناصر ١١٨٠-١٢٢٥م



درهم الأشرف موسى ١٢١٠-١٢٢٠ ضرب في سنجار في عهد الناصر ١١٨٠-١٢٢٥م

. الأشكال الهندسيّة على النّقود الأيوبيّة:

يبدو أنّ الأيوبيين قد أترفوا نقودهم بالتزيين الهندسي على عكس فنونهم المعمارية العسكرية، فقد تفنّن الأيوبيون بالمظهر الجمالي للعملات النّحاسية والفضّية والذهبيّة التي سكّوها، واعتمدوا في زخرفتها على الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية في تأطير اسم السلطان الذي ضربت في عهده تلك النّقود. فظهر الإطار المربع والنجمة الخماسيّة والسداسية والثمانية والإطار الموّرد ذو الحنيات الستة أو الثمانية والدوائر.



الأسد



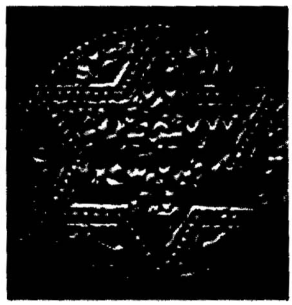
المربّع



نجمة خماسيّة



النّجوم



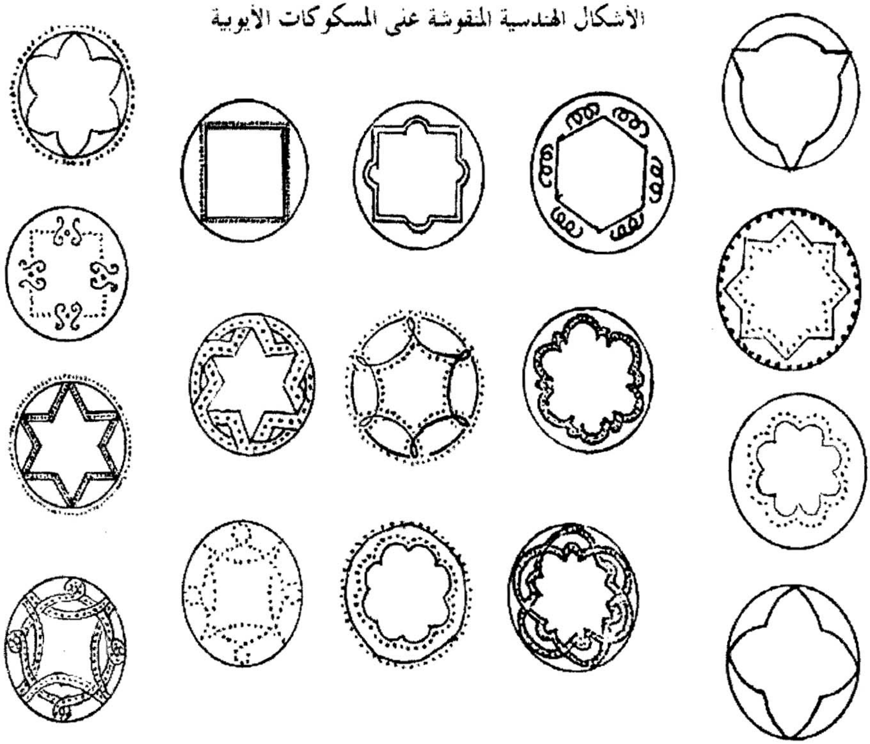
النّجمة السداسيّة



الحنيّات



خط ذو نهايات زائدة



. التصوير بأنواعه على النّقود المملوكيّة[١٣]:

تعتبر نقود سلاطين المماليك في سوريا ومصر من أغنى النّقود تنوّعاً ضمن المسكوكات العربيّة الإسلاميّة، حيث يوجد في هذا الموضوع ما يمثّل أدباً شاملاً أو مكتبةً شاملةً. فقد حظيتْ النّقود المملوكيّة بالاهتمام والنّشر في "فهرسات" القرن الثامن عشر، وبدأتْ تسترعي الانتباه خلال القرن التاسع عشر، حيث نشر العالم (**Pietra-Szewski**) مجموعته الضخمة. بحدود العام ١٨٤٣م. وقبيل نهاية القرن العشرين، وعندما كانت دراسة المسكوكات الإسلامية القديمة في ذروتها تمّ نشر عمل على

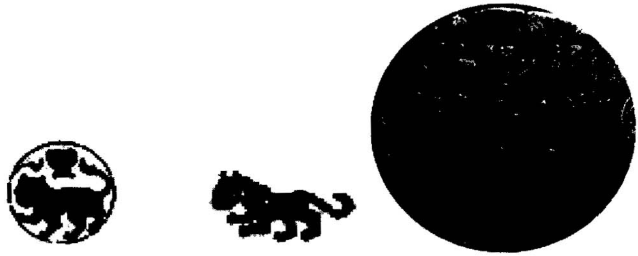
جانب كبير من الأهمّية وهو: ("كتالوج" النّقود الشرقية في المتحف البريطاني)، من قبل العالم (ستانلي لان بول S. L. POL) وذلك في عشرة أجزاء، ويعتبر العملان السابقان بمثابة حجر الزاوية في تاريخ علم المسكوكات الإسلاميّة القديمة. ظهرتْ بعد ذلك العديد من المساهمات في دراسة النّقود المملوكيّة، وفي الغالب كانت الكتالوجات (الفهارس) العامّة أو المجموعات الخاصّة متفاوتة الأهمّية. وتعتبر مقالة العالم (Oliver Codrington) . التي تمّ نشرها تحت عنوان كنز مسمار التأسيس: (A Hoard found at broach) . مقالة جيدة من خلال عمليّة وصفه للكنز الضخم من النّقود الذهبيّة والفضيّة الإسلاميّة التي احتوت على المئات من الدنانير والدراهم الممتدّة بين عهدي الناصر محمد والمنصور علي.

. التشكيلات الفنّية على النّقود المملوكيّة:

ظهرتْ العديد من الرّموز على النّقود المملوكيّة، منهـا الرّموز الحيوانيّة كالسبع والنّسر، ونسر برأسين، وطائر غير محدد، والحصان، وسمكة القرش، وطائر البطّ الذي يرمز لاسم قلاوون، ومنها مشاهد هندسية كالخطوط الأفقية، ومنها النّباتية كالزهرة ذات الست بتلات، والزهرة ذات الخمس بتلات. وكذلك حملت النّقود المملوكيّة الرنك[١٤] أو الشّعار المعروف بالكأس، والنّجمة السداسية، والهلال والشمس وشعار الكشافة..الخ، ويمكن حصر هذه الرّموز والرّنوك بما يلي:

. سبع الببر:

ظهر على نقود الظاهر بيبرس المضروبة في مصر مع لقب قسيم أمير المؤمنين، كما ظهر السبع والشمس المشعّة خلفه على نقود حماة في عهد المنصور محمد، لكن سبعه يختلف عن سبع الظاهر بيبرس من ناحية الرسم.

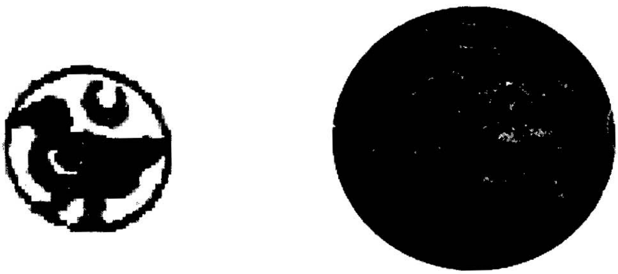


سبع الببر وفوقه كأس



سبع فوقه شمس مشعّة

. **طائر البط:** يعدّ رمز محمد بن قلاوون، وقد ظهر سابقاً على الفلوس النّحاسيّة الأمويّة.



. **النّسر:**

يُمثَّل عموماً بالشكل الكلاسيكي المعهود، وعلى الطراز الغوطي، يأخذ رأسه لليمين تارةً ولليسار تارةً أخرى كما مُثّل أحياناً برأسين باتجاهين متعاكسين، وقد ظهر العادي أو النّسر برأسين على نقود النّاصر محمد وبرقوق.





. الحصان:

ظهر الحصان على نقود المنصور محمد، ويظهر على صهوة الحصان فارسٌ ربمّا كان السّلطان، وتمثيل الحصان يعود إلى فترة أسبق من العهد المملوكي.



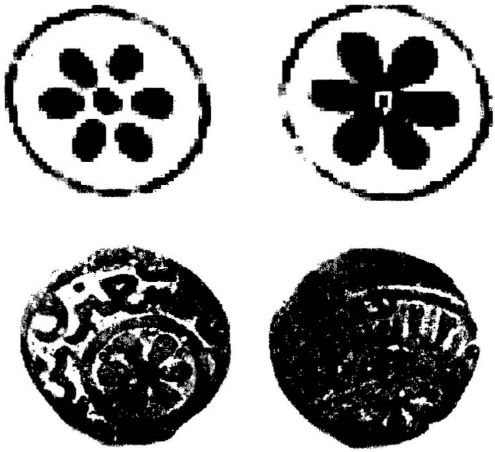
. السّمكة:

ظهرت سمكة القرش منقوشةً على فلوس حماة في عهد الأشرف شعبان بغية التزيين فقط.

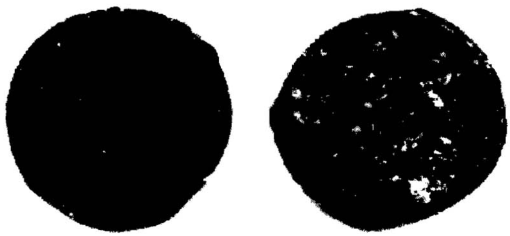


. الزّهرة والنجوم والأشكال الهندسيّة:

جُسّدتْ الزهرة على النّقود المملوكية بعدّة أشكال (انظر الجدول أدناه)، منها سداسية البتلات كالزهرة التي نقشتْ على نقود قلاوون وملوك آخرين. بينما تعتبر الزهرة ذات الخمس بتلات هي الأكثر شعبيةً. كما حملت نقود أخرى أشكالاً هندسية كالمثلث الذي في منتصفه دائرة كفلس الأشرف موسى الصادر بدمشق سنة ٧٦٣هـ ..



فلس مملوكي للصالح إسماعيل ٧٤٣هـ . ١٣٤٢-١٣٤٥م (زهرة بست بتلات)



فلس الأشرف موسى ضُرب في دمشق

. النّجمة:

ظهرت النجمة السداسية على نقود الناصر محمد، وقد حملتْ في نقطة التقاطع أو في مركزها زهرة ذات ست بتلات.



. الكأس:

أورده ماير على أنّه من أهمّ الرّموز المملوكيّة، ظهر في عهد كتبغ ا، ويعتب ر ه ذا الرّمز أكثر انتشاراً على نقود المماليك البرجية من البحريّة في عهد برق وق وف رج. وهو يعبّر عن كأس النّبيذ ويرمز إلى الساقي، ويكون مميّزاً على نقود تيمربوغا. وقد ساد هذا الرّمز بكثرة على العمائر الإسلاميّة.





. الهلال:

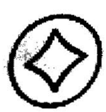
ظهر الهلال كرمز للتزيين على نقود المنصور محمد إلى جانب نقش النّسر، كم ا ظهر على مركز ظهر النّقود التي حملت اسم الأشرف شعبان والمنصور علي.



. البقْجة:

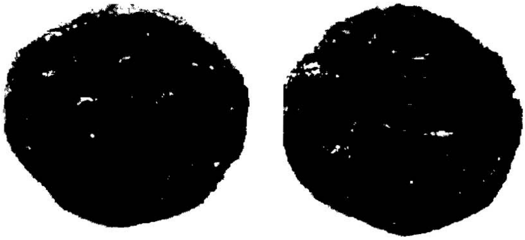
هي ما كان يحضّر فيها من ثياب الملك، وهي عبارة عن قطعة من القماش تطوى عدّة طيّات لتعطي شكل البقجة.

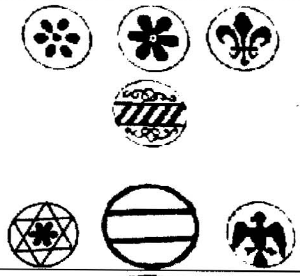
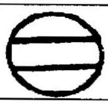


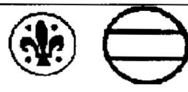
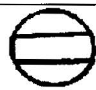
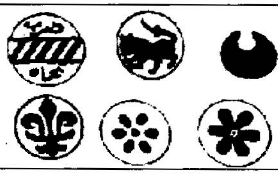
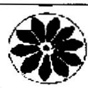
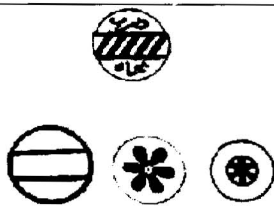
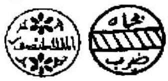
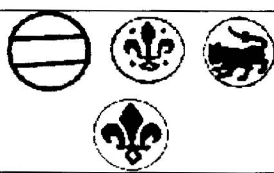
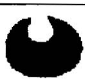


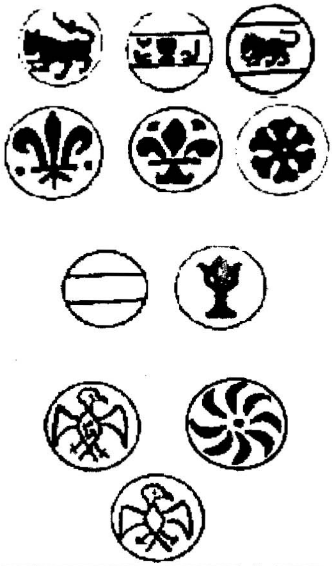
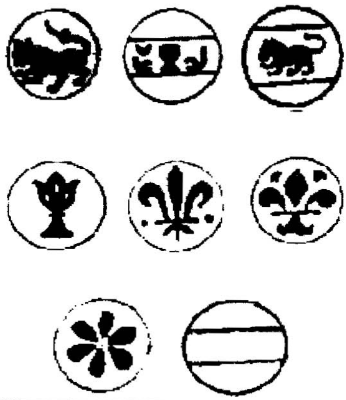
. شعار الكشافة:

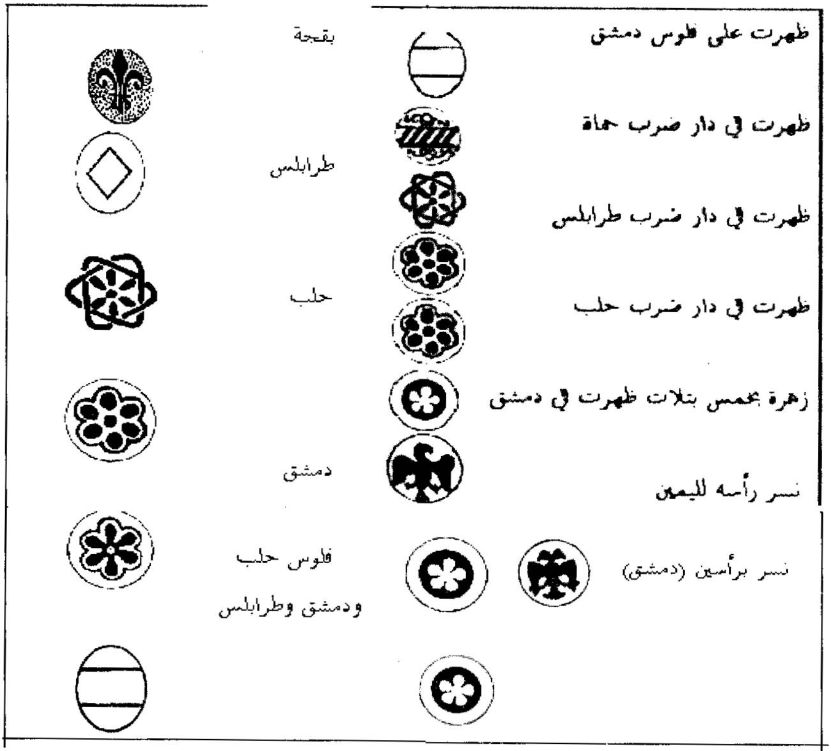
ساد هذا الشعار على النّقود المملوكية حصراً وهو من إبداعهم، ونميّزه على عمائرهم، ونوضحه بفلس من ضرب طرابلس في عهد ناصر الدين (مملوكي بحري) في ظلّ الخليفة المنصور علي ١٣٧٦-١٣٨٢م:



الملك	الرمز	الملاحظات
الظاهر بيبرس الأول		سبع الببر
بربكة خان		سبع الببر أمامه مثلث
الناصر محمد		عدة أشكال زهرة بثلاث بتلات، بست بتلات بشكلين، خطان أفقيين ضمن دائرة، نسر رأسه لليسار
كتبغا		كأس الخمر
لاجين		

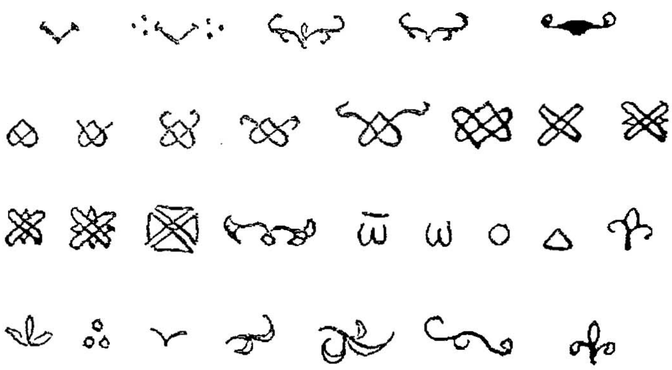
الصالح إسماعيل		
المظفر حاجي		
الناصر حسن		
الأشرف شعبان		 سمك القرش
الصالح صالح		 زهرة بعشر بتلات
المنصور محمد		 فارس على صهوة فرس   بط  سبع خلفه شمس مشعة
المنصور علي		 هلال
الصالح حاجي		هلال، زهرة بثلاثة سيوف وأربع نقاط، خطان أفقيان تفصل بين الكتابة

الظاهر برقوق		 سبع وخلفه غصن نباتي  كأس  سبع فوقه كأس
الناصر فرج		



. التزيّينات المرافقة للخطوط في العهد المملوكي:

تظهر تزيينات صغيرة وزخرفات عربيّة ولفيف ات ورديّ ـة الـ شكل متن اثرة بـ ين الكتابات على جميع القطع النّقدي ـة تقريب ـاً، حيـ ث أنّ ـه مـ ن المـ ستحيل تـ دوينها بشيء من التفصيل دون حدوث إسهاب كبير في هذا العمـ ل، لـ ذلك تـ مّ عرضـ ها بشكل موضوعي كما هي على القطع النقديّة العربيّ ـة بحيـ ث يـ سهل فهمهـ ا مـ ن خلال الدلالات، ويجب عدم الخلط بينهـ ا وبـ ين تلـ ك التزيين ـات الأساسـ ية فـ ي القطعة النقديّة، والتي تـ شكّل جـ زءاً مـ ن تـ صميمها. بالإضـ افة إلـ ى التزيين ـات الحقيقية فقد كانت الـ شدّة (ّ) تـ ستعمل غالبـ اً لتـ زيين الكتابـ ات الدينيـ ة وأكثـ ر استخداماتها تكون مع لفظ الجلالة "**الله**".



نماذج من التزيين على النّقود المملوكيّة

. الخاتمة:

في النهاية تتّضح لنا أهمّية النّقود العربية الإسلاميّة ليس فقط كوثيقة تاريخية أو كمنجم يغذّي الكتب الأخرى بالحوادث التاريخية ويوّثق لها، لكنّها أيضاً تبرهن ميول العرب والأعاجم المنضويين في ظلّها الذين وصلوا إلى الحكم، وترينا نزعتهم نحو الفنّ والزخرفة ليس فقط في قصورهم وعمائرهم (كالقصور الأمويّة والمساجد) لكنْ حتّى في فنونهم الصغرى كالخزف والمسكوكات التي احتلّتْ الحيّز الأكبر في مجال التّصوير، لأنّها وسيلة سريعة في إيصال الأفكار والمعتقدات والرسائل أكثر من غيرها. أراد منها الخلفاء والملوك والسلاطين والأمراء التّعبير عن شخصيّتهم وميولهم وأهدافهم واعتقاداتهم من خلالها، وهذا شيء قد ساد على النّقود القديمة منذ ابتكارها في منتصف القرن السابع ق.م وانتقالها من مكان إلى آخر مع المحافظة على المتن والجوهر ألا وهو التّصوير ثمّ التصوير الذي دفع العلماء لأنْ يطلقوا على النّقود المشبعة بالصور مصطلح: (**Icon-Monnaies**) أي الصّورة المنقوشة على النّقود بما تحتويه من تشكيلات وتمثيلات وزخارف وصيغ إنسانية وحيوانية ونباتية وهندسية وطبيعية.

الهوامش

(١) يعتبر الخليفة الأمويّ معاوية بن أبي سفيان (٤٠ هـ . ٦٦١م) المؤسّ س الفعل ي للخلافة الأمويّة التي اتّخذت من دمشق عاصمةً لها، وبع د أنْ اس تتب الأم ر لمعاوية من خلال قضائه على الحركات المعارضة للبيت الأموي وتوطيد خلافته أصدر دراهمه الفضيّة الإسلاميّة شبه المعرّبة التي عُرفت باسم (السود الناقصة) المضروبة وفق السكّة الفارسيّة . الساسانيّة، حيث حافظت على صورة المل ك الفارسي في مركز الوجه لكنّ نُقش أمام وجهه بالفهلويّة عبارة (معاوي ـة أمير روشنكان) بمعنى (معاوية أمير المؤمنين)، بينما نُقش خلف رأس الملك الفارسي عبارة (أفزوت كاد) بالفهلوية والتي تعني بالعربية (دام ملكه)، كما حمل ظه ر النقد خارج الإطار المحيط بالمشهد المركزي البسملة: (بسم الله). بينم ا حم ل مركز الظهر صورة الحارسين وموقد النار ضمن إطار تزيّنه من الخارج أربعة أهلّة وكتابة فهلويّة تذكر مكان الضرب (داربجرد) والرقم (٤١هـ .) وهو ت اريخ الإصدار النّقدي. الطيّار. محمد شعلان. ٢٠١٠-٢٠١١م. **المسكوكات العربيّ ـة والإسلاميّة** (دراسة أثرية تاريخية). منشورات جامعة دمشق. ص ٧٩-٨١.

(٢) دينار ذهبّي صادر بعصر الخلافة الأمويّة الأولى بعهد عبد الملك ب ن م روان، تاريخ الضرب ٧٥ هـ .، سماكته ١ ملم، قطره ٢٠ ملم، وزن ه ٤،٢٥غ. سُ جّل بمركز الوجه الأوّل صورة عبد الملك بن مروان وهو متقلّد سيفه ونُقش بط وق الوجه الأوّل (لا إله إلا الله و . حده محمد رسول الله والتاريخ عام ٧٥ هجري). ونُقش على الوجه الآخر بالمركز صليب ينتهي بكرة قائم على ثلاث درج ات، وأُحيط الطوق بكلام عربيّ كوفي غير منقّط متقدّم من اليمن إلى اليسار (بسم لا - اله إلا الله وحده لعبد الملك – حمص) وباقي الكتابة غير واضحة. قازان، ول يم ١٩٨٣م. **المسكوكات الإسلامية** (مجموعة خاصة بمتحف قطر)، بيروت.

(٣) يجمع المؤرّخون على أنّ السبب المباشر لعملية التعريب كان لما يحاك من نقوش كتابية دينية مسيحية على الطرز والقراطيس المنتجة من قبل الأقباط في مصر، ذلك التركيب القائم على التثليث والتصليب والتي كانت تصدّر إلى بلاد الروم والعالم الإسلامي: (...كانت القراطيس للروم، وكان أكثر من بمصر نصرانيّاً على دين الملل، ملك الروم، وكانت تطرّز بالروميّة، وكان طرازها "أباً وأمّاً وروحاً قدساً"، فلم يزل كذلك صدر الإسلام يمضي على ما كان عليه إلى أنْ مَلُكَ عبد الملك فتنبّه عليه وكان فطناً فبينما هو ذات يوم، إذ مرَّ به قرطاس، فنظر إلى طرازه، فأمر أنْ يترجم بالعربية، ففعل ذلك، فأنكره قائلاً: ما أغلظ هذا في ... أمر الدين والإسلام أنْ يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب . وهما يُعملان بمصر ... . فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرّز به من ثوب وقرطاس وستر وأنْ يأخذ عمال التطريز بتطريزها بصورة التوحيد "شهد الله أنّه لا إله إلا هو"، كذلك حرّم دنانيرهم بعد أنْ استشار خالد بن يزيد فأشار عليه بضرب النقود الإسلامية وعدم التعامل بالبيزنطية قائلاً: "...حرّم دنانيرهم، واضربْ للناس سككاً فيها ذكر الله ورسوله، ولا تعفهم ممّا يكرهون في الطوامير، فضرب الدنانير للناس سنة خمس وسبعين"). انظر: البلاذري **(فتوح البلدان)**، والبيهقي (المحاسن والمساوئ)، وابن تغري بردي **(النجوم الزاهرة)**، والدميري **(الحيوان)**، والمقريزي **(إغاثة الأمّة في كشف الغمّة)**.

(٤) **Lavoix. Henri**. 1898, Catalogue des Monnaies Musulmanes. Paris.

(٥) الكرملي، ماري أنستانس. د.ت. **النقود وعلم النميات** (رسائل النقود للبلاذري والمقريزي والذهبي). بيروت. والمقريزي **(شذور العقود في ذكر النقود)**: تحقيق كتاب شذور العقود في ذكر النقود للمقريزي، **مجلّة العصور**، مج ٣، ج١، كانون الثاني ١٩٨٨م.

(٦) ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو الفضل ٥١ ق. هـ . ٣٢هـ . ٥٧٣ – ٦٥٣م عمِّ رسول الله "صلّى الله عليه وسلّم" الذي قال عنه أجود قريش: كفا وأوصلها، هذا بقية آبائي. اندلعت ثورتهم ضد الأمويين في خراسان بقيادة أبو مسلم الخراساني بعد نصف قرن من الدعوة السرّيّة، وبلغت الخلافة الإسلامية في عهدهم أوجها. قضى هولاكو على الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ . / ١٢٥٨م، واستطاع أحمد بن الظاهر الخليفة العبّاسي الخامس والثلاثون وأخو المستنصر الخليفة السادس والثلاثين أنْ يصلَ إلى مصر، وأنْ يتّصلَ بالسّلطان المملوكي الظاهر بيبرس، مثبّتاً نسبه أمام قاضي القضاة، فجرتْ له مراسيم إجلاسه في مقام الخلافة ٦٥٩هـ . / ١٢٦١م باسم الخليفة المستنصر بالله أبو القاسم. وتتابع على منصب الخلافة من هذه الأسرة حتّى عام ٩٢٣هـ . / ١٥١٧م سبعة عشر خليفة في مصر تولاه بعضهم مرّتين، وبعضهم ثلاث مرّات، ولمْ يكنْ لهؤلاء الخلفاء أيّ علاقة بأمور الدّولة بل بقوا رمزاً روحيّاً للخلافة الإسلامية. في سنة (١٣٢هـ ./٧٥٠م) أطاح العباسيون بالخلافة الأموية في بلاد الشام، ونقلوا عاصمة دولتهم من دمشق إلى بغداد (دار السلام) التي بنيت من قبل أبي جعفر المنصور سنة (١٤٥هـ .). وقد كانت دار الضرب العبّاسية المعتمدة قبل بناء بغداد هي مدينة دمشق، إذ ربما سُكت بها الدنانير العباسية الأولى سنة (١٣٢هـ .)؟ قبل نقل دار الضرب إلى الكوفة أوّل عاصمة العباسيين، وبعد انتقال العباس إلى (الهاشمية) في العراق، التي كانت على شاطئ الفرات غير بعيدة عن مدينة الأنبار غربي بغداد ربّما لحقت به دار الضرب إلى الهاشمية، لتستقر فيما بعد بمدينة دار السلام (بغداد). وبعد فترة من حكم العنصر العربي لهذه الدولة بدأ فيها سيطرة النّفوذ الفارسي، ثمّ النّفوذ التركي، وكان أنْ انفصل عن جسمها دول كثيرة، كالدّولة الحمدانية في حلب، والطولونية والإخشيدية والبويهية والفاطمية والأتابكية والأيوبية والغزنوية في

خراسان، وأفغانستان، والهند، والدولة السامانية في خراسان، وما وراء النهر. انظر: قازان، وليم: **المسكوكات الإسلامية** (مجموعة خاصة بمتحف قطر). بيروت ١٩٨٣م. ص ٣٧. و(الطبري: تاريخ الأمم والملوك).

(٧) شعلان، محمد طيّار، ٢٠١٠-٢٠١١، **المسكوكات العربيّة والإسلاميّة** (دراسة أثريّة تاريخيّة)، جامعة دمشق، ص ١٢٠-١٢١.

(٨) الشهابي، قتيبة. ٢٠٠٠م. **دراسة تاريخية للعملات التي كانت متداولة في الشام.** دمشق.

(٩) هم أسرة تركية إسلامية حكمت إيران والعراق وسورية وآسيا الصغرى خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد. وتنسب إلى سلجوق في (النصف الثاني من القرن العاشر) مُقدّم عشائر الغزّ التركمانية. ويعتبر مؤسّس دولة السلاجقة الحقيقي طغرل بك الذي أطاح بالدولة البويهية ودخل بغداد عام ١٠٥٥م. وبذلك فرض سيطرته على الخلفاء العباسيين، وسرعان ما تجزّأت هذه الإمبراطورية الواسعة إلى إمارات صغرى عُمّرت منها واحدة هي سلطنة السلاجقة الروم في آسيا الصغرى واستمرّت حتّى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد. ومن أشهر سلاطنتها (ألب أرسلان) وابنه وخليفته (ملك شاه). وفي سنة ١٠٧٨م انتزع الأتابكة . وهم قادة السلاجقة . بقيادة (أتسز بن أوق) دمشق من أيدي الفاطميين لتسقط في أحضان السلاجقة. لكنّه اضطر في سنة ١٠٧٨م إلى الاستنجاد بالأمير السلجوقي (تتش بن ألب أرسلان) لإعانته على صدّ الفاطميين الذين حاولوا استعادة السيطرة على دمشق، فما أنْ دخل الأمير (تتش) إليها حتّى قتل أتسز واستولى على السلطة. وبعد مقتل (تتش) سنة ١٠٩٥م تولّى ابنه (شمس الملوك دقاق) في السنة نفسها، ثمّ مات بالسّم سنة ١١٠٤م. وتولّى أخوه (أرتاش)، ثمّ انتقلت السلطة إلى (طغتكين) ثمّ إلى (بوري) وغيره من الأتابكة، حتّى حرّر السلطان نور الدين محمود زنكي الملقب بـ . (**الشهيد**) دمشق سنة

١١٥٤م وتولّى أمرها فبدأ فيها العهد النوري. بالنسبة للنقود السلجوقية فقد حملت اسم الخليفة إلى جانب اسم السلطان السلجوقي.

(١٠) يوسف خليل، أسعد: **دور علم الفلك الأجرام والأرقام في النتاج الفنّي الإسلامي**. جمعية عاديّات حلب (الكتاب الثالث عشر ٢٠٠٩م)، ص ١٨٢.

(١١) الزنكيّون . أتابكة الجزيرة وسورية: كلمة أتابك تعني: الوصي أو المؤدِّب أو المعلم لأمراء الأتراك الذين كان يعهد بأمر تربيتهم لحداثة سنّهم إلى بعض الأمراء البارزين. بدأتْ التسميّة أيام السلاجقة، واستمرّتْ في عصر المماليك في مصر، فكان يطلق على الأمير الذي كانت تعهد إليه إمارة العسكر، ومنه شاع لقب أتابك العسكر، والأتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر، تركي الأصل، عمل لدى السلطان جلال الدولة ملكشاه. وآقسنقر: كان والياً على حلب في سني ٤٧٨ – ٤٨٧ هـ . / ١٠٨٥ – ١٠٩٤م من قبل جلال الدولة ملكشاه السلجوقي. دخل ابنه زنكي سنة ٥٢١هـ . / ١١٢٧م بغداد، ونصّب والياً عليها، ثمّ دخلت في حوزته الموصل، وسنجار، وجزيرة ابن عمر، وحرّان. في سنة ٥٢٢هـ . ضمّ إليه حلب وبعض المدن السّورية مؤسّساً الدّولة الأتابكية في الموصل. تميّز عهد عماد الدين بدفاعه المجيد ضد الصليبين فحرّر إمارة الرّها، تمّ اغتياله وهو يحاصر قلعة جعبر، انقسمتْ الدّولة بين ولده محمود الذي حكم سورية، ووقف في وجه الصليبين، وبين أخيه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة. انتهتْ دولة الأتابكة في سورية بموت محمود نور الدين الشهيد. وفي سنجار، والموصل، وميافارقين، وجزيرة ابن عمر على يد الأيوبيين. ثمّ انقرضوا نهائياً باستيلاء المغول سنة ٦٦٠هـ . / ١٢٦٢م .

(١٢) الأيوبيّون: دخل أيوب بن شادي وأخوه شيركوه في خدمة نور الـ دين محمـ ود زنكي، وبسبب الاضطرابات الداخلية في مصر أوفد نور الدين شيركوه، وابـ ن أخيه صلاح الدين للقضاء على الفتن فيها سنة ٥٥٩هـ . / ١١٦٤م وفـ ي سـ نة

٥٦٤هـ . / ١١٦٩م كوفئ الملك المنصور شيركوه على خدماته من قبل العاضد آخر خليفة فاطمي بأنْ نصّبه وزيراً لديه، فلما مات شيركوه سنة ٥٦٤هـ . أقام العاضد صلاح الدين مكانه وزيراً ولقّبه الملك الناصر. وفي سنة ٥٦٧هـ . . / ١١٧٢م أعلن صلاح الدين الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله بناءً على دعوةٍ من نور الدين زنكي. توفي نور الدين سنة ٥٦٩هـ . / ١١٧٤م، فخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل. استقلّ صلاح الدين بحكم مصر سنة ٥٦٩هـ . .، وأرسل في السنة ذاتها أخاه توران شاه حاكماً على اليمن ثمّ دخل دمشق سنة ٥٧٠هـ .، وحلب سنة ٥٧٩هـ .، والموصل سنة ٥٨١هـ .. وفي سنة ٥٨٣هـ . / ١١٨٧م كان الانتصار في حطين على الممالك الصليبية، ومن ثمّ تحرير القدس في السّنة ذاتها. مات صلاح الدين في دمشق سنة ٥٨٩هـ . / ١١٩٢م وبوفاته تقاسم أبناؤه وأبناء إخوته فيما بينهم ما كان تحت تصرّفه من ولايات كثيرة، ففي دمشق كان الأفضل، وفي القاهرة كان العزيز، وفي حلب كان الظاهر. وتأسّست فروع في الكرك، وميا فارقين، وحماة، وحصن كيفا، وحمص، وبعلبك، واليمن .... انتهى معظم فروع الأيوبيين على يدِّ المماليك، وكان آخر فرع فيها يحكم في بلاد الشام، وهو فرع حماة الذي انقرض سنة ٧٤٢هـ . / ١٣٤١م، واختتمت حياة كل الفروع الأيوبية على يدِّ سليمان القانوني العثماني حين ضمّ حصن كيفا إلى دولته سنة ٩٣٠هـ . / ١٥٢٤م. للمزيد انظر:

Paul BLOG. 1980, The Coinage of Ayyūbides. London.

(١٣) المماليك: سكن المماليك الأتراك والشراكسة في زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد الأيوبي في جزيرة الروضة على النيل، وهم الذي شكلوا دولة المماليك البحرية سنة ٦٤٨هـ . / ١٢٥٠م، بعد أنْ خلعت شجر الدرّ زوجة الملك الصالح، والذي تزوّجها بعد موته الأمير أيبك التركماني المملوكي، والذي وطّد أقدامه في مصر، وضمّ دمشق وحلب إلى حكمه. بقيتْ دولة المماليك البحرية حتّى سنة ٧٩٢هـ . / ١٣٩٠م، ثمّ آلتْ الأمور إلى المماليك الجراكسة أو

البرجية نسبة إلى معسكرهم القائم في قلعة القاهرة، وكان الظاهر برقوق أوّلهم. وبسبب قضايا حدودية في شمال بلاد الشام، ساءت العلاقات بين المماليك والعثمانيين، واستطاع السلطان سليم الأوّل العثماني قتل قانصوه الغوري المملوكي في معركة مرج دابق ٩٢٢هـ . / ١٥١٦م، ودخول الشّام ثمّ مصر بعد معركة الريدانيّة ٩٢٣هـ . / ١٥١٧م. حيث شنق سليم الأوّل طومان باي آخر السلاطين المماليك، وأخذ سليم الأوّل الخليفة العباسي المتوكّل على الله إلى اسطنبول فانتقلت الخلافة إلى العثمانيين. ترك المماليك آثاراً معمارية نفيسة، وأولوا الصناعات والعلوم والفنون رعايةً واهتماماً، ومن الثابت أيضاً أنّ قدرتهم العسكرية ارتفع شأنها عاليّاً، بدليل طردهم للصليبيين من بلاد الشّام بشجاعة، وانتصارهم على المغول في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ . /١٢٦٠م.

(١٤) الرنوك: هي عبارة عن العلامات والشعارات المميزة، التي تظهر على الأختام والأعلام، والملابس، والأبنية...الخ. ومن هذه العلامات: (الكؤوس، السيوف، النسر، الصليب، الهلال، الأسد، الأفعى...). وقد استخدمت الرنوك في أوروبا في العصور الوسطى، كما استخدمها السلاجقة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. تساعد الرنوك في تأريخ القطع الأثرية، وذلك بعد مطابقتها مع الفترة التي سادت بها، كسبع الببر على سبيل المثال ساد في عهد الظاهر بيبرس، كما سادت السيوف والبقجة، والنسر برأس أو برأسين متعاكسا الاتجاه. بينما ساد نقش الأسد على الأبنية الأيوبية والنقود أيضاً. لهذا يعتبر علم الرنوك من العلوم المساعدة للتاريخ والآثار.

المصادر

المقريزي (شذور العقود في ذكر النقود): تحقيق كتاب شذور العقود في ذكر النقود للمقريزي، مجلّة العصور ، مج ٣ ، ج١، كانون الثاني ١٩٨٨ م.

. المراجع العربية:

الشهابي، قتيبة. ٢٠٠٠م.

دراسة تاريخية للعملات التي كانت متداولة في الشام. دمشق.

الطيّار. محمد شعلان. ٢٠١٠-٢٠١١م

المسكوكات العربيّة والإسلاميّة (دراسة أثرية تاريخية). منشورات جامعة دمشق.

قازان، وليم ١٩٨٣م.

المسكوكات الإسلامية (مجموعة خاصة بمتحف قطر). بيروت.

الكرملي، ماري أنستانس. د.ت.

النقود وعلم النميات (رسائل النقود للبلاذري والمقريزي والذهبي). بيروت.

موسى، أحمد. ٢٠٠٦م

المسكوكات الإسلامية (منتدى المحجبة). قطر.

يوسف خليل، أسعد. ٢٠٠٩م

دور علم الفلك الأجرام والأرقام في النتاج الفنّي الإسلامي. جمعيـ ـة عاديّ ـات حلـ ـب (الكتاب الثالث عشر).

. المراجع الأجنبية:

Lavoix. Henri. (1898)
Catalogue des Monnaies Musulmanes. Paris.

Lane –Poole (1875)
A catalogue of Artuqids Coins, Britches Museum.

Paul BALOG. (1980)
The Coinage of Ayyūbides, London.

The Artuqids of Hisn Kayfa and Amid (Sukmaniyya Branch)

Von Lutz Ilisch. (April 1985)

Munzgeschenke und Geschenkmunzen in der mittelaterlichen islamischen Welt, Jahergang 198.

. الصور مأخوذة من موقعي الإنترنت:

قديم والحسيني ومواقع أخرى:

- **www.qadeem.com**
- **www.alhoseini.com**
- **Coins of Medieval Islamic World**

إسهامات أبي حامد الغرناطي في المعرفة الجغرافية

أ.د. إبراهيم أحمد سعيد

قسم الجغرافية

كلية الآداب

جامعة دمشق

لقد أولى العرب أهمية كبيرة للعلوم الجغرافية لما لها من دور مفصلي في بناء الدولة من جهة وتطوير العلوم الميدانية والنظرية من جهة ثانية، ولعل أهم الأسد باب التـ ي دفعت بالعرب لتطوير الجغرافية هي الآتي:

١- الحصول على خراج البلدان، مما يتطلب ضرورة معرفة مناخ البلدان وأراضـ يها وما تنتج من مزروعات وفعاليات اقتصادية.

٢- معرفة الطرق والمسالك الأساسية بين الممالك والبلدان لتقـ ديم المعونـ ة للقوافـ ل وضمان حركتها بعيداً عن المخاطر الطبيعية، لنقل خيـ رات ومنتجـ ات المنـ اطق والبلدان وتبادلها داخل الدولة الواحدة أو بينها وبين منـ اطق الاسـ تقرار البـ شري الكبرى، آسية وأفريقية وأوروبا.

٣- أداء فريضة الحج، الركن العقدي الخامس في الإسلام، وهذا يتطلب تحديد مناطق تجمع قوافل الحجيج والطرق التي يجب أن تـ سلكها وتحديـ د منـ اطق ومراكـ ز الاستراحات والتموين ومراكز المبيت ومناهل المياه والحراسة وغيرها.

٤- لقد حضّ الإسلام على العلم والتعلم والتعرف على القبائل والشعوب تنفيذاً لقول الله سبحانه وتعالى:" يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"[١] وهذه الآية تدفع بالعلماء للتعرف على خصائص الشعوب والقبائل من خلال عاداتها ومنتجاتها وعلاقاتها.

٥- ضرورة وضع الخرائط والمصورات لبقاع الأرض المتنوعة لتكون أساساً علمياً لدراسات لاحقة أو لِتُقدمَ معرفة ضرورية لأصحاب السلطة والحكام تساعدهم في حُسن اختيار القرارات المناسبة.

٦- تشجيع بعض الخلفاء والحكام والولاة على العلم والكتابة والترجمة وتقديم الدعم المادي والمعنوي للعلماء والباحثين، كما حصل في العصر العباسي الأول.

٧- وجود شغف وحب كبير عند بعض العلماء للارتحال والتعرف على البلدان والشعوب ومعايشة التجربة وتكوين الخبرة بالرحلة والملاحظة والتدوين.

أسهم الجغرافيون العرب في تطور الفكر الجغرافي العالمي من جوانبه كافة، المعرفية والتطبيقية والمنهجية وفي ابتكار الخرائط والمساقط الجغرافية. من بين هؤلاء الجغرافيين الجغرافي والمؤرخ والفقيه الرحالة أبو حامد الغرناطي. عاصر أبو حامد حقبة الإبداع الجغرافي عند العرب والمتمثلة بالبيروني والإدريسي، واستفاد إلى درجة كبيرة من إبداعات المقدسي، مما يجعلنا نقول أنه قد توافرت لأبي حامد الغرناطي قاعدة معرفية وتراكم علمي جغرافي تمكّن من استخدامها بعبقرية مميزة ليحقق إضافات جغرافية مهمة من جهة وليكوّن شخصية جغرافية خاصة من جهة ثانية. سنحاول في هذا البحث تسليط الضوء على بعض الخصائص العلمية لشخصية أبي حامد من النواحي الآتية:

١- كرحالة جغرافي، من خلال الملاحظة والتدوين المباشر.

٢- كمحلل للظاهرة الجغرافية الطبيعية والبشرية على حدٍ سواء.

٣- توظيف العناصر الجغرافية في تطوير الفكر الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والفكرية.

٤- المساهمة في تكوين الجغرافية الاجتماعية كاتجاه جديد في العلوم الجغرافية.

٥- المساهمة في تكوين الجغرافية البيئية وبخاصة البحرية منها، من خلال الملاحظة المباشرة والرصد المباشر للظاهرة البحرية الأساسية.

٦- المساهمة بتأسيس ما بات يُعرف بالأدب الجغرافي المعتمد على الحقيقة الجغرافية والخيال، الذي يذهب بهذه الحقيقة إلى مجالات غير حقيقية ويُدخلها حالة العجاب، ولكنها ممتعة وتشد القارئ وتنمي خياله، وقد أوجدت ما عُرف بالأدب القصصي والحكايا الشعبية عن الأماكن والأحياء والرحلات.

التعريف بأبي حامد الغرناطي:

يُعد أبو حامد الغرناطي من القلة الذين عرّفوا أنفسهم في كتاباتهم، فقد بدأ كتابه "المُعرب عن بعض عجائب المغرب" بالتعريف بنفسه قائلاً: " أما اسمي فسميت محمد ابن عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي بن قيس عيلان بن إلياس بن مضر بن نزار، ومولدي بالمغرب الأقصى بجزيرة تُعرف بأندلس، فيها أربعون مدينة، ومولدي في مدينة تُسمّى غرناطة ". وُلد أبو حامد في عام ٤٧٣ للهجرة الموافق لعام ١٠٨٠ ميلادي. قضى السنين الأولى من حياته في غرناطة متعلماً في كتاتيبها القرآن الكريم وأصول الدين على أشهر مشايخها ثم انتقل إلى مدينة إقليش لاستكمال تعليمه الأساسي، ولكنه كغيره من المتفوقين في بلاد الأندلس شدّ رحاله إلى بلاد المشرق العربي ليلبي شغفه العلمي حيث المكتبات الكبيرة والعلماء والمدارس المشهورة، فسافر إلى أرض الكنانة في عام ٥٠٨هـ . الموافق ١١١٥م في عهد الخليفة الفاطمي الآمر

بأحكام الله[٢]، لينهل من علم ومعرفة وثقافة مصر إبان الدولة الفاطمية (٢٩٧-٥٦٧هـ . ٩١٠-١١٧١م) ومن مدرستها واسعة الشهرة الأزهر الشريف، الذي حوله الخليفة الفاطمي العزيز بالله[٣] باقتراح من وزيره يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨هـ . إلى معهد للدراسة ودار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ . ١٠٠٥م[٤] تعلم أبو حامد أسس الفقه الديني على أيدي مشايخها وأئمتها، لأنها كانت الأساس الذي تنطلق منه بقية المعارف والفنون والمضارب المعرفية والعملية التي لا بدّ منها لأي عالم من العلماء كي ينطلقوا في نواحي البلدان وجهاتها البعيدة ليبدأوا حياتهم العلمية والعملية على حدّ سواء.

بعد أن حقق مراده عاد أبو حامد إلى غرناطة ثانية. وكمعظم الجغرافيين (والعلماء عامة) لا يطيب لهم البقاء في مكان واحد، لأن الرحلة الجغرافية مصدر المعرفة للجغرافي بالدرجة الأولى وملهمته في الكتابة والتفكير، لذلك شدّ أبو حامد الرحال مرة ثانية نحو المشرق، وجهة رحالة المغرب (ابن جبير، ابن بطوطة، العبدري، البلوي، القلصادي[٥]) وبوصلة قلوبهم وحبهم، مصر والديار المقدسة ودمشق وبغداد. لقد جمع لها المال وأعدّ العدة اللازمة لها لأنها الرحلة الطويلة التي تستحق كل اهتمام ويبدو أنه كان مصمماً أن لا يعود ثانية إلى الأندلس بعد مغادرتها فودع الأقارب والأصدقاء والديار. في هذه الرحلة التي قضى فيها بقية حياته، بدأها في سنة ٥١١هـ . . ١١١٨م حيث وصل الاسكندرية فكتب عنها ووصف مغارتها وأحياءها ومنارتها (كما سيأتي لاحقاً) وبقي فيها سنة كاملة ثم زار القاهرة في عام ٥١٢ هـ ./١١١٩م حيث كتب عنها أيضاً. هنا درس علوم الحديث والفقه في مدارسها وعند مشايخها. بقي أبو حامد في القاهرة حتى عام ٥١٥هـ ./١١٢٢م.

انتقل أبو حامد من القاهرة إلى دمشق فوصلها سنة ٥١٦هـ ./١١٢٣م ولكنه لم يبقَ إلا مدة قصيرة حيث اشتغل بتدريس الحديث، ويبدو أنه كان يريد أن تكون محطة فقط من محطاته لتكون قاعدة لانطلاقه نحو خوارزم وجنوب بلاد السلاف والمجر وغيرها[٦].

وصل أبو حامد إلى بغداد سنة ٥١٦هـ . ١١٢٢م، فنزل عند الوزير العادل عون الدين ومعين الدولة المظفر يحي بن محمد بن هبيرة الشيباني مدة أربع سنوات، فكتب كتابه المشهور المذكور آنفاً " المُعرب عن بعض عجائب المغرب" فأودعه في خزانة الوزير العادل.

غادر أبو حامد بغداد برحلة إلى بلاد العجم وأطراف بلاد الفرنجة وبلاد السلاف والروس، تشبه رحلة ابن فضلان الشهيرة(٧)، فعبر بحر قزوين إلى المجرى الأدنى لنهر الفولغا(٨) سنة ٥٢٥هـ . / ١١٣١م أهم وأكبر الأنهار في روسيا، إلى مدينة سخسين، وقد بقي في هذه البلاد خمسة عشر عاماً ثم غادرها إلى بلاد الدانوب (باشغرد) فزار البلغار في الغرب والمجر، حيث بقي فيها ثمان سنوات من ٥٤٥هـ . / ١١٥٠م إلى ٥٥٣هـ . / ١١٥٧م، تزوج خلالها ابنه حامد بامرأتين ورزق بأولاد كثر. عاد أبو حامد مرة ثانية إلى مدينة سخسين على الفولغا ومنها عقد العزم بالسفر إلى خوارزم قاصداً الديار المقدسة للحج سنة٥٥٥هـ . / ١١٥٩م. وفي العودة مر ببغداد فبقي فيها مدة من الزمن تزيد عن السنة ولكنه تركها فغادر إلى الموصل حيث استراح فيها عاماً أو أكثر فكتب فيها كتاب "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" عن بلاد البلغار وهو من أهم مؤلفاته.

سافر أبو حامد إلى حلب فأقام فيها نحو عام، ولكنه جعل محطته الأخيرة دمشق التي تركت عنده على ما يبدو انطباعاً جيداً، على الرغم من قصر المدة التي بقيها عندما وصل بلاد الشام لأول مرة قبل خمس وأربعين سنة، فصل أبو حامد إلى دمشق في عام ٥٦٠هـ . /١١٦٥م حيث طاب له المقام فاستقر فيها ولم يغادرها حتى وفاته في عام ٥٦٥هـ . / ١١٧٠م، فدفن فيها. قام أبو حامد في دمشق بأعمال كثيرة، حيث اشتغل في التدريس وكان مجلسه عامراً بالمستفيدين من علمه وخبرته ولكن لم يكن يُعجب كل مشاهير دمشق، فقد رفض ابن عساكر الالتقاء به بعد عودته من رحلته الطويلة، على الرغم من أنه قد التقاه في زيارته الأولى في عام ٥١٦هـ .. يبدو أن ابن

عساكر قد اتخذ موقفاً من أبي حامد على أنه يروي حكايات وعجائب يصعب تصديقها فاتهمه بأنه رجل سوء لا فائدة منه[٩]. وبما أن ابن عساكر لم يقم بزيارة البلدان التي يتحدث عنها أبو حامد فإنه لا يستطيع تقبّل ما يقوله هذا الأخير، وهذا لا ينطبق مع أصول الفقه والحديث، ويصف ابن عساكر أبا حامد الغرناطي فيقول:" وكان كثير الدعاوى، يذكر أنه رأى عجائب في بلدان شتى أكثرها مستحيل على العقل، ولم أجتمع إليه لما عاد إلى دمشق لنفوري منه لما يُحكى عنه من الكذب". هذا يعود إلى شخصية ابن عساكر التي لم تكن شعبية بقدر ما، بل كان يمثّل الوسط المثقّف وعلية القوم لما كان يتحلى به من مكانة مرموقة ولم تستهويه علوم الجغرافية والرحلات بقدر ما كانت تستهويه علوم الحديث والمنطق والتاريخ، ولكن هذا لم يكن رأي الجميع في دمشق فقد كان أبو حامد مقبولاً بالأوساط الشعبية وله تلامذته وطلابه. لقد أخذ عن الغرناطي بعض العلماء الذين جاؤوا بعده كالصفدي[١٠] الذي بيّن أن الغرناطي قد جاء بحكايات مسلية أكثر مما جاء بالعلم الجغرافي: "أظن أن كلامه (يقصد الغرناطي) من قبيل الحكايات التي كان يوردها من عجائب رآها". مع ذلك لا يمكن أن نغفل أن الغرناطي قد أسس للأدب الجغرافي والجغرافية الاجتماعية والتاريخية.

استغرقت رحلة أبي حامد الثانية نحو ٥٣ عاماً وعاش أبو حامد عمراً طويلاً بلغ نحو ٩٠ عاماً ميلادياً (٩٢ عاماً هجرياً).

مؤلفات أبي حامد الغرناطي:

يبدو أن أبا حامد قد كتب مدونات وملاحظات كثيرة ولكن أغلبها لم يصل إلينا، أما المؤلفات الأساسية التي كتبها، والتي وصل منها خمسة كتب فهي:

١- المغرُب عن بعض عجائب المغرب.

٢- نخبة الأذهان في عجائب البلدان.

٣- عجائب المخلوقات.

٤- تحفة الكبار في أسفار البحار.

٥- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب.

- قدّم لكتاب (المغرُب عن بعض عجائب المغرب) وترجمه وحققه إينغرو بيخارانو، (المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، اسبانيا، ١٩٩١م). يبدأ كتابه بخبر مدينة غرناطة وضواحيها، بخاصة من مدينة لوشي حيث يوجد كهف تحت الأرض يُعتقد بأنه كهف رجال أهل الكهف لوجود سبعة أشخاص نيام وكلبهم معهم وفوقهم مسجد. وحول غرناطة جبل مغطى بالثلج صيفاً وشتاءً، لا يصل إليه أحد، بالقرب منه كنيسة وعين ماء وشجرة زيتون تزهر في الربيع وتثمر وتسّود في يوم واحد. يأتيها الناس، يأخذون ثمارها ومن العين ماءها. قسّمه أبو حامد لنحو خمسة وثلاثين باباً تتمحور نحو: أخبار المدن، صفة البحار والعجائب فيها، أخبار الجبال، أوقات الصلاة ومعرفة الفيء والزوال، ذكر ساعات الليل والنهار في الزيادة والنقصان: باب ذكر الزوال ومقادير الظل في البلدان، باب ذكر زوال الشمس على شهور السنة، باب معرفة استخراج الزوال، باب معرفة ما مضى من ساعات النهار وما بقي، باب تسمية الشهور، باب تسمية أيام الشهور، باب معرفة طلوع الشمس، باب ذكر أصل التأريخات، باب في صفة الأسماك في البحار، باب في مجمع البحرين وما فيه، باب صفة الجزائر في البحر الأخضر، باب صفة الأسماك في البحر الأخضر، باب ذكر الاسكندرية وبعض عجائبها، باب ذكر مصر وما رأيت بها من

العجائب، باب ذكر سهيل اليماني الذي سقط على الكعبة، باب نجوم القبلة السيارة من المشرق إلى المغرب منازلاً للشمس والقمر، باب كيف الاستدلال بما وصفنا من منازل القمر على القبلة، باب في صفة الأرض، باب المجرة وكيف الاستدلال بها على القبلة، باب ذكر الرياح الدالة على القبلة، باب صورة بناء المسجد والاستدلال على نصب القبلة بظل الشمس، باب ذكر جهة البلاد إلى بيت الله الحرام، باب ذكر هيئة الأرض وتدويرها بالكعبة المحروسة، باب صفة الأرضين طولها وعرضها، باب ذكر طول الأرض وعرضها، باب ذكر البحار طولها وعرضها، باب ذكر الأنهار، باب ذكر تقسيم الأرض وأقاليمها، باب ذكر الجبال، باب العجائب التي بقرب مدينة النحاس.

- كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب لقد نشر هذا الكتاب المستشرق الفرنسي غابريال فرّان في عام ١٩٢٥م في المجلة الآسيوية، بعد ذلك أعاد نشره المستشرق السويسري قيصر دوبلر في عام ١٩٥٢م. وهو كتاب يجمع بين الحقيقة والخيال. كُتب هذا الكتاب في الموصل سنة ٥٥٧ هـ. وهو مكوّن من أربعة أبواب:

الباب الأول في صفة الدنيا وسكانها في إنسها وجنها. يتناول هذا الباب صفة الأرض باختصار والمعمور منها وغير المعمور وما تحتويه من أصناف وأعراق الإنس والجن والنبات والحيوان.

الباب الثاني في صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان. يتحدث في هذا الباب عن عجائب البلدان وغرائب البلدان من إرم ذات العماد التي بناها شداد بن عاد الذي أنفق فيها كميات هائلة من الذهب والمعادن الثمينة لتكون أجمل البلدان في الدنيا. ثم يتحدث عن مدينة النحاس التي بناها النبي سليمان بن داوود عليهما السلام في الغرب الأقصى

من الأندلس وتحدث عن المحاولات الحثيثة للقائد الكبير موسى بن نصير لكشف حقيقة هذه المدينة. حيث كان لها سور عالٍ وسلم يطلع المرء على ما بداخل المدينة فإذا صعد عليه ورأى ما بالداخل يُغشى عليه من الضحك فيسقط ويموت. وذكر ذلك بحيرة الجن الموجودة هناك.

الباب الثالث في صفة البحار وعجائبها وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار. ذكر فيه جزائر البحار وما يخرج منها من النفط والنار. جزء منها عاينه بنفسه، ولكن بعضها نقله عمن سمع منه رواية أو قرأها في كتبهم. أغلب هذه الروايات في باب العجائب والغرائب.

الباب الرابع في صفة الحفائر والقبور وما تضمنته من العظام إلى يوم النشور. بدأ هذا الباب بحادثة أهل الكهف وصفاتهم وموقع كهفهم وعددهم، ثم ذكر الأمير الظالم الذي يخرج منه النار والدخان في الأندلس، وذكر حفير هود عليه السلام وحفير شداد وتحدث عن عظام الجبابرة في البلغار، وذكر عجائب القبور، ويختم بحديثه عن قبر الإمام علي عليه السلام ومزاعم وجوده في إحدى قرى بلخ.

- **كتاب عجائب المخلوقات**، لم يُحقَّق كما ذكر بروكملن وتوجد نسخة منه في المتحف البريطاني. وكذلك كتابه تحفة الكبار في أسفار البحار حيث يوجد في المجمع العلمي للتاريخ في مدريد.

إبداعات أبي حامد الغرناطي في الجغرافية:

كان أبو حامد دقيق الملاحظة كجغرافي يتميز برهافة الحس والقدرة المنهجية على التحليل والتفسير، ومن أهم إبداعاته:

دراسة ظاهرة المد والجزر في منطقة جغرافية مهمة، وهي نقطة التقاء البحر المتوسط (بحر الروم) مع المحيط الأطلسي (البحر الأسود أو بحر الظلمات) مبيناً آلية هذه الحركة في تلك المنطقة: "البحر الأسود هو بحر الظلمات[١١] يحيط بأكثر بلاد الأندلس في آخر الأندلس مجمع البحرين، عرضه ثلاثة فراسخ[١٢] وطوله خمسة وعشرون فرسخاً. يظهر المد والجزر أربع مرات كل يوم وليلة: يمد مرتين ويجزر مرتين. ذلك أن البحر الأسود (الأطلسي) عند طلوع الشمس يعلو ويفيض (أي المد) وينسفل (الجزر) بحر الروم (المتوسط) فينصب البحر الأسود في مجمع البحرين (مضيق جبل طارق) حتى يدخل بحر الروم، وهو قبلي (جنوب) الأندلس وشرقيها، ولونه أخضر ولون البحر الأسود كالحبر حتى إذا أخذه الإنسان في يده أو في إناء فهو صافي اللون، وهو ملح أجاج شديد الملوحة، فلا يزال البحر الأسود يمد في البحر الأخضر ويفيض على جوانبه إلى وقت الزوال. ثم يسكن ذلك المد فيستوي البحران (الأسود والخضر) في العلو في رؤية العين، فإذا زالت الشمس سفل البحر الأسود وغاض (الجزر) وانصب فيه الماء من البحر الأخضر إلى مغيب الشمس، ثم يفيض البحر الأخضر ويعلو البحر الأسود ويمد في البحر الأخضر إلى نصف الليل".

دراسة بعض الأحياء البحرية وبخاصة المميزة منها في منطقة المد والجزر مثل: مستعمرات حيوانية صغيرة سمّاها بنارنج البحر التي تعيش في البحر الأخضر، حيث تظهر هذه المستعمرات على الصخور أثناء الجزر، وهي حيوانات لا رأس لها ولا ذيل ولا عين. ملتصقة بالصخرة، تفرز لعاباً أبيضاً، لا تستطيع السكين التأثير فيه وكأنه يتنفس. وذكر عنب البحر (بلح البحر)، وجنزير البحر، والكوسج، لعله القرش، (حيث يُقطّع الحيوان بأسنانه)، القلنسوة، الرعد، الخطاف، المنارة. لعل أهم ما ذكره الغرناطي في هذا المجال سمكة اسمها الخطاف فيقول: "وفي البحر أنواع من الحيوانات لها أجنحة تطير بها، ولقد رأيت سمكة بطول الذراع سوداء الظهر بيضاء

البطن ، خرجت من البحر وطارت في الهواء ما شاء الله تعالى ثم ألقت نفسها إلى البحر فسألت عنها فقالوا: اسمها الخطاف"

دراسة ظاهرة بركان جزيرة صقلية: "هو جبل النار يخرج من أعلاه بالنهار دخان أزرق مثل دخان سبّاكين الفضة، ولهب النهار، وبالليل يخرج منه نار يضيء إلى عشرة فراسخ لا يُحتاج معها بالليل في تلك القرى التي حول الجبل إلى سراج في طريق أو قرية أو بستان أو بيدر، ولها لهب عظيم وشهيق مفزع مثل الرعد في بعض الأحيان، ويطير في ذلك النار والحجر، كل جمرة مثل جسد الجمل في رؤية العين ثم ينقطع ذلك الحجر وهو صاعد في الهواء حتى يصير مثل الشرار، فإذا وقعت منها قطعة على حجر أحرقت الحجر كما تحرق الشمع حتى يصير الحجر كالكحل (رماداً أسوداً) تذره الرياح، ولو كان الحجر في الماء أُحرق في الماء ولا تُطفئ الماء تلك النار، وإن وقع على حيوان احترق الحيوان، ولو كان في الماء لاحترق أيضاً".

قام أبو حامد كغيره من الجغرافيين بتقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وهي: بلاد العرب، بلاد الترك، بلاد الروم، إيران شهر، الصين، الهند، إفريقية. وتحدث عن باب المجرة وكيف يُمكن الاستدلال بها على القبلة. وتحدث عن القمر ومنازله وعن البروج، وعن باب نجوم القبلة السيارة من المشرق إلى المغرب منازلاً للشمس والقمر، فذكر ثمانية وعشرين منزلاً، منها أربعة عشر شامية وأربعة عشر يمانية[١٣] فأول الشامية الحوت وآخرها العواء، وأول اليمانية السماك الأعزل وآخرها مؤخر الدلو.

اهتم بالمستحاثات وبخاصة في بلاد البلغار، حيث عاش فيها سنين طويلة، فقال: "توجد تحت الأرض أنياب الفيلة[١٤] والناب أبيض كالثلج، ثقيل كالرصاص، الواحد مئتا منّ[١٥] أكثر وأقل، لا يدري من أي حيوان هو، يُقطع ويُحمل إلى خوارزم وخراسان وتُتخذ منه الأمشاط وغير ذلك كما يُتخذ من العاج". ولكنه ذكر كذلك حيوان الكركدن

وعلاقة قرونه المميزة بالثروة في الصين لأن القرون الواحد منها يُباع لأغنياء الصين بمبلغ كبير جداً يصل لنحو خمسمئة دينار لاستخداماته في العلاج والنسل والمكانة الاجتماعية.

اهتم ببعض الحيوانات البرية المهمة في بلاد البلغار مثل القندس والسّمور والسنجاب، وذكر البقر الوحشية فيقول: إنها كبيرة أمثال الفيلة[١٦]. جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عجلة، يصطادونه، ويُسمّى التّيتل وهو من أعجب الحيوان، طيب اللحم، سمين، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة".

اهتم بالجوانب الاجتماعية بطريقة فيها من الإبداع المتميز بين الجغرافيين في تلك الفترة أسهم من خلاله في ترك بصمة في إدارة الدولة. ففي حادثة كان لها وقعها عند ملك باشغرد[١٧]، حيث أفتى الغرناطي (وكان فقيهاً إلى جانب علمه الجغرافي) بمنع المسلمين من شرب الخمر وأباح لهم الجواري وأربع من الحرائر. فاستغرب الملك ذلك قائلاً: ليس هذا من العقل، لأن الخمر يُقوي الجسد، وكثرة النساء تُضعّف الجسد والبصر، ودين الإسلام لا يكون إلا على وفق العقل " فقلت للترجمان: قل للملك: شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى، النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر، والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر، فيذهب عقله ويصير كالمجنون: يزني ويقتل ويكفر، ولا خير عنده، وقد يُعطي سلاحه وفرسه، ويُضيّع ماله في سبيل لذته، والمسلمون ها هنا جندك، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال، لأنه أهلكه في الشراب. وأما الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم (أي الزواج) لحرارة طباعهم، وأيضاً منهم جندك، فإذا كثُر أولادهم كثُر جندك، فقال: اسمعوا من هذا الشيخ، فإنه عاقل، فقال: تزوجوا ما شئتم ولا تخالفوه. وتزوج حامد (أي ابنه) بامرأتين ورُزق أولاداً، وهو شجاع فاضل".

لقد أقنع الغرناطي كذلك ملك الروم ببناء المساجد للمسلمين الموجودين في بلاده ولم يُكرههم على الدخول بالنصرانية حتى يُتلوا معه. ومن الاهتمامات المميزة ما سعى إليه أبو حامد في توصيف الحياة الاجتماعية والاقتصادية لبلاد الصقالبة[١٨] فيقول: "ولما دخلت بلاد الصقالبة خرجت من بلغار، وركبت سفينة في نهر الصقالبة[١٩]، وماؤه أسود مثل بحر الظلمات كأنه الحبر، وهو مع ذلك حلو طيب صافٍ... ولما وصلت بلادهم رأيت بلاداً واسعة، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير... وللصقالبة سياسات عظيمة، إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته، أو تعدّى بأي شيء من التعدي، أُخذ من المتعدي جملة من المال، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت". وذكر كذلك: " بأنه كل عشر سنوات يكثر السحر عندهم، وتفسد نساؤهم بالعجائز السحرة، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم، فيشدون أيديهنّ فأرجلهنّ ويلقينهن في النهر، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها، وعلموا أنها ليست ساحرة، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار (على أنها ساحرة)".

أعطى أبو حامد اهتماماً واضحاً للتضاريس وبيّن أهميتها الاقتصادية والمناخية والمائية. فذكر جبال العرب في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام واتصالها مع بعضها دون انفصال. وعندما يذكر جبلاً كالسراة (جبال عسير واليمن والحجاز) فإنه يُحدّد امتدادها من سهول اليمن في الجنوب والشرق وحتى بوادي بلاد الشام في الغرب والشمال، وهي تقسم الداخل الذي يُدعى نجداً والساحل الذي يُدعى تهامة. وسمّت العرب الجبل في بعض مواضعه حجازاً لأنه يحجز بينهما. وذكر جبال الشام ولبنان وأنطاكية ودعاها كما كان يدعوها الجغرافيون العرب بجبال اللكام (الأمانوس). وذكر أبو حامد جبالاً أخرى غير جبال العرب فتحدث عن جبال بحر الخزر (قزوين). تحدث عن جبال جزيرة سرنديب (سيلان) جبل الراهون الذي هبط عليه آدم عليه

السلام، وقال أن أهلها من البراهمة وهم عبّاد الهند. لم ينسَ أبو حامد أن يتحدث عن خصائص بعض جبال طبرستان حيث يخرج منها الخان الكبريتي (حالة البراكين الخامدة).

حاول أبو حامد أن يهتم كبعض الجغرافيين الذين سبقوه بساعات الليل والنهار في زيادتها ونقصانها فقال: فالليل والنهار في كل زمان عندنا أربعة وعشرون ساعة، والساعة خمس عشرة درجة وهي ثلاثون شعيرة، وكل درجة ستون دقيقة والدقيقة اثنتان وأربعون طرفة، فالليل والنهار ألف ألف طرفة وثماني مئة ألف طرفة وأربع عشر ألفاً وأربع مئة طرفة على ما زعم أهل العناية بهذا الشأن. ثم يأخذ كل واحد منهما من صاحبه الزيادة على قدر تقدير الله سبحانه وتعالى: " يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل" (٢٠) يُدخل من ليل الشتاء في نهار الصيف ومن نهار الصيف في ليل الشتاء. وبيّن أنه كلما الليل أطول كان ظل النهار أطول فأطول ما يكون الليل وأقصر ما يكون النهار يوم ٢١ كانون الأول.

اهتم أبو حامد في استخراج الزوال (وقت الظهر) وما مضى من ساعات النهار وما بقي منها. وفي معرفة أيام السنة وفي تسمية الشهور عند العرب والفرس والروم والمغاربة والأقباط والهنود. وفي تقسيم السنة إلى أزمنة وتقسيم السنة على منازل القمر وعلى منازل الثريا. واهتم في معرفة طلوع الفجر ومواقعه وأنواعه. وتحدث عن المجرة التي ننتمي إليها وهي مجرة درب التبانة فنقل قولاً عن الإمام علي (ع) بأن: باب السماء منه تنزل الملائكة وأُنزل منها الماء أيام نوح عليه السلام.

وفي الجانب الجغرافي المتعلق بالأرض وعلاقة ذلك بالبروج والسماء فقال: وهذه صفة الأرض يُحيط بها البحر الأسود (يقصد المحيط العالمي أو بحر الظلمات)، ويُحيط من وراء ذلك جبل قاف من زمرّد أخضر (بالطبع لا وجود لذلك) وسماء لدينا مقببة علية مدرجة، فالطرائق السبع مقسمة على البروج الأثني عشر التي قُسّم عليها

منازل القمر. تحدّث أبو حامد عن بعض خصائص الرياح وبخاصة الرياح الدالة على القبلة: هبوب الرياح الأربع. صفة الشمال وصفة الجنوب وصفة الدبور: قوتها في الأرض أشد من قوتها في الهواء.

لاقت البحار نصيباً لابأس به من الاهتمام، فكما ذُكر سابقاً فقد تحدث عن المد والجزر وعن الأحياء البحرية ولكنه بالوقت نفسه ذكر معظم بحار العالم المعروفة في عصره كبحر الهند وبحر الصين وبحر طبرستان وبحر المغرب، وبحر الروم أو كما سماه بحر أفريقية والشام، وبحر اللاذقية الذي يمتد إلى خلف قسطنطينية، طوله ألف وثلاثمئة ميل وعرضه مئة ميل.

في زيارته لمدينة الاسكندرية حاول أن يصف أهم معالمها فتحدث عنها: بلدة عظيمة فيها بنيان كثير فوق الأرض وتحت الأرض أيضاً. وعن منارتها العجيبة قال: وخارجها (أي المدينة) منارة الاسكندرية، وهي من عجائب الدنيا، أسفلها مربع من الصخر المنحوت، وفوق ذلك منارة مثمنة وعليها منارة لطيفة مدورة. طول الأولى تسعون ذراعاً والمثمنة مثل ذلك والصغيرة ثلاثون ذراعاً على هذه الصورة.

في حديثه عن مصر وعجائبها يقول أبو حامد: دخلت مصر سنة عشر وخمسمئة وهي التي تُعرف بالفسطاط التي بناها عمرو بن العاص وفيها المسجد الجامع. وصف أبو حامد قنديل المجد العجيب وماء النيل، وذكر مسجداً في وسط النيل على جزيرة في النهر، وهو الذي بناه الخليفة المأمون عندما زار مصر. وذكر دار المقياس التي توجد على شاطئ النيل لقياس ارتفاع مياه النهر وانخفاضها وأوقات الفيضان. وتحدث عن قصر فرعون وصفات الأهرامات التي توجد في الجانب الغربي في مصر (القاهرة).

منهجية أبي حامد الغرناطي في الجغرافية:

اعتمد أبو حامد الغرناطي في كتاباته ومدوناته على الآتي:

١- الملاحظة المباشرة، من خلال المعاينة للظاهرة الجغرافية وبخاصة الطبيعية منها كما حصل في بلاد المغرب وبلاد البلغار والصقالبة والبشكير.

٢- التحليل والمقارنة للظاهرات الجغرافية البشرية كما في مصر والبلغار وغيرهما.

٣- الاطلاع على ما قدّمه الجغرافيون الذين سبقوه بالمكتبات الكبيرة في الاسكندرية والقاهرة وبغداد.

٤- مزج الفقه الإسلامي وما تعلمه من أصول الدين بالمفاهيم الجغرافية كل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي واجهته في بعض المناطق.

لقد أولى الروس والبلغار والهنغار وغيرهم أهمية كبيرة لما كتبه أبو حامد في رحلته الطويلة في هذه البلاد حيث رصد الحياة الاجتماعية والسياسية والأنماط المعيشية للسكان وما كتبه حول البيئة الطبيعية وتنوعها وتنوع أحيائها بما يُقدّم تاريخاً حيوياً يفيد في الدراسات التاريخية والجغرافية المقارنة وتأثير ذلك على حركة التطور الاجتماعي والاقتصادي والتغيرات المناخية والحيوية على تنوع الحياة وتبدلها خلال العصور.

أضاف أبو حامد للمكتبة العربية الجغرافية أولاً والفكرية ثانياً مؤلفات تحتاج للقراءة والتدبر لأنها عكست واقع حياة أمة امتدت من الأندلس غرباً إلى أقاصي المشرق العربي ومنها إلى بقية بلاد الإسلام في خوارزم والقفقاس والحوضين الأدنى والأوسط لنهر الفولغا، في جزء منها، بخاصة الشمالي منها، وتكاد تكون كتابات أبي حامد الوحيدة التي وصلت إلينا عن تلك الفترة الزمنية، القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي.

توجد في كتابات الغرناطي جوانب كثيرة لا يمكن الوثوق بها ولا تصديقها من النواحي الطبيعية المتعلقة بالجبال والبحار والأحياء البحرية والبرية على حد سواء وعن المدن والسكان ولعل حديثه عن طائر الرخ (طائر خرافي) ما يُعد مثالاً على ذلك: "فخرج أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب فرأوا فيها قبة عظيمة أعلى من مائة ذراع لها لمعان وبريق، فتعجبوا منها، فلما دنوا منها، وإذا هي بيضة الرخ، فلما دنوا منها جعلوا يضربونها بالفؤوس والخشب والحجارة حتى انشقت كأنه جبل فتعلقوا بريش جناحه وجروه. فلما طلعت الشمس رأوا الرخ قد أقبل في الهواء كالسحابة العظيمة، وفي رجليه قطعة حجر كالبيت العظيم، أكبر من السفينة، فلما جارى السفينة ألقى ذلك الحجر، وكانت السفينة مسرعة ... فوقع الحجر في البحر وسبقت السفينة، ونجانا الله عزّ وجلّ"[٢١].

وفي حديثه عن القبور وبركاتها يورد عن أحد القبور بالمغرب فيقول: "وفي المغرب الأعلى .. قبر رجل صالح ...كان من الزهاد مستجاب الدعوة، وكل من مر على قبره يأخذ من ترابه شيئاً، فإذا ركبوا على البحر، وهاج البحر وعصفت الرياح، وكثر الموج أخرجوا من تراب قبره شيئاً وألقوه في البحر ودعوا الله تعالى فسكن البحر وزالت الرياح وسهل عليهم السفر، وهذا معلوم في أرض المغرب"[٢٢].

تأتي روايته عن أهل الكهف لتزيد من عجائب أبي حامد حيث يقول:" وبالقرب من المدينة (يقصد غرناطة) بثلاثة فراسخ مدينة صغيرة يُقال لها لوشي، إلى جانبها جبل .. مثل الغار كهف، الشمس تزاور عن بابه ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وفي داخله فتية عددهم سبعة موتى ستة منهم نيام على ظهورهم، وآخر نائم على يمينه، وعند أرجلهم كلب، لم يسقط من أعضائهم ولا من شعورهم شيء، والناس يُغطونهم بأنواع الثياب ويزورونهم ولهم هيبة عظيمة، وعلى الكهف نور عظيم، والدعاء عندهم مستجاب، وهذه كرامة الله ظاهرة بعباده في الدنيا"[٢٣].

الخاتمة:

وهكذا فقد كان أبو حامد الغرناطي أحد أهم الجغرافيين العرب في العصور الوسطى والرحالة العرب وبخاصة منهم الأندلسيون. لم يكن الغرناطي موضوعياً في كل الجوانب الجغرافية التي غطّاها واهتم بها، فقد رصد المد والجزر وبعض الأحياء البحرية بدقة ولكنه أسهب كثيراً في تصوير بعضها الآخر وخرج عن المألوف في ذكر بعضها الآخر واستخف بعقول الناس في ذكر غرائب لا يمكن تصديقها كطائر الرخ والقبور ومدينة النحاس وأهل الكهف. بينما أبدع الغرناطي في الجغرافية الاجتماعية ووضع أسساً جديدة بنى عليها الجغرافيون من بعده. وأبدع الغرناطي كذلك في الجوانب البيئية والاقتصادية وبخاصة في بلاد الصرب والسلاف والألمان لذلك يرى علماء هذه المناطق بأن مدونات الغرناطي تشكل بداية أساسية في دراساتهم التاريخية والجغرافية والبيئية. أراد أبو حامد من دراساته المتنوعة أن يحقق جملة منا لفوائد يتحصل عليها القارئ من قراءته لمؤلفاته أهمها: المتعة أولاً، والعبرة ثانياً، والتخيل ثالثاً، وقدرة الله في خلقه أخيراً.



هذا المصور من إعداد الباحث.

الهوامش والملاحظات

(١) **سورة الحجرات** . الآية ١٣.

(٢) الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور ٤٩٥-٥٢٤هـ ./ ١١٠١-١١٣٠م.

(٣) هو الخليفة العزيز بالله أبو منصور نزار ٣٦٥-٣٧٦هـ ./٩٧٥-٩٩٦م.

(٤) هو الخليفة الفاطمي السادس ذو الشهرة الواسعة الحـ اكم بـ أمر الله أبـ و علـ ي المنصور ٣٧٦-٤١١هـ ./٩٩٦-١٠٢١م.

(٥) انظر كتاب الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة في العصور الوسطى. إبراهيم أحمد سعيد. دار الأوائل. دمشق ٢٠٠٤م. (ابن جبير: هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد الـ سلام بـ ن مروان بن عبد السلام بن جبير من بني ضمرة من قبيلة كنانة المضرية العدنانية. من سكان غرناطة. سافر ثلاث مرات في حياته إلى الشرق أولى رحلاتـ ه بـ دأت يـ وم الخميس ٨ شوال من سنة ٥٧٨ هـ ./ ١١٨٣م. استقر بمصر وتوفى بالإسكندرية فـ ي شهر شعبان ٦١٤هـ ./ ١٢١٧م. العبدري: هو محمد بن محمد علي بـ ن أحمـ د بـ ن سعود، وينتهي نسبه إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب، وإليهم نسبة العبـ دري، ولـ د على أقرب تقدير سنة ٦٤٣هـ ./١٢٤٤م. بدأ رحلته سنة ٦٨٨هـ ./١٢٨٩م. توفي سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٢م. ابن بطوطة : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن يوسف اللواتي الطنجي بن بطوطة بن حميد الغازي بن القريش العلي. ولد في ٢٤ شباط ٧٠٣هـ/١٣٠٤ . بطنجة. هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي لقـ ب بـ أمير الرحالين المسلمين. توفي في مراكش سنة ٧٧٩هـ . ./١٣٧٧م. اسـ تغرقت رحلاتـ ه الثلاث نحو ٣٠ عاماً. البلوي: هو خالد بن عيسى البلوي نسبة إلى قبيلة بلي العربية. شاعر وفقيه ورحالة وينحدر من أسرة أندلسية معروفة بالعلم والأدب. بدأ رحلته سنة

٧٣٧هـ ./١٣٣٨م. توفي سنة ٧٦٥هـ ./١٣٦٦م. القلصادي: هو أبو الحسن علي بـ ن محمد ابن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي. ولد في بسطة من أعمال غرناطة بالأندلس سنة ٨٢٥ هـ . / ١٤٢٢مرحالة وفقيه ورياضي. توفي في باجة بتونس سـ نة ٨٩١ هـ .١٤٨٧م).

(٦) حسين، مؤنس. **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأنـ دلس**. منـ شورات معهـ د الدراسات الإسلامية. مدريد. ١٩٦٧م . ص ٢١١.

(٧) هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، مولى الخليفة العباسي المقتدر (المقتدر بالله هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد من خلفاء الدولة العباسية ٢٨٢-٣٢٠ هـ .. مات مقتولاً، وبويع وعمره ثلاث عشرة سنة)، أرسل كسفير إلى بلاد الخزر سنة ٣٠٩ هـ . / ٩٢١م ،لا يُعرف مولده ولا وفاته. صاحب الرحلة المشهورة إلـ ى ملـ ك الصقالبة وإلى الشمال (الدانمرك).

(٨) يُعد نهر الفولغا أشهر أنهار البلاد الروسية لأنه يمر في منتصف بلادهـ م وتقـ ع عليه أهم مدنهم، وكان يُدعى بنهر أتل نسبة لمدينة أتل التي تقع على مصب النهر في بحر قزوين.

(٩) علي أحمد. **الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي**. دار شمأل. دمشق. ١٩٩٥م. ص١٨٣.

(١٠) الصفدي، صلاح بن آيبك. **الوافي بالوفيات** ج٣ تحقيق محمد بن عبدالله ومحمد ابن محمود باعتناء س. ديد رينغ. دمشق ١٩٥٩م. ص٢٤٦.

(١١) لم يستخدم الجغرافيون مصطلح البحر الأسود على المحيط الأطلـ سي، ولكـ نهم استخدموا مصطلح بحر الظلمات عليه.

(١٢) وحدة طول عربية يُعادل نحو ١٢ ألف ذراع، والـ ذراع يـ ساوي ٢٤ إصـ بعاً والإصبع يساوي ست حبات شعير، وحبة الشعير = ٢،٥٧٥ مليمتـ ر. وبـ ذلك يبلـ غ الفرسخ ٤٥٣٦ متراً أي ٤،٥٣٦ كم.

(١٣) يُقصد بالشامية القبة الشمالية ويُقصد بالقبة اليمانية القبة الجنوبية.

(١٤) هي حيوانات الماموت المنقرضة، والتي اكتشفت في مناطق متفرقة في سيبيريا وأوروبا الشمالية.

(١٥) المن كيل يزن ٢٨٠ مثقالاً. والمثقال = ٤,٢٥ غرام. وبذلك يزن المـ ن نحـ و ١,١٩٠ كغ.

(١٦) لقد انقرض هذا الحيوان، وهو يشبه حيوان البيزون في شـ مال قـ ارة أمريكـ ا الشمالية.

(١٧) يُعرف الباشغرد الآن بشعب الباشكير، يشكلون جمهورية باشكيريا، وتقـ ع فـ ي المجرى الأدنى لنهر الفولغا.

(١٨) الصقالبة من الشعوب السلافية الذين يضمون الروس والإكـ رانيين والبولنـ ديين والصرب والهنغار.

(١٩) يُقصد به نهر الدانوب، وهو أهم الأنهار الأوروبية.

(٢٠) **سورة الحديد**. الآية ٦. **سورة فاطر**. الآية ١٣.

(٢١) أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**. ص ١٣٢.

(٢٢) **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**. ص ١٥٨

(٢٣) **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**. ص ١٤٣

أسواق بغداد والعوامل المنشِّطة لها في "العصر السلجوقي"

د. صبحي محمود العزام
قسم التاريخ
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة مؤتة

المقدمة:

شهدت بغداد، عبر تاريخها الطويل أحداثاً كثيرةً أدت إلى تطوراتٍ واسعةٍ في أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والإدارية والسكنية، وقد أدرك كثير من الباحثين هذا التطور ووصفوه، غير أن جُلّ الاهتمام انصبّ على وصف أحوالها في القرون الأولى. أما أحوالها في العهود العباسية المتأخرة فلم يُكتب عنها الكثير، ويرجع سبب ذلك إلى عمق وسعة التحولات التي حدثت، بالإضافة إلى أنّه يتوفر عن أحوالها في العهود الأولى معلومات مفصلة نسبياً يسّرت على الباحثين القيام بدراسات شاملة، بينما لم يصلنا عن العهود العباسية المتأخرة إلا إشارات متناثرة في كتب التاريخ والتراجم، التي لم تلق العناية الكافية لاستيعابها ونشرها والاستفادة منها في دراسة تطور بغداد.

إن البحث الذي نقدّمه يعد من الأبحاث المهمة في ذكر أسواق بغداد في العصور العباسية، وأبرز ما استحدثه السلاجقة من أسواق أثناء حكمهم للمدينة مع وصف لبناء

تلك الأسواق ورسومها، والدور الذي كانت تقوم به الحسبة في الإشراف والمراقبة لتلك الأسواق، والنقود المتداولة فيها، وما تعرضت له من تزييف في الشكل والوزن.

أما القسم الثاني من البحث فقد تعرَّض للعوامل المؤثرة في حركة الأسواق ونشاطها، والتي تمثلت في الاحتفالات ووفاة الشخصيات العامة، وهجمات الأعراب، والحرائق، وحركات العسكر، والخلاف المحلي والفرائض المالية التي فُرضت، وقد كُتب كل ذلك بشكل دقيق ومنظّم مع استيعاب جيّد لمقدار كبير من المعلومات المتفرقة في المصادر، وإبراز للعلاقة بين التطورات السياسية والتبدلات الاقتصادية.

أسواق بغداد والعوامل المؤثرة في نشاطها في العصر السلجوقي:

كان الخليفة المنصور لمَّا قام ببناء مدينة بغداد عام (١٤٥هـ . -٧٦٢م) قد أوجد الأسواق فيها من كل جانب[١]، وقد أقام هذه الأسواق داخل المدينة إلى أن جاء وفد ملك الروم الذي أعجب ببناء المدينة سوى خِلةٍ واحدة وُجدت بها وهي الأسواق، لأن الأسواق غيرُ ممنوعٍ منها أحدٌ، فيدخل العدو كأنه يريد أن يتسوق، وأما التجار فهي ترد الآفاق فيتحدثون بأخبار الخليفة[٢]، ولذلك أمر المنصور بإخراج الأسواق من المدينة إلى الكرخ[٣]. وعندما شرع في بنائها في الكرخ أحضر الخليفة ثوباً واسعاً وخطَّ عليه الأسواق ورتب كل صنف منها في موضعه وجعل سوق القصابيين في آخر الأسواق[٤]، بحيثُ لا يختلط العطارون بأرباب الزهائم والروائح المنكرة ولا أرباب الأنماط بأرباب الإسقاط. وكما كان هناك تفريق في مواقع الأسواق، هناك تفريق في أماكن السكن إذ كان لأرباب المروآت دروب تخصهم فدرب الزعفران بالكرخ لا يسكنه أرباب المهن بل أهل البز والعطر، ودرب سليمان في الرصافة مقصور على القضاة والشهود وكبار التجار[٥].

ومع مرور الزمن نمت مدينة بغداد، بحيث أصبحت خلال فترة الدراسة تتألف من عشر محال كل محلة كبلد من بلاد الشام، وقد كان يتواجد في كل محلة العدد الكبير

من الأسواق، وفي فترة الدراسة يقدّم ابن الجوزي نموذجاً للأسواق الموجودة في باب الطاق، وأشهر الأسواق فيه:

* سوق يحيى الذي تتواجد في جانب منه الدكاكين العالية والدروب العامرة من دقاقين وخبازين وحلاويين، وفي رحبة الجسر من باب الطاق شارعان عظيم ان، أحد دهما للأساكفة، وسوق الطير وهو سوق يجمع الرياحين وفي حواشيها الصيارف الظ راف وأصحاب الطيالس وفاخر الثياب[٦]، ثم سوق المأكول: الخبازون والقصابون وس وق الصاغة الذي لم يشاهد أحسن منه، وكان بنائه شاهقاً من أساطين ساج عليها غ رف مشرفة. وسوق الوراقين وهي سوق كبيرة فيها مجالس العلماء وال شعراء، وس وق الرصافة وهي سوق عظمية جامعة[٧]، ومحلة شارع دار الرقيق وهي محل ة كبي رة كثيرةُ المنازل وبها درب المارستان وسوقه العجيب[٨]، ومحلة الحربية وبها سوق باب الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات وتمتد في شارع عظيم تتفرع منه إلى الجوانب دروب طوال وفي كل درب أهل بلد من البلدان يطلق اسمهم علي ه، ومن تجار هذا السوق أهل بلخ وأهل مرو وأهل الختل، وأهل بخاري وأهل كابل شاه وأهل خوارزم، ولكل أهل بلد قائد ورئيس[٩].

ولدى الرجوع إلى مصادر فترة الدراسة، يقدم البحث كماً هائلاً من الأسواق موجودة في محلات مدينة بغداد دون أن تقدم المكان الذي تتواجد به هذا الأسواق سواء المحلة الموجودة بها أو الجانب الذي تتواجد به، باعتبار أن بغداد لها جانبان الجانب الغرب ي والجانب الشرقي، وهذه الأسواق هي: أسواق نهر معل ي[١٠]، وال سوق الكبي ر[١١]، ودرب الطحانيين[١٢]، وسوق الطعام[١٣]، وس وق الكب اش[١٤]، وس وق أص حاب السقط[١٥]، وسوق العطارين[١٦]، وسوق العروس[١٧]، وسوق الأنم اط[١٨]، وس وق الخشابين[١٩]، وسوق الجزارين[٢٠]، وسوق النجارين[٢١]، وسوق الصفادين[٢٢]، وسوق الصباغين[٢٣]، والسوق الجديد[٢٤]، وسوق الصاغة[٢٥]، وسوق الصيارف[٢٦]، وسوق المخلطي ين[٢٧]، وس وق الريحاني ة[٢٨]، وس وق حظ ائر الحط ب[٢٩]، وس وق

الريحانيين[٣٠]، وسوق عبدون[٣١]، وسوق الطيوريين[٣٢]، وسوق الصفر الجديد[٣٣]، وسوق البزوريين[٣٤]، ومشرعة الصباغيين[٣٥]، والسوق التتشي[٣٦]، وسوق السلطان[٣٧]، وسوق الخفافيين[٣٨]، وسوق الثلاثاء[٣٩]، وسوق العميد[٤٠]، وسوق المدرسة[٤١]، وسوق الغنم[٤٢]، وسوق الظباء[٤٣]، وسوق الحداديين[٤٤]، وسوق البصلية[٤٥]، وسوق الساكرة[٤٦]، وسوق الزراكشه[٤٧]، وسوق الجوهريين[٤٨]، وسوق الخيل[٤٩]، وسوق التمر[٥٠]، وسوق السمك[٥١]، وسوق البقاليين[٥٢]، وسوق الطباخين[٥٣]، وسوق الخبازيين[٥٤]، وسوق الفاكهة[٥٥]، وسوق الخياطين[٥٦]، وسوق العطارين[٥٧]، وسوق المارستان[٥٨]، وسوق العتابية[٥٩]، وسوق البطيخ للفاكهة[٦٠]، وسوق البزازيين[٦١]، وسوق دار القطن[٦٢]، وسوق العرافين[٦٣].

كما اشتهرت بغداد بكثرةِ خاناتها، إذ هناك الخان المشهور بمخازن التجار[٦٤] وخان الرقيق[٦٥] وخان السلسلة[٦٦] والخان الذي بالرحبة[٦٧] وست خانات بنهر معلي[٦٨] وخان بسوق الثلاثاء[٦٩] وخانات باب الأزج[٧٠].

وقد كان لتلك الخانات أبواب حديدية، تطبق على دكاكين وبيوت بعضها على بعض، وكانت ذات أفنية مزخرفة لا مثيل لها[٧١].

وقد كان من الطبيعي أن تشتهر بغداد بهذا العدد الكبير من الأسواق والخانات، نظراً للحركة التجارية النشطة التي كانت تتمتع بها في العصر العباسي، بحيثُ كانت مقصداً للتجار من سائر الآفاق بما في ذلك العصر السلجوقي. إذ ترد الإشارات أن التُّجار البغداديين كانت لهم علاقاتهم التجارية مع الهند والصين واليمن[٧٢] وعُمان حتى أنه في عام ٤٥٨هـ /١٠٦٥م غرقت سُفُن للتجار العراقيين في ليلة واحدة وكانت تحمل ثمانية عشر ألف إنسان، إضافةً إلى المتاع والبضائع، وكان من جملة ما كانت تحمله عشرة آلاف طبلية كافور[٧٣]، من بلاد ما وراء النهر بحيث أن التاجر أحمد بن محمد بن المختار المعروف بابن الخضر خرج من بغداد للتجارة ودخل بلاد ما وراء النهر

وركب البحر إلى الهند فكثر ماله(٧٤)، كما كان للتجار العراقيين علاقاتهم التجارية مع بلاد الروم والروس والقفجاق(٧٥).

وفي العصر السلجوقي اهتمت السلطنة السلجوقية بعمارة الأسواق وكان ذلك منذ بداية العصر السلجوقي، إذ يُذكر أن السلطان طغرلبك حالما استقر في مدينة بغداد شرع في بناء دار للمملكة وذلك بجمع الصُنّاع لتجديد الدار العضدية التي كانت قد أقيمت أيام السلطنة البويهية، وفي سبيل إنشائها أخرب الدور والمحال والأسواق في الجانب الغربي لاستخدام أخشابها وحجارتها في عملية البناء، ولا شك أن هذه الدار كانت تحوي الدور والدروب والأسواق(٧٦).

وفي عام (٥٤٢هـ ./١٠٦٠م) قام عميد العراق بعمارة سوق الكرخ وأمر الناس بالرجوع إليه، وقد ابتدأت العمارة به وازدادت مع الأيام حتى عاد السوق إلى ما كان عليه(٧٧)، وعندما جاء السلطان ملكشاه إلى السلطنة تقدّم ببناء سوق المدينة المقاربة لداره التي بمدينة طغرلبك وذلك بإنشاء خانات للباعة وأسواق عدة(٧٨).

وقد نقضت هذه الأسواق عام (٤٩٦هـ ./١١٠٢م) على يد صاحب السلطان محمد، الذي أمر بنقض الأسواق التي استجدها ملكشاه في المدينة المعروفة بطغرلبك، وكانت مرسومة للصباغين والبزازين رغم الأموال الجمّة التي أنفقت على عملية بنائها(٧٩)، وعندما جاء الخليفة المقتفي لأمر الله للخلافة أمر بالشروع في عمارةِ سوق بغداد وحفر الخنادق حول المدينة وتحصينها وألزم التجار والأعيان والرعايا القيام بما يُنفَق على العمارات من أموالهم على سبيل القرض والمعونة(٨٠).

كانت تلك الأسواق التي بناها السلاجقة ذات أشكال بديعة غلب عليها التفنن بالمباني وتزينها وترتيبها(٨١). إذ كان لأهل كل صنعة سوقها الخاص لا يخالطهم غيرهم به(٨٢)، ولكل سوق أبوابه الخاصة به(٨٣)، وعلى رأس كل سوق شيخ(٨٤)، ولقد أصبح للأسواق من الناموس والحرمة الشيء الكبير في العصر السلجوقي، إذ كان لا يدخل

إليها أحد راكب البتة[٨٥]. وحين يعتدي على أهل السوق جندي أو غيره كان يضرب في وسط السوق حتى يكاد يتلف بغير إذن الأمير أو الوالي[٨٦]، وكان أحد إذا دخل ببضاعة إلى السوق ليبيعها، ولم يقم ببيعها، كان يجبر على دفع المكس إلى الضامن، إلى أن جاء العصر الزنكي. إذ قام نور الدين بإبطال تلك العادة القبيحة فأباح للتاجر الذي يدخل بقماشه إلى الموصل ليبيعه ولم يبعه ويريد إخراج قماشه، له الحق في إخراج قماشه دون أن يدفع المكس[٨٧].

وكانت الأسواق تُجبَر على الإغلاق يوم الجمعة، والافتتاح يوم السبت نكايةً باليهود[٨٨]. كما كان يُحظر على أهل الأسواق نقش ما من شأنه أن يوحي بالتشيُّع، إذ شهّد جماعة من الحصريين سنة (٥٥٩هـ ./١١٦٣م) حين كتبوا أسماء الأئمة الإثني عشر على حصرهم[٨٩].

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن الأسواق في العصر السلجوقي كانت تُضمّن مقابل مبلغ من المال يقدم للسلطنة السلجوقية[٩٠].

الحسبة والأسواق:

كانت الأسواق منذ الفترة الإسلامية الأولى تخضع لمراقبة مؤسسة الحسبة، وقد كانت هذه المؤسسة على درجة من النشاط في العصر السلجوقي بدورها في محاربة كل ما من شأنه تعكير صفو الحياة الاقتصادية والاجتماعية، إذ تقدم الوزير فخر الدولة بن جهيد في عام (٤٦٧هـ ./١٠٧٤م) إلى المحتسب بنفي المفسدات[٩١]، وحين رتب أبو جعفر بن الخرقي على الحسبة في بغداد عام (٤٧٢هـ ./١٠٧٩م) كان التطفيف فاشياً والأموال فاسدة، حتى أنه وجد في ميزان بعض المتعيشين حبات على شكل الأرز من رخام زنة الواحدة حبتان ونصف. ونتيجة لتلك الحالة شرط ابن الخرقي على الوزير عميد الدولة قبوله للحسبة بشرط بسط يده في الخاص والعام وألا يستعمل مراقبة ولا يجيب شفاعة، فوعده الوزير بذلك وخرج له توقيع بذلك. فنجح ابن الخرقي في إقامة

الهيبة، فأدّب وعزر حتى عادت الأمور إلى نصابها[٩٢]. وما إن صدر أمر الخليفة المقتدي بأمر الله عام (٤٧٩هـ ./١٠٨٦م) بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أمر المحتسب بالمناداة في الأسواق بذلك، وبعد ذلك أمر بإراقة الخمور وكسر الملاهي ونقض دور لجأت إليها المفسدات[٩٣]. كما قام ابن الخرقي المحتسب بتأديب كل من فتح دكانه يوم الجمعة وإغلقه يوم السبت من البزازين وغيرهم، لأنه عدّ هذا مشاركة لليهود في حفظ سبتهم، وحين وصل إلى سمعه أن النقاطين والكلابزية يقفون على دكاكين المتعيشين ويأخذون شيئاً منهم كل أسبوع، تقدم بمنعهم من أخذ تلك الامتيازات[٩٤]. وقد كان لإجراءات ابن الخرقي تلك، أن أصبح المتعيشيون يخافونه وبقوا على هذه الحال إلى أن توفي عام (٤٩٤هـ .)[٩٥].

قام محتسب بغداد عام (٥١٤هـ ./١١٢٠م) بتنفيذ أمر الخليفة المسترشد بالله بإراقة الخمور التي بسوق السلطان ونقض بيوتها[٩٦]، ويذكر عن محتسب بغداد عام (٥٥٢هـ ./١١٥٧م) أثناء حصار السلطان محمد لمدينة بغداد أنه قام بلبس ثياب الحرب والمرور في الأسواق والسلاح بين يديه[٩٧]، وقام محتسب بغداد عام (٥٥٦هـ ./١١٦٠م) بإخراج توقيع بإزالة المتعيشين الذين يجلسون على الطرقات في رجم الجامع وغيرها ونقض الدكاك البارزة في الأسواق التي تسبب الازدحام[٩٨]، حيثُ اشتدت شوكة المحتسب علاء الدين بن الزينبي عام (٥٥٦هـ . ./١١٦٠م) على الطحانين، وأخذ منهم الأموال، فعزم هؤلاء على كسر علائق المتعيشين ليبيعوهم علائق من عندهم، ولذلك حضر الناس إلى دار الخلافة مستغيثين من المحتسب حتى رفعت يد المحتسب الزينبي عن الحسبة[٩٩]. وحين جلس المحتسب على باب بدر على ما جرت به العادة عام (٥٦٣هـ ./١١٦٧م) وأخذ جماعة من المتعيشين وأمر بتأديبهم، قام المتعيشون برجمِ المحتسب بالآجر حتى كان أن يهلك، واختفى ولم يجسر على الركوب حتى تقدم حاجب الباب فبعث إليه المستخدمين، فمشوا معه إلى بيته، وأخذ أولئك الطوافون فعوقبوا وحبسوا[١٠٠].

النقود السلجوقية:

عندما دخل السلاجقة بغداد في عهد السلطان طغرلبك أنشأوا سكة خاصة بهم من دنانير ودراهم باسم سلطانهم[١٠١]، وكانت هذه السكة التي أوجدها السلاجقة يتم تداولها في بغداد وكافة الولايات الخاضعة لسلطانهم، وقد أبطلت هذه السكة في بغداد والعراق أثناء ثورة أبو الحارث الباسيري، الذي ما إن دخل بغداد، حتى ضرب دنانير سماها المستنصرية نسبةً إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وقد نقش على الوجه لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله عليّ وليّ الله، وعلى الوجه الآخر عبد الله ووليه الإمام أبو تميم معد المستنصر بالله أمير المؤمنين[١٠٢].

وبعد القضاء على ثورة الخاتون، أُبطل التعامل بها، وأعيد التعامل بالسكة السلجوقية، ويظهر من الروايات أن السلاجقة أنشأوا بعد ذلك دار ضرب خاصة بهم، إذ أمرت الخاتون في عام (٤٨٥هـ ./١٠٩٢م) بناء حجرة لدار الضرب وألا يتعامل إلا بالدنانير[١٠٣]. كما يظهر أن النقد السلجوقي قد تقلصت قيمته مع مرور الزمن نتيجة خلطه بالمعادن الرخيصة إذ تقدّم المتعيشون في عام (٤٦٤هـ ./١٠٧١م) ومعهم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي وطلبوا ضرب دراهم تقع المعاملة بها عوض القراضة فوافقهم الخليفة على ذلك[١٠٤]. وأثناء ولاية أبو أحمد النهاوندي رئيس العراقين للعراق قام بضرب دراهم للناس وأبطل قراصنة الذهب فانهلّت الألسن بالدعاء له[١٠٥].

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن الولايات التي كانت تعترف بالسلطان السلجوقي، والخليفة العباسي كانت تقوم بسك النقود الخاصة بها، مع ذكر اسم الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي عليها.

وبهذا المجال يذكر أنه وصل إلى بغداد عام (٥٣٠هـ ./١١٣٥م) أحد أمراء صاحب دمشق يطلب السماح بسك النقود الخاصة بها فوافق الخليفة العباسي الراشد بالله على ذلك، على شرط أن يكون عيار نصف وربع وثمن الدينار خالصاً من الذهب والباقي

من الفضة والنحاس، وأن ينقش اسم الإمام الراشد بالله أمير المؤمنين والسلطان المعظم مسعود عليها(١٠٦).

العوامل المؤثرة في الأسواق:

١. الاحتفالات:

تأثرت حركة الأسواق ونشاطها بفعل الاحتفالات المتنوعة التي كانت تُقام في العصر السلجوقي، وأبرز تلك الاحتفالات، الاحتفالات الدينية كتلك التي كان يقيمها الشيعة في يوم عاشوراء، كما فعل أهل الكرخ عام (٤٥٨هـ . ./١٠٦٥م). إذ قاموا بإغلاق دكاكينهم، مع خروج النساء والرجال إلى الأسواق وهم ينوحون على الحسين عليه السلام. ونكايةً بأهل الكرخ اجتمع خلق كثير من الحربية وباب البصرة وشارع دار الرقيق والقلائين ونهر طابق وقاموا بإغلاق دكاكينهم وقصدوا دار الخلافة وبين أيديهم الدعاة والقراء وهم يلعنون أهل الكرخ(١٠٧).

وفي رواية أخرى أن أهل الكرخ قاموا يوم عاشوراء بإغلاق دكاكينهم وتعليق المسوح وإقامة المآتم(١٠٨)، وهناك الاحتفال بالمواليد من قبل السلطة السياسية إذ حين ولد للخليفة المقتدي بأمر الله ولد ذكر من الخاتون ابنة السلطان ملكشاه عام (٤٨٠هـ . .-١٠٨٧م) وسمّاه جعفر نصبت القباب بنهر معلي، وزين سوق الصيارفة بأواني الذهب والفضّة والجواهر، وأظهر الكافوريون تماثيل من الكافور، وشيّد الملاحون سفينة على عجل وأظهر الطحانون أرحاء تطحن على وجه الأرض(١٠٩).

وهناك الاحتفال بالزواج، كما حصل حين تزوج الخليفة المسظهر بالله ابنة السلطان ملكشاه عام (٥٠٤هـ ./١١١٠م)، إذ ما أن نزلت الخاتون بغداد وفي دار المملكة عند أخيها السلطان محمد حتى زينت بغداد وأغلقت الأسواق ونصبت القباب وتشاغل الناس بالفرح(١١٠).

وهناك الاحتفال بالنصر، كما حصل حين جاء ابن أبي عصرون ببشارة سقوط الخلافة الفاطمية عام (٥٦٧هـ ./١١٧١م) بمصر وإقامة الخطبة للخليفة المستضيء بأمر الله وضرب السكة باسمه. إذ أُقيمت الاحتفالات ببغداد بإغلاق الأسواق وعمل القباب[١١١]، وهناك الاحتفالات بالانضمام إلى الفتوة، إذ حين شرب البقش كأس الفتوة بطلب من السلطان مسعود عام (٥٣٢هـ ./١١٣٧م) تقدّم إلى الولاة بالمحال والأسواق، أن يشعلوا الشمع والقناديل في جميع المحال ليلاً نهاراً ثلاثة أيام، كما ظهرت القيان والمعازف والنساء والمخانيث وعليهم الثياب الملوّنة احتفالاً بالمناسبة[١١٢]. وهناك الاحتفال بإقامة الأسوار حول بغداد، إذ حين خرج الوزير عميد الدولة بن جهير عام (٤٨٨هـ ./١٠٩٥م) وخط السور حول الحريم سمح للعامة بالفرجة، وقد عمل أهل باب المراتب من البواري شكلاً على صورة فيل وتحته قوم يسيرون. كما عملوا زرافة. وأتى أهل نهر عيسى بسميرية كبيرة وفيها الملاحون يجدفون وهي تجري على هاذور، وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الأسواق، وعمل أهل سوق المدرسة قلعة قش تسير على عجل، وجاء الخبازون بتنور تحته ما يسير به، والخباز يخبز ويرمي بالخبز إلى الناس[١١٣].

٢. وفاة الشخصيات العامة:

كانت حركة الأسواق تتأثر بوفاة الشخصيات الملكية والعامة نتيجة الحزن الذي يبديه الناس على المتوفى. إذ حين توفي محمد بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الفراء أبو يعلي عام (٤٥٨هـ ./١٠٦٥هـ .) اجتمع خلق لا يُحصى على تشييع جنازته وأغلقت الأسواق[١١٤]. وحين توفي عبدالله بن محمد أبو منصور الملقّب بالشيخ الأجلّ، شارك في تشييع جنازته مائة ألف رجل سوى النّساء وعطلت أسواق بغداد[١١٥].

ولما توفي السلطان ألب أرسلان عام (٤٦٥هـ ./١٠٧٢م) وخرج توقيع الخليفة وتضمن الجزع على السلطان أُغلقت أسواق بغداد أيام العزاء[١١٦]. وأغلقت أسواق بغداد عام

(٤٦٧هـ ./١٠٧٤م) بعد وفاة الخليفة القائم بأمر الله[١١٧]، ولما توفي داود ولد السلطان ملكشان عام (٤٧٤هـ ./١٠٨١م) أقام أهل بغداد المآتم في منازلهم وأسد واقهم سد بعة أيام[١١٨]. ولما توفي علي بن مبارك المقرئ الزاهد المعروف بـ ابن الف اعوس ع ام (٥٢١هـ ./١١٢٧م) انقلبت بغداد بموته وأغلقت الأسواق وكان الجمع المشيع لجنازته يفوق الإحصاء[١١٩]. وحـ ين وصـ ل نبـ أ أسـ ر الخليفـ ة المـ سترشد بـ الله عـ ام (٥٢٩هـ ./١١٣٤م) خرج أهل بغداد إلى الأسواق وهم يحثون التراب على رؤوسـ هم يبكون ويصيحون. كما خرجت النـ ساء إلـ ى الأسـ واق وهـ نّ حاسـ رات يلطمـ ن ويصرخن[١٢٠]. وما أن وصل نبأ مقتله حتى نفر أهل بغداد بالخروج إلى الأسـ واق وهم يحثون التراب على رؤوسهم يبكون ويصرخون[١٢١]، ولما توفي عبد الله بن علي أبو محمد المقرئ سبط أبي منصور الزاهد عام (٥٤١هـ ./١١٤٦م) أغلقت الأسـ واق حزناً عليه[١٢٢]. ولما توفي الوزير علي بن محمد أبـ و المظفـ ر بـ ن هبيـ رة عـ ام (٥٦٠هـ ./١١٦٤م) أُغلقت أسواق بغداد وخرج جمع لم يُر لمخلوق قط في الأسـ واق وعلى السطوح وشواطئ دجلة للمشاركة في جنازته، وكثر البكاء عليه لما كان يفعلـ ه من البرّ ويظهره من العدل[١٢٣]. ولما توفيّت فاطمة بنت نصر العطار أخت صـ احب المخزن عام (٥٧٣هـ ./١١٧٧م) امتلأت الأسواق والشوارع بالناس أكثر مـ ن يـ وم العيد[١٢٤].

٣. الأعراب:

كان هؤلاء عاملاً من عوامل تعكير صفو الحياة الاقتصادية في العراق مـ ن خـ لال الإغارة على أسواق بغداد أو القوافل التجارية أو قوافل الحج.

إذ زادت الغارات في عام (٤٥١هـ ./١٠٥٩م) على طريق القوافل التجارية، حتـ ى إن قوماً من التجار أعطوا على وجه الخفاره النمروان أربعة عشر ألف دينار ومائة كـ ر ومائتي رأس غنم[١٢٥]. وفي عام (٤٥٦هـ ./١٠٦٣م) أفسدت الأعاريب سـ واد بغـ داد

وأضرافها حتى اضطرت العامة إلى حمل السلاح لقتالهم[١٢٦]. ونتيجة لكثرة تعدياتهم قام السلطان مسعود عام (٥٣٦هـ ./١١٤١م) بمهاجمة الحلة وبني خفاجة وينهبهم وقتل من ظفر منهم لكثرة فسادهم وتزايد عنادهم وإخافتهم للسابلة من القوافل التجارية الصادرة والواردة وعاد إلى بغداد ظافراً غانماً[١٢٧]. ورغم موقف السلطنة القوي منهم إلا أن الأعراب قاموا عام (٥٤٥هـ ./١١٥٠م) بمهاجمة قوافل الحج والقوافل التجارية المرافقة لهم وأخذ الشيء الكثير من الثياب والأموال والأحمال، حتى أن بعض التجار تحدّث أنه أخذ من هذا عشرة آلاف ومن هذا عشرين ألفاً ومن هذا ثلاثين ألفاً[١٢٨] في إشارةً إلى ألوف الدنانير التي قام بنهبها الأعراب من التجار المرافقين لقافلة الحج.

٤. حرائق الأسواق:

شهدت أسواق بغداد العديد من الحرائق التي أتت على العديد من الأسواق والحوانيت الموجودة بها، وكانت تلك الحرائق بفعل عوامل متعددة من أبرزها الثورات والفتن الداخلية وعوامل الإهمال من قبل بعض الأفراد المتواجدين في السوق. إذ احترقت في عام (٤٤٩هـ ./١٠٥٧م) قطعة عيسى وسوق الطعام والكباش وأصحاب السقط وباب الشعير وسوق العطارين وسوق العروس والأنماط والخشابين والجزارين والنجارين والقطيعة وباب محول ونهر دجاج وسويقة غالب والصفارين والصباغين[١٢٩] كمؤشر إلى الكم الهائل من الأسواق التي احترقت في هذا الحريق. وفي عام (٤٥٠هـ ./١٠٥٨م) زحف البساسيري إلى ناحية دار القائم وأضرم النار في الأسواق بنهر معلي وما يليه[١٣٠]. وحين ثار أهل باب البصرة عام (٤٥١هـ . ./١٠٥٩م) قام بنهب الكرخ وأحرق درب الزعفراني وكان من أحسن الدروب[١٣١].

وفي عام (٤٥٨هـ ./١٠٦٥م) وقع حريق بدكان خباز في نهر معلي فاحترق بسببه سوق الجديد من الجانبين وتلف بسببه من الأموال والعقار ما لا يُحصى وقُدِّر ما احترق بمائة وثلاثين دكاناً[١٣٢]. وكان عام (٤٦٥هـ ./١٠٧٢م) أكثر الأعوام حرائقاً

في الأسواق، إذ حين وقعت الفتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة والقلائين احترق فيها من الكرخ الصاغة وقطعة من الصيف[١٣٣]، وحين قصد أهل المحال الكرخ في العام نفسه أحرقوا من الكرخ الشيء الكثير[١٣٤].

وكان عام (٤٦٧هـ ./١٠٧٤م) أكثر الأعوام حرائقاً. إذ اشتعلت النار في دكان خباز في نهر معلي فأتت على السوق بأجمعه، الذي كان يضم اثنين وثمانين دكاناً غير الدور ثم امتدت النار إلى المأمونية والظفرية ودرب المطبخ ودار الخليفة وحمام السمرقندي وباب الأزج ودرب فراشه، وفي الجانب الغربي وقعت النار في نهر طابق ونهر القلائين والقطعية والتوابيين وباب النصر[١٣٥]. وفي العام نفسه وقع حريقٌ ثانٍ أعظم من الأول، فأكلت النار في ساعة واحدة ما لا يُحصى حتى صارت بغداد تلولا[١٣٦]، وفي عام (٤٧٨هـ ./١٠٨٥م) وقع حريق في بغداد أحرق أماكن عدة نتيجة الفتنة بين الرافضة والسنة وحين عبر الشحنة للتهدئة أحرق شطر من الكرخ وباب البصرة[١٣٧]. ووقع حريق عظيم في بغداد عام (٤٨٥هـ ./١٠٩٢م) احترق فيه عدد كبير من الناس وأسواق كبار واستمر من الظهر إلى العصر[١٣٨]. وفي العام نفسه وقع حريق في نهر معلي وامتدّ إلى خرابة الهراس وباب دار الضرب، وقد احترق فيه سوق الصاغة والصيارف والمخلطين والريحانيين وما طفئت النار إلى أن خرج الوزير عميد الدولة بن جهير الذي لم يزل راكباً حتى طفئت النار بواسطة السقائين والفعلة[١٣٩]. وكان الحريق الأعظم عام (٤٩٥هـ ./١١٠١م) نتيجة قيام بعض الكناسين بوضع سراج في أصل سريجة فاحترق نهر معلي ما بين درب سرور إلى درب المطبخ من الجانبين طولاً وعرضاً فذهبت أموال عظيمة نتيجة ذلك[١٤٠]. وفي عام (٥٠١هـ ./١١٠٧م) وقع حريق في خربة ابن جرده فهلك فيه كثير من الأمتعة والأموال وأثاث البيوت. ثم امتدّت النار إلى عدة أماكن في درب القيار وقراح ابن رزين، وبسبب الحريق ارتاع الناس وبطلت المعايش وأقام الناس يحرسون بيوتهم في الدروب وعلى الأسطح ليلاً نهاراً وهم يحملون الماء المعد للإطفاء[١٤١]. ووقع حريق

عظيم في الريحانيين ومنظرة باب بدر عام (٥٠٨هـ ./١١١٤م) هلك فيه عقار وأموال جليلة[١٤٢].

ووقع حريق في قراح أبي أشحم عام (٥٠٩هـ ./١١١٥م) هلك فيه دور ودكاكين كثيرة[١٤٣]، ووقع حريق في حظائر الحطب ودكاكينه عام (٥١٠هـ ./١١١٦م) حتى أكلت النار الأعواد الكبيرة وجذوع النخل[١٤٤]. وفي عام (٥١٢هـ ./١١١٨م) احترق سوق الريحانيين وسوق عبدون وقد امتدت النار من عقد باب الجديد وحمام السمرقندي إلى باب دار الضرب وخان الرقيق والصيارف وكان حريقاً مشهوداً[١٤٥]. ووقع حريق في خان السلسة عام (٥٥٨هـ ./١١٣٣م) وكان سببه أن الخاني كان يطبخ فعلقت النار بشيء وهو لا يعلم، فظن أنه يقدر على إطفائه. فلم يفتح الخان لأحد فاستولت النار على الكل[١٤٦] ووقعت النار في حظائر الحطب والسوق التتشي عام (٥٢٤هـ ./١١٢٩م) فذهب بسببه للناس أموالٌ كثيرةٌ[١٤٧]. ووقعت نار عام (٥٤٤هـ ./١١٤٩م) في دار نصير الدين محمود بن مؤيد الملك وامتدت إلى حظائر الحطب والسوق التتشي، وذهب بسببه للناس أمولٌ كثيرةٌ[١٤٨]، وكثر الحريق في بغداد وخرابة ابن جردة والظفرية واالخاتونية وباب الأزج وسوق السلطان، وكان حريقاً عظيماً دام عدة أيام[١٤٩]. ووقع حريق عظيم عام (٥٥٧هـ ./١١٦١م) احترق بسببه سوق الطيوريين والدور التي تليه وسوق الصفر الجديد والخان الذي بالرجم ودكاكين البزوريين، وقد احترق بسببه طيور كثيرة كانت في أقفاص[١٥٠]. وفي عام (٥٥٨هـ ./١١٦٢م) وقع حريق عظيم امتدّ من درب فراشة إلى مشرعة الصباغين من الجانبين[١٥١]، ووقع حريق ثانٍ في المكان نفسه عام (٥٦٠هـ ./١١٦٤م) امتد من السوق الجديدة من درب فراشة إلى مشرعة الصباغين حتى لم يبق للخشب والحيطان أثر[١٥٢]. ووقع حريقٌ عظيم عام (٥٦٦هـ ./١١٧٠م) في درب المطبخ وخربة ابن جردة[١٥٣] وفي عام (٥٦٧هـ ./١١٧١م) وقع حريق عظيم في السوق الجديد من درب جديد إلى قريب من عقد الجديد احترقت فيه دكاكين من الجانبين[١٥٤].

٥. حركات العسكر السلجوقي:

تأثرت الأسواق في بغداد أيضاً بتحركات العسكر السلجوقي، سيّما أن بغداد قد شهدت حملات عسكرية كبيرة في العصر السلجوقي بقيادة السلاطين السلاجقة، أو أمرائهم. وقد كان لتلك الحملات التأثيرات السلبية على الأسواق نتيجة ممارسات الجند السلجوقي أو استغلال بعض الجهات وجود العدد الكبير من العسكر في بغداد للقيام بأعمال السلب والنهب. إذ تذكر المصادر أن أسواق بغداد قد شهدت الاضطراب عام (٤٤٣هـ ./١٠٥١م) حين دخل الغز ليبتاعوا لهم طعاماً ولخيلهم تبناً وعلفاً(١٥٥). كما شهدت الاضطراب حين قدم السلطان طغرلبك بغداد عام (٤٤٧هـ . ./١٠٠٥م) على رأس حملة عسكرية(١٥٦). لكن الاضطراب الأكبر والأعظم تأثيراً كان عام (٤٥٠هـ ./١٠٥٨م) أثناء دخول البساسيري بغداد على رأس قوات عسكرية مستغلاً خروج السلطان طغرلبك من العراق لملاحقة أخيه الثائر إبراهيم ينال. فتذكر المصادر أن البساسيري عندما دخل بغداد وهو يحمل الرايات المستنصرية ضرب مضاربه على شاطئ دجلة، ومن ثم قام بجمع العيارين وأهل الرساتيق وأطمعهم في نهب دار الخلافة مع ما كان عليه الناس من ضر وجهد بسبب الجفاف وارتفاع الأسعار(١٥٧). وأثناء زحفه على دار الخلافة أضرم النار في أسواق نهر معلي وما يليه(١٥٨). وقد استغل الناس حركة البساسيري وقاموا بنهب الأسواق. إذ نهب أكثر باب البصرة من أهل الكرخ، ونهب العوام من نهر معلي ما لا يُحصى وأحرقوا الأسواق(١٥٩)، وبقي الحال على ذلك حتى نادى البساسيري برفع النهب(١٦٠).

وحين وصل السلطان طغرلبك إلى بغداد عام (٤٥١هـ ./١٠٥٩م) بعد القضاء على حركة أخيه الثائر إبراهيم ينال، قام عسكره بنهب ما تبقى من نهر طابق وباب البصرة، ولم يسلم من نهب العسكر إلا حريم الخليفة(١٦١). ورغم تكرار قدوم السلطان ملكشاه إلى بغداد على رأس قواته، إلا أنّه كان يتميّز بالقدرة على ضبط عسكره، حتى يقال إن السوقة كانت عام (٤٨٥هـ ./١٠٩٢م) تحتشد في عسكره ليلاً نهاراً والسوادي

يطوف بالتين والدجاج في وسط عسكره ولا يخاف من نهبهم[١٦٢]. ولما وصل السلطان بركياروق بغداد عام (٤٩٥هـ ./١١٠١م) أثناء صراعه مع أخيه السلطان محمد، لزم الناس الجوامع وبيوتهم، وخلت الأسواق والطرقات من المارة خوفاً منهم[١٦٣]. وحين وصل أينانج ايلغازي بغداد عام (٤٩٥هـ . ./١١٠١م) نزل بسوق الثلاثاء وحين قام العامة برجمه، قام بملاحقتهم إلى محلة الملاحين المعروفة بمربعة القطانين، وأثناء ذلك قام أصحابه بنهب ما وجدوه[١٦٤]. وحين وصل ينال بن أنوشتكين صاحب السلطان محمد بغداد عام (٤٩٦هـ ./١١٠٢م) قام بظلم الناس ومصادرتهم، وقام أصحابه بالاستطالة على العامة بالضرب والقتل والتقسيط[١٦٥]. كما قام بنقض السوق التي بناها السلطان ملكشاه في مدينة طغرلبك والسوق التي كانت للبزازين، رغم الأموال الهائلة التي أنفقت على بناء تلك الأسواق[١٦٦]. وحين قدم السلطان محمود بغداد عام (٥٢١هـ ./١١٢٧م) على رأس حملة عسكرية، قام عسكره بالنهب والسلب[١٦٧]. وحين جاء السلطان مسعود على رأس حملة عسكرية إلى بغداد عام (٥٢٩هـ ./١١٣٤م) وقام بفرض الحصار على المدينة، استغل العيارون تلك الحالة وقاموا بأخذ المال قهراً والجلوس في المحال وأخذ المال من البزازين[١٦٨]. كما دخلوا دكاكين البزازين يطالبونهم بالذهب ويتهددونهم بالقتل. وقد استغل الشحنة تلك الحال ورتب شحن على المحال وفرضت الأموال على تلك المحال أيضاً. كما استغل زنكي فساد العيارين واستأذن الخلافة في مطاردتهم وأثناء مطاردتهم قام بنهب خمسمائة ألف دينار من الإبريسم والثياب والذهب والفضة والمصاغ[١٦٩]. وأثناء انشغال البقش شحنه بغداد بقتال سلجوق شاه عام (٥٣٢هـ ./١١٣٧م) ثار العيارون ونهبوا الأموال وقتلوا الرجال، وزاد أمرهم حتى قصدوا أرباب الأموال الظاهرة يأخذون منها ما يريدون[١٧٠]. وحين قدم السلطان مسعود ثانيةً بغداد عام (٥٣٨هـ ./١١٤٣م) على رأس حملة عسكرية نزل أصحابه في دور الناس والأسواق وقاموا بأعمال السلب والنهب[١٧١]. وكان أسوأ الأعوام على الأسواق عام

(٥٤٣هـ ./١١٤٨م). إذ قدم بغداد في هذا العام عدد من الأمراء بعسكرهم أمثال البقش والدكز وقمبيز وقرتوت وأخوطويرك والطرنطاي، وأثناء إقامتهم انبسطوا في مدّ أيديهم إلى ما يخصّ السلطان. كما كسبوا خانات باب الأزج وأخذوا الغلة منها، وحين تجرد لقتالهم أهل باب الأزج والخليفة، أخذ العسكر في أخذ غلات الناس والتقسيط على محال الجانب الغربي، وعلى المناطق المحيطة ببغداد إلى أن خرجوا إلى الدجيل[١٧٢]. وأصيبت الأسواق بالاضطراب أثناء حصار السلطان محمد لبغداد عام (٥٥٢هـ ./١١٥٧م) نتيجة النفير للجهاد. إذ جاء المنادي إلى الدروب والأسواق ينادي من أراد الجهاد فليلبس السلاح ويقصد السور فخرج خلق[١٧٣]، وكان من ضمن الخلق الذي خرج العامة والتجار والرؤساء[١٧٤] وقد رافق عملية النفير النهب للتجار والأسواق[١٧٥].

٦. الخلاف بن السنة والشيعة:

تميز العصر السلجوقي، بالخلاف المتواصل بين السنة والشيعة في بغداد، وقد رافق الخلاف القيام بأعمال السلب والنهب والحرق للأسواق من كلا الطرفين. إذ بعد خروج البساسيري من بغداد ثار الهاشميون وأهل باب البصرة، وقاموا بنهب الكرخ وإضرام النار في أسواقها ودروبها[١٧٦]. وفي العام ذاته ثار أهل باب البصرة وقاموا بنهب الكرخ وإحراق درب الزعفراني وكان من أحسن الدروب[١٧٧]. وحين قام أهل الكرخ بإغلاق دكاكينهم والاحتفال بيوم عاشوراء عام (٤٥٨هـ ./١٠٦٥م) اجتمع خلق من السنة من شارع دار الرقيق وباب البصرة والقلائين ونهر طابق، وقصدوا دار الخلافة وهم يلعنون أهل الكرخ[١٧٨]. وحين ثارت الفتنة بين الكرخ وأهل باب البصرة والقلائين عام (٤٦٥هـ ./١٠٧٢م) احترقت ناحية من الكرخ تُعرف بالصاغة وقتل خلق كثير[١٧٩]، واجتمع أهل المحال ثانيةً وقصدوا الكرخ في نفس العام وأحرق الشيء الكثير منه[١٨٠]. لكن الفتنة الهائلة بين الطرفين كانت في عام (٤٧٠هـ ./١٠٧٧م) إذ نهب أهل السنة والشيعة بعضهم البعض، وما هدأت الفتنة حتى

ركب الجند[١٨١]. وفي العام نفسه أيضاً كانت الفتنة بين أهل سوق المدرسة وسوق الثلاثاء، وما هدأت الفتنة حتى ركب العسكر[١٨٢]. كما اشتعلت الفتنة بين أهل الكرخ الشيعة والسنة عام (٤٧٨هـ ./١٠٨٥م) وفيها أحرقت عدّة أماكن[١٨٣]، وتطورت الفتنة بنهب قطعة من نهر دجاج وإحراق شطر من الكرخ وقلع الأخشاب من المساجد، وما هدأت الفتنة حتى ركب الشحنة وقتل هاشمياً وأحرق شطر من باب البصرة[١٨٤]، ووقعت فتنة عام (٤٧٩هـ ./١٠٨٦م) وفيها نُهِبَت قطعة من نهر دجاج وطُرِحَت النار فيه[١٨٥]، وقام أهل باب البصرة عام (٤٨٢هـ ./١٠٨٩م) بكبس الكرخ فأُغلقَت أسواق الكرخ، وما زالت الفتنة تزيد حتى قُتل خلقٌ، واستولى أهل المحال على قطعة كبيرة من الكرخ[١٨٦]، واتصلت الفتن بين أهل باب البصرة والكرخ عام (٤٨٦هـ ./١٠٩٣م) ووقع القتال حتى أنفذ الشحنة إلى الكرخ من قام بنهبه وأحرقه[١٨٧]، ونتيجة لكثرة الفتن بين الطرفين عام (٤٩٧هـ ./١١٠٣م) انتشر العَّيارون وقاموا بأعمال السلب والنهب[١٨٨].

ويظهر أن الفتن لم تكن بين السنة والشيعة فقط، بل كانت هناك فتن بين الحنابلة والشافعية كما حصل عام (٤٧٠هـ ./١٠٧٧م) حين دخل متفقه إلى سوق الثلاثاء وتكلّم بتكفير الحنابلة فرمي بأجره فدخل إلى سوق المدرسة واستغاث بأهله فخرجوا معه إلى سوق الثلاثاء، ونهبوا بعض ما فيه، وغلب أهل سوق الثلاثاء بالعوام، ودخلوا سوق المدرسة ونهبوا قطعة منه واشتد الخطب حتى ركب العسكر[١٨٩]، واشتعلت الفتنة ثانيةً عام (٥٢٦هـ ./١١٣١م) وأُغلقت الأسواق، وسبب ذلك حين كان الحنابلة يصيحون على عادتهم هذا يوم سبت حنبلي لا قشيري ولا أشعري، وما هدأت الفتنة حتى خرج أبو الفتوح الإسفرابيني من بغداد بأمر من الخليفة المسترشد بالله[١٩٠].

كما كانت هناك فتنة بين المسلمين واليهود، وحين وقعت قصد العامة دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهودٌ وقاموا بنهبها[١٩١].

٧. الفرائض المالية:

عُدّ العصر السلجوقي أكثرَ العصور فرضاً للمكوس على الحياة الاقتصادية، ولهذا تُكرِّر المصادر قيام السلاطين السلاجقة بشكل متواصل بإسقاط تلك المكوس كمؤشر أنها ما إن يتم إلغاؤها حتى تعود ثانيةً.

فتذكر أن السلطان طغرلبك عندما عاد إلى بغداد عام (٤٥٥هـ . ‎/١٠٦٣م) أعاد المواريث والمكوس(١٩٢)، وفي خلافة المقتدي بأمر الله نلمس إسقاطاً للمكوس من قبل الخليفة تارةً ومن قبل السلطان ملكشاه تارةً أخرى، إذ ما إن تقلّد المقتدي بأمر الله الخلافة العباسية حتى بادر إلى إسقاط المكوس(١٩٣)، وبعد عام (٤٨٠هـ . ‎/١٠٨٧م) صدر توقيع شريف من قبل الخليفة المقتدي بالله برفع الضرائب والمكوس وكُتبت ألواح ألصقت على الجوامع بتحريم ذلك(١٩٤)، وأثناء خلافة المقتدي كان يتقلد السلطنة السلطان ملكشاه الذي ما إن سيطر على ميافارقين حتى أحسن إلى أهلها بإسقاط المؤن والأعشار والكلف وجميع البوائق(١٩٥)، وفي عام (٤٧٧هـ ‎/١٠٨٤م) أصدر السلطان ملكشاه بإبطال المكوس عن سائر التجار وعن جميع البضائع في العراق وخراسان، وحظر تناول أي شيء في بلد من البلاد الجارية في مملكته فكثر الدعاء له من الناس(١٩٦)،وفي عام (٤٨٥هـ ‎/١٠٩٢م) طالب السلطان ملكشاه بترك المكوس وحين احتج أحد المستوفين على ذلك، لكون القرار يُحمّل خزانة الدولة ستمائة ألف دينار خسارة، رد السلطان: المال مال الله والعبيد عبيده والبلاد بلاده(١٩٧). وأثناء خلافة المستظهر بالله، صدر الأمر ببناء سور ببغداد، فخرج الوزير عميد الدولة بن جهير بخطةٍ عام (٤٨٨هـ ‎/١٠٩٥م) وتقدم بجبايات المال الذي يحتاج إليه من عقارات الناس ودورهم(١٩٨)، وأثناء سلطنة السلطان محمد أُطلقت جميع الضرائب والمكوس ودار البيع والاجتيازات بالعراق، وكُتبت ألواح بذلك(١٩٩) ونودي عام (٥٠١هـ ‎/١١٠٧م) برفع المكوس وإبطال رسمها على التجار المسافرين في جميع بلاده، وحظر تناول اليسير منها، ولكنه لما عاد إلى أصفهان طمع في التجار

والأسواق وفرض المكس عليهم على سبيل الخلاف لما امر به، لكنه لما عاد إلى بغداد أنكر ما جرى من مخالفة أمره وطالب بإبطال المكس وحذَّر من المخالفة له في سائر البلاد(٢٠٠)، وحين استولى الأمير سكمان صاحب خلاط على مدينة ميافارقين عام (٥٠٢هـ ./١١٠٨م) أسقط عن أهلها الكلف والمؤن والأعشار والأقساط وأسقط دار الضرب، وما كان جدده المحتسب وأتابكة من رسوم(٢٠١). وأثناء سلطنة السلطان محمود بن محمد ردَّ وزيرُه السميري المكوسَ والضرائب التي كان السلطان محمود قد أسقطها فأُعيدت المكوس والمواخير وألزم الباعة أن يدفعوا إلى السلطان ثلث ما يأخذونه من الدلالة في كل ما يباع، وفُرض على كل نول سقلاطون ثمانية أقساط وحبه(٢٠٢). ولذلك لما قُتل السميرمي أَطلق السلطان محمد ما كان جدَّده وزيرُه من مكوس وما وضعه على التجار والباعة(٢٠٣)، لكن الخليفة المسترشد بالله ردَّ تلك المكوس التي أسقطها السلطان، نتيجة إقامة السلطان محمود في بغداد وحاجة الخلافة إلى المال لتغطية نفقات السلطنة، حيث الذي يُقال أن الخليفة تقدّم بطلب أخذ أجره شهراً من دور الحريم ودكاكينه ومساكنه وكتبت الجرائد بذلك ورتب الكتاب والمشرف والجهبذ للقيام بذلك، فجبي مبلغ وافر خلال ثلاثة أيام، وحين كثرت الشكايات طلب الخليفة برفع ذلك وأعاد ما جُبي على أربابه(٢٠٤). ولكن لما خرج السلطان محمود من بغداد عام (٥١٦هـ ./١١٢٢م) نادى بإسقاط المكوس والضرائب وما وُضعَ على الباعة من قبل السلطان(٢٠٥)، ولكن بعد ذلك بعام وذلك عام (٥١٧هـ ./١١٢٣م) حين شرع الخليفة بعمل سور لبغداد، وأُشيرَ عليه بجباية العقار لبناء السور فوافق وشرع في جباية أصحاب الدكاكين وحين قلق الناس من الجباية توقف الخليفة وأعاد على الناس المال الذي جبي فكثر الدعاء له(٢٠٦)، وما إن عُزل البرسقي عن شحنكية العراق عام (٥١٨هـ ./١١٢٤م) حتى عادت جباية الأسواق(٢٠٧)، وزاد إرهاق الناس بالعراق من المكوس عام (٥٢٦هـ ./١١٣١م) حين شرع الخليفة المسترشد بالله في عمارة سور بغداد، لما علم بمجيء السلطان سنجر إلى العراق(٢٠٨) وأعيدت المواخير والمكوس في

العراق أثناء خلافة الراشد بالله عام (٥٣٠هـ ./١١٣٥م) إلى أن جاء رسولٌ إلى الخليفة يشكي له ابن الهاروني من المكوس والمواخير التي فرضها وطالب بقتله تقرباً إلى الله، ولذلك قُتل على يد الوالي وحين صلب على خشبة مَثّل به العوام لكراهيتهم له[٢٠٩]، وأثناء خلافة المقتفي لأمر الله قام الخليفة ببيع العقار لتوفير الأموال للسلطان مسعود ورفع المصادرة عن الناس[٢١٠]، ورغم ذلك طالب السلطان مسعود عام (٥٣١هـ ./١١٣٦م) بجباية العقار وقد لقي الناس من ذلك شدّة[٢١١]، كما قام السلطان بأعمال المصادرة لأهل الأموال[٢١٢]، وفي العام ذاته (٥٣١هـ . ./١١٣٦م) عادت الجبايات الفاسدة على الناس بعنف وشدة وظلم[٢١٣]، لكن السلطان مسعود تراجع عن سياسته عام (٥٣٢هـ ./١١٣٧م) إذ قام بقتل ابن البقش السلاحي شحنة بغداد الذي ظلم الناس وعسفهم وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم[٢١٤]، وبعد قتله للشحنة نزل السلطان بغداد وكتب ألواحاً بإزالة المكوس وقد وضعت تلك الألواح على أبواب الجوامع والأسواق[٢١٥] رغم أن البعض عرض على السلطان ضمان مكوس بغداد بمائة ألف دينار[٢١٦]، ولكن يظهر أن المكوس عادت برغبة من الخلافة والسلطنة بدليل أنه في عام (٥٤١هـ ./١١٤٦م) جلس ابن العبادي الواعظ بجامع السلطان، وكان السلطان قد حضر موعظته وقد عرّض في موعظته بحق البيع وذكر ما يجري على المسلمين من ذلك، وقد استجاب السلطان له ونادى في البلد بإسقاط هذا المكس ونُقشت ألواح تطالب بترك المكس[٢١٧].

أما الخلافة فإن الخليفة المقتفي لأمر الله لما شرع في عمارة سور بغداد وحفر الخنادق حولها عام (٥٤٣هـ ./١١٤٨م) ألزم الأماثل والتجار والأعيان والرعايا القيام بما يُنفَق على العمارات من أموالهم على سبيل القرض والمعونة[٢١٨]، وحين كان يتقلد المكس في بغداد ابن البلنكري كان يبالغ في أذى الناس وأخذ أموالهم ويقول أنا فرشت حصيراً في جهنم[٢١٩]، ولكن تلك المكوس أُسقطت في خلافة المستنجد بالله ووزيره عون الدين ابن هبيره عام (٥٥٥هـ ./١١٦٠م)، إذ أسقط الضرائب وما كان ينسب إلى

سوق الخيل والجمال والغنم والسمك والمدبغة والبيع في جميع أعم ال العر اق[٢٢٠]، ولذلك قالت المصادر عنه أنه لما تولى الخلافة رد أموالاً كان أهلها غصبوها وأسقط مكوساً وأبطل جميع ما كان السلاطين يتناولونه[٢٢١]، ولما بويع بالخلافة المستضيء بأمر الله نادى برفع المكوس ورد المظالم[٢٢٢]، إذ أسقط الخراج المتجدد والضرائب والمكوس[٢٢٣]، وقد فعل ذلك الخليفة الناصر لدين الله الذي جاء خلفاً له. إذ أطلق الخليفة جميع حق البيع وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس في المبيعات وكانت مبلغاً كبيراً[٢٢٤].

الخاتمة:

- كانت بغداد في بداية العصر السلجوقي مدينة عامرة بالأسواق، وقد حرص السلاجقة على الحفاظ على تلك الأسواق وإنشاء المزيد منها في نموذج معماري متميز وذات رسوم أصبح متعارفاً عليها بين العاملين في تلك الأسواق.
- واصلت الحسبة كمؤسسة رقابية على الأسواق نشاطها في العصر السلجوقي لمحاربة مظاهر الغش والتدليس التي كانت تظهر في الأسواق بين الفترة والأُخرى.
- أوجد السلاجقة قد عملتهم الخاصة بهم لتأكيد سلطتهم في العراق وكانت هذه العملة من الدنانير والدراهم، ولكن القيمة السوقية لتلك النقود تعرضت إلى التبدل بفعل التغيّر في كمية المعدن النفيس الموجود في تلك النقود.
- تأثرت الأسواق بالكثير من العوامل، التي أثَّرت في نشاطها وكان أبرز تلك العوامل الاحتفالات التي كانت تفرض تعطيل تلك الأسواق لإقامة الزينة والاحتفالات بها.
- تأثرت الأسواق بوفاة الشخصيات العامة من سلاطين أو أبنائهم أو أحد العلماء، وقد تمثل ذلك التأثير بتوقف العمل بتلك الأسواق للمشاركة في الحزن أو تشيع الجنازة.

- كانت تحركات العسكر السلجوقي العوامل تأثيراً بالأسواق، لضخامة العسكر الذي كان ينزل بغداد وما يرافق ذلك النزل من أعمال السلب والنهب التي كان يقوم بها العسكر، مستغلين الاضطراب الذي يعمّ المدينة بنزولهم.
- تعرضت الأسواق في العصر السلجوقي بشكل متواصل لأعمال الحرق الذي كان يتلف أسواقاً عدة وكماً هائلاً من الدكاكين أو الحوانيت المتواجدة في تلك الأسواق، وهذه الحرائق حدثت أحياناً بشكل عفوي وأحياناً بشكل مقصود من قبل السلطة أو فئة من السكان ضد أُخرى.
- تأثرت الأسواق بالخلاف المتواصل بين السنة والشيعة في المدينة وكان يرافق هذا الخلاف أعمال السلب والنهب والحرق لتلك الأسواق.
- كان العصر السلجوقي أكثر العصور فرضاً للضرائب المالية أو المكوس على أهل الأسواق باعتبار ذلك مورداً من موارد الدولة المالية، وإن كانت السلطة السلجوفية وبشكل متواصل تعمد إلى إلغاء تلك الفرائض تنشيطاً لتلك الأسواق واستجابةً لمظاهر التذمر من العاملين بتلك الأسواق.

الهوامش والتعليقات الختاميّة

(١) ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ .) **مناقب بغداد**، نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة في الخزانة التيموريّة في القاهرة، عني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجت الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام، بغداد، (١٣٤٢هـ .)، ص(١٣).

(٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص(١٣).

(٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص(١٣).

(٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص(١٣).

(٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص(٢٨)؛ الشيخلي، صباح إبراهيم، **الأصناف في العصر العباسي**، نشأتها وتطورها، نشر وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٦م، ص(٧٤).

(٦) ابن الجوزي، مناقب بغداد، ص(٢٦).

(٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص(٢٦).

(٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ص(٢٧).

(٩) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت٢٨٤هـ ./٨٩٧م)، **البلدان**، اعتناء دي غويه، بريل، ليدن، (١٨٩١)، ص(٢٤٦-٢٤٨)؛ اليوزبكي، توفيق، **دراسات في النظم العربيّة الإسلاميّة**، ط٣، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٨م، ص(٢٦٩).

(١٠) اب ن دقم اق، صد ارم ال دين إب راهيم ب ن محم د ب ن اي دمر العلائ ي (ت٨٠٩هـ ./١٤٠٦م)، **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، ٢حـ . ف ي ١م، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكت ب، بي روت، (١٩٨٥)، ص(١٩٤).

(١١) الغساني، إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) **العسجد المسبوك والج وهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**، تحقيق شاكر محمود عب د الم نعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والن شر والتوزي ع، بي روت، دار البي ان، بغ داد، (١٩٧٥)، ص(٥٠١-٥٣٥).

(١٢) ابن الجوزي، ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ . ./١٢٠٠م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم** (١٨ج)، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عط ا، دار الكت ب العلمي ة، بي روت، ١٩٩٧م، ج١٦، ص(١٨).

(١٣) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(١٨)؛ الشيخلي، **الأصنافي العصر العباس ي**، ص(٧٩).

(١٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(١٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(١٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(١٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(١٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(١٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(٢٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(٢١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(٢٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(٢٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٨).

(٢٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٩٦).

(٢٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٩٩).

(٢٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٩٩).

(٢٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٩٩).

(٢٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٩٩).

(٢٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٤٥).

(٣٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٦١)؛ المقدسي، جورج، **خطط بغداد في القرن الخامس الهجري**، ترجمة صالح العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤م، س٢٢.

(٣١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٦١).

(٣٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٥٢).

(٣٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٥٢).

(٣٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٥٢).

(٣٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٦٤).

(٣٦) ابـ ن الأثيـ ر، ابـ و الحـ سن علـ ي بـ ن أبـ ي الكـ رم الـ شيباني الجـ زري (ت٦٣٠هـ ./١٢٣٢م ١٢٣٢)، **الكامل في التاريخ**، ١٢ح، دار صـ ادر للطباعـ ة والنشر، بيروت، (١٩٦٦) ج٩، ص(٢٥٦).

(٣٧) ابن الأثير، **الكامل من التاريخ**، ج٩، ص(٤١١).

(٣٨) ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد (ت٦٣٧هـ ./١٢٣٩م)، ذيل تاريخ مدينـ ة السلام، ٢ح حققه وعلق عليه بشار عواد معـ روف، مطبعـ ة الـ سلام، بغـ داد، (١٩٧٤) دار الحرية للطباعة، بغداد، (١٩٧٤)، ص(٨).

(٣٩) ابن الدبيثي، المصدر نفسه، ص(١٠٢).

(٤٠) ابن الدبيثي، المصدر نفسه، ص(١١٠).

(٤١) اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ ./١٣٦٦م) **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ٤جـ .، وضع حواشـ يه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيـ روت، د.ت، ج٣، ص(٧٦).

(٤٢) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد، (ت٥٨٠هـ . ./١١٨٤م)، **الأنبـ اء فـ ي تاريخ الخلفاء**، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي، نشر المعهـ د الهولنـ دي للآثار المصرية والبحوث العربية، القاهرة، (١٩٧٣) ص(٢١١).

(٤٣) ابن العمراني، المصدر نفسه، ص(٢١١).

(٤٤) الغساني، المسجد المسبوك، ص(٢٩٦).

(٤٥) الغساني، المصدر نفسه، ص(٤٣٥).

(٤٦) الغساني، المصدر نفسه، ص(٥٩٩).

(٤٧) الغساني، المصدر نفسه، ص(٥٩٩).

(٤٨) الغساني، المصدر نفسه، ص(٥٩٩).

(٤٩) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بـ ن أسـ د بـ ن علـ ي بـ ن محمـ د التميمـ ي (ت٥٥٥هـ ./١١٦٠م) **تاريخ أبي يعلي المعروف بتاريخ دمـ شق**، تحقيق سـ هيل زكار، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، (٢٠٠٧)، ص(٥٦١).

(٥٠) ابن القلانسي، المصدر نفسه، ص(٥٦١).

(٥١) ابن القلانسي، المصدر نفسه، (ص٥٦١).

(٥٢) ابن بطوطة، أبو عبدالله بن إبراهيم اللواتي (ت٧٧٩هـ ./١٣٧٧م) **رحلـ ـة ابـ ن بطوطة**، بيروت، (١٩٦٤)، ص(١٩٣).

(٥٣) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص(١٩٣).

(٥٤) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص(١٩٣).

(٥٥) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص(١٩٣).

(٥٦) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص(١٩٣).

(٥٧) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص(١٩٣).

(٥٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٣٢)، ابن جبير، أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤هـ ./١٢١٧م)، **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثـ ـار الكريمـ ـة والمناسك المعروف برحلة ابن جبير**، منشورات دار مكتبـ ـهلال، بيروت، ط٢، (١٩٨٦)، ص(١٨٠).

(٥٩) ابن جبير، المصدر نفسه، ص(١٨٠).

(٦٠) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ ./١٠٧٠م)، **تاريخ بغ داد أو مدينة السلام**، ١٤حـ .، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٣١)، وطبع ة بمكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٣١)، ج١، ص(٦٨).

(٦١) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج١، ص(٦٧)؛ اليوزبكي، **دراسات في النظم**، ص(٢٦٩).

(٦٢) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج١، ص(٣٦).

(٦٣) اليعقوبي، **معجم البلدان**، ص(٢٤٧).

(٦٤) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٣٩١).

(٦٥) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(١٦١).

(٦٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٢٨٣).

(٦٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٥٢).

(٦٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٦٦-١٦٧).

(٦٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٨).

(٧٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(٦٤).

(٧١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص(١٨٨-١٨٩).

(٧٢) الغساني، **العسجد المسبوك**، ص(٣٤٦).

(٧٣) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٩٥).

(٧٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(٦٧).

(٧٥) ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص(٣٢١)

(٧٦) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص (٤).

(٧٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٦٢).

(٧٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٩٨).

(٧٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٨١).

(٨٠) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٤٦٩).

(٨١) ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة**، ص(٥١١).

(٨٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص(٥١١).

(٨٣) ابن خبير، **رحلة**، ص(١٨٢-١٨٤).

(٨٤) الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بـ ن الأزرق الفـ ـارقي(ت٥٨هـ . /١٤٠٠م) **تاريخه**، حقّقه وقدّم له: بدوي عبداللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيـ روت، (١٩٧٤)، ص(٧٥).

(٨٥) الفارقي، المصدر نفسه، ص(٦٦).

(٨٦) الفارقي، المصدر نفسه، ص(٦٧).

(٨٧) الغساني، **العسجد المسبوك**، ص(٣٣٥).

(٨٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٢٤).

(٨٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٥٩).

(٩٠) ابن العبري، أبي الفرج جمال الدين (ت٦٨٥هـ ./١٢٨٦م)، **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة قدم له الأب جان موريس فييه، دار المشرق، بيروت (١٩٨٦) ص(١٠١-١٠٢).

(٩١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(١٦٦).

(٩٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٠٥).

(٩٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٠٥).

(٩٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٢٤).

(٩٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٧٣).

(٩٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٨٧).

(٩٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١١٢).

(٩٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٤٦).

(٩٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٤٨).

(١٠٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٧٧).

(١٠١) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص(٩٩).

(١٠٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٣٧).

(١٠٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٩٨).

(١٠٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٣٩).

(١٠٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام حوادث**(٤٤٠-٤٦٠هـ .)، ص(٥٠١).

(١٠٦) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٤١٠).

(١٠٧) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٩٤).

(١٠٨) الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ ./١٣٤٧)، **تـ اريخ الإسـ لام ووفيات المشاهير والأعلام**، (حوادث ٤٤٠هـ .-٥٩٠هـ .) تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيـ روت، (١٩٩٦)، حـ وادث (٤٤٠-٤٦٠هـ . .)، ص(٢٩١).

(١٠٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٢٧٠).

(١١٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٢٠).

(١١١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(١٢٠)؛ السيوطي، حلال الدين عبدالرحمن ابن أبي بكر، (ت٩١١هـ ./١٥٠٥م) **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد محيـ ي الـ دين عبد الحميد، د.م، د.ن، د.ت، ص(٤٤٥).

(١١٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص(٣٢٧).

(١١٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٦).

(١١٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٩٩).

(١١٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٠٩).

(١١٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٤٥).

(١١٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٦٨).

(١١٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢١٧)؛ ابن تغري بـ ردى، جمـ ال الدين أبي المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ ./١٤٦٩م) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر**

و**القاهرة**، ١٦ج، قدم وعلق عليه محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٠)، ج٥، ص(١١٣).

(١١٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٢٤٧).

(١٢٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص(٢٨٢).

(١٢١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٢٩٦).

(١٢٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(٥٢).

(١٢٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٧٠).

(١٢٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(٢٤٥).

(١٢٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٤٦).

(١٢٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٨٦).

(١٢٧) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٤٣٢).

(١٢٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(٧٨).

(١٢٩) الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(١٨)؛ المقدسي، **خطط بغداد**، ص٤٢–٤٣.

(١٣٠) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(١٧٠).

(١٣١) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٤٠/٤٦٠هـ)، ص(٢٧١).

(١٣٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٩٦).

(١٣٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٤٥).

(١٣٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٤٦).

(١٣٥) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(١٦٦-١٦٧).

(١٣٦) ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ج١، ص(١٩٤).

(١٣٧) اليافعي، **الجنان**، ج٣، ص (٩٣)؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٢٤٢).

(١٣٨) اليافعي، المصدر نفسه، ج٣، ص(١٠٣).

(١٣٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٢٩٩).

(١٤٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٧٦).

(١٤١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٠٩)؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص(١٢٢).

(١٤٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(١٤٣).

(١٤٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٤٣).

(١٤٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٤٥).

(١٤٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٦١).

(١٤٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٢٨٣).

(١٤٧) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٢٥٦).

(١٤٨) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٩، ص(٢٥٦).

(١٤٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(١٠٧)؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٤١٨).

(١٥٠) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(١٥٢)؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٤٥٩).

(١٥١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(١٥٦)؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٤٦٤).

(١٥٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(١٦٤).

(١٥٣) ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص(٣٢).

(١٥٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(١٩٧).

(١٥٥) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص(٩٨).

(١٥٦) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ /١٣٤٧م)، **العبر في خبر من غبر**، ٤ج، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٥)، ج٢، ص(٢٨٧-٢٨٨)، **دول الإسلام**، نشر عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر د.ت، ج١، ص(٢٦١-٢٦٢).

(١٥٧) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٣٢)؛ ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(١٧٠)؛ الأزدي، علي بن ظافر (ت٦١٣هـ /١٢١٦م) **أخبار الدول المنقطعة** (الدولة العباسية)، ٢ج، دراسة وتحقيق عصام هزايمه وآخرون، مؤسسة حمادة، دار الكندي للنشر، اربد، (١٩٩٩)، ج٢، ص(٤٢٨).

(١٥٨) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(١٧٠)؛ ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ج١، ص(١٩٤).

(١٥٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٣٤).

(١٦٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٣٤).

(١٦١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٤٩-٥٠).

(١٦٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٣١١).

(١٦٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص(٤٧).

(١٦٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٩، ص(٥١).

(١٦٥) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٩، ص(٦١).

(١٦٦) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٨١).

(١٦٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٢٤١).

(١٦٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٣٠٩)؛ ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٢٩١).

(١٦٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٣١٠).

(١٧٠) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٣٠٥).

(١٧١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(٣٠).

(١٧٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(٦٥).

(١٧٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١١٥).

(١٧٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١١٢).

(١٧٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١١٨).

(١٧٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٤٨٠).

(١٧٧) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٤٤٠-٤٦٠هـ)، ص(٢٨٠).

(١٧٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٨٠).

(١٧٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٤٥).

(١٨٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(١٤٦).

(١٨١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٤٦٠-٤٧٠هـ .)، ص(٤٦).

(١٨٢) اليافعي، **الجنان**، ج٣، ص(٧٦).

(١٨٣) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حـ وادث ٤٧٠-٤٨٠هـ . .)، ص(٢٧٠)؛ الي افعي، **الجنان**، ج٣، ص(٩٣).

(١٨٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٢٤٦).

(١٨٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٥٩).

(١٨٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٦، ص(٢٨٢).

(١٨٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٥).

(١٨٨) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٧٥).

(١٨٩) اليافعي، **الجنان**، ج٣، ص(٧٦)؛ ابن الجوزي **المنتظم**، ج١٧، ص(١٩١).

(١٩٠) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٢٤٥).

(١٩١) ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص(٨٩).

(١٩٢) السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص(٤٢٠).

(١٩٣) الأزدي، **أخبار الدول المنقطعة**، ج٢، ص(٤٣٥).

(١٩٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٢٦٧).

(١٩٥) الفارقي، **تاريخه**، ص(٢٣٦).

(١٩٦) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٢٠٩)؛ الذهبي، **تاريخ الإسـ لام**، حـ وادث (٤٧٠-٤٨٠هـ .)، ص(٣٣).

(١٩٧) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٦، ص(٣١١).

(١٩٨) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(١٦).

(١٩٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص(١٢٢).

(٢٠٠) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٥٧١).

(٢٠١) الفارقي، **تاريخه**، ص(٢٧٥).

(٢٠١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(١٨٨، ١٩٨)؛ ابن الأثيـ ر، **الكامـ ل**، ج٩، ص(٢١١).

(٢٠٣) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٢١٦).

(٢٠٤) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(١٩٢).

(٢٠٥) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٢٠٤).

(٢٠٦) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٢١٧-٢١٨).

(٢٠٧) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٢٢٦).

(٢٠٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٢٧٠).

(٢٠٩) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٣٠٧).

(٢١٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٣١٥).

(٢١١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٣٢٠).

(٢١٢) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٣٢١).

(٢١٣) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٧، ص(٣٢٣).

(٢١٤) ابن الأثير، **الكامل**، ج٩، ص(٣٠٧).

(٢١٥) ابـ ن الجـ وزي **المنـ تظم**، ج١٧، ص(٣٣٥)؛ ابـ ن الأثيـ ر، **الكامـ ل**، ج٩، ص(٣١١).

(٢١٦) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص(٣٣٥).

(٢١٧) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(٤٩).

(٢١٨) ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٤٦٩).

(٢١٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(٧٨).

(٢٢٠) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج١٨، ص(١٤١)؛ ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ص(٥٦١).

(٢٢١) ابن اقماق، **الجوهر الثمين**، ج١، ص(٢١٠)؛ الأزدي، **أخبار الدول المنقطعة**، ج٢، ص(٤٥٣)؛ ابن الأثيـ ر، **الكامـ ل**، ج١٠، ص(٢٩)؛ الغـ ساني، **العـ سجد المـ سبوك**، ص(٣٢٢)؛ ابـ ن الطقطقـ ـا، محمـ ـد بـ ـن علـ ـي بـ ـن طباطبـ ـا (ت٧٠٩هـ ./١٣٠٩م)، **الفخري في الآداب السلطانيّة والـ دول الإسـ لامية**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص(٣١٦).

(٢٢٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص(١٩٤)، **المصباح المضيء في خلافة المستضيء**، تحقيق ناجيه عبدالله إبراهيم، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٠، ص(٤٩٩).

(٢٢٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص(٨٥)؛ ابن دقماق، **الجوهر الثمين**، ج١، ص(٢١٢).

(٢٢٤) ابن الأثير، **الكامل**، ج١٠، ص(٣٤٤)؛ الغساني، **العسجد المسبوك**، ص(٣٢٢).

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر:

١. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ ./١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١١ج، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٧).

٢. الأزدي، علي بن ظافر (ت٦١٣هـ ./١٩٦م)، أخبار الدول المنقطعة، ٢ج، دراسة وتحقيق عصام هزايمة وآخرون، مؤسسة حمادة ودار الكندي للنشر، إربد، (١٩٩٩).

٣. ابن بطوطة، أبو عبدالله بن إبراهيم اللواتي (ت٧٧٩هـ . ./١٣٧٧م) رحلة ابن بطوطة، بيروت، (١٩٦٤).

٤. ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ ./١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٥ م، طبعة مصورة عن طبيعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، د.م، د.ت.

٥. ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت٦١٤هـ ./١٢١٧م) رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ . . رحلة ابن جبير، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت، (١٩٨١).

٦. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ . ./١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (١٨ج)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٩٢).

٧. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ ./١٢٠٠م) مناقب بغداد، تصحيح وتعليق حواشيه ونشر محمد بهجت الأثري البغدادي، مطبعة دار السلام، بغداد، (١٣٤٢م).
٨. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ ./١٢٠٠م) المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ٢ج، تحقيق ناجيه عبدالله إبراهيم، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، (٢٠٠٠).
٩. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ ./١٠٧٠م)، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ١٤ج، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٣١)، وطبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، (١٩٣١).
١٠. ابن الدبيثي، محمد بن سعيد بن محمد، (ت٦٣٧هـ ./١٢٣٩م)، ذيل تاريخ مدينة السلام، ٢ج، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف مطبعة السلام، بغداد، (١٩٧٤)، دار الحرية للطباعة، بغداد، (١٩٧٤).
١١. ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت٨٠٩هـ ./١٤٠٦م)، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ٢جـ. . في ام، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، (١٩٨٥).
١٢. الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ ./١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ٤٤٠-٥٩٠هـ .)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٩٩٦).
١٣. الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ ./١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، ٤ج، حققها وضبطها أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٩٨٥).

١٤. الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ ./١٦٤٧م)، دول الإسلام، ٢ج، في ١م، عني بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع إحياء التراث الإسلامي، دولة قطر، د.ت.

١٥. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت٩١١هـ ./١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، (١٩٦٠).

١٦. ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ ./١٣٠٩م)، كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٦٠).

١٧. ابن العبري، جمال الدين بن هارون ابو الفرج الملطي (ت٦٨٥هـ . ./١٢٨٦م)، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، (١٩٩١).

١٨. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ ./١١٨٤م)، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي، نشريات المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية، القاهرة، د.ت.

١٩. الغساني، إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ ./١٤٠٠م)، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار البيان، بغداد، (١٩٧٤).

٢٠. الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت٥٨٠هـ . ./١١٨٤م) تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبداللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (١٩٧٤).

٢١. ابن القلانسي، أبو يعلي حمـ زة بـ ن أسـ د بـ ن علـ ي بـ ن محمـ د التميمـ ي (ت٥٥٥هـ ./١١٦٠م)، تاريخ أبي يعلي المعروف بتاريخ دمشق، تحقيق سـ هيل زكار، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، (٢٠٠٧).
٢٢. اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت٧٦٨هـ ./١٣٦٦م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ٤حـ .، وضع حواشـ يه خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتـ ب العلميـ ة، بيـ روت، (١٩٩٧).
٢٣. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، (ت٢٨٤هـ ./٨٩٧م)، البلدان، اعتنـ اء دي غويه، بريل–ليدن، (١٨٩١).
٢٤. **ب. قائمة المراجع الحديثة:**
٢٥. الشيخلي، صباح إبراهيم، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، نـ شر وزارة الإعلام، بغداد، (١٩٧٦).
٢٦. مقدسي، جورج، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة صـ الح أحمـ د العلي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، (١٩٨٤).
٢٧. اليوزبكي، توفيق سلطان، دراسات في النظم العربية الإسلامية، ط٣، نشر وزارة التعليم العالي، بغداد، (١٩٨٨).

السياسة البحرية الفاطمية

في المرحلة المغربية

د. فايزة محمد الكلاس

قسم التاريخ

جامعة دمشق

اهتم الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب اهتماماً كبيراً بالشؤون الملاحية والبحرية وأعطوها الأولوية، وفاقت مجهوداتهم في العناية بالأسطول وفي الجهاد البحري جهود من سبقهم من القوى العربية والإسلامية، وتطلعوا منذ عهد المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ /٩٠٩-٩٣٣م) لفرض هيمنة دولتهم وقوتهم على غربي البحر المتوسط والجنوب الإيطالي وغير ذلك من المناطق، ولربما ساعدهم على ذلك تأصل الفكرة الجهادية عندهم بوصفها العنصر المهم في سياستهم العسكرية ولأنها الركيزة الأساسية التي تقوم عليها العقيدة الإسماعيلية.

من جهة ثانية أعطاهم العباسيون وما وصلوا إليه من ضعف وتخاذل كل الحق في تبني هذا الشعار الجهادي الذي عدّ ضرورياً لإنقاذ الموقف الإسلامي المتدهور للدفاع عن المصالح التي هُددِّت في كل مكان لاسيما في الشام ومصر وجزر البحر المتوسط(١). والواقع أن هذه النزعة البحرية المُعلَن عنها قد ورثها الفاطميون عن أسلافهم الأغالبة الذين كانوا يملكون من ذي قبل أسطولاً حربياً قد تعزز أكثر فأكثر بفضل فتح صقلية والجهاد ضد بيزنطة ورعاياها في صقلية الشرقية وإيطاليا الجنوبية(٢). ولبسط السلطة والسيادة الفاطمية على امتداد واجهة الغرب الإسلامي

البحرية من سواحل سرت إلى مشارف الأندلس في طنجة وسبتة، وكذلك على امتداد سواحل صقلية إلى تخوم قلورية، سيكون الفاطميون في حاجة إلى أسطول حربي أقوى وأعظم من الأسطول الذي ورثوه عن أسلافهم الأغالبة. لذلك كان من واجبهم إيجاد واجهة بحرية أوسع من واجهة الدولة الأغلبية حتى يتسنى لهم الدفاع عن السواحل الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية على حد سواء ليس فقط في شرق البلاد المغربية وجزيرة صقلية، بل في سواحل المغرب بأسره المطلة على البحر المتوسط أفلا يتعين عليهم لهذا الغرض الوقاية من هجمات الأسطول الأموي أو البيزنطي المفاجئة، وبالتالي استعمال المراسي الموجودة في السواحل المغربية بالتناوب مع القواعد البحرية الواقعة في صقلية؟ فمنذ أن أصبح الفاطميون أصحاب أفريقية الجدد وأخذوا يعملون على بسط سيادتهم في اتجاه البحر المتوسط اتضح أن القواعد البحرية الواقعة على السواحل المقابلة لصقلية وجنوب إيطاليا والتي استعملها الأغالبة في القرن التاسع الميلادي، واستعملها من قبلهم الولاة العباسيون والأمويون في القرن الثامن الميلادي قد أصبحت غير كافية فمدينة تونس منذ أواخر القرن السابع الميلادي تقوم بدور هام وفعال بفضل دار الصناعة الموجودة بها والتي كانت تقوم بتصنيع السفن حسب شهادة البكري حيث كانت توجه المراكب التي كان المسلمون يغيرون بها «على سواحل الروم ويكثرون فيها النكاية والإذاية»[٣]. أما مدينة سوسة المجهزة هي أيضاً بدار صناعة فكانت تقوم بدور متميز في القرن التاسع وظلت القاعدة الرئيسية للغارات البحرية حتى مطلع القرن العاشر ميلادي[٤]. وتبعاً لذلك ومن منطلق القوة والتميز والضرورة الحربية أراد المهدي إقامة قاعدة بحرية تتناسب والإستراتيجية النافعة لدولته تتمتع بالخصوصية من خلال موقعها الجغرافي الذي يعطيها قوة كبيرة في الدفاع عن الدولة الفاطمية فيما لو تعرضت لأي هجوم مفاجئ كما تكون منطلقاً لغزو الثغور ومناطق العدو وداراً لصناعة الأسطول لذلك وقع اختياره في سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٦م على المنطقة الواقعة بين سفاقس والمنستير في جزيرة متصلة بالبر

(كصورة كف اتصل بزند)[٥] ليختط مدينته التي تحمل اسمه لإيمانه أن دولته لابد لها من الانفتاح على العالم الخارجي ولابد لها من أن تكون دولة جهادية ولاسيما أن سواحلها كلها مناطق ثغور وجبهات قتال. من جهة ثانية يذكر أن مؤسسها أولى اختيار موقعها اهتماماً كبيراً وعناية فائقة بعدما مر على جميع السواحل، حيث يذكر ابن عذاري أنه كان «يرتاد موضعاً على ساحل البحر يتخذ مدينة تحصنه وتحصن بنيه من بعده»[٦]. أي أنه ليتعذر على المرء العثور بسهولة في هذا الساحل المتميز بتضاريسه على شناخ[٧] آخر شبه جزيري مماثلاً لشناخ المهدية يكون طويلاً ورقيقاً مثله ومتصلاً باليابسة بواسطة مثل هذا المفصل الدقيق.

وهكذا فإن المهدية التي تأسست باعتبارها معقلاً يحمي الدولة الفاطمية من أي خطر داهم من البر أو البحر، وقاعدة بحرية مؤهلة للقيام بعمليات حربية واسعة النطاق قد كانت أولاً وبالذات مدينة ذات طابع عسكري، على الرغم من كونها عاصمة الدولة ومقر الحكومة. وفي هذا الموقع الضيق شيئاً ما الذي يتخذ شكل يد ممدودة فوق مياه البحر الذي لا يربطه باليابسة سوى برزخ لا يتجاوز عرضه مرمى السهم سارت الأشغال سيراً حثيثاً فقد بدأت في سنة ٣٠٣هـ ./ ٩١٦م وانتهت سنة ٣٠٦هـ ./٩١٨-٩١٩م أي في أقل من ثلاث سنوات، وقامت القاعدة الجديدة اعتباراً من ذلك التاريخ بتجهيز الأسطول المكلف بمد يد المساعدة إلى الحملة الثانية على مصر، التي فشلت لأن الجيش الفاطمي كان بعيداً أكثر من اللزوم عن قواعده ومفتقراً إلى الميرة والعتاد ولكن الخليفة المهدي لم يستقر بالمهدية إلا بعد ذلك بسنتين إثر انطلاق الحملة العسكرية البرية والبحرية[٨].

وبناءً على ذلك لم تشتمل المدينة وقتئذ إلا على بعض المنشآت العسكرية والمباني اللازمة لسكنى أفراد العائلة الحاكمة ورجال الخاصة وإيواء مصالح الإدارة المركزية والمؤسسات الدينية والاقتصادية. وباعتبارها مقراً للخلافة ومركزاً بحرياً تجارياً، وبوصفها مرفأً حربياً كانت العاصمة تجلي سكانها إلى الأرباض في المساء بعد

الانتهاء من الأشغال التي قاموا بها في النهار، وقد كانت المهدية متحصنة وراء الأسوار الغليظة المحيطة بها والمطلة على البحر من ثلاث جهات ممتدة من الجنوب الشرقي إلى الشمال. وبما أن مساحة شبه الجزيرة كانت ضيقة للغاية فقد زاد إليها المهدي من البحر وبنى فوق الأراضي المردومة الجامع ودار المحاسبات وقصرين اثنين تفصل بينهما فسحة: الأول متجه نحو الغرب ويعرف باسم قصر المنارة أو قصر المهدي والثاني متجه نحو الشرق واسمه قصر القائم[٩]. كما تضم المدينة الأسواق والمباني القريبة من دار المحاسبات أما المنشآت العسكرية فقد كانت تحتل بقية شبه الجزيرة ومن بين هذه المنشآت اهتم الخليفة بشكل خاص بالسور حيث قال عند إنجازه «الآن أمنت على الفاطميات»[١٠]، ولم يقصد بذلك حماية بناته أو قريباته وإنما حماية دولته والحفاظ على قوتها وربما كان الانتهاء من بناء السور قد توافق مع الانتهاء من بناء المهدية، وتصف المصادر أهمية ذلك السور بقولها أنه كان مبنياً بستة عشر برجاً بقطعته الضخمة التي كانت تسد الواجهة البرية بستة أبراج، اثنان منها في شكل مستدير في الأطراف، وأربعة في شكل مربع، والمتعلقة أخيراً بالبابين الكبيرين المصنوعين من الحديد المحض[١١] اللذين كان يحرسان مدخل المدينة: الأول في اتجاه البر والثاني في اتجاه البحر في المكان الذي نقر فيه مرسى المدينة في الحجر الصلد. إلا أن ما ذُكر من أحداث في كتاب عيون الأخبار للداعي ادريس القرشي يسمح للمرء[١٢] بإدراك القيمة الدفاعية التي يتميز بها ذلك السور المنيع القائم مقابل اليابسة في شكل سدٍ كفيل بصد أي هجوم موجه ضد عاصمة الدولة الفاطمية.

أيضاً ومن خلال ما ورد في كتاب عيون الأخبار يمكن تحديد ثلاثة أبواب من أبواب المدينة بكل دقة وهي باب المهدية الممكن اعتباره مطابقاً للباب الضخم الذي يفتح على السقيفة الكحلة وباب الفتح الواقع في الطرف الجنوبي من البرزخ وباب أكه «أو بالأحرى بكة نسبة إلى قرية توجد في الشريط الساحلي وتبعد ميلين عن سوسة»[١٣] الواقع في الطرف الآخر من الناحية الشمالية الغربية. أما باب المهدية فهو الذي كان

يقيم حاجزاً أمام الطريق الرئيسية المؤدية إلى القيروان. ويفتح على مصلى القيد المتاخم للأرباض التي أحاطها القائم بخندق لعرقلة عمليات الجنود المغيرين وتوسيع نطاق مجال تحركات رجاله خارج السور. وقد قام البربر بلا جدوى بهجوماتهم الضارية من جهة الأبواب الثلاثة على تحصينات المدينة، ومن بينها قصر الرباط الذي تحصن فيه جنود رشيق الريحاني الصقالبة للدفاع عن الخندق[١٤].

دار الصناعة أو دارا الصناعة:

هناك مصدر هام يتمثل في سيرة جوذر يعود له الفضل بذكر دار الصناعة أو بالأحرى داري الصناعة[*] وما يتبعهما من أهراء وصهاريج ومخازن تابعة لما يسمى بخزائن البحر. ومن الجدير بالذكر أنه الوحيد الذي أشار في مجالسه إلى داري الصناعة بالمهدية. إلا أن هذه الإشارة لا تعطي الفرصة بتحديد تاريخ إنشاء كل واحدة منهما حيث اقتصر على ذكر «تضايق داري الصناعة بالمراكب وكثرتها وما زاد عنها»[١٥] في عهد المعز الذي كان مشغول البال بهذا الأمر[١٦]، ولئن كانت دار الصناعة الأولى المشار إليها في المصادر والتي هي بالضبط الدار التي يرجع إنشاؤها إلى عهد المهدي فإنه يتعذر تحديد موقع دار الصناعة الثانية بالتدقيق ويمكن افتراض وجودها اعتباراً من عهد القائم، إذ من المستبعد أن يكون المنصور الذي هجر المهدية وتحول إلى المدينة الجديدة القائمة قرب القيروان والتي يطلق عليها المنصورية، أو خليفته المعز الذي شجع على التخلي عن المهدية لفائدة العاصمة الجديدة قد فكر في إنشاء دار صناعة ثانية في العاصمة السابقة المهجورة. على أن النعمان ذاته قد ألمح إلى وجود داري صناعة بالمهدية قبل عهد المعز، فمن المحتمل جداً أن يكون القائم هو الذي أنشأ دار صناعة ثانية بالمهدية لاسيما وأنه كان يولي اهتماماً كبيراً وعناية فائقة بالحملات البحرية على المسيحيين في صقلية وجنوب إيطاليا. على أنه ليس من المستبعد أن تكون إحدى التجويفات الموجودة في طرف شبه الجزيرة من الناحية

الشرقية قد آوت دار الصناعة الثانية التي قد تكون مطابقة لدار البحر المشار إليها ثلاث مرات في رياض النفوس(١٧).

ومرة أخرى في سيرة جوذر(١٨) التي ورد فيها ذكر دار الصناعة في موضعين(١٩) اللهم إلا إذا كانت دار البحر هي دار الصناعة الأصلية التي أنشأها المهدي، ودار الصناعة الثانية المذكورة في المجالس والمسايرات هي الدار المشار إليها في سيرة جوذر والتي يوجد بقربها مسجد أراد صافي متولي خزائن البحر بالمهدية أن يخزن فيه الأزواد النافذة إليه فأثار غضب الخليفة(٢٠). ومهما يكن من أمر تجدر الإشارة إلى أهمية دار الصناعة التي أنشئت في عهد المهدي وكانت تسع مائتي مركب، وهي مجهزة برواقين مقببين طويلين وفسيحين بما فيه الكفاية لخزن المعدات البحرية، والعتاد وحوائج المراكب ولاشك أن هذين الرواقين يمثلان خزائن البحر المشار إليها في سيرة جوذر والتي أصبحت في عهد المعز غير كافية لسد حاجات الأسطول(٢١)، وهناك خزائن أخرى مجاورة لدار البحر كان يشرف عليها موظف من أصل عربي هو أحمد بن محمد الطلاس يطلق عليه اسم متولي خزائن البحر كانت مهمته توفير مواد صناعة السفن كالأخشاب اللازمة لصناعة الصواري والقرايا وغيرها من المواد ومن الجدير بالذكر أن أحمد هذا قد ظهر من خلال سيرة جوذر مشغول البال مثل زميله صافي بضيق خزائنه التي أصبحت غير كافية لخزن ما يحتاج إلى خزنه من حوائج المراكب(٢٢)، وقد كان دخول دار البحر ممنوعاً باعتبارها منشأة حربية على رأسها جوذر ثم خليفته نصير العامل على المهدية وكانت هذه المؤسسة تؤوي بلاشك بالإضافة إلى المساجين(٢٣) الأسلحة والذخيرة المعدة للأسطول. ولم يكن مرخصاً دخولها لأي شخص ما عدا نصير وقد ظهر المعز من خلال سيرة جوذر حريصاً على منع دخول دار البحر حتى على متولي خزائن البحر ذاته فقد كتب إلى جوذر ما يلي: « دع الدار في يدك على ما هي عليه ولا يكن لهذا « أي ابن الطلاس» ولا غيره يد فيها ولا رجل»(٢٤) وقد كانت كل من دار الصناعة المخصصة لصنع معدات

الأسطول وخزنها، ودار البحر عبارة عن أماكن واسعة معدة لصنع السفن التجارية والحربية على حد سواء كما كانت أكثر إنتاجاً للسفن من دار الصناعة بتونس(٢٥). هذا وعندما أصبح مرسى المهدية يغص بالسفن في عصر المعز لدين الله لم يتردد في إنشاء دار جديدة للصناعة وقاعدة للأساطيل في مدينة سوسة(٢٦)، ويذكر البكري أن مدينة مرسى الخزر الواقعة إلى الشرق من بونة (عنابة) أُنشئت بها دار صناعة لصناعة المراكب الحربية التي يغزى منها إلى بلاد الروم(٢٧)، كما أُنشئت دار لصناعة السفن بصقلية في مدينة الخالصة عام ٣٢٥هـ ./٩٣٧ م حيث اختط الوالي الفاطمي خليل ابن اسحاق مدينة الخالصة وحصنها في ظاهر بلرم على غرار المهدية عاصمة الفاطميين بأفريقية فأصبحت مقراً للوالي والدواوين وحامية المدينة ودار صناعة لإنشاء السفن والمراكب الحربية(٢٨).

ولربما أُنشئت دار الصناعة هذه بسبب توفر الأخشاب في صقلية لبناء السفن أيضاً من أجل رفد الأسطول الفاطمي والانضمام إليه في المعارك ضد الأعداء بل تقوم سفن دار الصناعة هذه برد أي هجوم أو اعتداء على صقلية ريثما تأتي قطع الأسطول من المغرب إلى صقلية كما تعتبر هذه القاعدة بمثابة حامية عسكرية بحرية تعمل على الحفاظ على السيطرة الفاطمية على صقلية والجنوب الإيطالي. أما بالنسبة لبناء قطع الأسطول فلم تكن الدولة الفاطمية تفتقر إلى المواد الخام الضرورية لصناعة الأساطيل، فقد كانت هذه المواد تتوفر بكثرة في بلاد المغرب وفي صقلية كالخشب الذي تصنع منه ألواح السفن والصواري والقرايا والمجاذيف والسلالم، ومثل معدن الحديد اللازم لصناعة المسامير والمراسي والروابط والخطاطيف أو الكلاليب والعرادات والسلاسل، ومثل الألياف اللازمة لعمل حبال المراسي والقطران والزفت اللذين يحتاج إليهما لقلفطة السفن حتى تقاوم أخشابها مياه البحر، والنفط الذي يصنع منه القطران والكبريت ويستخدم كسلاح من أسلحة الأسطول.

فبالنسبة للخشب كان يجلب في المغرب من أودية بجاية وجبالها(٢٩) ومن جزيرة قوصرة(٣٠)، ومع ذلك لم تكن أخشاب المغرب تفي بالغرض بسبب أن البلاد لم تكن قادرة على إنتاجه بكميات كبيرة وكافية، بالإضافة إلى أن نوعية هذا الخشب تعد غير صلبة وقوية، لذلك اتجهت أنظار الفاطميين إلى استيراد الأخشاب من صقلية(٣١). ذلك أن الاستعمار الزراعي بصقلية في العهد الإسلامي لم يكن فعلياً خلال القرن الخامس الهجري إلا في النصف الغربي من الجزيرة، أي من وادي مازرة إلى حدود وادي سالسو وقد استمر المسيحيون في الخضوع للنظام الخاص بالذميين فكانوا يدفعون الجزية والخراج للموظفين على الأراضي التي كانوا ينتفعون بغلاتها. أما الأراضي الجبلية الواقعة في الجنوب الشرقي أو وادي نوتو والشمال الشرقي أو وادي ديمون فلم يشملها الإعمار الزراعي على الرغم من احتلال طبرمين في عهد إبراهيم الثاني والغارات المتعددة التي تتابعت طوال ما يناهز الأربعين سنة بإذن من العمال الفاطميين، لاسيما منهم عمال بني الكلبي اعتباراً من عهد المنصور، وكان فتح طبرمين ورمطة من جديد يمثل المحاولة الأخيرة التي قام بها المسلمون لإخضاع القسم الشرقي من الجزيرة وحصونها المنيعة(٣٢)، ويبدو أن المسلمين قد أقاموا هناك نظام سخرة بأتم معنى الكلمة متمثلاً في الاستعانة بأهل طبرمين ورمطة في استقطاع العود لخبرتهم في هذه الصنعة، حيث كان يُورَّد الخشب المعد لدور الصناعة(٣٣). أي أن أهل الذمة من النصارى كانوا مجبرين في العصر الفاطمي على قطع الخشب أو العود كما جاء ذلك في سيرة جوذر(٣٤)، وكانوا بلاشك نجَّارين مهرة مختصين في قطع الشجر وإعداد الخشب لنقله إلى المكان المخصص لشحنه ومما يزيد من قساوة هذه الأشغال أنها كانت إجبارية ولا تَدرُّ على أصحابها أي ربح مادي، فكان ذلك مما يحملهم على النزوح إلى الأراضي التابعة للسلطة البيزنطية وقد كانت هذه الهجرة تشغل بال عامل الجزيرة أحمد بن الحسن الكلبي الذي اشتكى من ذلك للمعز فوجَّه إليه الخليفة تعليمات أوصاه فيها بالحزم « وأكد عليه في أن يبذل في أمره مجهوداً حتى

ييسر الله منه العسيرة بلطفه وجميل صنعه»[٣٥]. وتدل العبارات اللاذعة التي وصف بها المعز النجارين دلالة على ما يشعر به من حيرة، ذلك أن الدولة كانت في حاجة ماسة إلى الخشب لبناء أسطول قوي لتحقيق مطامحها وحماية دولتها. أيضاً كان الخشب يستقطع من مدينة جفلوذ بصقلية التي تشتهر بتوافر أنضر أجناس العود اللازمة لصناعة السفن[٣٦]، كما كان يجلب من جبال شنت ماركو بجزيرة صقلية نفسها[٣٧].

وفي بعض الأحيان كانت الكميات التي توفرها صقلية لدار الصناعة غير كافية، مما اضطر جوذر إلى إعطاء الأعواد التي في مخزنه لإتمام «الأطراف التي كمالها بالصواري والقرايا وما أشبه ذلك»[٣٨]، أما الحديد فكان يستخرج في صقلية من مسيني وبلرم ويصرف ما يستثار منه لصناعة السفن[٣٩]، بينما كان يستخرج في أفريقية من بونة[٤٠] ومجانة[٤١] وبلاد كتامة[٤٢] والأربس[٤٣] وبجاية[٤٤]، وكان الزفت والقطران البالغ الجودة يجلب من أقاليم بجاية[٤٥] ومن جزيرة قوصرة[٤٦] في المغرب ومن لياج[٤٧] Aci بصقلية، بينما كانت حبال السفن تصنع من نبات يقال له البربير يشبه البردي، كان ينبت، بكثرة في بلرم فكان يفتل حبالاً لمراسي السفن[٤٨].

هذا فيما يتعلق بالمواد الخام الضرورية لبناء السفن والمراكب الحربية، من جهة ثانية سعت الدولة الفاطمية للسيطرة على الجزر المتوسطية المواجهة للسواحل الأفريقية لحماية المدن والثغور الأفريقية الفاطمية وعلى رأس هذه الجزر صقلية، وسردينية ثم قرشقة ومالطة وغيرها من الجزر العديدة الصغيرة التي كانت تحرس وتحمي السواحل وتشكل نقاط إنذار سريعة ومتقدمة تدفع عنها عامل المفاجآت، كما عملت هذه الجزر على تدعيم الجهود الملاحية والبحرية الفاطمية، ومنحتها فرص النصر وقوة السيطرة على غرب البحر المتوسط وجنوبه والتأثير في أحداثه[٤٩]. هذا وتعتبر كل من جزيرتي صقلية وسردينية من أهم الجزر البحرية بالنسبة للفاطميين، فبالنسبة لجزيرة سردينية استقرت بها أقدام المسلمين منذ عهد عبيد الله المهدي وهو الذي تنبَّه

إلى أهميتها من منطلق أنها أصلح القواعد لمهاجمة الغرب النصراني، فأنشأ فيها مراكز قوية ونقل إليها قوات كبيرة من المسلمين. وقام منها بأخطر هجوم إسلامي عرفته جنوا سنة ٩٤٣-٩٤٤م، وربما كان سر اهتمامه بسردينية هو خوفه من الأندلسيين ورغبته في حماية شواطئه وشواطئ صقلية منهم(٥٠). من جهة ثانية لطالما عُدَّت صقلية ثغراً من ثغور المسلمين على حدود الروم والفرنجة، فبحكم موقعها بين الساحل التونسي من الجهة الجنوبية الغربية والساحل الجنوبي من شبه جزيرة قلورية كانت لها أهميتها في حسم التفوق البحري، أي أن صقلية تُعدُّ كمفتاحٍ بحريٍ عظيمٍ القيمة عَرِفَ المسلمون كيف يهددون منه إيطاليا، ويسودون البحر التيراني كله ويفتحون أجزاء من إيطاليا. وكما ورث الفاطميون الأسطول عن الأغالبة ورثوا جزيرة صقلية والتوجه الجهادي إليها لحماية المصالح العربية الإسلامية في الجنوبي الإيطالي(٥١) وحماية دولتهم ضد غارات الروم على الساحل الأفريقي وبلاد المغرب من ناحية أخرى. وما أن هدأت واستقرت أحوال أبي عبد الله الداعي في المغرب حتى وجَّه كتبه إلى الأقاليم يدعوها إلى طاعته، ومن ضمنها كتابه إلى أهالي صقلية حيث قال فيه: «وأنتم معشر أهل جزيرة صقلية، أحق بما أوليته من المعروف والإحسان، وأسديته وأولى به وأقرب إليه، لقرب داركم من دار المشركين وجهادكم الكفرة الظالمين، وسوف أملأ إنشاء الله جزيرتكم خيلاً ورجالاً من المؤمنين الذين يجاهدون في الله حق جهاده، فينصر الله الدين والمسلمين، ويذل بهم الشرك والمشركين»(٥٢). ومنه يبدو واضحاً الوعد بإصلاح شؤون الجزيرة وتحصينها وشحنها بالمجاهدين والعتاد لتستمر حركة المرابطة والجهاد لنشر الإسلام وحضارته في مراكز النفوذ البيزنطي في جنوبي إيطاليا*. وما أن بويع عبد الله المهدي بالخلافة حتى أقدم على تعيين أحمد بن خنزير والياً على صقلية وتلا القاضي إسحاق بن أبي المنهال اسم المهدي في الخطبة في بلرم، وبذلك توطد الحكم الفاطمي في صقلية عملياً ونظرياً. وفي سنة ٢٩٨هـ -٩١١ م قاد ابن أبي خنزير حملة في إقليم دمنش وفي السنة التالية

قامت ثورة عليه، ولعله كان لها أسباب طائفية، فاصدر المهدي عفواً عن الثائرين ووافق على تنحية ابن أبي خنزير وولّى على صقلية علي بن عمر البلوي (٢٩٩-٣٠٠هـ ./٩١١-٩١٢م)[٥٣]، وربما أنف المسلمون العرب أن يحكمهم رجل من المغاربة البربر، بالإضافة إلى أخذه بالمذهب الاسماعيلي، وطرحه لمذهبهم المالكي، فرمى بالاستبداد وسوء السيرة واجتمع سكان الجزيرة على اختيار أحمد بن زياد بن قرهب « أو قرعب» زعيماً لهم وأميراً على صقلية، حيث تلى الخطبة باسم الخليفة العباسي المقتدر«٢٩٦-٣٢٠هـ .،٩٠٨-٩٣٢م» الذي بعث إليه كتاباً بالولاية يضفي الشرعية على إمارته، وفي سنة ٣٠٢هـ ./٩١٤م هزمت قوة بحرية تابعة لابن قرهب أسطولاً فاطمياً قرب ساحل أفريقية ذاته، كما قام في سنة ٩٠٤هـ ./٩١٦م بإرسال حملة إلى البر الإيطالي. من جهة ثانية قام البربر في جرجنت بثورة ضده لم تلبث أن امتدت إلى أجزاء أخرى من الجزيرة واستصرخ الثائرون المهدي الفاطمي وأُسِر ابن قرهب وأرسل إلى المهدي[٥٤]، وبالمقابل ولّى المهدي على صقلية أبا سعيد موسى بن أحمد الضيف وسَيَّر معه جماعة من شيوخ كتامة الذين يرجع إليهم الفضل في تولي الفاطميين الحكم، كما تمكنوا من السيطرة على بلرم وجرجنت وبقية أنحاء الجزيرة سيطرة تامة، وبعد أن دخل أبو سعيد بلرم في سنة ٣٠٥هـ ./٩١٧م ألقي القبض على زعماء الثورة وأرسلوا إلى المهدية عاصمة الفاطميين وتم بذلك القضاء على استقلال صقلية الإسلامية وهو الاستقلال الذي بدا حقيقياً، في عهد ابن قرهب، وتوطدت سيادة الفاطميين على الجزيرة. ولما فرغ أبو سعيد من مهمته عاد إلى أفريقية تاركاً الجزيرة في يدي الوالي الجديد سالم بن راشد «٣١٣-٣٢٥هـ ./٩٢٥-٩٣٦م»[٥٥]، وفي هذه الأثناء توفي المهدي عبيد الله وخلفه ابنه أبو القاسم محمد القائم (٣٢٣-٣٣٥هـ .)، وكانت سياسة الفاطميين في هذه الفترة تقوم على استغلال الظروف وعلى التسامح وقد استمرت الدعاية الإسماعيلية ولكن بدبلوماسية كبيرة، وتُركت معظم المدن المسيحية وشأنها. ومن الناحية الإدارية أُنشئ ديوانان أحدهما يتناول شؤون الحرب والأمن

والنظام، ويتناول الديوان الثاني بقية مجالات الإدارة والسلطة الداخلية(٥٦). وفي سنة ٣٢٦هـ ./٩٣٧م قامت ثورة في جرجنت، تلتها ثورة في بلرم وانتفاضات في سائر أنحاء الجزيرة، وكتب وجوه بلرم إلى القائم في المهدية يؤكدون ولاءهم له، إلا أنه لم يعد في وسعهم احتمال طغيان الوالي سالم بن راشد فقبل القائم التماسهم واستبدل سالم بوالٍ آخر هو خليل بن إسحاق الذي اختط مدينة الخالصة الحصينة على مقربة من بلرم على غرار المهدية عاصمة الفاطميين(٥٧). وفي سنة ٣٢٧هـ ./٩٣٨م تحول خليل إلى جرجنت وحاصرها ثمانية شهور دون جدوى. ولما فرض ضرائب جديدة حذت المستوطنات الإسلامية في مازر حذو جرجنت وشقت عصا الطاعة. وتفيد إحدى الروايات أن الثائرين كاتبوا ملك الروم في القسطنطينية يستنجدونه فأمدهم بالمراكب فيها الرجال والطعام(٥٨). وفي سنة ٣٢٨هـ ./٩٣٩م تمكن خليل من احتلال مازر، وأجبر جرجنت على الرضوخ في السنة التالية، ومرة أخرى سادت سلطة الفاطميين أرجاء الجزيرة. وبعد أن أنجز خليل مهمته عاد إلى أفريقية في العام التالي وترك في بلرم متوليين أحدهما ابن الكوفي والآخر ابن عطاف دون أن يحمل أيٌّ منهما لقب والي. من جهة ثانية كان للثورة الخارجية التي تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيداد (٣٣٢-٣٣٦هـ ،.٩٤٣-٩٤٧م) صداها غير المباشر في صقلية حيث رفضت عدة مدن دفع الجزية أو الضرائب(٥٩). وبعد هزيمة أبي يزيد والانتصار النهائي للفاطميين في أفريقية* استعمل الخليفة المنصور «٣٣٥-٣٤٢هـ ./٩٤٦-٩٥٣م» الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي على جزيرة صقلية لمعالجة هذا الوضع وقد أدت ولايته إلى تأسيس أسرة شبه مستقلة من أمراء الكلبيين حكمت الجزيرة أكثر من تسعين عاماً(٦٠). وبعد أن سيطر على الوضع في الجزيرة غزا البر الإيطالي مرتين في سنة ٣٣٩-٩٥٠م، و٣٤١/٩٥٢م، وعند وفاة الخليفة المنصور واعتلاء ابنه المعز لدين الله العرش (٣٤١-٣٦٥هـ ./٩٥٢-٩٧٥م) توجه الحسن إلى المهدية للمثول في البلاط الفاطمي، تاركاً ولاية صقلية في يدي ابنه أحمد بن الحسن. وفي سنة ٣٤٤هـ ./٩٥٦م

سيَّر المعزُّ الحسنَ بن علي إلى الأندلس على وحدة من أسطول صقلية، فوصل ألمرية وأحرق ما في القاعدة البحرية الأموية من مراكب، وفي سنة ٣٤٦هـ ./٩٥٨م شارك الحسن أخاه في حملته الإيطالية، وفي سنة ٣٥٢هـ ./٩٦٣ تمكن أحمد بن الحسن من أن يُخضِع نهائياً المنطقة الجبلية الواقعة جنوبي مسينة، حيث كانت عدةُ مدنٍ مسيحيةٍ قد احتفظت بشيء من الاستقلال، وأُجبرت هذه المدن على دفع الجزية وأُقيمت مستوطنات عربية في وسطها، وفي أثناء هذه العمليات الحربية تحول أحمد يعاونه ابن عمه الحسن بن عمار إلى محاصرة طبرمين، وهي من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين، وكانت قد ثارت على العرب، فكانت مدة الحصار سبعة أشهر ونصف إلى أن استسلم الحصن في ذي القعدة ٣٥١هـ ./ ديسمبر ٩٦٢م، وقد أُجبر السكان على التخلي عن ممتلكاتهم إلا أنهم أمنوا على أنفسهم وأصبح الكثيرون منهم رقيقاً للمسلمين وأُسكن الحصن نفرٌ من المسلمين وسمي الحصن المعزية نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي(٦١). أيضاً تمكن الأمير أحمد من استعادة رمطة بعد أن كانت قد خرجت عن طاعة والي صقلية وطلبت النجدة من الإمبراطور البيزنطي نقفور فوكاس فأرسل إليها نجدة تقدر بأربعين ألفاً بقيادة البطريق نيقيتاس وإلى جانبه مانويل، ابن أخي الإمبراطور، وبالمقابل تلقى أحمد قوة فاطمية من المهدية بقيادة والده الحسن الكلبي واستلم قيادة القوات الفاطمية التي تولت مهاجمة رمطة وحصارها بقيادة الحسن بن عمار وحدثت المعركة بين الطّرفين وهوجمت رمطة وفُتحت سنة٣٥٣هـ ./٩٦٤م(٦٢)، واستثمر المسلمون هذا النصر فلاحقوا القوات البيزنطية التي تجمعت من جيش مانويل آخذة معها من وجدته من روم صقلية وغيرهم لمواجهة المسلمين وتحصنت في البحر انتظاراً للحظة الحاسمة وما سيتم تقريره. وكان الفريقان يعلمان أن القتال بينهما لم ينته بعد وكانا يستعدان للملحمة الكبرى الحاسمة ويعدان لها العدة ويعلمان أن نتيجتها ستكون إما خسارة صقلية وجنوب إيطاليا نهائياً وانقطاع أمل الروم بصفة نهائية هناك أو تقلص ظل المسلمين وانهيار سلطانهم نهائياً في البلاد الأوروبية

وجزيرة صقلية. لهذا سارع الأمير أحمد وزحف لقتال هذا التجمع في البحر ودارت معركة بحرية أظهر فيها المسلمون كفاءة عالية في القتال البحري حيث نزل بعض الغطاسة ونقبوا السفن المعادية فغرق معظمها وقتل الكثير من رجالها، ولم يكن أمام الروم إلا الانسحاب والاعتراف بالهزيمة التي عرفت باسم وقعة المجاز، التي جرت في مضيق مسينا سنة ٣٥٤هـ ./٩٦٥م. كما لم يكن أمام المدن الإيطالية إلا طلب الهدنة من جديد سنة ٣٥٤هـ ./٩٦٥م، وتم لهم ذلك مقابل دفع الأموال والفدية المتفق عليها[٦٣]. أيضاً كان لهذه المعركة أهمية كبيرة تأتي من منطلق أنها تعد من المعارك الحاسمة في تاريخ البحر المتوسط، فقد قررت مصير جزء هام من الحوض الغربي للبحر المتوسط لمدة تزيد عن قرن كامل وذلك لصالح الفاطميين، أيضاً كان يمكن أن تصبح عنصر ضغط لتغيير تدريجي في الهوية الحضارية لشبه جزيرة إيطاليا وما جاورها لولا تجميد الوضع في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي والمرتبط برحيل الفاطميين إلى مصر سنة ٣٥٨هـ ./٩٦٩م وظهور قوى بحرية منافسة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي. وهي قوة النورمان ثم قوة الجمهوريات الإيطالية وأهمها البندقية، الذين أعادوا للبحر المتوسط طابعه اللاتيني والفرنجي. وما ينبغي التركيز عليه هنا أن ما جرى في موقعة المجاز بعد منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي كان محطة أخيرة سبقتها جهود ترجمت إستراتيجية الدولة الفاطمية، في الحوض الغربي من خلال عمليات إكمال السيطرة على صقلية وبعض المناطق الجنوبية في إيطاليا كما ورد ذكره من قبل. من جهة ثانية كان لمعركة المجاز نتائج كثيرة منها:

١- انسحاب الروم من قلورية (كلابريا) وانكبرده ومجالهما البحري بعد الهزيمة الماحقة التي حلت بهم وبحلفائهم.

٢- استقرار أوضاع صقلية وقلورية لمدة طويلة في إطار التبعية السياسية للفاطميين وولاتهم الكلبيين والتي تجسدت في استمرار السكان المسيحيين في قلورية وانكبرده بدفع الجزية نظير احتفاظهم بدينهم(٦٤).

٣- قبل مغادرة القوات الفاطمية رمطة تركوا فيها حامية من أجل حمايتها وإعمارها لمنع الروم والنصارى من العودة إليها، كما فعلوا في طبرمين، ومن الممكن أن يكون الإقدام على هذا العمل يهدف إلى محاولة إزاحة البقية المتبقية من المسيحيين في صقلية وإنشاء مستعمرات إسلامية مكانها بهدف نشر الإسلام فيها، وهذا ما يتفق مع سياسة المعز الدينية في نشر الإسلام والمذهب الإسماعيلي(٦٥).

٤- أجبر هذا الانتصار الإمبراطور نقفور فوكاس على طلب الصلح حيث عقد مع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة ٣٥٦هـ ./٩٦٦م اتفاقاً دفع بموجبه الجزية وذلك بعد سفارة حملت الهدايا النفيسة التي شملت بعض الأواني الذهبية المرصعة بالجوهر وأبلغت الخليفة المعز رغبة الإمبراطور في عقد الهدنة بشروط الهدنة الأخيرة المتضمنة وقف القتال ودفع الجزية وإطلاق سراح مجموعة من أسرى المسلمين(٦٦).

٥- ظهور البحرية الفاطمية كقوة كبرى مسيطرة على جزء من غربي البحر المتوسط طيلة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بحيث لم تستطع قوى الغرب المسيحية تغيير هذا الوضع قبل نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي.

٦- إن انتصار الفاطميين بمعركة المجاز يعني أنهم أصبحوا يتحكمون في مضيق مسينة فحالوا بذلك دون دخول مراكب البيزنطيين عبر هذا المضيق إلى غربي البحر المتوسط، مما أدى إلى زوال الخطر البيزنطي الذي كان كثيراً ما يحد من النشاط التجاري فيه عندما كانت بيزنطة تستخدم أسلوب السلبية التجارية عن طريق

سيطرتها على المتوسط والتحكم في مفاتيحه لأطماعها ومكاسبها الخاصة ضاربة بمصالح الدول الأخرى عرض الحائط(٦٧).

٧- كان من آثار هذا التحول الجديد في القوى توسع تجارة الشمال الأفريقي مع مصر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وتوافد كثير من المغاربة وعرب أفريقية إلى مصر واستقرارهم في الإسكندرية، وهؤلاء شغلوا دوراً مهماً في مساعدة الحملات الفاطمية على مصر بدءاً من الحملة الأولى حتى حملة جوهر الصقلي الأخيرة(٦٨).

٨- هذه السيادة العربية على غربي البحر المتوسط أدت إلى رخاء اقتصادي واضح ساد كافة بلاد المغرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي حيث يُلاحَظ أن تونس والقيروان ورقادة وغيرها من المدن المغربية المهمة زراعياً وصناعياً وتجارياً زادت خيراتها وثرواتها، وربما تضاعفت زمن الفاطميين على الرغم من فداحة الضرائب التي فرضها هؤلاء عليهم بهدف تحقيق مشروعهم التوسعي (أطماعهم التوسعية) وما استهلكه من أموال طائلة وخير مثال على ذلك الثروة الهائلة التي أنفقها المعز لدين الله على حملته التي كُلِّفت بفتح مصر والتي بلغت حصيلة ما جمعوه لها حوالي ٢٤ مليون دينار ذهبي وهو مبلغ مهم وكبير ويقدم البرهان الأكيد على التقدم الاقتصادي المتحصل من التجارة والصناعة في الداخل والخارج(٦٩).

- إن حدوث هذه المعركة أدى إلى استقرار الأمور في صقلية وجنوب إيطاليا مما أدى إلى شعور الخليفة المعز بالاطمئنان على أملاكه في صقلية والمغرب ودفعه للتفكير من أجل إعداد الحملة للانتقال إلى مصر حلم الفاطميين.

أمام هذه النتائج البالغة الأهمية والمتعددة الفوائد ألا يحق للمرء أن يتساءل:

لماذا لم يستغل الفاطميون هذا النصر في متابعة الروم وتصفية نفوذهم من قاعدتهم في باري على خليج البنادقة (الأدرياتيكي)؟

ولماذا لم يواصل الفاطميون زحفهم على الساحل الإيطالي لاحتواء إقليم انكبرده كله، خاصة وأن كبرى مدن نابلي كانت محالفة للمسلمين وربما كان يمكن اقتحام روما أيضاً مثلما حصل من قبل في أيام الأغالبة؟ ولماذا لم يكن هناك أي تنسيق بين القوتين البحريتين الإسلاميتين في حوض البحر المتوسط أي الفاطمية في المغرب من جهة والأموية في الأندلس في عهد الناصر من جهة أخرى، لتضييق الخناق على قوى الغرب هذا إذا تعذر تغيير هويته الدينية والحضارية؟

إن الاكتفاء بهذا النصر وبهذه النتائج الآنية والمحدودة وتجميد الوضع والعودة إلى ساحات المغرب الإسلامي يقتضي وقفة لتوضيح سياسة الفاطميين واستراتيجيتهم تجاه بلاد المغرب وملحقاته في أوروبا، وهي سياسة تنبع أساساً من إستراتيجية الحركة الإسماعيلية ذات الأصول المشرقية. وهذا بدأ منذ عهد مؤسسة الدولة الفاطمية عبد الله المهدي إلى أن وصل إلى مرحلة الحسم والتصفية في عهد المعز لدين الله. وتبعاً لما سلف فإن المعز لدين الله لم يضع بين أهدافه الاستقرار في بلاد المغرب* ومواصلة التوسع في غرب أوروبة بقدر ما كان منشغلاً بمصير حملته الكبرى والأخيرة على مصر(٧٠) بوابة المشرق الإسلامي والمركز العباسي المتقدم.

فالاستقرار في مصر كان هدفاً رئيسياً للحركة الإسماعيلية من حيث أنه طريق بلاد الشام التي هي طريقٌ إلى بلاد العراق مركز الخلافة العباسية، وكان مشروع الإسماعيلية مواصلة اقتطاع أطراف الخلافة العباسية في الشرق وتنشيط النضال السياسي والمذهبي ضدها حتى إسقاطها وإعلان مبدأ وحدة العالم الإسلامي كله تحت راية الخلافة الفاطمية، ومن أجل التفرغ لتحقيق مشروعه هذا أشاع المعز لدين الله جو التهدئة في الجبهة الغربية مع الروم، بحيث استقبل سفارتهم في المنصورية وقَبِلَ هدية

الإمبراطور نقفور فوكاس ووافق على مبدأ الهدنة التي عرضها الروم، مما يعني تجميد النشاط البحري ضدهم، كما سحب أحمد الكلبي من صقلية تحت ستار الحاجة إليه لرئاسة الأسطول، وعيَّن أخاه أبا القاسم وأَمَره بتحصين المدن وتجميع الجاليات الإسلامية فيها بدل تركهم متفرقين في القرى المتناثرة. كما أَمَر في سنة ٣٥٨هـ ./٩٦٩م بإخلاء رمطة وطبرمين من جالياتهما الإسلامية تأكيداً لنواياه السلمية المصانعة للروم وذلك حتى يتفرغ للتوجه للمشرق. وفي هذه السنة نفسها انطلقت أكبر وآخر حملة فاطمية ضد مصر بقيادة جوهر الصقلي وقد ربط النويري "في نهاية الأرب" بين الأحداث ورَصَد مشاعر المسلمين تجاه تصرفات المعز لدين الله فقال: (وفي سنة ٣٥٨هـ ./٩٦٩م وصلت هدية ملك القسطنطينية، فأمر المعز لدين الله بإخلاء طبرمين ورمطة، فاغتم المسلمون لذلك)[٧١].

ومما يؤكد استراتيجية الفاطميين ونظرتهم إلى بلاد المغرب وملحقاته أن المعز عندما غادر المنطقة نهائياً إلى مصر وترك نيابة المغرب بيد الزيريين لم تكن صقلية ضمن نفوذهم بل أبقاها تابعة له مباشرة في القاهرة تحت النفوذ الشكلي لولاتها الكلبيين[٧٢] ليستخدمها في الضغط على الروم في الجبهة الشرقية. هذا وعندما أخذ البيزنطيون يركزون هجماتهم على جزية اقريطش (كريت) سنة ٣٥٠هـ ./٩٦١م في عهد الإمبراطور رومانوس الثاني (٣٤٨-٣٥٢هـ .) الذي نجح في تكوين أسطول ضخم وجَّهه لفتح هذه الجزيرة، واضطر عبد العزيز بن شعيب[٧٣] صاحب اقريطش إلى استصراخ ملوك الإسلام أمثال أبو الحسن علي الأخشيد والخليفة الفاطمي المعز لدين الله، لم يتردد المعز الفاطمي في بذل جميع إمكانياته لاستنقاذ جزيرة اقريطش، وكتب إلى أبي الحسن علي الإخشيد رسالة يحثه فيها على الجهاد وإمداد أهل اقرطيش بالمراكب لقربهم منه واتصالهم به، وعمد في هذه الرسالة إلى إزالة مخاوفه من أسطوله الفاطمي على سفنه وأعطاه المواثيق والعهود[٧٤]، ولكن يبدو أن محاولة المعز استنقاذ اقريطش أخفقت بسبب تقاعس الأخشيدين عن إنفاذ سفنهم إلى مرسى طبنة من

أرض برقة[٧٥] بالإضافة إلى عدول المعز عن إقحام أساطيله في معركة غير متكافئة قد تعود عليه بالهزيمة وتدمير الأسطول الذي أعده لغزو مصر، فقد كان عليه أن يواجه أسطولاً بيزنطياً هائلاً[٧٦]. لذلك اكتفى المعز بأن وجه إلى الإمبراطور البيزنطي رسالة تتضمن معاني التهديد بالحرب إذا هاجم إقريطش[٧٧]. من جهة ثانية أظهر بتصرفه هذا أن العباسيين وولاتَهم عاجزون عن حماية رعاياهم ومهملون لفريضة الجهاد ضد الروم البيزنطيين أعداء الإسلام التقليدين وأنه من دواعي التوجه إلى مصر فيما بعد واحتلالها إنما هو حماية المسلمين وتوحيد العالم الإسلامي تحت سيادة الخلافة الفاطمية. وعوضاً عن سياسة التصالح مع الأمويين في الأندلس للتنسيق ضد القوى المسيحية في الحوض الغربي من المتوسط قام الفاطميون بالتحرش بالأمويين في الأندلس، ولم يكتفوا بالنشاط الفكري ومؤازرة الثوار على الحكم الأموي إنما تجاوزوا ذلك إلى غزو الأملاك الأموية في الأندلس سنة ٣٣٩هـ ./٩٥٠م وتكرر هذا الغزو في سنة ٣٤٤هـ ./٩٥٥م. عندما قام الأسطول الفاطمي من صقلية في عهد المعز لدين الله وغزا ميناء المرية الواقع في جنوب شرق الأندلس فأحرقوا مراكبه والمخازن الخاصة بالسفن وما فيها من معدات بحرية من الصواري والعدد ونهبوا جميع ذخائرها. ثم عاد الأسطول الفاطمي محملاً بالغنائم إلى المهدية[٧٨]. ومعلوم أن الأمويين ردوا على المشروع الفاطمي بإجراءات سريعة وفعالة ومن ضمنها التعاون مع الأعداء البيزنطيين[٧٩]، الأمر الذي عمق الخلاف بين الدولتين في غرب العالم الإسلامي، وقاد إلى إلحاق الضرر الكبير بالمصالح العليا العربية الإسلامية وأدى إلى عدم تمكّن البحرية الأندلسية والفاطمية من أن تقيما تعاوناً واحداً ضد بيزنطة في البحر المتوسط.

أمير البحر:

كان للأسطول قائد ورؤساء مراكب وأُطلِق على قائد الأسطول لقب أمير البحر وكان المضطلع بهذه المهمة في عهد المعز لدين الله يسمى صاحب البحر أو متولي البحر،

وكان يرجع إليه بالنظر جميع القواد المشرفين على وحدات الأسطول وكان هو ذاته تحت إمرة جوذر ثم خليفته نصير الخادم الذي كان يمسك بجميع السلطات المدنية والعسكرية في المهدية(٨٠)، وكان المتقلد لهذه الخطة في عهد المعز لدين الله قائد من أصل عربي اسمه حسين بن يعقوب، تربَّى في الميدان البحري تحت إشراف والده يعقوب بن إسحاق شقيق خليل بن إسحاق قائد الأسطول الفاطمي في عهد المهدي، وأصله من جند طرابلس كان قد دخل في خدمة الفاطميين في نفس الوقت هو وأخوه خليل وهو من سلالة بني تميم، وكان أول من تقلد خطة صاحب البحر في المهدية، وقد قاد الأسطول الذي شارك في الحملة الثانية على مصر بقيادة ولي العهد أبي القاسم الملقب فيما بعد بالقائم، وأثناء الحملة الأولى كان من بين القواد التابعين لهيئة أركان أبي القاسم الذي كلفه قبل رجوعه إلى المغرب بجمع خراج الفيوم، وأثناء الحملة الثانية التي قاد فيها الأسطول الفاطمي انتصر عليه خصمه ثمل الخادم(٨١) قائد أسطول طرسوس، فتم تدمير ذلك الأسطول في رشيد وألقي القبض على يعقوب ونائبه سليمان الخادم وسِيقَ الأسيران إلى بغداد حيث أُودِعَ يعقوبُ السجن في حين قُتِلَ صاحبُه سليمان، وقد دام اعتقاله زهاء الخمس عشرة سنة تمكَّن بعدها من الهرب والعودة إلى المهدية، حيث استأنف مهامه التي كان يضطلع بها في عهد المهدي وبداية عهد القائم. ومن الممكن أنه توفي خلال السنوات الأخيرة من عهد الخليفة المنصور، لأنه لم يعثر له على أثر بعد مساهمته في المعركة التي دارت رحاها في سوسة ضد أبي يزيد مخلد(٨٢)، وفي الوقت الذي كان فيه ابنه حسين (حسين بن يعقوب) يتقلد منصب صاحب البحر بالمهدية تحت إمرة جوذر كانت قيادة الأسطول قد آلت إلى قواد ينتمون إلى أسرة بني الكلبي الذين أهَّلتهم خدمات رئيسهم الحسن بن علي أثناء قمع ثورة الخوارج لنيل ثقة المنصور وخليفته المعز لدين الله، ولكن يبدو أن حسين بن يعقوب قد تقاسم سلطاته مع الأمير الكلبي أحمد بن الحسن، فكان الأول يتولى قيادة الأسطول الراسي في أفريقية وعلى وجه التحديد المهدية، في حين كان الثاني يمسك بجميع

السلطات المدنية والعسكرية في صقلية ويضطلع في الآن ذاته بمهام قائد الأسطول الصقلي[٨٣]. وباستثناء بني الكلبي وبن أبي سعيد الضيف ويعقوب بن إسحاق وابنه حسين لا يجد المرء في خدمة الفاطميين أي أمير بحر من أصل عربي، حيث ساهم عدد كبير من الصقالبة بقيادة الأساطيل الموجهة ضد بلاد الروم أمثال جعفر بن عبيد وسليمان ومسعود وصابر، وتمكنوا من تحقيق سيطرة الأسطول الفاطمي في الحوض الغربي من البحر المتوسط[٨٤]. هذا ولم تقتصر مهمة أمير البحر على قيادة الأسطول، بل كان عليه أن يتدبر أمر المقاتلة وإعدادهم وتدريبهم والإشراف على شؤونهم ورواتبهم[٨٥]. كما كان عليه أن يتفقد المراكب ويطمئن على آلاتها ويصلح التالف منها ويزودها بالمؤن والعتاد، ويتميز القواد والرؤساء بالمعرفة بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الريح وتغيرات الأنواء والتيارات البحرية في حالتي المد والجزر، وكان من واجب أمير البحر وقت الحرب أن يبعث بالعيون لتفقد حالة العدو وصلاحية المرسى وخلوه من الأحجار والأعشاب قبل أن يصدر أوامره بالاشتباك مع العدو[٨٦].

الربان:

هو رئيس الملاحين أو النوتية وعليه أن يدير حركة الأسطول بالريح والمجاديف، وأن يعرف مسالك البحر ومجاريه بواسطة الرهماني (كتاب الطريق أو الدليل)، وهو الكتاب الذي يسلك به الربانية البحر ويهتدون به في معركة المراسي وغيرها.

ومن الوظائف التي تلي وظيفة الربان وظيفة الديدبان، وهو المراقب الذي يقف في مقدمة السفينة ليستطلع حالة البحر وأخبار العدو، ويشاركه الأهمية المرشد الذي يتولى أمر إرشاد السفينة عند دخول الموانئ وعند اجتياز المضائق الخطرة. وكان هؤلاء المرشدون على علم كبير بفنون الملاحة في البحار المختلفة وتأثير الرياح والعوامل الجوية، وعلى دراية بالحسابات الفلكية، خبروا البحار ومسالك الموانئ والسواحل والثغور. وكان على ربان السفينة الاطمئنان إلى مهارة هؤلاء المراقبين والمرشدين

وإلى مدى علمهم بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الريح وتغيرات الأنواء(٨٧). ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون يشير في مقدمته إلى وظيفة الربان في عصر الأغالبة(٨٨). وبما أن الفاطميين ورثوا الأسطول الأغلبي أثناء قيام حكمهم في المغرب واستخدموا وظيفة الربان والديدبان والمرشد السابقة الذكر في الطور المصري فيما بعد، كما يذكرها المقريزي، فمن المسلم به أنهم استخدموها في الأسطول الفاطمي في المغرب.

التعبئة:

برع الفاطميون في فنون القتال البحرية، وكانت التعبئة البحرية تشبه التعبئة البرية، فيصنع أمير البحر في سفنه قلباً وجناحين ومقدمة وساقة، وقد يضع سفنه على شكل نصف دائرة حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطت به وحاصرته، وقد يقابل أمير البحر العدو بسفنه صفوفاً مستقيمة فتنطح مراكب العدو باللجام قريباً من مؤخرتها لتغرقها، أو يشغل أمير البحر مراكب خصمه ببعض المراكب، ثم ينقضُّ مرةً واحدةً من خلفه، وكانت لغة التخاطب بين المراكب بعضها ببعض بالرايات، وكان أمير البحر يحرص بعد أن تتجمع السفن استعداداً للغزو على إخفاء أسطوله حتى يتقى إغارات سفن الأعداء إلى أن يتمكن من اتخاذ المراكز التي تكفل له النصر. ومن التعليمات التي يلتزم بها أمير البحر للتستر عن الأعداء ألاَّ يأخذ في المراكب ناراً ولا يُشغِّل مصباحاً، وإن اشتد الخوف عليه وأراد الاختفاء يمدد قلوعاً زرقاء لكي لا تظهر من بعد(٨٩).

أسلحة الأسطول:

كانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحري المختلفة، وهي تشبه أسلحة الجيش البري التي استخدمها الفاطميون في معاركهم بالمغرب إلى حد كبير. ذلك أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية كانت عبارة عن القسي التي تشد بواسطة اليد أو الرجل(٩٠).

أما أسلحة المراكب الكبرى فإنها كانت تزود على الأخص بالمنجنيقات والعرادات لقذف المواد الملتهبة والحجارة. بالنسبة للمنجنيق كان جنود البحرية يستخدمونه إذا دارت رحى الحرب وسط البحار كما يستخدمونه لضرب العدو في البر لإحداث ثغرات في الحصون والأسوار لينفذوا منها، فهو سلاح بحري بري وهو سلاح يستخدم لقذف الحجارة أو النفط أو النار أو النشاب(٩١) وقد وصف صاحب كتاب "الأنيق في المجانيق" طرق استخدام المنجنيق وضبط الرماية به للتحكم في وصول القذيفة إلى الهدف موضحاً شرحه برسومٍ دقيقة لأجزاء المنجنيق وكيفية الرمي بقدور النفط أو الأحجار أو النشاب، وقد فصّل أنواع المقذوفات التي تستخدم لقذف السفن وطرق إتقان الرمي وكيفية مراعاة المسافات لضمان دقة التصويب نحو الهدف وأنواع النشاب التي ترمى بالمنجنيق وأطوالها وكيفية الرمى بها بالمنجنيق(٩٢). أما فيما يتعلق بالعرادة فهي آلة أصغر من المنجنيق وتستعمل لرمي الحجارة والسهام وقدور النفط لمسافات بعيدة(٩٣). كذلك استخدمت الكلاليب، وفائدتها أنها كانت تلقى على مراكب العدو فتوقفه فيشدونه ويرمون عليه الألواح كالجسر ويدخلون إليه ويقاتلون من فيه، ولتفادي كلاليب العدو كانت تستخدم الفؤوس فيقطعونها بها ويتفادون بذلك خطرها(٩٤). وكان الأسطول الفاطمي مثل أساطيل الدول في ذلك العصر يستخدم النفط أو النار الإغريقية التي يقذف بها من خلال سفن الحراقات أو النفاطات عليها النفاطون الذين يرسلون قذائف النار المحرقة على سفن العدو، بل إن جنوداً آخرين كانوا يرمون بأنفسهم في البحر ويلحقون بسفن العدو وفي أيديهم هذا اللهب الفتاك ليحرقوها بمجرد اقترابهم منها وهذا ما يصفه ابن هانئ الأندلسي من خلال مدحه لقتال الفاطميين في معركة المجاز فيقول:

من القادحات النارَ تضرمُ للطُّلى فليس لها يومَ اللقاء خُمودْ
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارجٍ كما شُبّ من نارِ الجحيم وقُود

فأنفاسُهن الحامياتُ صواء قٌ   وأفواهن الزاف . راتُ حديـ د

كما كان يستعمل نوعٌ من النفط يسير على سطح الماء دون أن ينطفئ فيحرق مراكب العدو.

لها شعلٌ فوق الغمارِ كأنها   دماء تلقتها ملاحفُ سود

تعانق موج البحر حتى كأنه   سليط لها فيه الذُّبالُ عتيد(٩٥)

وبالمقابل كانت سفن الأسطول الفاطمي التي تُسيِّرها الرياح والمجاديف محمية بالدروع الحديدية التي تقيها شر النار الإغريقية.

فليس لها إلا الرياح أعنة   وليس لها إلا الحباب كديد

فمنها دروع فوقها وجواشن   ومنها خفاتين لها وبرود(٩٦)

وكان يطلق على هذه الدروع اسم لبوس عليها غطاء يسمى لبود من جلود البقر الطرية أو من البسط، أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان(٩٧). ومن الأسلحة الخاصة بالسفن اللجام وهي آلة تشبه الفأس توضع في مقدمة السفينة وتتكون من قطعة من الحديد ذات رأس مدبب أسفلها مجوف حيث تثبت في خشبة كالقناة بارزة في مقدم السفينة تسمى الأسطام، وبذلك يكون اللجام كأنه رمح بارز من مقدم السفينة يستخدم في طعن سفن الأعداء فيصيبها ويخرق جوانبها.

من الراسيات الشُمّ لو لا انتقالها   فمنها قنان شمخُ وريُود(٩٨)

من جهة ثانية كان مركب قائد الأسطول مغطى بخيمة عالية كالقبة، وذلك لتمييز مركبه عن بقية المراكب فيقلعون بإقلاعه ويرسون برسوه.

قباب كما تزجى القباب على المها   ولكن من ضمت عليه أسود(٩٩)

ومن الطريف استخدام قفص فيه حمام ضمن معدات أسطول صقلية فكان هذا الحمام على ما يظهر يستعمل في إبقاء الاتصال بين مختلف وحدات،الأسطول أو بينه وبين القيادة العامة في البر(١٠٠).

وكانت راية الأسطول الفاطمي بيضاء اللون مثل راية الجيش البري ذلك أن الفاطميين كانوا يسمون بالمبيضة لأنهم كانوا يفضلون اللون الأبيض بسبب كرههم للعباسيين الذين اتخذوا من اللون الأسود شعاراً لهم ولراياتهم(١٠١).

ويذكر ابن هانئ من خلال وصفه لمعركة المجاز أعلام سفن الأسطول الفاطمي كيف كانت تبعث الرعب في قلوب الروم فيقول:

وما راع ملك الردم إلا اطلاعها تنشرُ أعلامٌ لهـ ا وبنـ ود

عليها غمامٌ مكفهر صبيـ رهُ له بارقاتٌ جمعةٌ ورُعود(١٠٢)

وليس من شك في أن القطع البحرية كانت مزودة بكل ما هو ضروري للحرب في البر مثل الأبراج والسلالم وحتى الحبال. كما اتخذ الجنود الدروع والخوذ لتقيهم الطعنات والقذائف(١٠٣)، وقد لبسها من قبل أفراد الجيش الفاطمي بالمغرب، وبما أن الجيش والبحرية الفاطمية في المغرب يمثلان جهازين دفاعيين في دولة واحدة تخضع لنظم وقوانين واحدة فقد استخدمها أفراد البحرية المغربية لاسيما أنها استخدمت في مصر من قبل عناصر البحرية الفاطمية فيما بعد.

وفيما يتعلق بنوع السفن الخاصة بالأسطول فلا يوجد للأسف إلا بعض الإشارات عن بعض نوعيات تلك السفن، ومنها الشواني ذلك عندما يذكر المقريزي دار الصناعة في المهدية فيقول: دار الصناعة منقورة في الجبل كانت تسع مائة شيني(١٠٤). أيضاً يشار إلى الشواني عند ذكر أحداث سنة ٣١٥ هـ ./ ٩٢٧م عندما غزا صابر الصقلبي بعض

السواحل الإيطالية في أربع وأربعين شينياً فأصاب في هذه الغزوة كثيراً من الغنائم[١٠٥] كما تذكر المصادر المراكب الحربية[١٠٦].

الشواني:

جمع شيني ومفردها شونة وهي من أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول ومن أقدم ما عرف من أنواع السفن الحربية وتعد من أكبر السفن الحربية وأكثرها استعمالاً لحمل المقاتلين للجهاد، حيث كان بها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم حمولتها ١٥٠ رجلاً تزود بالعدد والآلات الحربية وتجهز بالأسلحة التي تستعمل في الهجوم على الأعداء والدفاع عن نفسها إذا هاجمها العدو، وكانت كالقلاع البحرية تحاصر وترمي بالنفط وبها اللجام وهو قطعة حديد طويلة محدودة الرأس تقذف بها مراكب العدو لتغرقها، وبها خطاطيف كبار من الحديد تطرح عليها فتوقفها وتزوَّد المراكب الحربية أيضاً بالأحجار والرماح والتراس وغيرها من آلات الحرب[١٠٧].

الحراريق:

(جمع حراقة): وهي مراكب حربية يعبر اسمها عن وظيفتها في إحراق سفن العدو بالنفط[١٠٨]، تلي الشواني في الأهمية، وقد استكثر الفاطميون من هذه السفن إذ ورثوها عن الأغالبة[١٠٩] واستخدموها في غزو قلورية وفي حروبهم ضد البيزنطيين وكان يجدف فيها بما يقرب من مائة مجداف[١١٠].

الحرابي أو الحربيات:

(جمع حربية) وهي نوع من الشواني ولكنها أصغر منها حجماً وتمتاز هذه المراكب عن الشواني بسرعتها وخفة حركتها، وكانت أهم قطع الأسطول الأندلسي في عصر دولة بني أمية، واستخدمت في المعارك بأرض المغرب والأندلس[١١١].

الأغربة:

ووجد نوع آخر من السفن يطلق عليه اسم الأغربة وهو جمع غراب وهي من المراكب الحربية شديدة البأس ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل مقدمة هيكلها التي كانت على شكل رأس غراب ويحمل هذا النوع من السفن المقاتلة ويسير بالقلع وبعدد من المجاديف، ومن خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مراكب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية(١١٢). ومن المحتمل أنها استخدمت من قبل الفاطميين بالمغرب، حيث أتى على ذكرها ابن هانئ الأندلسي من خلال وصفه لمعركة المجاز بقوله:

من الطير إلا إنهن جوارحٌ فليس لها إلا النفوس مصيد

وفلكك يلقى الفلك في اليم من علٍ كما يتلاقى سيدٌ ومسود(١١٣)

ولقد وصلت أسماء مراكب أخرى عرفت في المغرب في عصر الأغالبة، وعرفها الفاطميون بحكم نشأة دولتهم في المغرب وبحكم انتقال البحرية الأغلبية إليهم، ومن هذه المراكب النواشي(١١٤)والفتاش(١١٥). ولكن لم تُذكر مهمة هذه المراكب، ولربما استخدمت لنقل المقاتلة والماء والغذاء بالإضافة للميرة، من جهة ثانية عند الرجوع للمصادر لم يهتم المؤرخون إلا بذكر المعارك البحرية التي يشيرون إليها كما يشيرون إلى المعارك البرية. ولا تكتسي الأهمية في كتاباتهم إلا الأحداث الدامية والمعارك والمجازر في ساحات الوغى، والوصف الوحيد الذي وصل للأسطول الفاطمي هو من وضع الشاعر ابن هانئ الأندلسي الذائع الصيت، وهو للأسف وصف عام وغير دقيق ويتضمن معلومات غامضة جداً وغير كافية، فماذا كان حجم القطع البحرية، وكيف كانت السفن الحربية من نوع الصنادل التي ورد ذكرها في سيرة جوذر(١١٦)، وما هو نوع بقية المراكب التي كانت دور الصناعة تجهز بها الأساطيل المكلفة بالحملات على صقلية وجنوب إيطالية وشن الحرب على الأسطول البيزنطي؟ إن معظم المصادر

المتوفرة لا تتحدث عن ذلك، لولا بعض المعلومات الواردة في سيرة جوذر بالإضافة إلى قلة من المعلومات الواردة في بعض المصادر حول دور الصناعة وتجهيز الوحدات البحرية وصنع السفن بخشب صقلية. أيضاً لا توجد معلومات عن نوعية عناصر جند البحرية هل كانوا من البربر أو العرب أو الاثنين معاً ولا عن طريقة حشدهم وتعبئتهم وما هي مدة خدمتهم في الجندية البحرية ولا عن الرواتب أي الجامكية المخصصة سواء للقواد منهم أو الأفراد ولا عن كيفية أو نوعية لباسهم العسكري البحري بشكل عام ولا عن كيفية تأمين الغذاء والماء أثناء العمليات البحرية وهل كان يوجد قاضٍ للعسكر بينهم لحل المشاكل التي كانت تحدث بين الجند أثناء حملاتهم البحرية. وهكذا اقتصر الحديث عن سرد تاريخ انتصارات الأسطول الفاطمي أو هزائمه، وتعذر إعطاء فكرة دقيقة عن النظام البحري الذي لاشك أنه كان معقداً وعلى غاية من الأهمية مما مكّنه من ضمان حسن سير مثل ذلك الأسطول العتيد الذي استطاع فرض هيمنته على شواطئ شمال أفريقية والمغرب بالإضافة إلى صقلية وجنوب إيطاليا.

الهوامش

(١) المقريزي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق الشيال، القاهرة١٩٦٧م ج٢ ص١٣٣.

- سالم (السيد عبد العزيز) العبادي: (أحمد مختار) **تاريخ البحرية في مصر والشام**، بيروت ١٩٧١م ص٦٧-٦٨.

(٢) صباغ (بول صباغ) الحملات العربية في القرن الثامن، كراسات تونس، عدد٣١، ١٩٦٠م ص٧٢-٧٣.

G. Marcais : La Berberie musylmane et Lorient au Moyen Age, Paris, 1946, P.P 62-67.

(٣) البكري: **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**: تحقيق وترجمة دي سلان، الجزائر. طبعة ١٩١١ و ط١٩١٣م ص٣٧-٣٨.

(٤) البكري: المصدر السابق ص٢٢٠.

- ابن عذاري: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**- نشر كولان وليفي بروفنسال- ليدن ١٩٤٨-١٩٥١م وطبعة باريس ١٩٣٠م ج١ ص١٣٢

- الحميري: **الروض المعطار**- تحقيق إحسان عباس- بيروت ١٩٧٥ ص١٥٧.

(٥) الحموي(ياقوت الحموي) **معجم البلدان**، طبعة بيروت مجلد ٥ ص٢٣٠.

- ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ط بولاق ١٢٨٤ هـ . ج٤ ص٧٩.

(٦) ابن عذاري: **البيان المغرب** ج١ ص١٦٩ .

(٧) شناخ: أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر(المنهل).

(٨) النعمان: (أبو حنيفة): **افتتاح الدعوة**، تحقيق وداد القاضي- بيروت ١٩٧٠م الفقرة ٢٩٦.

(٩) التجاني: **رحلة التجاني**، تونس ١٩٢٧م ، انظر أيضاً ط٢ تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس١٩٥٨م. ص٣٢٣.

(١٠) النعمان: **افتتاح الدعوة**، الفقرة ٢٩٦.

- ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ط١ بولاق ١٨٧٤م وطبعة حديثة مصورة عنها، بيروت ١٩٦٥و ١٩٧٩م دار صادر ج٨ ص٩٤-٩٥.

(١١) إدريس (عماد الدين الداعي): **عيون الأخبار**(تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب (القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار) تحقيق محمد اليعلاوي- دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥م ص٢٠٩.

(١٢) إدريس: **عيون الأخبار**، ص٣٠٥.

(١٣) المصدر السابق ص٣٠٦- الهامش ١٣٩.

(١٤) المصدر السابق ص٣٠٧.

* - كل الذين زاروا المهدية رأوا بقايا دار الصناعة أو حوض دار الصناعة ومرسى المدينة.

(١٥) النعمان: **المجالس والمسايرات**،، نشر كلية الآداب بتونس ١٩٧٨م ص٥٣٠.

(١٦) المصدر السابق.

(١٧) المالكي: **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية**- تحقيق البشير البكوش ومراجعة محمد العروسي المطوي، بيروت١٩٨٣م ج٢ ص٢٢٧ ، ٣٤٥ ، ٤٩٨.

(١٨) العزيزي(أبو علي منصور العزيزي): **سيرة الأستاذ جوذر**، تحقيق كامل حسين وعبد الهادي شعيرة، سلسلة مخطوطات الفاطميين، القاهرة ١٩٥٤م، ترجمة M. Ganard الجزائر ١٩٥٧م، ص137.

(١٩) المصدر السابق ص١٠٢، ١٢١،.

(٢٠) المصدر السابق ص١٠٢.

(٢١) المصدر السابق، ص١٠٢.

(٢٢) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٢٣) المالكي: **رياض النفوس** ص٢٢٧ هامش ١٧٤.

(٢٤) لعزيزي: المصدر السابق ص١٣٧.

(٢٥) العزيزي: **سيرة جوذر** ص١١٦-١١٧

- ابن ابي دينار: **المؤنس في أخبار أفريقية وتونس** ١٨٦٩ وط٢ ١٣٥٠هـ . /١٩٣١م وط٣ تحقيق محمد شمام تونس ١٩٦٧ م ص ١١

- التجاني: **رحلة التجاني** ص٦.

(٢٦) اليعقوبي: **كتاب البلدان**، ليدن ١٨٩١م ص٣٤٨.

- البكري: **المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب**، ص٣٤.

(٢٧) البكري: المصدر السابق ص٥٥.

(٢٨) عزيز(أحمد عزيز): **تاريخ صقلية الإسلامية**، تعريب وتعليق أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ١٩٨٠م ص٣٤.

(٢٩) الإدريسي: **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس- عن نزهة المشتاق في احتراق الآفاق**- نشره وترجمه إلى الفرنسية دوزي ودي خويه ليدن ١٨٦٦م ص٩٠-٩١.

(٣٠) الحميري: **الروض المعطار** ص١٧٢.

(٣١) ابن أبي دينار: **المؤنس** ص٩٠.

(٣٢) العزيزي: **سيرة جوذر** ١١٦-١١٧

- الداودي: **الأموال**، دراسة وتحقيق مركز الدراسات الفقهية. أ.د. محمد أحمد سراج، أ.د. علي جمعة محمد، مصر، دار السلام ط٢ ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، باريس ١٩٦٢م، ص٧٥، ١٧٤، الضريبة الشخصية على الرؤوس، ص٤٣١ حول الجزية على الأرض، ص٤٣٦-٤٣٧

- الحميري: منتخبات من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، خاصة بالجزر والبقاع الإيطالية، تحقيق د. امبرتو ريتزيتانو، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد ١٨ ج١ مايو ١٩٥٦م، ص١٥٦.

(٣٣) الداوي: **كتاب الأموال** ص٤٣٦.

(٣٤) العزيزي: **سيرة جوذر** ص١١٧.

(٣٥) العزيزي: المصدر السابق ١١٧.

(٣٦) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**- القاهرة١٩٠٦م، مجلد ٢ مادة جفلوذ ص ١٤٧.

(٣٧) الحميري: **منتخبات من كتاب الروض المعطار** م ١٨ ج١ ص١٥٦.

(٣٨) العزيزي: المصدر السابق، ص١١٩

(٣٩) ابن حوقل: **صورة الأرض**، طبعة بيروت ١٩٦٢ ص١١٧

(٤٠) المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، نشر دي خويه ليدن ١٩٠٦ م ص٢٢٦

- ابن حوقل: المصدر السابق ص٧٧، الإدريسي: **المغرب وأرض السودان** ص١١٦.

(٤١) اليعقوبي: **تقويم البلدان** ص٣٤٩.

(٤٢) ابن حوقل: **صورة الأرض** ص٨٤، البكري: **المغرب** ص٣٣.

(٤٣) الإدريسي: **المغرب وأرض السودان** ص١١٧.

(٤٤) المصدر السابق ص٩١.

(٤٥) الإدريسي، المصدر السابق ص٩١.

(٤٦) أماري ميشيل: **المكتبة الصقلية**، ليبزغ ١٨٨١م، ص١٣٤.

(٤٧) الحميري: **الروض المعطار** ص١٤١، ١٧٤.

(٤٨) ابن حوقل: **صورة الأرض** ص١١٧.

(٤٩) الحميري: **الورض المعطار** ص١٧٢، ١٨٠.

- البكري: المصدر السابق ص٢٠، الإدريسي: المصدر السابق ص١٢٦-١٢٧.

(٥٠) مؤنس(حسين مؤنس): **تاريخ المسلمين في البحر المتوسط** (الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية) الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ص٧٦.

(٥١) عثمان (فتحي عثمان) **الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري**، القاهرة ١٩٦٧م ج٢ ص١٩٢.

(٥٢) النعمان: افتتاح الدعوة، الفقرة ٢٣٢.

* - التوجه البحري لعدم النجاح في الداخل البري ومقاومة المالكية.

(٥٣) ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٣٨.

(٥٤) اماري ميشيل: **المكتبة** ص١٧٥-١٨٣.

(٥٥) ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٥٥.

(٥٦) أماري ميشيل: **المكتبة** ص٥-٢١٦.

- أ. ريتسيتانو: **تاريخ مسلمي صقلية**، مقالة في مجلة الدراسات الشرقية (Rso) مجلد ٣٢ عام ١٩٥٧م ص٣١-٥٥٥

(٥٧) ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٢٥٣.

(٥٨) ابن الأثير، المصدر السابق ص٢٥٦.

(٥٩) أحمد(عزيز أحمد) **تاريخ صقلية الإسلامية**، نقله إلى العربية د. أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، الغرب، ١٩٧٩م ص٣٤.

* - عندما حاصر أبو يزيد المهدية من جهة البر استخدم الفاطميون البحر لنقل القوات ومهاجمته من الخلف

(٦٠) أماري ميشيل: المصدر السابق، ص٥٢٩-٥٣٠

- ابن أبي دينار: **المؤنس**: انظر أخبار سنة ٣٣٦هـ ..

(٦١) ابن الأثير: **الكامل** ج ٨ ص٤٠٣.

- اماري ميشيل: **المكتبة** ص٤٠٨.

(٦٢) أماري ميشيل: المصدر السابق ص٢٩٨-٣١١

Gay, Jules: L' Italie mé ridional et L'empire byzantine, New York 1960, 2. P.P290-291.

(٦٣) ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٥٥٦-٥٥٧، أماري ميشيل: **المكتبة** ص١٧٦ .

- Gay, L'Italie, 2, P.P290-291

- عزيز أحمد: **تاريخ صقلية** ص٣٨.

(٦٤) ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٥٥٦-٥٥٧، أماري ميشيل: **المكتبة** ص ١٧٦ ،
Gay, L'Italie, 2, P.P290-291

65 - Gay, L'Italie, 2, P.P291.

(٦٦) النعمان: **المجالس والمسايرات** ص٣٦٧، ٣٧٠

- ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٥٥٨ ، ٦٠٦ -٦٠٨.

(٦٧) عثمان: **الحدود الإسلامية البيزنطية** ص٢٢-٢٦

(٦٨) ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٤١٣، ٤١٥

- لويس (ارشيبالد لويس): **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط**، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، القاهرة، ١٩٦٠م ص٢٥٤.

(٦٩) المقريزي: **اتعاظ الخنفا** ج٢ ص١٠١، لويس(ارشبيالد لويس): **القوى البحري** ص٢٥٤

Lane poole: A history of Egypt in the middle ages, London, 1914, P.P101.

* - كانت القاهرة مهددة من القرامطة لذلك توجب قدوم المعز.

(٧٠) تقول بنو العباس هل فتحت مصر   فقل لبني العباس قد قضي الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهـ . . ر   تطالعـ ه البشرى ويقدمه النصر

الأندلسي (ابن هانئ الأندلسي): **ديوان ابن هانئ الأندلسي**، دار صارت بيروت ص١٣١.

(٧١) النويري: **نهاية الأرب**، أجزاء مصورة دار الكتب تحت رقم ٥٤٩ ج ٢٢ ورقة ١١٩

- النعمان: **المجالس والمسايرات** ص٢٤٤

- أماري ميشيل: **المكتبة الصقلية** ص٤٤١

(٧٢) ابن الأثير: **الكامل** ج ٩ ص١٣٠

- حسن حسني عبد الوهاب: **قصة جزيرة قوصرة العربية**، المجلة التاريخية المصريةِ، مجلد٢، عدد ٢ أكتوبر ١٩٤٩م ص٥٥-٧٣.

(٧٣) الضبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، تحقيق كوديرة، مدريد ١٨٨٥م، ص٣٩٤.

- الحميدي: **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة١٩٥٢م ص٢٨٣.

(٧٤) النعمان: المجالس والمسايرات ص٣٤.

(٧٥) النعمان: المصدر السابق ص٣٤، حسن إبراهيم حسن وطه شرف، المعز لدين الله الفاطمي، القاهرة، ١٩٤٧ ص٣٠٤(الملحق الأول).

(٧٦) لويس(ارشيبالدس) القوى البحرية ص٢٩٦.

(٧٧) حسن إبراهيم حسن وطه شرف الدين: المرجع السابق، الملحق السادس ص ٣٢١

(٧٨) ابن الأثير: **الكامل** ج ص٥١٣

- النعمان: **المجالس والمسايرات** ص١٦٤.

(٧٩) ابن عذاري: **البيان المغرب**، ط بيروت ج٢ ص١٢٧، ٣١٨

- أبو الفداء: **المختصر في أخبار البشر**، ط بيروت ج٣ ص١٢٧.

(٨٠) العزيزي: **سيرة جوذر** ص٨٦-٨٧

(٨١) إدريس: **عيون الأخبار** ص٢٠٦.

(٨٢) المصدر السابق ص٣٥١-٣٥٤.

(٨٣) العزيزي: **سيرة جوذر** ص٨٦-٨٨، ١٢٨-١٢٩ .

(٨٤) المصدر السابق ص٨٦-٨٨ حول صلاحيات حسين بن يعقوب، و ١٢٨ حول منزلة الحسن بن علي ومديح المعز لدين الله الفاطمي له.

(٨٥) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٤٣ ج٢ ص١٩٣

- القلقشندي: **صبح الأعش في صناعة الإنشا**، الطبعة الأميرية، وطبعة دار الكتب ١٩١٥ م ج٤ ص٤٥٧.

(٨٦) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص١٩٧.

(٨٧) المقريزي: المصدر السابق، ج٢ ص١٩٢، ١٩٧.

(٨٨) أوضح ابن خلدون مهمة الربان بقوله: كان يطلق على وزير البحر (مقدم الأسطول) في دولة بني الأغلب وكانت أساطيلها مجتمعه في سائر الممالك من كل بلد تتخذ من السفن أسطول يرجع نظره إلى قائد من النوتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ورئيس يدبر أمر خبرته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه.

- ابن خلدون: **المقدمة** ص٢٨٢-٢٨٣.

(٨٩) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج١ ص٤١٣.

- الحسن بن عبد الله: **آثار الأول في ترتيب الدول**، مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي طبعة مصر سنة ١٣٠٥ هـ .ص١٩٦.

(٩٠) ابن منمكلي: **الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية**، دار الكتب المصرية، رقم ٧٠٤ ورقة ١٣.

(٩١) الحسن بن عبد الله: **آثار الأول** ص١٩١-١٩٢.

(٩٢) أرنبغا الزردكاش: **كتاب الأنيق في المجانيق**، دار الكتب المصرية رقم ٩٧٠، ص٢-٧، ١٨.

(٩٣) دائرة المعارف الإسلامية ج١ ص٦٧٩.

- مؤنس(حسين مؤنس): **تاريخ المسلمين في البحر المتوسط**، ص٨٤.

(٩٤) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج٢ ص١٢٧

- مؤنس: المرجع السابق ص٨٤.

(٩٥) الأندلسي: **ديوان ابن هاني**، ص٩٩.

(٩٦) المصدر السابق، ص١٠٠-١٠١.

(٩٧) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج٢ ص١٢٧.

(٩٨) الأندلسي: المصذر السابق، ص٩٩.

- سلام(حورية سلام): **النظم الحربية في مصر**. زمن الفاطميين، القاهرة، ١٩٨٠ ص٨٨.

(٩٩) الأندلسي: المصدر السابق،ص٩٨

(١٠٠) المقريزي: **المواعظ والاعتبار** ج١ ص٤٨٣، مؤنس: المرجع السابق ص٨٥.

(١٠١) أماري ميشيل: **المكتبة الصقلية البابان الثاني والثالث.**

(١٠٢) الأندلسي: المصدر السابق ص ٩٨-٩٩

(١٠٣) النعمان: **افتتاح الدعوة**، الفقرة ١١١، العزيزي: **سيرة جوذر** ص٥٠، ابن الأثير: **الكامل** ج٨ ص٥٥٦-٥٥٨. إدريس: **عيون الأخبار**، ص٢٢٤، القلقشندي: **صبح الأعشى** ج٢ ص١٢٧، اماري ميشيل: **المكتبة** ، ص١٧٦. مؤنس: **تاريخ المسلمين** ص٨٤.

(١٠٤) المقريزي: **اتعاظ الحنفا** ج١ ص٧٠.

(١٠٥) ابن عذاري: **البيان المغرب** ج١ ص٢٧٠.

(١٠٦) على سبيل المثال عندما غزا صابر الفتى من أفريقية في ثلاثين حربياً أرض قاورية عام ٣١٦هـ .، انظر النويري: **نهاية الأرب** ج٢٢ أحداث سنة ٣١٦هـ ..

(١٠٧) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج٣ ص٥٢٣.

(١٠٨) الأصفهاني: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق أ. محمد صبيح، القاهرة ١٩٦٥ م ص٣٨٨.

(١٠٩) ابن عذاري: **البيان المغرب في إخبار الأندلس والمغرب**، ط دوزي ليدن ١٨٥١م ج١ ص١٣٧.

(١١٠) ابن مماتي(الأسعد): **قوانين الدواوين**، نشر عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م ص٣٤٠.

(١١١) المقريزي: **المواعظ والاعتبار** ج٢ ص٣٧٧، ج٣ ص١١٥.

- العذري: **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار في غرائب البلدان والمسالك والممالك**، نشر عبد العزيز الأهوائي، مدريد ١٩٦٥م ص٨١.
- الإدريسي: **المغرب وأرض السودان ومصر**، ص١١٢.

(١١٢) ابن شداد: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، نشر جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م ج٣ ص٢٢٠.

(١١٣) الأندلسي: **ديوان ابن هاني** ، ص٩٩، ١٠٣.

(١١٤) الإدريسي: **المغرب وأرض السودان ومصر**، ص١١٢.

(١١٥) العذري: **سيرة جوذر** ص٨١.

(١١٦) المرجع نفسه، ص٩٨.

القلاع والحصون في شبه الجزيرة العربية في الفترة بين ١٥١٦-١٩١٦

د. غزوان ياغي

المديرية العامة للآثار والمتاحف

تقع شبه الجزيرة العربية[١] في جنوب غرب آسيا، وهي تمثل وحدة جغرافية متميزة، ويحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق خليج عُمان والخليج العربي، ومن الجنوب بحر العرب والمحيط الهندي، ومن الشمال بلاد الشام والعراق، ويبلغ متوسط عرضها من الشرق إلى الغرب نحو ألف ومائتي كيلومتر، ومتوسط طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ألفي كيلو متر، ومساحتها الكلية نحو مليونين ونصف من الكيلو مترات [الشكل رقم١].

وشبه الجزيرة العربية بهذا الموقع الفريد كانت على صلات حضارية بجميع البلدان التي ترتبط بالحدود البحرية مثل مصر وفلسطين والعراق وبلاد الشام، وقد زادت أهمية هذا الموقع بعد ظهور الإسلام ومثلت شبه الجزيرة العربية حلقة وصل بين قارات العالم القديم آسيا وأفريقيا وأوروبا[٢].

إن مناخ شبه الجزيرة العربية صحراوي شديد الحرارة والرطوبة، ويعتدل الطقس في فصل الشتاء، ويقسم الجغرافيون شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام رئيسية هي تهامة والحجاز ونجد واليمن والعروض.

وقد لفت التراث المعماري الإسلامي في شبه الجزيرة العربية نظر المؤرخين والرحالة منذ وقت مبكر، وخاصة العمارة الدفاعية منها التي يرجع معظم الباقي منها

للعصر العثماني[٣]، والتي حظيت نظراً لتميز منشآتها ببعض الدراسات الأثرية سواء من قبل الرحالة الذين زاروا هذه المنطقة أو من قبل بعض الأكاديميين والآثاريين المهتمين بإظهار روعة هذه العمارة وتفردها، وتمثلت هذه العمارة في شبه الجزيرة العربية في العصر العثماني في بناء العديد من المدن المحصنة والقلاع والحصون والأبراج، التي انتشرت في كافة أجزاء شبه الجزيرة العربية وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالبيئات المحلية التي سادت فيها.

ويلاحظ الدارس ذلك الامتزاج المعماري الذي يربط المنتج المعماري والفني الذي عرفته شبه الجزيرة العربية وذلك المنتج المشابه الذي ساد العالم الإسلامي. فلم تخرج العمائر الدفاعية في شبه الجزيرة العربية في تخطيطاتها وفي عناصرها المعمارية عن تلك التي عرفت في العمارة الإسلامية بشكل عام، فقد صممت الحصون والقلاع والأبراج في شبه الجزيرة العربية بأشكال هندسية لا تختلف كثيراً من حيث شكلها العام عن تلك التي ظهرت في مصر والشام مثلاً، كما استخدمت نفس العناصر المعمارية من مزاغل[٤] (فتحات رمي السهام) وسقاطات (فتحات رمي السوائل الحارقة) وأبواب منكسرة وغيرها من العناصر الدفاعية بطريقة مشابهة لمثيلاتها التي شاعت في الأقاليم الأخرى من العالم الإسلامي، وانحصر الاختلاف في المنتج المعماري بقدر ذلك الاختلاف في الطبيعة المناخية والبيئية التي تتمتع بها شبه الجزيرة العربية والذي عكس اختلافاً واضحاً في مواد البناء وأسلوب التعامل معها حيث استخدم الطوب اللبن والجص والحجر الصغير في عمارة شبه الجزيرة العربية سواء في السعودية أو عُمان أو اليمن والإمارات وقطر والكويت والبحرين في الوقت الذي أعطت الأحجار الضخمة كمادة بناء متوفرة في مصر والشام والشمال الإفريقي للعمارة طابعاً مختلفاً لعمائر تلك البلاد، ذلك رغم بقاء التشابه الكامل في الشكل العام والعناصر الأساسية كما ذكرنا سابقاً.

وتجدر الإشارة لتلك الصعوبات التي واجهت هذه الدراسة والتي من أهمها قلة المصادر والمراجع والدراسات الحديثة التي تناولت هذه العمائر في كافة أجزاء شبه الجزيرة العربية والذي يعود غالباً لقيام المتخصصين والرحالة والآثاريين الأجانب والعرب بتوجيه أبحاثهم الجادة نحو الدراسات التاريخية ودراسة المخلفات الأثرية للحضارات التي ظهرت بشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، مما أثر سلباً على مستوى الفهم العام لطبيعة التراث المعماري الإسلامي بشبه الجزيرة العربية ومسيرة تطوره وتأصيل العناصر المعمارية والفنية المكونة له، حيث شكل ذلك صعوبات بالغة لنا في سبيل الوصول لوضع إطار عام للمفردات المحلية لعمارة القلاع والحصون في شبه الجزيرة العربية، والوصول لتحديد دقيق لمميزاتها ولمراحل تطورها في هذه الدراسة المختصرة فأغلب هذه القلاع أو الحصون بحاجة ماسة لدراسات أكاديمية وبحاجة لعمليات ترميم شاملة تعيد لها بعضاً من ألقها القديم.

وسنحاول هنا تقديم قراءة آثاريه تاريخية حضارية لتلك العمائر الباقية في شبه الجزيرة العربية بهدف إلقاء الضوء على صفاتها ومميزاتها العامة في كافة مناطق شبه الجزيرة التي يربط عمائرها الدفاعية وحدة تثبت الدراسة الدقيقة لعناصرها أنها تخفي في كل إقليم خصوصية وتفرداً مميزاً لعناصرها، حيث تختلف طرز هذه العمائر في مناطق الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية عن تلك التي تتوضع في الإقليم الجنوبي والغربي، فتختلف القلاع والحصون الواقعة فيما يسمى اليوم بالإمارات العربية عن مثيلاتها الموجودة في السعودية واليمن، حيث تحمل عمارة كل إقليم رغم وحدتها العامة مع مجمل عمارة الجزيرة العربية مميزات خاصة فرضتها مؤثرات جغرافية ومناخية وتاريخية واجتماعية خاصة بكل إقليم، أثرت بشكل كبير في إمكانية تحديد صفات ومميزات عامة يمكن إطلاقها على مجمل العمائر الدفاعية في كامل أقاليم شبه الجزيرة العربية.

وعليه فقد اعتمدنا منهجا علمياً يتناول إلقاء الضوء على القلاع والحصون الباقية والمنتشرة في الدول التي تشكل اليوم أراضي شبه الجزيرة العربية وذلك بغية الوصول لتحديد دقيق لطبيعة ومميزات هذه العمائر في كل الأجزاء التي تشغلها هذه الدول بحدودها الجغرافية الطبيعية والتاريخية.

تزخر شبه الجزيرة العربية بالعديد من القلاع والحصون، والأبراج، حيث احتفظت هذه العمائر بالعديد من السمات المعمارية العامة التي تميز طرز العمارة العسكرية الإسلامية بشكل عام كما سبق ذكره.

فقد استفاد المعماري المسلم من استراتيجية موقع شبه الجزيرة العربية وطبوغرافيتها وامتدادها على البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر العرب والساحل الغربي للخليج الغربي وتعرجاته الساحلية، ووجود بعض التلال الطبيعة المرتفعة على طول الساحل العربي، بالإضافة إلى انتشار السبخات والأخوار والوديان على مقربة من تلك السواحل فشكلت هذه العوامل الطبيعية أساليب تحصينية ساعدت المعمار العربي المسلم في تحصين السواحل الطبيعة لكامل أقاليم شبه الجزيرة العربية .

وشجع على نشاط حركة إنشاء القلاع والحصون في الجزيرة العربية جملة من الأحداث والظروف التاريخية التي ظهرت في مطلع القرن التاسع الهجري، السادس عشر الميلادي حين ظهر البرتغاليون على سواحل شبه الجزيرة العربية عقب اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٢هـ ./ ١٤٩٧م، حيث بدؤوا بالسيطرة على السواحل الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة العربية منذ عام ٩١٣هـ . ./١٥٠٧م وعمدوا إلى تأسيس قلاعهم على مداخل البحر الأحمر ثم سواحل جزر الخليج العربي ليتخذوها نقاط ارتكاز لشن هجوم على إمارات هذا الخليج الممتدة على شواطئه وخاصة بعد توقيع اتفاقية هرمز سنة٩٢١هـ ./ ١٥١٥م التي مكنتهم من فرض السيطرة الكاملة على الخليج، وهذا ما دفع سكان البلاد العرب المسلمين إلى تطوير

سبل الدفاع عن ممتلكاتهم ووطنهم وشرفهم وتجارتهم، فأتت فكرة تشيد العديد من القلاع والحصون والأبراج كضرورة طبيعية وتاريخية في مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية التي تفاقمت الصراعات عليها منذ ذلك التاريخ لي صبح الأتراك العثمانيون منذ سنة ٩٥٣هـ ./١٥٥٥م عند طردهم للبرتغاليين وبسط سيطرتهم على كامل الخليج طرفاً أساسياً فيها حتى خروجهم منه في النصف الأول من القرن ١٣هـ ./١٩م مفسحين المجال نهائيا للاستعمار البريطاني[٥]، وربما تفسر كثرة هذه الصراعات وطول فترتها مع ضخامة المساحة المطلوب السيطرة عليها كثرة عدد القلاع والحصون الباقية في شبه الجزيرة العربية.

المملكة العربية السعودية:

تقع المملكة العربية السعودية في شبه الجزيرة العربية، ويحدها شرقاً الخليج العربي وغرباً البحر الأحمر وشمالاً الكويت والعراق وبادية الشام وجنوباً اليمن وسلطنة عُمان [الشكل رقم١].

وتحتل المملكة العربية السعودية ٨٠% تقريبا من إجمالي مساحة الجزيرة العربية حيث تبلغ مساحتها ٢٢٤٠٠٠٠ كم، مما ينتج تفاوتٍ كبيرٍ في طبيعة التضاريس الطبيعية المشكلة لها، وهو ما يواكبه وجود تفاوتا كبيراً في المناخ، وتتألف المملكة العربية السعودية جغرافياً من عدة أقسام وهي: هضبة نجد في الوسط ومرتفعات الحجاز، وتهامة في الغرب، وواحات الإحساء والقطيف في الشرق، ومرتفعات عسير في الجنوب، ووادي السرحان، وهضبة تبوك في الشمال[٦]، وبقي فيها العديد من القلاع الهامة منها:

قلعة الزمرد:

تقع قلعة الزمرد [الشكل رقم٢] على طريق الحج الشامي المصري (طريق خيبر العلا) وهي من القلاع ذات التحصينات الكبيرة والتي بنيت في العصر العثماني،

ويتكون المسقط الأفقي لهذه القلعة من شكل مستطيل (٢٠× ٣٠م)، يتوسطه صحن شبه مربع مكشوف (١٠,٥× ١٠,١٠م) يتوسطه بئر، وتنتشر حول هذا الصحن فراغات القلعة من غرف ومخازن وإيوانات تنفتح عليه بمستوى طابقين، وتتميز القلعة بكثرة عقودها النصف دائرية وتعدد الأقبية البرميلية والأعتاب الحجرية التي تعلو فتحات الأبواب والشبابيك، وتحتل الزوايا الخارجية للقلعة أبراج دائرية[٧] [الشكل رقم٣].

قلعة المعظم:

تقع هذه القلعة [الشكل رقم٤] على الطريق بين الأخضر ومدائن صالح وهي إحدى محطات سكة حديد الحجاز القديمة، وتتكون من مساحة مربعة (١٨م×١٨م) وتتميز هذه القلعة بكثرة عناصرها المعمارية، وزودت أركانها بأربعة أبراج اسطوانية الشكل فُتحت في جميعها مزاغل حجرية (مرامي سهام)، ويتوسط القلعة صحن مكشوف تنفتح عليه مجموعة من الإيوانات المغطاة بأقبية اسطوانية، وجدير بالذكر أن الطابق الثاني من القلعة يحتوي على مسجد به محراب مجوف سجلت عليه كتابة بخط الطغراء العثماني[٨].

قلعة أعيرف:

تقع هذه القلعة [الشكل رقم٥] بمدينة حائل، وقد بنيت في أوائل القرن ١٣هـ ./أواخر القرن ١٨م أيام حكم أسرة آل علي التي تولت حكم حائل سنة ١٢٠٥هـ . ./١٧٩٠م، ويتكون المسقط الأفقي للقلعة من مساحة مستطيلة تبلغ أبعادها نحو ٤٠×١١ متراً، وقد استخدمت الأحجار في أساسات هذه القلعة إلا أن الأسوار شيدت من الطوب اللبن، وزودت القلعة ببرج كبير للمراقبة ومصلى وعدة أفنية تلتف حولها الفراغات المقبية، وزودت الأسوار والأبراج بمجموعة من السقاطات والمزاغل المخصصة لرمي السهام[٩] [الشكل رقم٦].

قلعة الشعار:

هي من القلاع التي شيدت في العصر العثماني أيضاً في منطقة عسير، وتقـ ع علـ ى رأس العقبة شعار (تيه) التي نسبت إليها، وهي تبعد عن مدينة أبها مسافة ٢٨كم تجاه الشمال، وقد شيدت القلعة على مساحة من الأرض شبه مستوية ترتفع عـ ن مـ ستوى سطح البحر حوالي ١٤٠٠-٢٨٠٠م وتطل من الجهة الغربية على وادي تيه مباشرة، وقد تم تشييد القلعة على ثلاث مراحل رئيسية الأولى تعود لسنة ١٢٨٩هـ . ./ ١٨٧٢م بعد ضم القوات العثمانية لمنطقة عسير حيث شيدت هذه القلعة، والتي ظلت قائمة حتى عام ١٢٩٤هـ . /١٨٧٦م ثم تعرضت للتخريب نتيجة ثورات أهالي عـ سير، ثـ م تـ مّ تجديد القلعـ ـة للمـ ـرة الثانيـ ـة مـ ـن قبـ ـل القائـ ـد العـ سكري سـ ليمان باشـ ا عـ ام ١٣٢٦هـ ./١٩٠٨م، بينما جددت ثالثةً عندما تولى القائد التركي محمد محي الدين باشا متصرفية لواء عسير (١٣٣١-١٣٣٧هـ ./ ١٩١٣-١٩١٨م) حيث أمر بتجديد القلعـ ـة وتشييد ساحة للتدريب في الجهة الشرقية منها [الشكل رقم٧].

قلعة شمسان:

وتعتبر من أشهر القلاع الباقية في بهذه الدولة وهي تقع إلى الشمال من أبها تطل على الطريق العام القادم من عقبة شعار ومن عقبة الصماء، وتاريخ تأسيسها يعود إلى عام ١٣٢٧هـ ./ ١٩٠٩م، وهي أكبر القلاع مساحة حيث يفتح بابها الرئيسي الكبير علـ ى جهة الغرب ويمتد على طرفيه السور الضخم المحيط بمباني القلعة وفيه العديـ د مـ ن أبراج الحراسة التي يبدو عليها اليوم الإهمال والحاجة الماسة للترميم، فهي تمثل جزءاً من تاريخ المنطقة وكانت مقراً لإطلاق مدفع رمضان كما يتيح لها موقعها الجيد فوق قمة جبل شمسان أن تأخذ مكانتها السياحية إذا ما استثمرت بشكل صحيح.

ومن القلاع الهامة الباقية أيضاً قلعة ذرة وقلعة الدقل وقلعة أبو خيال وقلعـ ـة الـ ضلع [الشكل رقم٨]

سلطنة عُمان:

تقع سلطنة عُمان في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وهي بموقعها المميز تطل على بحر العرب والمحيط الهندي والخليج العربي وخليج عُمان [ال شكل رقم١]، مما جعلها حلقة وصل بين هذه البحار والخلجان، وأعطى أهلها ا امتيـ ازات بحرية كان لها أثر مباشر في نبوغ العُمانيين في الملاحة حيث جابوا البحـ ار شـ رقاً وغرباً، منذ أقدم الفترات التاريخية، وعندما جاء الإسلام كانت قبائل الأزد التي تسكن عُمان أولى القبائل التي آمنت به طواعيةً، وتبنت منهجه، وساهمت في حمـ ل رايتـ ه بوقت ظلت شهرتهم التجارية وخبراتهم البحرية مصدراً استفادت منه حملات الكشوف الجغرافية الأوربية، التي استمرت في بسط سيطرتها على سـ واحل عُمـ ان والخلـ يج العربي حتى استطاع العثمانيون طردهم منها.

وقد ساعد الموقع الجغرافي المميز والطبيعة التضاريسية لعُمان إضافة لمـ ا فرضـ ته الظروف التاريخية المليئة بالتحديات والإصرار على الزود عن الأرض والعرض أهل عُمان على التفنن في هندسة عمائرهم الدفاعية من حصون وقلاع وأبراج وأسوار عبر الفترات التاريخية.

وفي عُمان ما يقارب خمسمائة حصن وقلعة وبرج حيث تشكل كل من قلعـ ة نـ زوى وحصن جبرين وحصن الرستاق والحزم نماذج رائعة للعمارة الدفاعيـ ة فـ ي دولـ ة اليعاربة (١٠٣٣-١١٥٧هـ /. ١٦٢٤-١٧٤٤م) وكذلك حصن خور روري (سمهرم) في ظفار وقلعة صحار وقلاع مسقط وقلهات وصور.

ومن أهم هذه القلاع(١٠):

حصن جبرين

يقع هذا الحصن في منطقة جبرين التابعة لولاية بهلا، وقد بني في الأصل ليكون قصراً، شيده الإمام بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك اليعربي، والذي توفى ودفن داخله، ومن المعروف أن صاحب هذا القصر كان قد تولى الإمامة بين عامي ١٠٩٠هـ ./١٦٨٠م – ١١٠٤هـ . / ١٦٩٢م بعد وفاة والده الإمام سلطان بن سيف.

وقد قام هذا الإمام بتخطيط وعمارة هذا الحصن العظيم، فجاء مستطيل المسقط ٤٣ × ٢٢م، يتراوح ارْتفاع جدرانه بين ١٦ – ٢٢م، يتميز بوجود برجين دائريين بارزين عن الحصن بشدة لغاية تأمين الدفاع عن كامل واجهات الحصن، ويقع مدخله الرئيسي بالجهة الشمالية الشرقية. والبناء كله من الحجارة الكبيرة الحجم، ويتميز الحصن بمجمله بعمارته الرائعة وزخرفته الجميلة وتخطيطه الهندسي المتقن، [الشكل رقم٩].

حصن الغبى:

يقع هذا الحصن بولاية عبرى بمنطقة الظاهرة ويسمى أيضاً "بيت الدك"، شيده العلامة الشيخ محمد بن سيف بن مالك اليعربي، الذي حكم البلاد سنة ١٠٩١هـ . ./١٦٨١م ويتميز هذا الحصن بأبراجه المتعددة وشكله التقليدي.

قلعة نزوى:

تُعتبر من أقدم الحصون الباقية في سلطنة عمان وتَقع في المنطقة الداخلية بولاية نزوى، قام ببنائها الإمام سلطان بن سيف بن مالك اليعربي، الذي حكم البلاد منذ عام ١٠٦٢هـ ./١٦٥٢م وهي على شكل دائري، يبلغ قطرها الخارجي ٤٣م، وارتفاع جدرانها ٢٤م، وهي مبنية من الحجارة الضخمة، وتتميز بكثرة فتحات رمي السهام، كما يوجد بداخلها عدة آبار للمياه، واستغرق بناؤها ١٢عاماً.

قلعة صحار:

وهي مثل حصن جبرين أُنشئت في الأصل لتكون قصراً وقد بناها الإمام ناصر بن مرشد اليعربي، الذي تولى الإمامة سنة ١٠٢٤هـ ./١٦١٥م ومشروع بنائه جاء بعد سنة من توليه الإمامة، وقد تولى الإشراف على البناء واليه الشيخ حافظ بن سيف.

والقلعة مربعة الشكل، يوجد في كل ركن من أركانها أبراج على هيئة ثلاثة أرباع الدائرة، بينما يكتنف المدخل برجان كبيران، وأضيفت على القلعة بعض الإضافات، المعمارية على يد السلطان ثويني بن سعيد بن سلطان، كذلك أضاف فيها الإمام قيس ابن عزان عدة أجنحة لإيواء أكثر من ألف مقاتل [الشكل رقم١٠].

ومما يجدر الإشارة إليه، أن هذه القلعة قد أدخلت عليها بعض التعديلات من قبل البرتغاليين أثناء احتلالهم لها.

الإمارات العربية المتحدة:

تقع دولة الإمارات العربية في الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتشغل مع سلطنة عُمان الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتتألف الدولة اليوم من اتحاد سبع إمارات هي أبو ظبي، دبي، الشارقة، عجمان، أم القيوين، الفجيرة، رأس الخيمة[١١]، [الشكل رقم١]، يسودها مثل باقي دول شبه الجزيرة العربية، مناخ صحراوي ترك أثراً واضحاً على طرز عمارتها.

وكانت الأراضي التي تشغلها دولة الإمارات العربية حالياً جزءاً من المراكز الحضارية المجاورة لها مثل عُمان (ماجان) أو في البحرين والإحساء (دلمون) التي ارتبطت جميعها بوحدة الطابع الحضاري منذ ما قبل التاريخ وحتى العصر العثماني[١٢].

وقد عرف الخط الساحلي لدولة الإمارات العربية خلال القرون الماضية بمسميات عدة كساحل عُمان وساحل الصيد والساحل المتصالح أو المهادن، وعرفت إماراته أحياناً بإمارات ساحل عُمان.

كانت أراضي دولة الإمارات هدفاً للمطامع الأجنبية ومسرحاً لأحداث متعاقبة هامة عبر التاريخ، وذلك لأهمية موقعها الاستراتيجي الهام الذي لعب دوراً تجارياً مميزاً.

كما تعرضت أراضي الإمارات لما تعرضت له سواحل شبه الجزيرة العربية على يد البرتغاليين وغيرهم، وقد كان لهذا التاريخ العسكري الكبير أثر في تشجيع إقامة الحصون والقلاع والأبراج من قبل جميع أطراف النزاع، حيث سُعي لاختيار أماكنها والتفنن في بناءها وزيادة منعتها، أُنشئت في جميع الحالات من مونات تقليدية من الجص وحجر البحر والطين.

ومن أشهر الحصون في دولة الإمارات(١٣):

حصن رأس الخيمة

يقع هذا الحصن في مدينة رأس الخيمة، ويرجع تاريخ بنائه لأواسط عام ١٣هـ ./١٨م، ويتألف الحصن من مساحة مستطيلة يتوسطها فناء تتوزع حوله غرف وفراغات الحصن الذي اتخذ مقراً لإقامة الأسرة الحاكمة حتى عام ١٩٦٠م، ليصبح بعد هذا التاريخ مقراً لشرطة رأس الخيمة وسجناً مركزياً حتى عام ١٩٨٤م، حيث رمم وحول ليصبح متحفاً لرأس الخيمة.

قلعة الفهيدي:

تقع هذه القلعة الهامة في مدينة دبي القديمة وأنشئت في عهد الشيخ هزاع بن زعل الياسي في سنة ١٢١٤هـ .- ١٧٩٩م، وهي قلعة مربعة الشكل تقدر مساحتها بحوالي ١٥٣٥ متر مربع، تحيط بها أسوار مرتفعة ٩،٢٥م متوجة من الأعلى بصف من

الشرافات الحجرية وبها ثلاثة أبراج كبيرة، اثنان منهما دائريان الشكل يكتنفان الزاويتين الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية من القلعة، ويبلغ أقصى ارتفاع لكل منهما حوالي ١٤م، ويتكون البرج الجنوبي الغربي منهما من ثلاث طوابق أوسعهم أسفلهم، وشغل الطابقان العلويان بفتحات مزاغل لرمي السهام والقذائف النارية [الشكل رقم١١].

أما البرج الثالث فهو مستطيل الشكل ٧×٩ م، وارتفاعه حوالي ٤،١٥ م، ويحتوي على طابقين، شغل الطابق الأسفل منهما بنوافذ مغشاة بالمصبعات الحديدية، وشغل جدار الطابق العلوي بسبعة فتحات لمزاغل (مرامي سهام) مستطيلة، ويتوج واجهة هذا البرج صف من الشرافات الحجرية كانت تستخدم كدروع وقائية عند الدفاع عن القلعة، وقد بنيت هذه القلعة بالصخور المرجانية البحرية والجص.

وللقلعة مدخل رئيسي تذكاري بارز يفتح بواجهتها الشرقية، تتوسطه فتحة بباب مستطيلة تُغلق عليها فردتا باب خشبيتان في حالة جيدة من الحفظ، ويؤدي المدخل لدركاة مستطيلة تُفضي لدهليز يُتوصل منه إلى فناء القلعة المتوسط المكشوف الذي تفتح عليه مجموعة من الحجرات من الجهتين الشمالية والشرقية، ومدخل بئر السلم الذي يصعد منه للأبراج والمماشي العلوية.

وقد استخدمت قلعة الفهيدي كمقر للحكم ما يقرب من تسعة وتسعين عاماً أي حتى عام ١٨٩٦م حين انتقل الشيخ مكتوم بن حشر آل مكتوم للإقامة في منطقة الشندغة بدبي، فحولت القلعة إلى سجن ومخزن للأسلحة والذخائر الحربية لتصبح في سنة ١٣٩١هـ . -١٩٧١ م متحفا للمقتنيات الأثرية في دولة الإمارات العربية المتحدة وبخاصة إمارة دبي، والذي رمم وأعيد فتحه في سنة ١٤١٤هـ . - ١٩٩١ م.

كما توجد العديد من القلاع والحصون قائمة في أماكن متفرق ـة كال شارقة [ال شكل رقم١٢] وعجمان وأم القيوين وجزيرة الحمرة، ورأس الخيمة، والفجيـ رة، والعـ ين، لتشكل جزءاً هاماً من الهوية الثقافية للمكان وأهله.

دولة قطر:

تقع شبه جزيرة قطر في منتصف الساحل الغربي للخليج العربي [الشكل رقم١] حيـ ث تتميز بموقعها البحري الهام على الخليج العربي الذي أثَّر في تاريخها، فجميع سواحلها مفتوحة على الخليج العربي مباشرة باستثناء الجزء الجنوبي مـ ن الـ ساحل الـ شرقي المتصل مع أراضي شبه الجزيرة العربية ويعرف باسم "دوحة الدواخل".

وتاريخياً فإن شبه جزيرة قطر(١٤) تعتبر من أقدم مناطق الخليج العربي حيـ ث تـ شير الدلائل الأثرية لكثرة مواقع العصر الحجري (فيها ١٣١ موقعاً). وعندما جاء الإسلام لبى كامل سكان شبه الجزيرة القطرية دعوة الرسول الكريم محمد ﷺ)(١٥) وصـ اروا جزءاً من الدولة الإسلامية حيث عانوا مثل باقي إمارات الجليج من عبء البرتغاليين في القرن١٠هـ ./١٦م حتى تمكن العثمانيون من طـ ردهم سـ نة ٩٥٣هـ . /١٥٥٥م وسيطروا على كامل الخليج حتى قدوم المستعمر البريطاني(١٦) .

وانتشرت على سواحل شبه جزيرة قطر العديد من التحصينات الدفاعية منذ بداية العصر الإسلامي وحتى منتصف ١٤هـ ./٢٠م، حيث وجدت المدن المحصنة ذات الشكلين المستطيل والدائري كما في مدينة مروب الأموية ١٠٥ – ١٢٥ هـ . /٧٢٣ – ٧٤٣م، والتي لم يكشف عنها بالكامل، ومدينة الزبارة الأثرية ١١٨٨ هـ ./ ١٧٧٤م، التي تحتوي على الكثير من المنشآت التاريخية المدنية والدينية والتجارية والاجتماعية والتحصينية(١٧). كذلك الحصون التي بنيت معظمها في الصحراء القطرية قريبا من الساحل التي أُمكن حصرها تقريباً في خمسة وعشرين حصناً، ما زال عددٌ كبيرٌ منها قائما حتى الآن، حيث يُعد حصن الحويلة القديم المندثر من أقدم الحصون الإسلامية

في قطر، الذي أرخ في دراسة حديثة في الفترة (٩٦٨- ٩٧١هـ ./ ١٥٦٠ - ١٥٦٣ م)[١٨].

كما تجدر الإشارة إلى التنوع الكبير للقلاع الإسلامية التي بنيت في شبه جزيرة قطـ ـر ذات الشكل المربع والمستطيل حيث تكتنف أركانها أبراج مستديرة وأخرى مستطيلة، وقد أمكن حصر هذه القلاع في عشرين قلعة بقي العديد منهـ ـا قائمـ ـاً حتـ ـى وقتنـ ـا الحاضر، حيث تحتاج لمرمة تظهر معالمها القديمة وتعيد ألقها الأصيل، ومنها قلعـ ـة فريحة المندثرة (١١٠٥-١١١١هـ . /١٦٩٣ - ١٦٩٩ م)، قلعة الرويـ ـضة (١١١٠- ١١٨٨هـ ./١٦٩٨- ١٧٧٤م)، قلعة اليوسفية (١١٧٥هـ ./ ١٧٦١م)، قلعـ ـة اركيـ ـات (١٢١٤ هـ . . ./١٧٩٩م) وقلعـ . ـة زكريـ . ـت (١٢٢٤ه/١٨٠٩م)، قلعـ . ـة الثغـ . ـب (١٢٣١هـ ./١٨١٥م)، قلعة الحويلة المندثرة (١٢٢٥هـ . ./١٨١٠م)، قلعـ ـة الوجبـ ـة (١٢٨٥هـ ./١٨٦٨م)، قلعة الكوت (١٢٩٨-١٣٢٤هـ . ./١٨٨٠- ١٩٠٦م)، وقلعـ ـة الزبارة (١٣٥٧هـ ./ ١٩٣٨م)، قلعة الوسيل، قلعة عذبة، قلعة أبو ظلـ ـوف، قلعـ ـة الجميلية، قلعة يغبي (يجبي)، قلعة مريخ (شعبية خليفة)، قلعـ ـة أم جاسـ ـم، قلعـ ـة القاعية، قلعة الوكرة، وقلعة الوكير[١٩].

قلعة آركيات:

تقع قلعة آركيات [الشكل رقم١٣] شمالي شبه جزيرة قطر وتبعد عن مدينـ ـة الزبـ ـارة التاريخية ٧ كم، تتفق المراجع الحديثة أن تاريخ هذه القلعـ ـة يعـ ـود إلـ ـى مـ ـا بـ ـين القرنين١١- ١٣هـ ./١٧-١٩م، وأرخت مؤخراً بسنة (١٢١٤هـ ./ ١٧٩٩م).[٢٠]

تتكون القلعة من مساحة مستطيلة الشكل يتوسطها فناء أوسط مكـ ـشوف تحـ ـيط بـ ـه مجموعة من الغرف ويكتنف أركان القلعة أربعة أبراج، أكبرها البرج الجنوبي الغربي وهو على هيئة ثلاثة أرباع الدائرة، أما الأبراج الثلاثة الأخرى فهي مستطيلة الـ ـشكل ويُتوَّج البرج الجنوبي الغربي صف من الشرفات المسننة، أما المدخل الرئيسي للقلعة

فيتوسط الجدار الجنوبي الغربي ويتوصل من دهليز يفتح على يسار الداخل فيه بـ ـابٌ يفضي لمسجد صغير.

ولقلعة آركيات أربع واجهات وتعد الواجهة الجنوبية الغربية الواجهة الرئيسية للقلعـ ـة، وقد بنيت القلعة من الحجر في القسم الأسفل أما القسم العلوي فاستخدم فيـ ـه الط ـوب اللبن، وقد غطيت بطبقة من البولستر المكون من الجـ ـص والطـ ـين، ويوجـ ـد بهـ ـذه الجدران فتحات مستطيلة للمزاغل، وجدير بالذكر أن هذه القلعة كانت في حالة شـ ـبه مندرسة إلا أنه أعيد ترميمها في سنه ١٤٠٨هـ ./ ١٩٨٧م حيث أعيد بناء ما تهدم من العناصر المعمارية السابقة و يبلغ ارتفاع الجدران الآن ٢,٢٠ م أما الأبـ ـراج فيبلـ ـغ ارتفاعها ٣,٦٠م(٢١).

قلعة الثغب:

تقع قلعة الثغب [الشكل رقم١٤] في الجزء الشمالي من قطر وتبعد حـ ـوالي ١١٣ كـ ـم عن الدوحة العاصمة، وتتفق المراجع الحديثة أن تاريخ هذه القلعة يعود إلى مـ ـا بـ ـين القـ .رنين القـ .رنين١١– ١٣هـ .. ./١٧–١٩م، وقـ .د أرخـ .ت مـ .ؤخراً بـ .سنة (١٢٣١هـ ./١٨١٥م).(٢٢)

تتكون هذه القلعة من مساحة مستطيلة الشكل يتوسطها فناء أوسط مكشوف، وتحيط به أربعة جدران، تكتنفها أربعة أبراج، ثلاثة منها مستديرة وهي البرج الشمالي الغربي، والجنوبي الغربي، والجنوبي الشرقي، أما البرج الرابع الشمالي الشرقي فهو مستطيل الشكل.

ويقع المدخل الرئيسي للقلعة في الجدار الشمالي، تبرز كتلته عـ ـن سـ ـمت الواجهـ ـة الرئيسية، وهو منكسر يتوصل منه لفناء متوسط مستطيل الشكل يفتح عليه من ناحيـ ـة الشمال الشرقي حجرتان مستطيلتان تقعا خلف كتلة المدخل، وقد تعرضت هذه القلعـ ـة مثل غيرها لترميمات حديثة بدلت العديد من عناصرها الأصلية(٢٣).

مملكة البحرين:

تقع في منطقة متوسطة من الخليج العربي، وتتألف من أرخبيل يضم حوالي ثلاثاً وثلاثين جزيرة، أكبر هذه الجزر جزيرة البحرين التي أعطت اسمها لكامل الدولة، وتميزت البحرين بموقعها الاستراتيجي، وظلت منذ العصور القديمة محطة هامة على طريق التجارة الرئيسي، فكانت دلمون[٢٤] (الاسم القديم للبحرين) مركز تجميع وتبادل السلع التجارية الواردة من ملوخا (بلاد السند) ومن ماجان (عُمان)، حيث يعاد تصديرها إلى بلاد الرافدين شمالاً والمتوسط غرباً، يضاف لذلك تلك الشهرة العالمية للبحرين باعتبارها مصدراً رئيسياً لأفضل أنواع اللؤلؤ، وكل هذا كان يحقق لدلمون أرباحاً كبيرةً ساهمت في تطورها الحضاري منذ العصور القديمة[٢٥]، حتى جاء الإسلام الذي اعتنقه أهل البحرين مبكراً، وصاروا جزءاً من دولته، لهم ما لها وعليهم ما عليها[٢٦].

في عام ٩١٣هـ ./١٥٠٧م تمكن البرتغاليون من بسط نفوذهم على مناطق الخليج ومن بينها البحرين، التي لم يلبثوا أن خرجوا منها على يد العثمانيين، الذين بقوا حتى سنة ٩٨٨هـ ./ ١٨٥٠م، حين خرجوا بدورهم تحت الضغط البريطاني[٢٧]. وخلَّفت تلك الأحداث في البحرين العديد من القلاع والحصون التي بنيت بواسطة تلك القوى المتصارعة التي تداولت السيطرة على تلك الحصون والقلاع بحسب غلبتها.

القلعة الإسلامية:

تعتبر القلعة الإسلامية الواقعة إلى الغرب من مدينة المنامة على الساحل الشمالي من البحرين من أقدم القلاع الباقية فيها حيث ترجع أصولها للقرنين ٤-٥هـ . ./١٠-١١م، التي أكدت الدراسات الحديثة استمرارها قائمة بوظيفتها طوال العهود الإسلامية حتى مطلع القرن ٩هـ ./١٦م حين عمد البرتغاليين عندما دخلوا البحرين للاستفادة من

موقعها الاستراتيجي ومن حجارتها المختلفة، فأنشؤوا بجانبها قلعة عرفت بقلعة البرتغال أو قلعة البحرين.

قلعة البحرين (قلعة البرتغال):

من القلاع الضخمة، يتوسط واجهتها الرئيسة مدخل محصن يتقدمه خندق واسع كان يحيط بكامل القلعة ويتضح من الأساسات أنّ هذه القلعة قد بُنيت على أنقاضٍ أثريةٍ أعاد البرتغاليون ترميمها وتوسعتها في سنة١٥٢٢م.

قلعة عراد:

بُنيت هذه القلعة على أنقاضٍ أثريةٍ لقلعة برتغالية من سنة (١٢١٥هـ ./ ١٨٠٠م) والقلعة في مجملها شُيدت على نمط القلاع العثمانية في مسقط حين تبعت البحرين آنذاك للحكام العثمانيين.

قلعة الرفاع:

بُنيت من عهد الشيخ سليمان بن أحمد الفاتح في سنة ١٢٢٧هـ ./١٨١٢م فوق جرفٍ يسيطر على المنطقة الصحراوية المنخفضة الواقعة بالقرب من مستطنة شرق الرفاع القديمة [الشكل رقم١٥].

قلعة بو ماهر:

أمر ببنائها الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة سنة (١٢٨٦هـ ./١٨٦٩م)، وهي عبارة عن قلعة صغيرة الحجم بُنيت من الحجر، وقد تمّ الكشف عن أساساتها وترميمها.

دولة الكويت:

تقع أراضي الكويت في الزاوية الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة العربية مطلة على الخليج العربي في رأس ساحله الغربي، وتتكون من البر الرئيسي وجزيرة فيلكه،

وتعود الجذور الحضارية للكويت للعصور القديمة، حيث لعبت دوراً هاماً بسبب موقعها الاستراتيجي وباعتبارها جزءاً من دلمون القديمة في التجارة بين ماجان (عُمان) وملوخا (وادي السند) ودول بلاد الرافدين[٢٨]، وقد دخل أهل الكويت الإسلام تلبية لدعوة الرسول الكريم (ص) على يد العلاء بن الحضرمي مع من دخل فيه من أهل الشاطئ الغربي للخليج العربي الذي عني الخلفاء والسلاطين المسلمين دائماً بسلامته وبتوطيد أمنه.

وقد تأثرت العمارة الدفاعية هنا كالعادة بطبيعة الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدها الخليج العربي بشكل عام منذ مطلع القرن ١٠هـ ./١٦م، وخاصة بعد سنة ٩٢١هـ ./١٥١٥م، حيث تمكن البرتغاليون بعدها من السيطرة على كامل الخليج العربي ليصبح منطقة صراعات بين القوى المتصارعة عليه من البرتغاليين والعثمانيين والهولنديين والبريطانيين من طرف والسكان المحليين العرب من الطرف الآخر.

وقد بنيت في الكويت مجموعة من التحصينات الدفاعية على يد البرتغاليين وهي عبارة عن قلعتين بجزيرة فيلكا وأم النخل (القرين الكبيرة) اللتان ضاعت معالمهما ولم يبق منهما سوى بعض الأساسات المتناثرة، وجدير بالذكر أنه عثر بموقع القلعتين على كسر فخارية أرخت بالقرنيين ١١-١٢هـ ./١٧-١٨م.

كما أكدت الاكتشافات الأثرية أن الموقع المسمى قصر الشيخ (قصر الصبية) الذي يقع في منطقة الصبية هو في الأصل عبارة عن قلعة محصنة تميزت بأهمية موقعها وقوة تحصينها.

الجمهورية اليمنية:

تقع بلاد اليمن جنوبي شبه الجزيرة العربية، يحدها من الشمال السعودية ومن الشرق عُمان، وتمتد أراضيها على سواحل بحر العرب والبحر الأحمر وتُشرف على مضيق

باب المندب، وتتميز اليمن بتنوع مظاهر السطح الجغرافي ما بين سد واحل وجب ال وهضاب وصحراء مما عكس تنوعاً مناخياً خاصاً، وساعدت تلك العوام ل الطبيعي ة والجغرافية والتاريخية اليمن على قيام حضارات مزدهرة تعاقبت على أرض ال يمن حتى عُرف باليمن السعيد، وقد دخل الإسلام هذه البلاد في سنة (٨هـ ./ ٦٣٠م).

وقد عرفت اليمن عبر التاريخ اهتماماً خاصاً بتشييد القلاع والحصون وزاد ه ذا الاهتمام منذ مطلع القرن ١٠هـ ./١٦م بسبب ماعانته المنطقة من التدخل الأجنبي ف ي أراضيها(٢٩) حتى صارت هذه القلاع والحصون حتى وقتٍ قري ب الم صدر الأه م لسلطان الدولة ونفوذها. فلم تقم باليمن دولةٌ دون أن يكون لها قلعةٌ تُتخذ مقراً لحكمها وقاعدةً لمُلكها، مما انعكس غنىً وتنوّعاً للعمارة الدفاعية فيها.

بالرغم من أنّ الذي وصلنا من هذه القلاع والحصون يُعتبر جزءاً بسيطاً مم ا ك ان وأضاعه الزمن دون أن يُبقي منه سوى أخبارٍ متناثرةٍ في المصادر القديمة، فإنّ الباقي منها اليوم والمتناثر في الأراضي اليمنية الوعرة يُعد مثالاً صادقاً لأنماط تلك العمارة المميزة، وتعتبر قلعة تعز من أهم القلاع اليمنية التي تعطينا مثالاً جيداً عنها.

قلعة تعز (القاهرة):

تقع هذا القلعة على سفح جبل صبر فوق مرتفع صخري يط ل عل ى مدين ة تع ز، وعرفت قديماً بقلعة تعز إلا أن هذا الاسم لم يدم طويلا فأطلق عليها فيما بع د "قلع ة القاهرة" [الشكل رقم١٦] لينتقل الاسم القديم ويطلق على المدينة نفسها. كما أنها تعرف حالياً بالعديد من التسميات منها "القلعة الحمراء" و"دار الأدب" و"حصن تعز" بالإضافة إلى "قلعة القاهرة".

وتعتبر قلعة تعز رمزاً يؤرخ لتاريخ المدينة نفسها حيث يرجح أن أصول هذه القلع ة تعود إلى العصر الحميري، أي عصور ما قبل الإسلام، حتى أعيد بناؤها بشكل كامل في عهد الدولة الصليحية (٤٣٦-٥٣٢هـ .) (١٠٤٥- ١١٣٨م) على يد السلطان عبد

الله بن محمد الصليحي شقيق الملك علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية، وخلال الحكم العثماني لليمن في العام (٩٤٦-٩٦٢هـ ./١٥٣٩-١٥٥٥م) تعرضت هذه القلعة لتجديد شامل غيَّر الكثير من معالمها القديمة بشكل تناسب مع المتطلبات الدفاعية الملحَّة للعثمانيين آنذاك.

وتعتبر هذه القلعة من أحصن القلاع اليمنية فقد استخدمها الـ صليحيون والعثم انيون وكذلك الأئمة للدفاع عن مدينة تعز وما حولها من الهجمات التي كانت تشن على هذه المنطقة، وللسيطرة على الأمن والاستقرار حيث تشرف هذه القلعة بشكل مباشر على خط القوافل التجارية القديمة الشهيرة والمعروفة بطرق التجارة والمتجهة إلى البحـ ر الأحمر.

يحيط بالقلعة سور دائري يبلغ طوله ٣٥٥م تتوسطه أبراج مربعة. للقلعـ ـة مـ دخلان، المدخل الرئيسي من الجهة الشمالية والمدخل الآخر من الجهة الجنوبية، وأضاف إليها الإمام يحيى وابنه احمد قصراً في وسطها مع نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات مـ ـن القرن المنصرم، ويلفت النظر بهذه القلعة تلك البرك الست التي بنيت كخزانات لمياه الأمطار، وقد ظلت القلعة تؤدي دور هاماً حتى القرن العشرين حيث حُوِّلت لـ سجن رئيسي.

ومن القلاع الأخرى الهامة باليمن قلعة حديثة في مدينة ثلا، وقلعة البيضاء في مدينـ ـة البيضاء، وحصن الدلموة في مديرية الصلو بمنطقة الحجرية جنـ ـوب تعـ ـز، وكـ ذلك حصن العروس الواقع بمنطقة بني مطر في محافظة صنعاء.

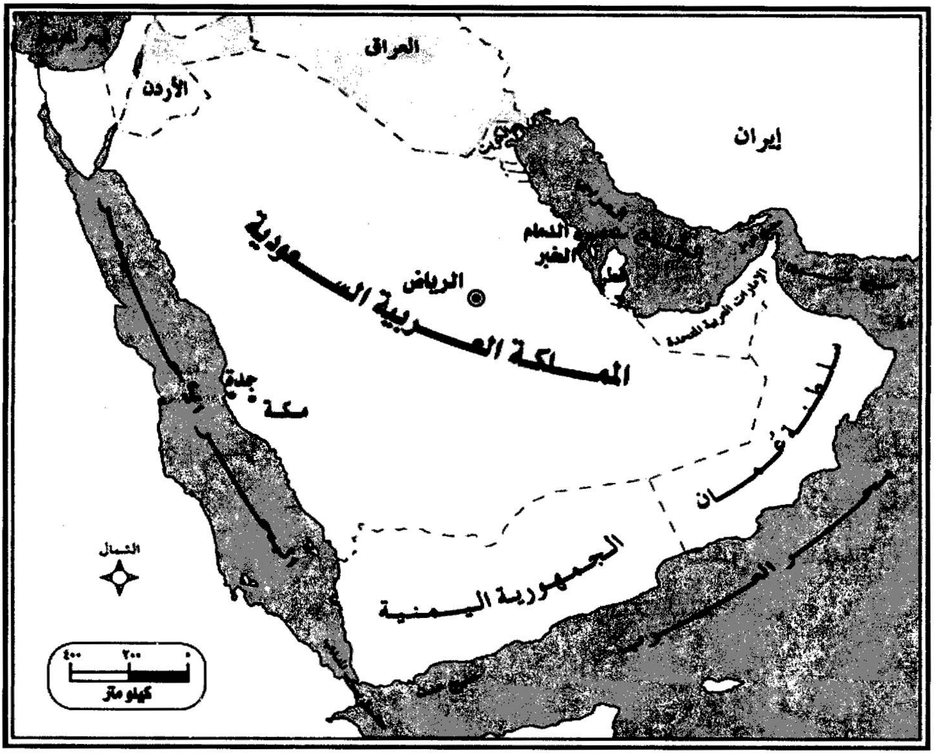
وختاماً فقد أظهرت الدراسة تلك الوحدة المعمارية الأصلية في الشكل والمضمون التي تربط كامل شبه الجزيرة العربية في الفترة بين مطلع القرن١٠هـ ./١٦م حتى بدايات القرن١٢هـ .-١٨م بكل ما فيها من أنواع وطرز العمائر العسكرية، وركزت الدراسة بنفس الوقت على إظهار مظاهر التفرد والتميز التي ظهرت في عمارة كل إقليم مـ ـن

أقاليم شبه الجزيرة العربية تحت تأثير العامل الجغرافي والمنـاخي، وأيـضاً العامـل التاريخي الذي ترك أثراً كبيراً على تطور العمارة العسكرية في شبه الجزيرة العربية منذ بداية الفترة المحددة للبحث، حيث لعب العثمانيون دوراً ظاهراً في ذلك.

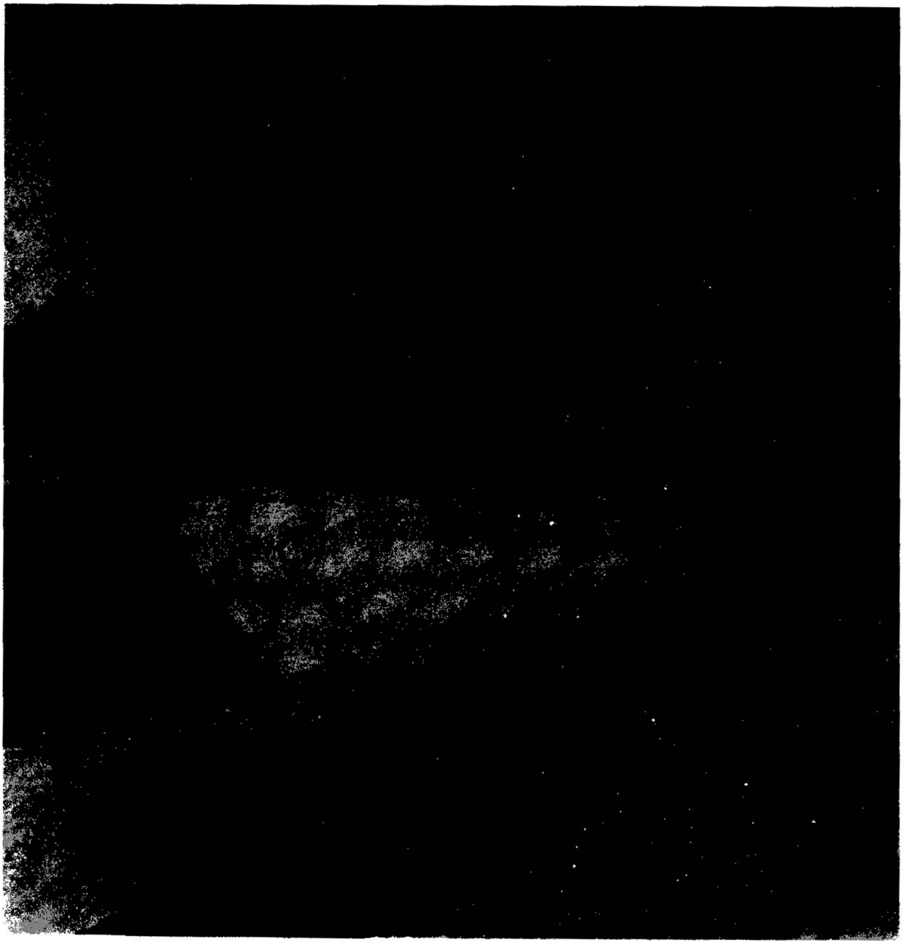
هذا وبينت الدراسة من خلال عرضها للنماذج المتكاملة للعمائر العسكرية تلك الأهمية الكبيرة للنماذج الباقية التي تشكل جزءاً هاماً من التراث المعماري التقليدي لكامل شبه الجزيرة العربية، هذا التراث الذي يقع اليوم تحت تهديـد الـزوال نتيجـة التطـور العمراني الكبير الذي تشهده الدول الحالية لشبه الجزيرة العربية مما يستدعي أقـصى درجات الحذر والاهتمام من الجهات الحكومية والأهلية المعنية بالمحافظة على التراث من أجل تفعيل آليات الحفاظ عن طريق وضع خطط التأهيل بما يخدم غايات الحمايـة وحسن التوظيف.

أشكال بحث:

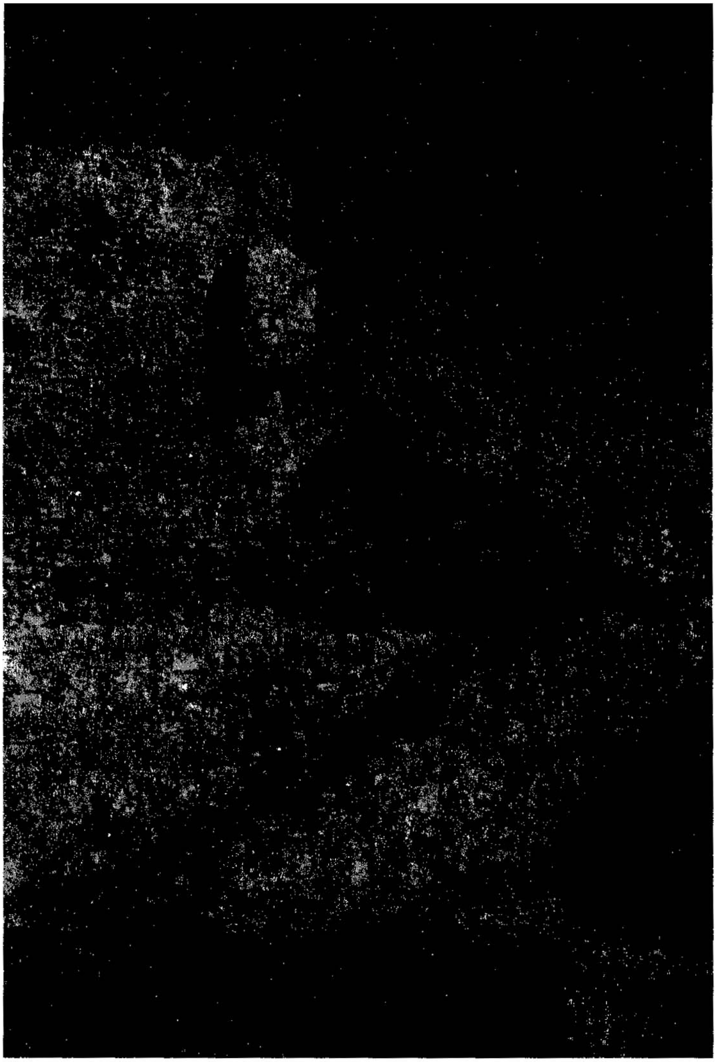
القلاع والحصون:



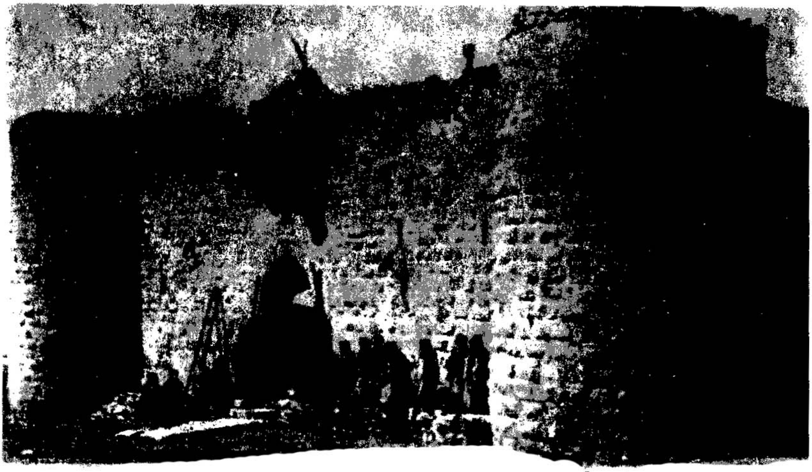
الشكل رقم ١ : خريطة شبه الجزيرة العربية مبين عليها دول حسب الواقع الحالي.



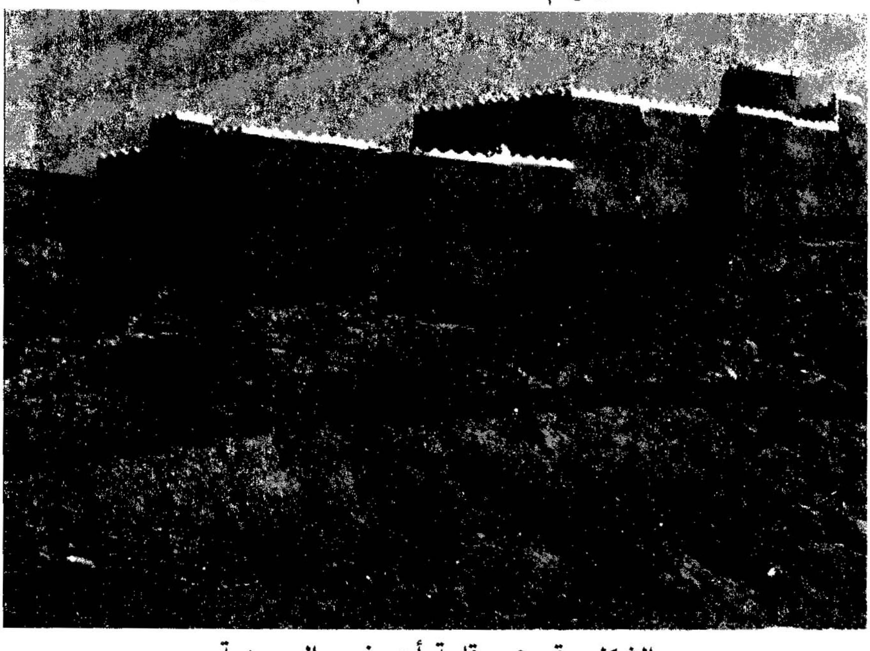
الشكل رقم ٢ : قلعة زمرد – السعودية



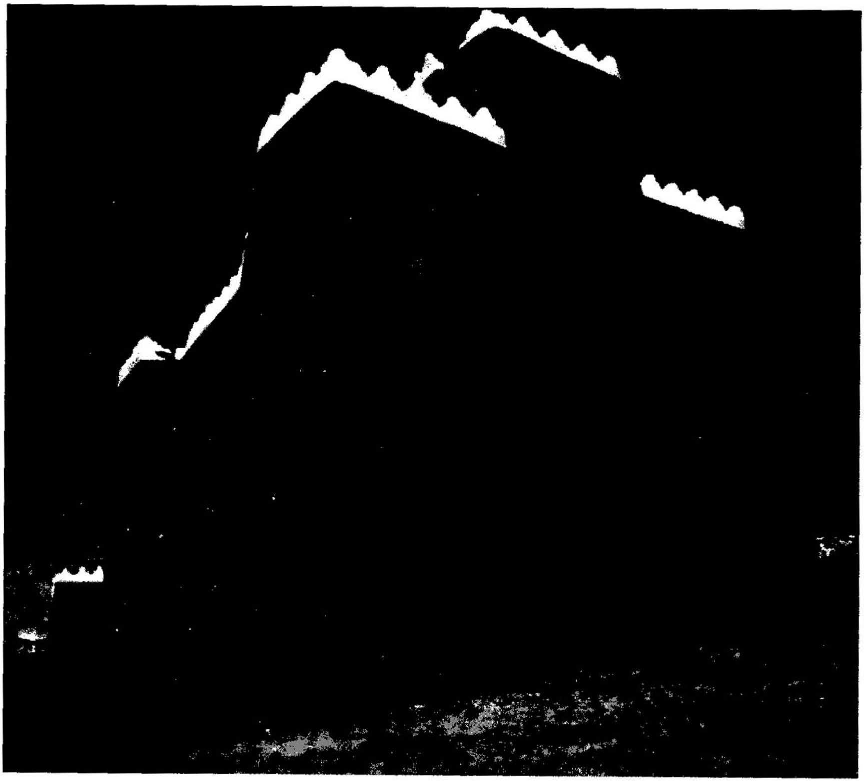
الشكل رقم ٣ : قلعة زمرد- السعودية - جانب من التحصينات الداخلية



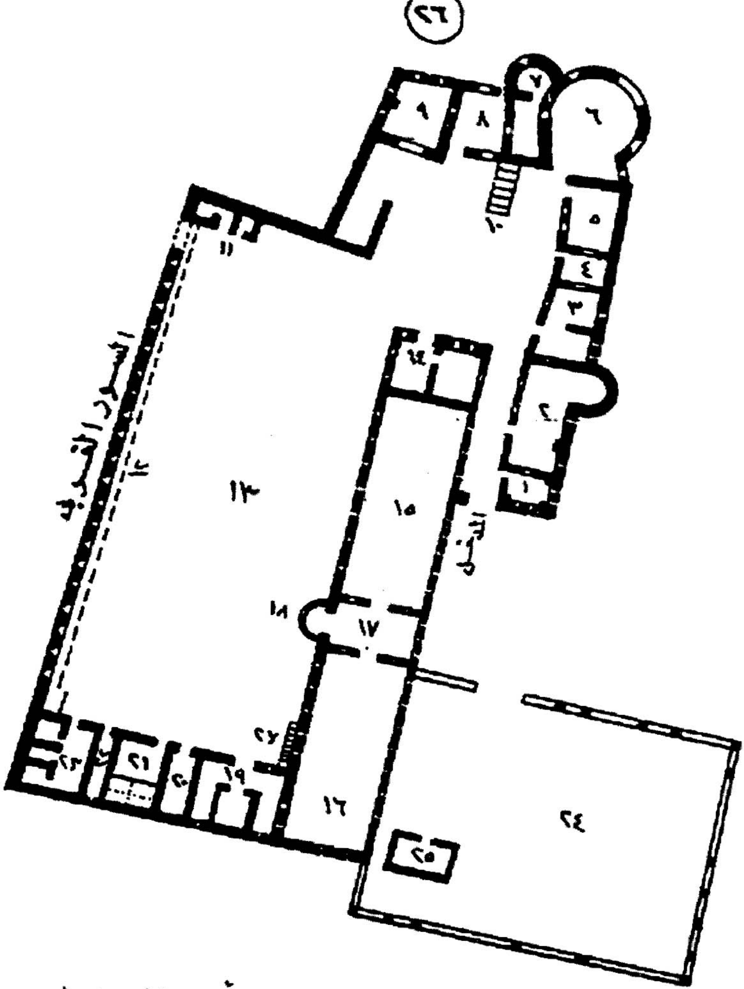
الشكل رقم ٤ : قلعة المعظم – السعوديه



الشكل رقم ٥ : قلعة أعيرف– السعودية

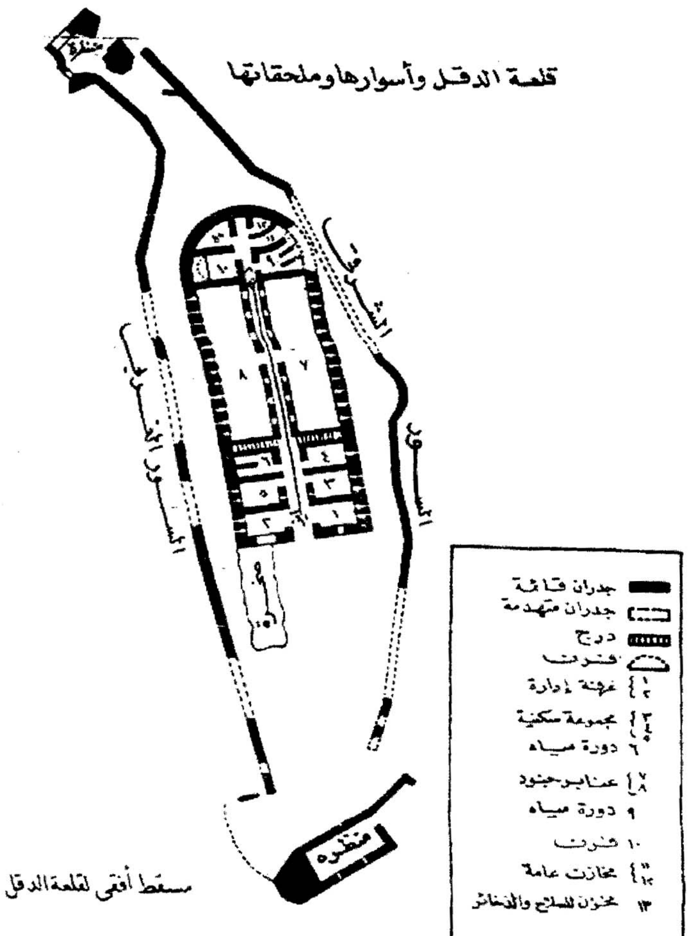


الشكل رقم ٦ : قلعة أعيرف– السعودية – أحد الأبراج الرئيسية

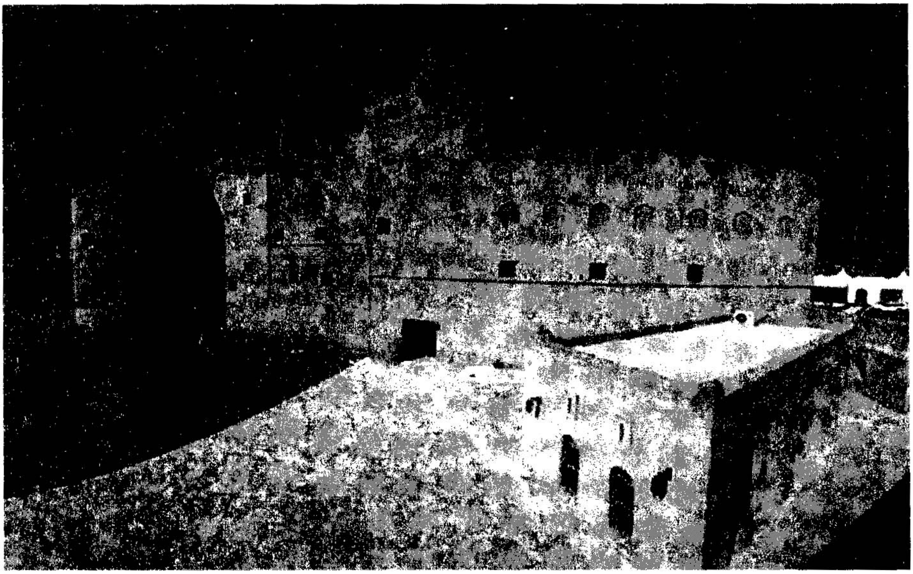


مسقط أفقي لقلعة شعار

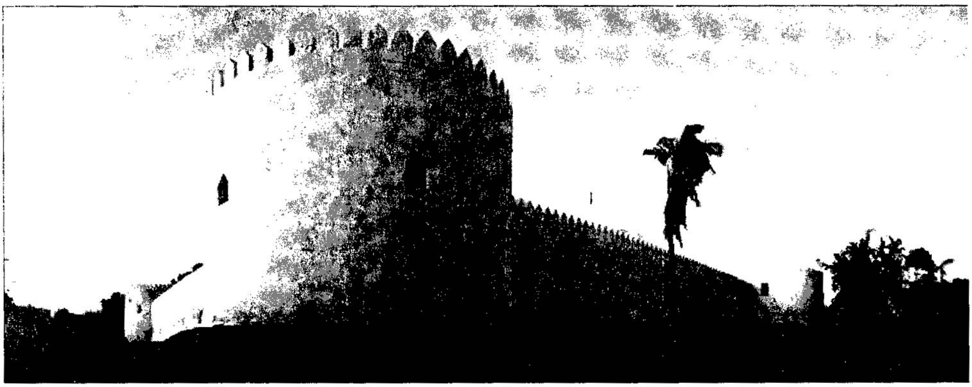
الشكل رقم ٧: قلعة الشعار- السعودية



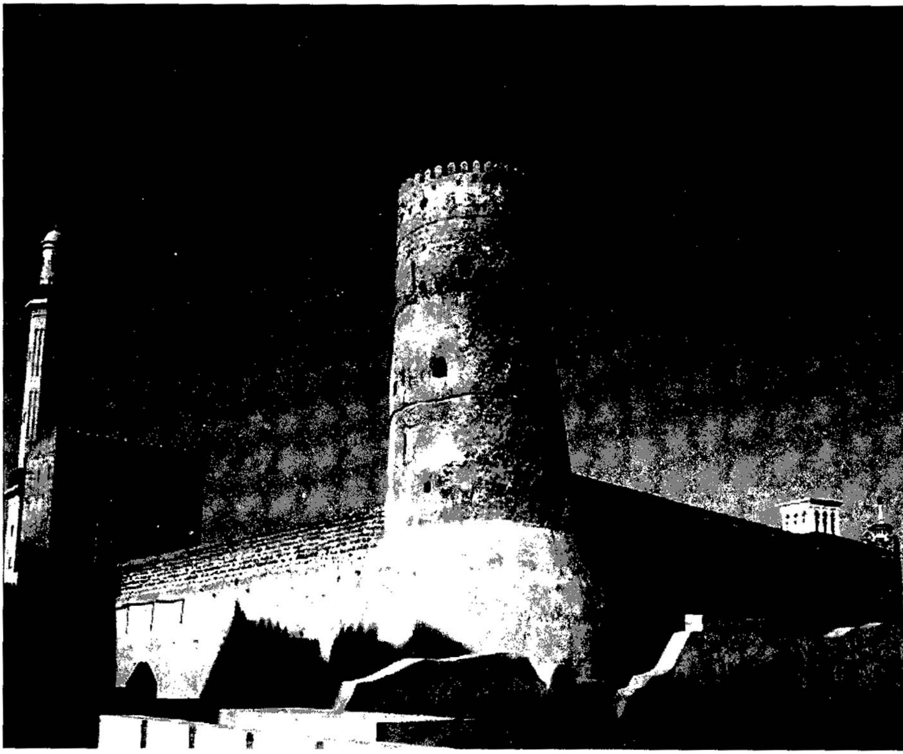
الشكل رقم ٨ : قلعة الدقل – السعودية– مسقط أفقي



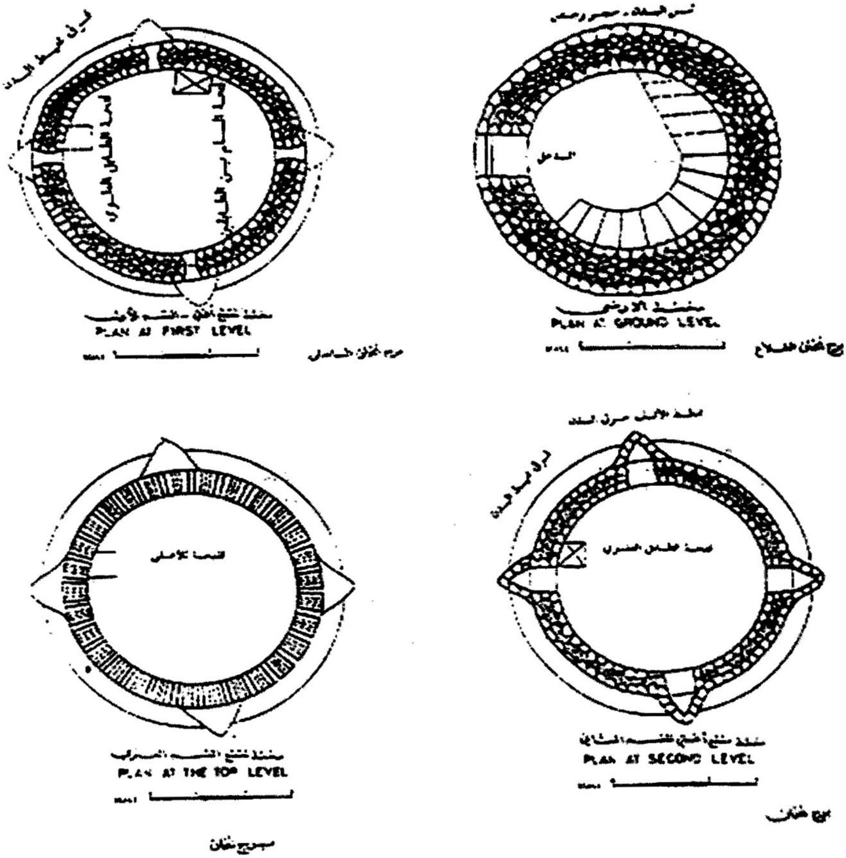
الشكل رقم ٩: حصن جبرين- سلطنة عمان



الشكل رقم ١٠: قلعة صحار_سلطنة عمان



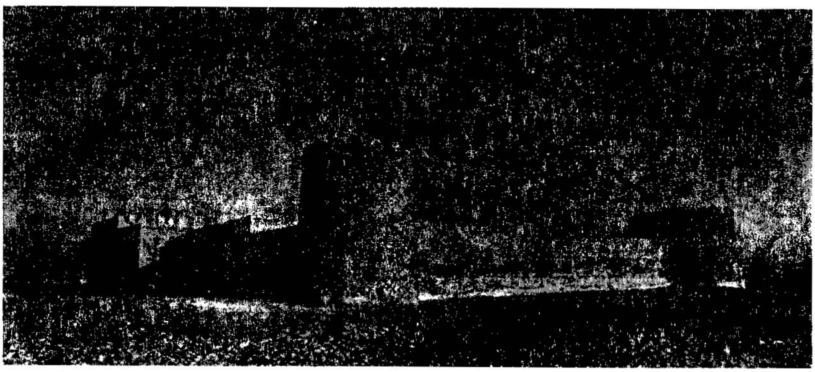
الشكل رقم ١١: قلعة الفهيدي- الإمارات العربية المتحدة



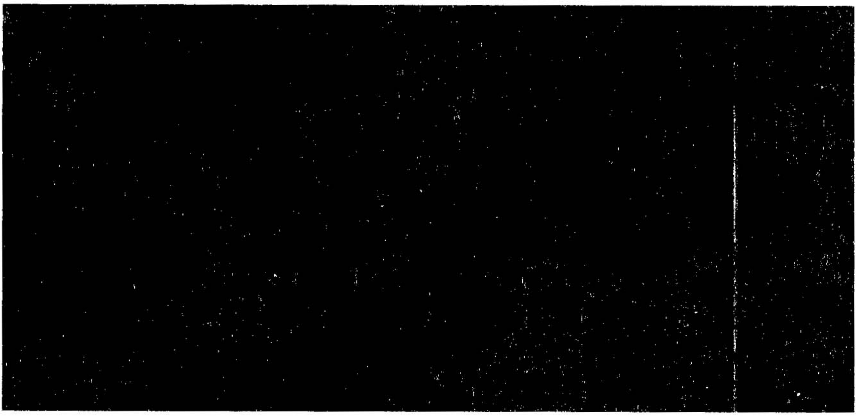
الشكل رقم ١٢: مسقط أفقي للتكوينات المعمارية –لأحد أبراج الشارقة



الشكل رقم ١٣ : قلعة أركياد-- قطر – صورة جوية قبل الترميم



الشكل رقم ١٤ : قلعة الثغب – قطر



الشكل رقم ١٥ : قلعة الرفاع – مملكة البحرين



الشكل رقم ١٦ : قلعة تعز (القاهرة) – الجمهورية اليمنية

الحواشي

(١) أنظر :

- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيت ٣٨٠ هـ ./٩٩٠ م، **المسالك والممالك**، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٧٢م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيت ٣٨٠ هـ . / ٩٩٠ م، **صورة الأرض**، مكتبة الحياة ، بيروت ١٣٩٩هـ . / ١٩٧٩ م.
- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت ٢٧٢هـ . / ٨٨٥ م، **المسالك والممالك**، ليدن ١٨٨٩ م.

(٢) رافق، عبد الكريم، **المشرق العربي في العهد العثماني**، مطبعة رياض، دمشق ١٩٨٩، ص١٢-١٥.

(٣) صابان، سهيل، **مصادر تاريخ الجزيرة العربية في تركيا**، مكتبة الملك فهد، الوطنية، الرياض ١٤٢٣ هـ . / ٢٠٠٢ م.

(٤) حول المصطلحات المعمارية أنظر:

- رزق، عاصم، **معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية**، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.
- أمين، محمد، ليلى إبراهيم، **قاموس المصطلحات الأثرية والوثائقية**، مطبعة الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠.

(٥) الخضراوي، محمود رمضان عبد العزيز، **السمات المعمارية العامة للعمارة الدفاعية الإسلامية في دولة قطر**، دراسة آثارية حضارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠٠٥م، ص١-٣. وسنرمز له لاحقاً بـ ."**السمات المعمارية**".

- الصفدي، هشام، وآخرون، **الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي**، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٩٨٨، ص١٤٧،٨٧-١٤٨. وسنرمز له لاحقاً بـ ."دليل الخليج".
- نجاح، محمد، **تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث**، منشورات جامعة دمشق، سوريا ١٤٢٢- ١٤٢٣ هـ . / ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣م.

(٦) ابن خميس، عبد الله بن محمد، المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية **(معجم اليمامة)**، جزءان، الطبعة الأولى، المديرية العامة للصحافة، وزارة الأعلام، المملكة العربية السعودية ١٣٩٨ هـ . / ١٩٧٨م.

(٧) دليل الخليج، ص٣٢٧.

(٨) دليل الخليج، ص٣٢٨.

(٩) الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، يوسف. فرج الله أحمد، حائل ديرة حاتم **(سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور)**، دار القوافل للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٥، ص٨٣.

(١٠) خضراوي، محمود رمضان عبد العزيز، **المقومات الطبيعية للسياحة في دول مجلس التعاون الخليجي**، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط٢٠٠٧،١، ص٢٥-٤٠.

(١١) رافق، المرجع السابق، ص٢٤٤-٢٥٢.

(١٢) للاستزادة أنظر: **دليل الخليج**، ص ٣٨ .٥١.

(١٣) عبد الجليل، محمد متحت جابر، **العمران التقليدي في دولة الإمارات العربية المتحدة**، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤، ص١٠٢-١١٠

- رجب، أحمد، العمارة الحربية في دولة الإمارات العربية المتحدة،
- العبودين ناصر حسين، **دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة**، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٠.

(١٤) خضراوي، محمود رمضان عبدالعزيز، **قطر في الخرائط الجغرافية والتاريخية**، مركز الحضارة العربية ،الطبعة الأولي،القاهرة ٢٠٠٦م.

(١٥) عاقل، نبيه، **انتشار الإسلام في الخليج زمن الرسول الكريم** (ملاحظات ومنطلقات للدراسة)، اتحاد المؤرخين العرب، لجنة تدوين تاريخ قطر، بحث نشر ضمن البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ص٩٧- ١٢٣، الجزء الأول، الدوحة - قطر، ٢١-٢٨ مارس ١٩٧٦ م.

(١٦) للاستزادة أنظر :

- الشيخ حسن بن محمد بن علي آل ثاني، **جذور قطر الحديثة ١٦٥٠-١٨١١ م**، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الزقازيق ١٩٩٧م.
- دليل الخليج، ص٥٥٥-٥٦٢ .

(١٧) - الخضراوي، **السمات المعمارية** .ص١٠١-١٣٥.

- التاجر، الشيخ محمد علي: **عقد اللآل في تاريخ أوال**، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، المنامة - البحرين ١٩٩٤م ،ص١٠٢ -١٠٣.
- ابن سند، عثمان البصري ت: ١٢٤٢هـ . - ١٨٢٦م : **سبايك العسجد في أخبار أحمد بن رزق الأسعد** - بومباي ١٣١٥هـ . / ١٨٩٧م ص١٨، ١٩.
- الشيخ، حسن بن محمد بن علي آل ثاني، **جذور قطر الحديثة ١٦٥٠-١٨١١م** كلية الآداب-جامعة الزقازيق ١٩٩٧م، (رسالة ماجستير غير منشورة ص٢٤٦ - ٢٦٢).

(١٨) **السمات المعمارية**، ص١٧٣-١٧٦.

- الخليفي، محمد جاسم، **آثار الزبارة ومروب**، المجلد الأول، إدارة السياحة والأعلام بوزارة الأعلام، الدوحة . قطر ١٩٨٧.
- القاسمي، سلطان بن محمد، **يوميات ديفيد سيتون في الخليج ١٨٠٠-١٨٠٩ م**، ط١، الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

١٩٩٤ م، ص٣٩ -٠ . حيث كان ديفيد سيتون قد زار حصن الحويلة ووصفه بدقة.

(١٩) الخليفي، محمد جاسم، **العمارة التقليدية في قطر**، الطبعة الثالثة - إدارة المتاحف والآثار بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث - الدوحة، ٢٠٠٣ م، ص ٥٧-١١٤، وسنرمز له لاحقاً بـ ." العمارة التقليدية في قطر".

- **السمات المعمارية**، ١٤٦-٢١٩.

(٢٠) **السمات المعمارية**، ١٩٧.

(٢١) **السمات المعمارية**، ١٩٧-١٩٩.

- الخليفي، **العمارة التقليدية في قطر**، ٦٨-٧٢.

(٢٢) **السمات المعمارية**، ٢٠٠.

(٢٣) الخليفي، **العمارة التقليدية في قطر**، ص٧٣-٧٦.

- السمات المعمارية، ٢٠٠ - ٢٠٠١.

(٢٤) عبد الحميد، سعد زغلول، البحرين وقطر **(الأصول القديمة للمسميات الحديثة في المكتبة الجغرافية العربية)**، اتحاد المورخين العرب، لجنة تدوين تاريخ قطر، بحث نشر ضمن البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ص ٣٩-٥٧، الجزء الأول، الدوحة - قطر، ٢١-٢٨ مارس ١٩٧٦ م.

(٢٥) للاستزادة أنظر : **دليل الخليج**، ص٨٨ . ١٠٠.

(٢٦) العاقل، المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢٧) للإستزادة انظر: - الريحاني، أمين، **ملوك البحرين**، الطبعة الخامسة، بيروت، لبنان، ١٩٦٧ م.

(٢٨) للاستزادة انظر: **دليل الخليج**، ص١٣٢.

(٢٩) رافق، المرجع السابق، ص٥٣-٥٦.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر

- **ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيت** ٣٨٠ هـ . ./ ٩٩٠ م، المسالك والمملك، مطبعة بريل، ليدن ١٨٧٢م.

- **ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيت** ٣٨٠ هـ . ./ ٩٩٠ م، صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت ١٣٩٩هـ ./ ١٩٧٩ م.

- **ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله** ت ٢٧٢هـ . ./ ٨٨٥ م، المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩ م.

ثانياً- المراجع العربية

- **الباشا، حسن**، الآثار الإسلامية بالجزيرة العربية، القاهرة، دار النهضة العربية١٩٦٦.

- **ابن خميس. عبد الله بن محمد**، المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية (معجم اليمامة)، جزءان، الطبعة الأولى، المديرية العامة للصحافة، وزارة الأعلام، المملكة العربية السعودية ١٣٩٨هـ ./ ١٩٧٨م.

- **ابن سند.عثمان البصري** ت : ١٢٤٢هـ . - ١٨٢٦م، سبايك العسجد في أخبار أحمد بن رزق الأسعد، بومباي ١٣١٥هـ ./ ١٨٩٧م.

- **الأنصاري. عبد الرحمن الطيب، يوسف . فرج الله أحمد**، حائل ديرة حاتم (سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور)، دار القوافل للنشر والتوزيع، الرياض ٢٠٠٥.

- **أمين. محمد، ليلى إبراهيم**، قاموس المـ صطلحات الأثريـ ـة والوثائقيـ ـة، مطبعـ ـة الجامعة الأمريكية، القاهرة، ١٩٩٠.

- **التاجر. الشيخ محمد علي**، عقد اللآلىء تاريخ أوال، مؤسـ ـسة الأيـ ـام للـ ـصحافة والطباعة والنشر، المنامة، البحرين ١٩٩٤ م.

- **الخليفي. محمد جاسم**، آثار الزبارة ومروب المجلد الأول، إدارة السياحة والأعلام بوزارة الأعلام، الدوحة. قطر ١٩٨٧ م.

- **الخليفي .محمد جاسم**، العمارة التقليدية في قطر، الطبعة الثالثة – إدارة المتاحف والآثار بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث – الدوحة، ٢٠٠٣ م.

- **العبودي. ناصر حسين**، دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٠.

- **الصفدي. هشام**، وآخرون، الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخلـ ـيج العربـ ـي، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٩٨٨.

- **القاسمي . سلطان بن محمد**، يوميات ديفيد سيتون في الخليج ١٨٠٠ –١٨٠٩ م، ط١، الخليج للصحافة والطباعة والنشر ، الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحـ ـدة ١٩٩٤ م.

- **خضراوي. محمود رمضان عبد العزيـ ـز**، المقومات الطبيعية للـ ـسياحة فـ ـي دول مجلس التعاون الخليجي، مركز الحضارة العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ .

- **خضراوي. محمود رمضان عبد العزيز**، قطر في الخرائط الجغرافية والتاريخيـ ـة، مركز الحضارة العربية، الطبعة الأولي،القاهرة، ٢٠٠٦م.

- **رافق. عبد الكريم**، المشرق العربي في العهد العثماني، مطبعة ريـ ـاض، دمـ شق ١٩٨٩.

- **رزق. عاصم**، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسـ ـلامية، مكتبـ ـة مـ ـدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

- **صابان. سـ ـهيل**، مصادر تاريخ الجزيرة العربية في تركيا، مكتبـ ـة المـ ـلك فهـ ـد، الوطنية، الرياض ١٤٢٣ هـ ./ ٢٠٠٢ م.

- **عبد الجليل. محمد مدحت جابر**، العمران التقليدي في دولـ ـة الإمـ ـارات العربيـ ـة المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤.

- **نجاح. محمد**، تاريخ شبه جزيرة العرب الحديث، منشورات جامعة دمشق، سوريا ١٤٢٢- ١٤٢٣ هـ ./ ٢٠٠٢ – ٢٠٠٣م.

ثالثاً- الرسائل الجامعية

- **آل ثاني. الشيخ حسن بن محمد بن علي**، جذور قطر الحديثـ ـة ١٦٥٠-١٨١١م، كلية الآداب-جامعة الزقازيق ١٩٩٧م، رسالة ماجستير غير منشورة .

- **الخضراوي. محمود رمضان عبد العزيز**، الـ ـسمات المعماريـ ـة العامـ ـة للعمـ ـارة الدفاعية الإسلامية في دولة قطر،دراسة آثاريه حضارية،رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠٠٥.

رابعاً- الدوريات:

- **عاقل .نبيه**، انتشار الإسلام في الخليج زمن الرسول الكريم (ملاحظات ومنطلقات للدراسة)، اتحاد المؤرخين العرب ، لجنة تدوين تاريخ قطر ، بحـ ـث نـ ـشر ضـ ـمن

البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربيـ ـة الجـ ـزء الأول ، الدوحة – قطر، ٢١-٢٨ مارس ١٩٧٦ م .

- **عبد الحميد. سعد زغلول**، البحرين وقطر (الأصول القديمة للمسميات الحديثة فـ ـي المكتبة الجغرافية العربية)، اتحاد المؤرخين العرب، لجنة تدوين تاريخ قطر، بحـ ـث نشر ضمن البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، الجزء الأول، الدوحة – قطر، ٢١-٢٨ مارس١٩٧٦ م.

أوضاع ليبيا مابين الاحتلال الأسباني والنجدة العثمانية ١٥١٠ -١٥٥١م

د إبراهيم علاء الدين

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة تشرين

تمهيد تاريخي:

بعد أن سقطت طرابلس في أيدي القوات الأسبانية في ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م، وصفها قائد الحملة الكونت (بدرو دي نافارو) من خلال الرسالة التاريخية التي بعث بها إلى نائب الملك بصقلية، ينقل فيها خبر احتلال المدينة بقوله: ((سيدي إن هذه المدينة لهي أكبر في واقعها مما كنت أتصور، ورغم أن الذين يشيدون بها ويطرونها يتحدثون عنها حديثاً حسناً إلاّ أني أرى أنهم لم يقولوا إلا نصف الحقيقة سواء فيما يتصل بتحصيناتها أو نظافتها حتى لتبدو مدينة إمبراطور أكثر منها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص))(١)، ولقد كانت هذه الشهادة التي سجلها بدرو دي نافارو بعد احتلاله لمدينة طرابلس دلالة على المكانة التي كانت تتمتع بها بين المواقع الساحلية للشمال الإفريقي، ويقدم لنا أيضاً أحد رجال الحملة الأسبانية وهو باتستينو دي تونيس Batistino de Tonis وصفاً لمدينة طرابلس في تلك الفترة بقوله: ((تقع مدينة طرابلس

في سهل وهي مربعة الشكل، ويحيط بها سور يمتد أكثر من ميل، ولها سوران مزدوجان، تَحُف بهما خنادق منخفضة ضيقة، السور الأول صغير ومنخفض وهو ما عبر عنه الرحالة التجاني بكل دقة[٢]، أما السور الثاني فهو مرتفع جداً وفخامته متناسبة مع الأبراج، وهي ذات مواقع دفاعية ضخمة ومحاطة بالبحر من جهاته الثلاث، ولها ميناء ممتاز قادر على إيواء أربعمائة سفينة، ومن أجل ذلك كان ضياع المدينة مبعثاً للأسى والأسف ويقال: إن سكانها أكثر من عشرة آلاف نسمة من العرب وبعض اليهود))[٣].

ونستخلص من هذه الأوصاف الأسبانية لمدينة طرابلس في تلك الفترة الوقائع المحددة التالية: إن مدينة طرابلس كانت مدينة مزدهرة شاعت لها سمعة الرفاهية والرخاء لدى الأوربيين وهو ما يعكس بصورة واضحة تلك الفرحة التي عمت الأوساط المسيحية لوقوع هذه المدينة في قبضة الأسبان، وما كان لها من صدى كبير في المظاهرات التي نظمت في بعض مدن إيطاليا وتبادل التهاني بين مرشد رودس ودوق البندقية وبين شارل الخامس الأسباني، الأمر الذي يؤكد الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها مدينة طرابلس، كما أن مدينة طرابلس كانت في ذلك الوقت مدينة تجارية يتردد عليها التجار العرب وتجار الشمال الإفريقي إلى جانب العثمانيين والجنوبيين والصقليين والمالطيين، أضف إلى ذلك أنها كانت تملك ميناءً قادراً على أن يستوعب أربعمائة قطعة بحرية من مختلف الأحجام، ذلك كله يؤكد الأهمية البحرية والصلات التجارية التي قامت بينها وبين الموانئ العربية في الشرق والغرب والموانئ الأوروبية في الشمال. ولابد أن نشير هنا إلى أن الاحتلال الأسباني قد اقتصر على مدينة طرابلس وقلعتها، ولم يستطع أن يتعدى إلى أبعد من ذلك، وإلى الشرق كانت مدينة تاجوراء* التي شكلت قاعدة حربية هامة تتجمع فيها وتنطلق منها حركة المقاومة ضد الوجود الأسباني، ولقد تأثرت مدينة طرابلس من خلال هذا الاحتلال الذي حد من نشاطها وقضى على حركتها التجارية وقطع صلاتها بين الشرق والغرب

والبر والبحر؛ إذ عاشت الحامية الأسبانية طوال هذه الفترة في وضع حرب ي قل ق، متعرضة باستمرار لهجمات الأهالي الذين كانوا يبذلون الجهود لاسترداد المدينة وطرد المحتلين الأسبان منها، كما أن الأسبان لم يكونوا مهتمين بالمدينة وتطورها خلال هذه الفترة بقدر انشغالهم بالدفاع عن أنفسهم من هجمات الثوار، فصرفوا جل الوقت ف ي الأعمال الدفاعية وفي تحصين قلاع المدينة وأسوارها القديم ة(٤)، ويف سر ازده ار طرابلس على مدى القرون كونها نقطة إعادة تصدير في طرق التجارة الت ي ت صل الشرق بالغرب، فإليها ينتهي طريق القوافل الذي يخترق الصحراء ويمتد عبر مناطق غات* مرزق* ويتواصل بعد ذلك جنوباً إلى بحيرة تشاد، فالمصدر الرئيس الذي ه و أساس وجود سكان المدينة كان التجارة عبر الصحراء والتجارة بين الشرق والغرب، فالقوافل والسفن المتوالية كانت تصل إليها بمختلف البضائع، بينما في سنوات السيطرة الأسبانية تقلص دور طرابلس وأهميتها في التجارة(٥)، حيث عمل الأسبان على ضمان احتكار النشاط التجاري، بفرض الضرائب الباهظة على البضائع المنافسة الواردة من موانئ أخرى، وأخذ الوضع التجاري ينهار بسرعة، وقل عدد السفن الوافدة إلى ميناء طرابلس، وتحول القسم الأكبر إلى الموانئ الفرعية الأخرى، وزادت من هذه الأزم ة هجرة السكان وعزلة المدينة، حيث كان الثوار يمنعون أية حركة منتظم ة تتج اوز أسوارها للاتصال بالدواخل والمراكز الساحلية الأخ رى، بينما انتعشت حركة تجارية في الموانئ الصغيرة على الساحل الطرابلسي والبعيدة عن السيطرة الأسبانية، ولم تعد مراكب البندقية تجد من المناسب لها التوقف في ميناء طرابلس، وتحولت إلى الرسـ و في ميناء مصراته ويسمونها (Mazerata).(٦)

وهكذا انهارت مدينة طرابلس في ظل الاحتلال الأسباني، وضعف مركزها التجاري، وهجرها سكانها إلى الضواحي، كما قُتل عدد منهم وأُسر البعض الآخر، مما يؤكد لنا الصورة المأساوية للمدينة، التقرير الذي قدمته البعثة الفنية التي أوفدتها هيئة فرسـ ان مالطا للاطلاع على أحوال طرابلس، وتكوين فكرة عنها قبل اتخاذ الموقف النهائي من

عرض الإمبراطور شارل الخامس بالتنازل عن طرابلس لهم مع جزيرة مالطا، وقد تركز تقريرهم على أحوال المدينة والسور والميناء، فذكروا أن المدينة تقع في مكان صحي، ويحيط البحر بثلثيها، أم الثلث الباقي فيحيط به سور دائري طوله ٣٧٢٨ خطوة، وقد دُمرت مسافة من السور تبلغ مائتي خطوة بقصد الاستفادة من موادها في تحصينات القلعة، أمّا الأسوار فيبلغ ارتفاعها قصبتين ونصف القصبة وأنها مهددة في أكثر من مكان بالانهيار والخراب، وقد جرت حمايتها بواسطة أسوار إضافية لا تصمد للمدفعية، وهي بلا أبراج وخنادقها ضيقة وليست عميقة، أمّا المنازل والمنشآت فقد لحقها الخراب والدمار نتيجة الهجوم الواقع عليها سنة ١٥١٠م، أمّا القلعة فهي تكاد تكون مربعة الشكل، وذات برجين يواجهان المدينة، وهي في حاجة إلى الترميم والإصلاح، سواء فيما يتصل بالأساسيات التي تآكلت بتأثير البحر، أو بما يتصل بالأسوار المكونة من تربة رملية، ويعتقد أنّها لن تصمد للمدفعية القوية، وإن السكان قد انخفضوا إلى ستين عائلة عربية ويتمثل الدخل في نسبة العشرة بالمائة التي تجبيها الجمارك على البضائع والرقيق.(٧)

ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن الأسبانيين ومنذ استيلائهم على مدينة طرابلس قد عملوا على طرد جميع السكان الطرابلسيين وأحلوا محلهم أكبر عدد ممكن من المسيحيين، والدليل على ذلك ما قام به نائب الملك بصقلية (هوجو دي مونكادا) في ١٦ تشرين الأول ١٥١١م، حيث وزع منشوراً أعلن فيه ((أنه سوف يقدم لكل من يرغب في السفر والسكنى في طرابلس (المساكن الملائمة) وتخصص له الأراضي المناسبة للزراعة ويعفى من كل ضريبة أو رسوم لمدة عشر سنوات، كما يُبرأ من كل تهمة مدنية أو جنائية عدا الجرائم الخطيرة))(٨).

وعلى الرغم من كل ذلك فقد فشلت المخططات الأسبانية، ولم تتحول مدينة طرابلس إلى بلد مسيحي كما كانوا يتوقعون، كما فشلت في تثبيت دعائم حكمهم باستعمال جميع

الوسائل ومنها الاتصال بزعماء القبائل في محاولة لكسب تأييدهم، مما اضطرهم إلى استعمال العنف في كل محاولة لتغيير ملامح الحياة في طرابلس.(٩)

وقد تغيرت السياسة الأسبانية تجاه طرابلس بسبب الحروب التي خاضتها أسبانيا في القارة الأوروبية، مما ضاعف من مقاومة الشعب الليبي ومحاصرته لمدينة طرابلس، وتعدّدت فرق المقاومة حيث اتخذت من مدينة (تاجوراء) قاعدة انطلقت منها حركة المقاومة ضد المستعمر الأسباني.

ولعل اختيار مدينة تاجوراء بالذات كان بسبب قربها من مدينة طرابلس، ثم اندلعت المقاومة في الجبل الغربي ومسلاته، وأخذوا يشنون الهجمات على القوات الأسبانية بالاشتراك مع بعض القوات التونسية (١٠).

ولعل السلطان (أبا عبد الله محمد بن الحسن الحفصي) حاكم تونس قد أدرك أن الخطر سيشمل كل الساحل الإفريقي مما اضطره إلى إرسال بعض القوات التونسية، علاوة على بعض المؤن والعتاد، وبسبب المقاومة التي أبداها الشعب الليبي، فقد فشلت القوات الأسبانية في مد نفوذها خارج مدينة طرابلس (١١).

وفي شباط سنة ١٥١١م تمكنت المقاومة الليبية من مهاجمة مدينة طرابلس، بعد أن استمر حصارهم لها سبعة أشهر وكادوا يستولون على الحصن لولا ذلك اللغم الذي استعملته القوات الأسبانية والذي راح ضحيته مئات المهاجمين وعدد كبير من الأسبان، ويذكر (كوستانزيو برنيا) أن اللغم كان بمشورة من القائد (بدرو دي نافارو) بعد رجوعه إلى طرابلس وأنه قد مات في هذا الحصار (١٢).

ربما أراد (برنيا) أن يصور (بدرو دي نافارو) وكأنه مات ميتة الأبطال في ساحة المعركة، إلاّ أن بعض المصادر الأخرى تشير إلى أن (بدرو دي نافارو) لم يعد إلى طرابلس بعد هزيمته في (جربة) و(قرقنة) وأنه وقع أسيراً في يد الفرنسيين، ثم أطلق

سراحه (فرانشيسكو الأول) وعمل في خدمة الفرنسيين ضد الأسبان حتى تم الق بض عليه وأعدم سنة ١٥٢٩م في (كاستيل دل أوفو) في نابولي.[١٣]

على الرغم من أن الحملة المشتركة التي قامت بها المقاومة الليبيـ ـة بالاشـ ـتراك مـ ـع القوات التونسية ضد الأسبان في طرابلس قد فشلت في اسـ ـترداد المديـ ـة، إلاّ أنهـ ـا استطاعت أن تحقق نتائج كبيرة وهامة، فقد تركت أثراً قوياً في نفوس سكان صـ ـقلية المغامرين بانصرافهم عن الاستجابة للنداء الذي أصدره نائب ملك صقلية دون هوجو دي مونكادا Donhugo de mocada، في بلدة كاتانيا يوم ١٦ تشرين الأول سنة ١٥١١م إلى الذين يرغبون في سكن طـ ـرابلس بـ ـأنهم سـ ـيمنحون مـ ـساكن ملائمـ ـة وأراضٍ يزرعونها وعفواً من الضرائب والأتاوات لمدة عشر سنوات والعفو الناجز عـ ـن أيـ ـة جناية مدنية أو جريمة قد ارتكبوها، ولهذا السبب فإن الحكام الأسبان في طرابلس قـ ـد فشلوا في استقدام مستوطنين مسيحيين يستقرون في طرابلس ويعمرونها، ولذلك فـ ـإن المدينة ظلت حتى حوالي سنة ١٥١٨م خالية من المستوطنين فيما عدا أفراد الحاميـ ـة التي ركزت جهدها في الدفاع عن الميناء والقلعة، وفي هـ ـذا الوضـ ـع ظـ ـل أهـ ـالي طرابلس يشنون الغارات الخاطفة على المدينة وحاميتها، ويفرضون عليها المقاطعـ ـة البرية[١٤]، وبسبب هذه المقاومة عاشت الموانئ المحتلة معزولة غريبة، وقـ ـد قاسـ ـى الجنود المحتلون الويلات حتى كانوا يفضلون الأسر علـ ـى حيـ ـاتهم داخـ ـل المـ ـوانئ المسورة، وكانت كل حامية تعتمد على تحصيناتها وعلى نجدة الموانئ المحتلة القريبة وتستقل بقدر الإمكان في تموين نفسها عن أسبانيا، وعلى هذا النحو كانـ ـت المـ ـوانئ الطرابلسية المحتلة شبه محاصرة من قبل الثوار وهذا مثل فريد في المقاومة.[١٥]

كما أن تلك المقاومة العنيفة التي بذلها سكان المدينة قد دفعت الأسـ ـبان إلـ ـى تغييـ ـر سياستهم وخصوصاً بعد أن ظهر الأسطول العثماني بقيادة (خير الـ ـدين بارباروسـ ـا) والذي تمكن من الوصول إلى طرابلس سنة ١٥١٢م، وأصبح يهدد القوات الأسـ ـبانية، فكان له رد فعل كبير فيما كان يبديه الأسبان من رغبة لامتلاك طرابلس [١٦].

ومن العوامل الأساسية لتغيير سياسة أسبانيا تجاه مدينة طرابلس: إلحاقها إدارياً بصقلية، ففي سنة ١٥١٣م تنازل ملك أسبانيا عن إدارة طرابلس إلى نائب الملك في صقلية، والذي بدوره أخذ يدعم نفوذه السياسي بشتى الوسائل منها: تشجيع المسيحيين للهجرة إلى طرابلس، وإحياء النشاط التجاري والصناعي الذي فقدته البلاد بسبب إجلاء السكان عنها وسوء معاملة الأسبان، وزيادة في الترغيب فقد وعدهم بالعفو عن أصحاب الجرائم منهم[١٧]، ورغم ما يدعيه البعض من أن مدينة طرابلس قد ازدهرت أحوالها[١٨]، فإن الكلام لا يحمل قدراً من الحقيقة، ووفقاً لتتبع الأحداث التاريخية لمدينة طرابلس فلا توجد أية إشارة إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أو انتعاش الحياة اليومية.

ونتيجة لذلك فقد ضاق الحال بالأسبان، وفشلت سياسة العنف التي كانوا يستعملونها في داخل المدينة وخارجها ولم يَبدُ من الطرابلسيين أي قصور في الدفاع عن بلادهم[١٩].

ولعل الأسبان قد قدَّروا خطورة الموقف الناجم عن استعمال العنف، مما دفعهم إلى أن يغيروا من سياستهم في محاولة لتهدئة النفوس الثائرة، لذا فقد أطلقوا سراح الشيخ (عبدالله بن شرف) حاكم المدينة، وتشير العديد من الرسائل المتبادلة بين (شارل الخامس) ونائبه في طرابلس وجميعها تتضمن إطلاق سراح الشيخ عبد الله بهدف تهدئة الرأي العام، ومحاولة استخدام أسلوب اللين والمراوغة بدلاً من العنف والقسوة[٢٠]، بالتقرب إلى سكان المدينة وإظهار حسن النية تجاههم، وفي هذا الإطار قاموا بإصدار قرار العفو عن الشيخ عبدالله بن شرف، وأطلقوا سراحه حوالي سنة ١٥٢١م، ليستغلوا نفوذه في إخضاع الطرابلسيين[٢١]، وقد ورد في رسالة من باليرمو بتاريخ ١٢ كانون الثاني سنة ١٥٢٣م ما يشير إلى وصوله إلى طرابلس وتنصيبه حاكماً على ٥٠٠ أسرة من السكان المغاربة الذين عادوا إلى المدينة بعد عودته ولا يزالون يفدون، وأنه صرف لهم أخشاباً ومواد أخرى للبناء، والأمل كبير في أن تعود بتأثير الشيخ عبدالله بن شرف (الولي الصالح) المحبوب من قبل السكان المدينة إلى

عهدها السابق من الازدهار والرخاء، إلاّ أن الشيخ عبدالله بن شرف الذي وثق فيه الأسبان وأطلقوا سراحه قد فرّ بمجرد وصوله إلى مدينة طرابلس وانضم إلى المجاهدين بتاجوراء[٢٢]، وتخوف الأسبان أن يقوم الشيخ عبدالله بعد فراره بتنظيم المقاومة في تاجوراء على نحو أفضل وأكثر فعالية[٢٣]، كما توقعوا في الوقت نفسه أن يظهر الأسطول العثماني فجأة على سواحل مدينة طرابلس[٢٤]، وحملتهم هذه المخاوف على حصر جبهة الدفاع في الميناء والقلعة التي حصنوها بأسوار قوية ومدفعية ضخمة[٢٥]، أي أنهم اهتموا بتحصين القلعة التي يقيمون فيها ويعتمدون عليها في حمايتهم من ثورات الأهالي، فانصبت إصلاحاتهم على الحصنين اللذين في جانب المدينة، الأول: الحصن الذي أسموه حصن القديس جورج، أمّا الحصن الثاني الذي اهتم الأسبان بإصلاحه فهو ذلك الحصن الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي للقلعة، وبمناسبة احتلال الأسبان لمدينة طرابلس في ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م والذي صادف يوم عيد القديس يعقوب، فقد أطلقوا اسم حصن القديس يعقوب على الحصن الواقع في الطرف الشمالي الشرقي للقلعة، وقد استخدم الأسبان في ترميم وإصلاح تلك الحصون حجارة أخذت من أسوار المدينة، التي لم يرممها الأسبان بل إنهم قد حطموا أجزاءً منها لاستغلال حجارتها في ترميم القلعة[٢٦]، وكان يحيط بالأسوار خندق عريض محفور في الجزء الذي لم يكن البحر يصل فيه قاعدة القلعة، ولم يكن أحد ليستطيع أن يلجأ إلى القلعة إلا بواسطة جسر متحرك [٢٧].

وعلى الرغم من كل تلك الإجراءات والتحصينات، إلا أن انشغال الإمبراطور شارل الخامس بعد أن صار إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة بحروبه ضد فرنسا في إيطاليا، كان سبباً في تنازله عن جزيرة مالطا وقوزو ومعهما طرابلس الغرب لفرسان القديس يوحنا؛ رغبة منه في التفرغ لتلك الحروب والاستفادة من مجهود المنظمة من ناحية ثانية [٢٨].

ثالثاً – ظهور البحارة العثمانيين في مناطق المغرب العربي (شمال إفريقيا):

تزامن الاحتلال الأسباني للساحل الشمالي لبلاد المغرب العربي بين سنتي ١٥٠٥-١٥١١م مع ظهور عدد من البحارة العثمانيين، الأمر الذي أدى إلى تزايد النشاط البحري ضد دهم، حيث اتخذ هؤلاء الرجال من الشواطئ المغربية منطلقاً لهجماتهم على المراكب المسيحية، ويعترف عدد كبير من المؤرخين من أمثال: روجي كواندرو[٢٩] وبروديل[٣٠] بأن طرد الموريسكيين* من الأندلس كان سبباً أساسياً في تزايد الجهاد البحري.

في البداية لم يكن في مقدور المجاهدين العثمانيين التصدي مباشرة للأساطيل الأسبانية والبرتغالية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وإنقاذ إخوانهم الموريسكيين من خطر الفناء والتنصير، وهكذا تبلورت فكرة الجهاد البحري والانتقام من الأسبان الذين طردوا المسلمين من الأندلس ويعملون على طردهم من إفريقيا أيضاً.

واعتبرت عملية احتلال مدينة طرابلس سنة ١٥١٠م بداية ناجحة لتحقيق ذلك الحلم، فقد ابتهج النصارى كثيراً لهذا النصر وعمت الاحتفالات مختلف العواصم الأوروبية، حيث كان البابا يرتل صلوات الشكر للسيد المسيح وهو يشاهد الآلاف من الأسرى الطرابلسيين الذين أُخذوا بعد هذه العملية مباشرة ليتم بيعهم في أكبر أسواق النخاسة بالفورنو*، إلى حد أن أسعارهم قد انخفضت وأصبح بإمكان السفن المسيحية تغيير المجدفين بدون صعوبة.[٣١]

لقد تميز المجاهدون العثمانيون بالشجاعة والإقدام والخبرة الواسعة في ركوب البحر، الأمر الذي ساهم في تنظيم البحرية المغربية والرفع من مستواها في تلك الفترة بينما يصفها المؤرخ (روجي كواندرو) بالفترة المنظمة (للقرصنة البربرية).[٣٢]

والحقيقة أنه لا يمكن مجاراة المؤرخين الغربيين في وصفهم للمجاهدين المغاربة عموماً بالقراصنة، وذلك بسبب الحرب الدائمة والمستمرة بين المسلمين والنصارى.

ولكن المؤرخين المسلمين يطلقون اسم (غزاة البحر) على البحارة المورسكيين والعثمانيين والمغاربة، حيث استخدم سلاطين آل عثمان لقب (الغازي) منذ جدهم الثاني (أورخان)[٣٣]، بينما استخدم المؤرخون المغاربة لفظ (المراكب الجهادية) على السفن القائمة بالغزو ومن بينهم على سبيل المثال: ابن غلبون الطرابلسي[٣٤]، وابن عبد العزيز التونسي [٣٥].

وعلى أية حال فإن وصول المجاهدين العثمانيين إلى السواحل المغربية قد ساعد في التصدي والوقوف في وجه المسيحيين الأسبان وقد اشتهر من بينهم.

١- عروج برباروس (١٤٧٣-١٥١٨)[٣٦]:

عروج: هو الابن الأكبر ليعقوب بن يوسف، أحد المجاهدين العثمانيين الذين اتخذوا من جزيرة (مدللي) ببحر إيجه مقراً لإقامته هو وأسرته، وأمه سيدة أندلسية[٣٧] كان أول اتصال لعروج برباروس وأخيه خير الدين بالسواحل المغربية في بداية القرن السادس عشر، حيث حصلوا في سنة ١٥١٠م على تسهيلات بحرية في الموانئ الحفصية (التونسية) مقابل حصول سلطانها الحفصي (أبي عبد الله محمد) على خُمس الغنائم الحاصل عليها من غزواتهم ضد الأوروبيين [٣٨].

ونتيجة لجهودهم في هذا المجال منحهم حاكم تونس الحفصي جزيرة (جربة) لتكون قاعدة لنشاطهم ضد الأساطيل الأوروبية، ويبدو أن السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) كان مدركاً للدور المهم الذي يقوم به عروج وأخوه خير الدين في هذه المنطقة، ولذا لم يتأخر عن مد يد العون والمساعدة لهم، بعد أن تعرض أسطولهم البحري لخسارة سنة ١٥١٥م على يد الأسبان، حيث أرسل لهم أربع عشرة قطعة بحرية مزودة بالرجال والعتاد[٣٩]، وبذلك استطاعوا مواصلة جهادهم متخذين من الجزائر قاعدة لنشاطهم المتزايد يوماً بعد يوم، معتمدين على خفة الحركة وحرية المناورة حيث مكَّنتهم الموانئ المغربية الممتدة على طول الساحل من تاجوراء في

الشرق حتى مراكش في الغرب مـ ن تشديد الحصار على المدن المختلفة كط رابلس والجزائر وبجاية ووهران وقطع إمداداتها التي كانت ترسل من أسبانيا من حين إلـ ى آخر، بالإضافة إلى تنظيم حركة المقاومة الشعبية في هذه المراكز القريبة من الوجود الأسباني، الأمر الذي جعلهم يحاولون القضاء عليه بمختلف الطرق، وبالفعل استطاعوا محاصرته في تلمسان الجزائرية التي قُدِّر لعروج أن يموت بها يوم ١ أيـ ـار ١٥١٨م ونقل جثمانه إلى العاصمة الجزائرية حيث دفن هناك [٤٠].

٢- خير الدين برباروس (١٤٧٦ - ١٥٤٦):

بعد وفاة عروج تولى خير الدين قيادة المجاهدين في المغرب العربـ ـي سـ ـنة ١٥١٨م وهي السنة التي آلت فيها الجزائر إلـ ـى الدولة العثمانيـ ـة وأصبح خير الدين يحكمها باسم السلطان برتبة (بكلربك)*، وأمدَّه السلطان بالرجال والمراكب ومنح أتباعه حقوق الانكشارية وامتيازاتهم المعمول بها في الدولة العثمانية [٤١].

وبذلك استطاع خير الدين مواصلة جهـ ـاده ضـ ـد الوجود الأسباني وتقديم يد العـ ـون والمساعدة لأولئك المهاجرين الأندلسيين في صراعهم ضد الأوربيين، وقد حقّق عـ ـدة انتصارات في المغرب الأوسط، استطاع من خلالها الحصول علـ ـى المـ ـال الـ ـلازم لمواصلة الجهاد، تلك الأموال التي كان يدفعها في السابق بعض حكـ ـام المقاطعـ ـات الجزائرية إلى الأسبان، وعند هزيمتهم تحولت تلك الأموال إلى خير الدين، كما هـ ـو الحال مع مولاي (عبد الله أبو جيحون) حاكم مقاطعة تلمسان [٤٢].

وهكذا لم تأت سنة ١٥٣١م إلاّ وأصبح خير الدين سيد البحر المتوسـ ـط فـ ـي الجـ ـزء الغربي منه على الأقل، وأصبح رجاله الأشداء ذوو الخبرة العالية والتنظـ ـيم الـ ـدقيق يثيرون الرعب والخوف، ليس بين البحارة الأسبان فقط، بل بين سكان جنوب أوروبا عموماً، وكان من أهم تلك النتائج، تعاظم شهرة خير الدين البحريـ ـة وبخاصـ ـة فـ ـي المنطقة الممتدة من الحوض الغربي من البحر المتوسط وحتى المحيط الأطلسي، إلـ ـى

درجة أن السلطان العثماني (سليمان القانوني) قد استدعاه ليتولى قيادة الأسطول العثماني حتى يستطيع الوقوف في وجه (دوريا الجنوبي) الشهير الذي اختاره الملك الأسباني (شارل الخامس) قائداً لبحريته، وقد وصف (روجي كواندرو) تولي خير الدين هذا المنصب بقوله: ((وبعد أن سُمّي خير الدين من طرف السلطان العثماني الأميرال الكبير لجميع الأساطيل العثمانية استحق لقب كارثة المسيحية وصارت انتصاراته غير قابلة للإحصاء))[٤٣].

ويبدو أن خير الدين لم يستمر طويلاً في هذا المنصب حيث اختاره السلطان سليمان سفيراً له في مرسيليا* لدى ملك فرنسا فرنسوا الأول[٤٤]، حيث استمر في منصبه حتى وفاته سنة ١٥٤٦ ودفن في الأستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

رابعاً – طرابلس تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا (١٥٣٠م–١٥٥١م):

لاشك أن تنازل الملك (شارل الخامس) عن جزيرتي (مالطا وقوزو) ومعهما طرابلس لفرسان القديس يوحنا*، كان له أبعاد سياسية خطيرة، فقد رأى من مصلحة الإمبراطورية الرومانية المقدسة تسليم جزيرتي مالطا وقوزو وطرابلس لهم، للاستفادة من مجهود هذه المنظمة وبالتالي التخلص من طرابلس التي أصبحت تكلفهم نفقات باهظة من المال والرجال دون أي نتيجة مرجوة، كما أن وجود قوى بحرية لها وزنها في البحر المتوسط سيحمي مستعمراته في صقلية ونابلي[٤٥].

وما أن طلبت المنظمة من شارل الخامس في تشرين الأول ١٥٢٣م منحهم جزيرتي مالطا وقوزو حتى استجاب لطلبهم، بشرط تولي مهمة الدفاع عن طرابلس إلاّ أن هؤلاء لم يبدوا ارتياحاً لهذا الشرط وأدركوا أنهم سوف يتعرضون لحرب طويلة مع الطرابلسيين وهجوم جديد من قبل الأسطول العثماني الذي يتربص بهم وسيطردون منها مثلما طردوا من رودس من قبل.

ولكن بعد اتفاق سري مع البابا طلب من شارل الخامس أن تتحمل الخزانة الأسبانية دفع المبلغ الذي كانت تتحمله لتغطية النفقات في شكل معونة سنوية للفرسان [٤٦].

وقبل الموافقة على توقيع وثيقة التسليم، شكّل وفداً من ثمانية أشخاص لزيارة طرابلس وتقديم تقرير شامل عن موقع المدينة الاستراتيجي وتحصيناتها وعن الميناء والقلعة ومدى قدرة الفرسان على الاحتفاظ بهذه المدينة وعن النفقات المالية والعسكرية التي يمكن توفيرها في حالة قبول هذا العرض.

وقدم هذا الوفد تقريراً وافياً، ومن أهم ما جاء فيه: ((إن الأسوار التي تحيط بالمدينة لحمايتها مهدّدة بالانهيار، ولا يمكن لها التصدي للمدفعية في حالة الهجوم عليها، وهي بدون أبراج وخنادقها ضيقة، وليست عميقة، أما المنازل والمنشآت فمعظمها مدمرة نتيجة الهجوم الذي شنته القوات الأسبانية ضدها سنة ١٥١٠م، أما بالنسبة لقلعتها فهي تحتاج إلى الترميم والإصلاح، وإن القلعة والمدينة تتحكم فيها هضبة أو جبل صغير يقع إلى الجانب الجنوبي الشرقي، وأما الميناء فهو صغير وليس مضموناً تهدده الرياح الشرقية وتقيه بعض الجزر الصغيرة من الجهة الغربية، وإن السكان قد نقصوا إلى ستين عائلة عربية وهم يملكون ٢٥ حصاناً للدفاع عن المدينة))[٤٧].

وتم عرض هذا التقرير على مجلس المنظمة فتردّدوا في قبول هذا الشرط أول الأمر؛ لأنّه لم يكن في هذا التقرير ما يشجع على قبول مدينة طرابلس، الأمر الذي أصبح عبئاً ثقيلاً على كاهلهم؛ لأنّه مقرون بمنح (مالطا وقوزو).

كما أن الوفد الذي زار طرابلس في سنة ١٥٢٤م، قد نصح المجلس بعدم قبول هذا الشرط ورأوا أن تخليهم عنه، معناه التخلي عن جزيرتي مالطا وقوزو، وبالتالي إضاعة هذه الفرصة التي أتيحت لهم، وقد حاولوا التأثير على الملك (شارل الخامس) إلاّ أنهم لم ينجحوا في ذلك، وفي النهاية أذعنوا للأمر الواقع وقبلوا بهذا العرض، وتم توقيع مرسوم التسليم في الرابع والعشرين من آذار سنة ١٥٣٠م، في (كاستل فرانكو

مينيتو) وقد ورد فيه ((أنه رغبة منا في تدعيم واستقرار الدير والمنظمة والهيئة الدينية لمستشفيات القديس (يوحنا) واستناداً إلى رغبتنا في أن ينال المرشد الأكبر الجليل المبجل ورؤساء الهيئة وقادتها وفرسانها مقراً ثابتاً ومركزاً محدوداً وانطلاقاً من محبتنا والعطف الذي نحمله لهذه الهيئة، فقد قرّرنا عن طيب خاطر التنازل إلى المرشد الأكبر والمنظمة عن مقر دائم وثابت وأن مرسومنا هذا يعتبر ساري المفعول لجميع العهود القادمة بالنسبة إلينا وإلى ورثتنا وجميع خلفائنا في مملكتنا، نتنازل ونمنح بكامل الإرادة الحرة إلى المنظمة المعروفة باسم القديس (يوحنا الجروسولوميتانو) إقطاعاً نبيلاً حرّاً مشمولاً بالإعفاء، المدينة والقلعة والمواقع والجزر التابعة إلينا في طرابلس ومالطا وقوزو ومع جميع البقاع التابع لها إقراراً منهم بإقطاعنا عليهم أن يقدموا صقراً كل سنة عند الاحتفال بعيد جميع القديسين بيد نائب الملك))[٤٨].

ولعل موافقة الملك شارل الخامس لم تكن بدوافع دينية خالصة، وإنما يهدف إلى التخلص من مدينة طرابلس التي أصبحت تكلفه النفقات الباهظة من المال والرجال بسبب المقاومة الشعبية التي تعرض لها، ورغبة منه في إخضاع المنظمة لنفوذه فقد أشار إلى ذلك في نص المرسوم عندما طلب منهم أن يقدموا صقراً كل سنة عند الاحتفال بعيد القديسين، وهذا إشارة واضحة على خضوعهم له، بدلاً من إلزامهم بدفع مبالغ مالية كبيرة لا قدرة لهم على دفعها.

وما أن تسلم فرسان القديس يوحنا مدينة طرابلس في حزيران ١٥٣٠م حتى واجهوا مقاومة الأهالي لهم في كل المناطق، كما تعرضوا لخطر الأسطول العثماني المرابط في البحر المتوسط، بالإضافة إلى حاجتهم الملحة إلى الأموال الكثيرة لتعمير ما خربه الأسبان وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه.

وبمجرد أن استلم الأب (سنقويسا Sanguessa) إدارة طرابلس قرّر أن يُخضع المناطق القريبة لطرابلس مثل تاجوراء وسوق الجمعة وجنزور، فقد قام بعدة حملات ضد غيرة كان الهدف منها: نشر الخوف والرعب بين السكان في مدينة طرابلس وضواحيها وبأن له قوة عسكرية قادرة على قمع أي حركة أو ثورة ضدهم، وكذلك أن يفتح للمدينة باباً جديداً كان في أشد الحاجة إليه وهو الاتصال بالدواخل ومبادلة السلع والانتفاع بما تنتجه تلك القرى من حبوب وفواكه وخضروات وحيوانات[٤٩]، حيث استطاع أن يجبر أهالي جنزور أن يدفعوا له الضرائب المفروضة عليهم [٥٠].

استقرت المنظمة في مدينة طرابلس سنة ١٥٣٠م، وبدأ العمل بتحصين المدينة وزيادة قوتها الداخلية، فتم ترميم الأسوار وبناء القلاع الدفاعية، وتحمل الأهالي العبء الأكبر في عمليات البناء والترميم تحت سياط الجنود، وكان تصرفهم داخل المدينة يوحي بأن التغييرات التي تم إحداثها في معالم المدينة، تدل دلالة واضحة على أنهم مصممون على الاستقرار الدائم وجعل طرابلس مقراً دفاعياً لهم، والدليل على ذلك أنهم أطلقوا على البرجين اللذين يقعان في الطرف الشرقي من المدينة، الأول اسم القديس (جورج) والثاني اسم القديس (جاكومو) بينما أطلق على الساحة الواقعة بينهما اسم القديسة (بربرا) [٥١].

أما بالنسبة للحياة العامة داخل القلعة، فقد كانت عبارة عن طابع يجمع بين الناحية الدينية والعسكرية، فقد حرص حاكم المدينة على ضمان قسم الولاء له وللمنظمة من قبل جميع الضباط والجنود العاملين داخلها، والتأكد من تأدية مراسم العبادة في كنيسة القلعة، والتشديد في الحراسة الليلية على الأسوار، والنهارية على الأبواب، وعدم السماح بدخول الأتراك والعرب واليهود إلى القلعة إلا من كانت لهم أمور هامة، فيسمح لهم بالدخول نهاراً على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم خارج القلعة [٥٢].

ويتضح من ذلك أن القلعة كانت تعيش في حالة استنفار مستمرة، وحياة مضطربة خوفاً من تعرضهم لهجوم مفاجئ من قبل الطرابلسيين أو الأتراك.

بدأ جنود العدو تحركاتهم العسكرية البرية والبحرية، حيث لاحقوا الأهالي بالقتل والتشريد بقصد تخويفهم وتهجيرهم من مدينة طرابلس، لم يستطع السكان تحمل تلك الممارسات الوحشية، فقرّروا التوجه إلى مدينة تاجوراء واتخاذها قاعدة لهم لتنظيم أنفسهم والإعداد لمقاومة العدو الجديد واسترجاع طرابلس من سيطرتهم [٥٣].

لقد كان أول هجوم يشنه الأهالي من تاجوراء ضد قوات فرسان القديس يوحنا في طرابلس سنة ١٥٣١م كان بمساعدة (خير الدين بربروسا) حيث ألحقوا بقوات الفرسان خسائر كبيرة، كما أنهم استطاعوا القضاء على أنصار الأمير حسن أمير تونس. ثم ترك خير الدين أحد قادته وهو خير الدين كرمان في تاجوراء لتولي شؤون البلاد ولمهاجمة قوات العدو في طرابلس، وأمدَّه ببعض الإمدادات العسكرية ونصّبه حاكماً على تاجوراء بموافقة الأهالي في ١٧ آب ١٥٣١م [٥٤].

وبسبب تلك التطورات، أصبح العدو في موقف صعب، حيث كانوا يتوقعون مهاجمتهم في أي وقت، وخاصة بعد أن استولى خير الدين بربروسا على تونس ١٥٣٤م، وبذلك يكون الأسطول العثماني قد أصبح على مسافة قريبة منهم، وبناء على ذلك فقد طلب حاكم مدينة طرابلس من فرسانه الاستعداد التام وأطلعهم على حقيقة الأمر وأبلغهم بأنه لا يمكن الاحتفاظ بمدينة طرابلس ما دام المجاهدون بقيادة خير الدين كرمان يسيطرون على تاجوراء، ومن أجل ذلك فقد جهزت المنظمة حملة بحرية مكونة من أربع سفن تحمل أربعمائة جندي وخمسين فارساً، بدعم من البابا الذي دعم وبارك هذه الحملة [٥٥].

وتشير وثائق الأرشيف المالطي إلى ان مدينة روما هي المحرك الأساسي وقلب العالم المسيحي وهي دائماً تبارك وتؤيد كل الحملات التي يقوم بها أسطول المنظمة سـ واء في البحر أو البر (٥٦).

ورغم وصول تلك الحملة مدينة طرابلس إلاّ أنّها فشلت في تنفيذ مخططها مما جعلهم يدركون أن بقائهم في طرابلس أصبح عبئاً ثقيلاً كلفهم الكثير من الرجال والمال، كما أدركوا حقيقة صعبة وهي أن تنازل الإمبراطور الأسباني عن مدينة طرابلس لهم لـ م يكن بدافع ديني ولا شفقة عليهم، وإنما هدية مسمّمة قدمت إليهم للتخلص من مشاكلها، وعليه فقد قرّروا إعادتها إلى الإمبراطور الأسباني وإذا ما رفـ ض ذلـ ك، فعليـ ه أن يتحمل مهمة الدفاع عنها وأن يبني على نفقته تحصينات قوية وقلاعاً وأسواراً وخنادق تكون قادرة على الصمود ومقاومة أي حصار أو هجوم قد يتعرضون له (٥٧).

ونظراً للعوامل المتردية التي واجهت فرسان مالطا – وخاصة بعد وفاة المرشد الأكبر (لسلى آدم Lise Adem) – حيث أصبح موقفهم صعباً وخاصة بعد سيطرة خير الـ دين برباروس على تونس ١٥٣٤م، فاستنجدوا بالبابا طالبين مـ ساعدته، فخاطـ ب البابـ ا الإمبراطور الأسباني وحثّه على ضرورة استرداد تـ ونس، موضـ حاً لـ ه أهميتهـ ا الإستراتيجية، ويرى بعض المؤرخين أن حملة الإمبراطور الأسباني على تونس سنة ١٥٣٤م واستعادتها من خير الدين برباروس، كانـ ت إرضـ اء للبابـ ا أولاً، وللعـ الم المسيحي ثانياً، وتقوية ودعم موقف فرسان مالطا في طرابلس ثالثاً (٥٨).

أدرك الأسبان والعالم المسيحي أن منـ اطق المغـ رب العربـ ي لـ ن تكـ ون تابعـ ة للإمبراطورية الأسبانية إلا بطرد العثمانيين والتابعين لهم، ومن أجل تحقيق ذلك قـ ام الأسبان بإعداد حملة عسكرية لاحتلال الجزائر سنة ١٥٤١م، وتحريرها من الوجـ ود العثماني، إلاّ أن تلك الحملة قد باءت بالفشل الذريع حيث هُزموا شر هزيمة وخابـ ت كل آمالهم، وكان من نتائجها أن اكتسبت الجزائر خاصة ومناطق المغـ رب العربـ ي

عامة قوة وشهرة عظيمة، قد زادت من خوف وقلق فرسان مالطا، حيث أدركوا أن طردهم من طرابلس بات قريباً، مع العلم أن تلك الحملة المسيحية تعتبر من أكبر الحملات العسكرية ضد مناطق المغرب العربي في القرن السادس عشر [٥٩].

ومع ذلك كله فقد بقيت الأمور على ما هو عليه، حيث حاصر (خير الدين كرمان) مدينة طرابلس بقوة كبيرة وبدأ بمهاجمتها، مما ضاعف من خطورة الموقف بالنسبة لفرسان القديس يوحنا، وباتوا مهددين بالأسر أو القتل، إلاّ أن استشهاد خير الدين كرمان في ذلك الهجوم قد أعطى لهم باب الأمل من جديد، ولكن ذلك الأمل لم يدم طويلاً، حيث وصل (مراد آغا*) وتولى القيادة من بعد خير الدين كرمان في تاجوراء كزعيم وقائد للثوار، ويسميه كتاب العصر Morataga – Muradaga [٦٠].

خامساً – الاستنجاد بالدولة العثمانية:

إذا كان على فرسان القديس يوحنا خلال العشر سنوات الأولى من سيطرتهم على مدينة طرابلس، أن يحتاطوا لهجمات الأهالي من تاجوراء، فقد كان عليهم أن يستعدوا أكثر لملاقاة القائد الجديد (مراد آغا) أحد التلاميذ المخلصين لخير الدين بربا روسا [٦١].

وصل مراد آغا إلى مدينة تاجوراء عقب استشهاد خير الدين كرمان، حيث أصبح مركز المقاومة ضعيفاً ولم يكن لدى المجاهدين قوة كافية لمقاومة قوات العدو؛ لأنّ إمكانياتهم العسكرية والبشرية ومواردهم المالية كانت قليلة وضعيفة[٦٢]، فأدركوا أنهم لا قدرة لهم على مقاومة فرسان العدو إلا بالاستعانة بالدولة العثمانية، والتي حققت أثناء حكم السلطان سليمان القانوني الازدياد في القوة والتصاعد في النفوذ والاتساع في المساحة في كل من أوروبا وآسيا وإفريقيا[٦٣]، ولها من الإمكانيات العسكرية والبشرية ما يخلصهم من قوات عدوهم، ويهمها من أمر الإسلام والمسلمين ما يهم كل مسلم حريص على عقيدته ودينه[٦٤]، فشكلوا وفداً وكلفوه بالتوجه إلى استانبول لطلب

المساعدة، وبمجرد وصول الوفد استقبله السلطان العثماني واستمع لهم وشرحوا له الوضع المتأزم في البلاد بوساطة مراد آغا الذي كان يتكلم اللغة العربية، فأحسن السلطان استقبالهم ووعدهم بتحرير بلادهم من القوات الصليبية، وريثما ينتهي السلطان من حروبه في الجبهة الشرقية، فقد كلف مراد آغا بالسفر معهم إلى طرابلس في قوة صغيرة من الجيش وطلب منه مناوشة العدو حتى وصول الأسطول العثماني إليهم، إلاّ إنه لم يتمكن من تحرير مدينة طرابلس فاستقر في تاجوراء واعترف به الأهالي قائداً عليهم [٦٥].

وما أن استلم مراد آغا القيادة حتى اهتم بتحصين دفاعات مدينة تاجوراء، والتي أصبحت تشكل خطورة كبيرة على قوات العدو في مدينة طرابلس، بسبب قربها منها وتمركز المقاومة بها، ولها ميناء صغير يتسع لاستقبال عدد كبير من السفن، وسور متين يحميها من أي هجمات محتملة، وقد نجح مراد آغا في جعلها حصناً قوياً يراقب من خلاله تحركات فرسان مالطا في مدينة طرابلس [٦٦].

حاول مراد آغا محاصرة مدينة طرابلس واسترجاعها إلاّ أنه لم يتمكن من ذلك لقلة جيشه، فطلب من السلطان العثماني إرسال قوة بحرية وبرية لتعزيز قواته لإنهاء السيطرة المسيحية على مدينة طرابلس [٦٧].

كانت البحرية العثمانية في ذلك الوقت تجوب البحر المتوسط، وتلقي الخوف والرعب في قلوب المسيحيين وتهدد أساطيلهم، بقياد سنان باشا ومساعده طرغوت باشا؛ إذ كان اهتمام البحرية العثمانية موجهاً للقضاء على قوة فرسان القديس يوحنا بمالطا لمنافستهم للبحرية العثمانية.[٦٨]

حاول فرسان مالطا مدَّ نفوذهم خارج مدينة طرابلس، ليخرجوا من الخناق والحصار الذي هم فيه، إلاّ أنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب تصدي مراد آغا لهم وشل تحركاتهم،

عندئذ أدركوا أنه ليس بإمكانهم الحفاظ والاستمرار في طرابلس أمام الضغط الشعبي المدعوم بالأسطول العثماني.

وعلى هذا الأساس فقد قرّر المرشد الأكبر للمنظمة بأن يرسل مبعوثاً إلى البابا في الثامن من كانون الثاني سنة ١٥٤٦م، ليشرح له الأوضاع التي تمر بها قواته في طرابلس وطلب منه المساعدة، كما زود المبعوث بتعليمات هامة لإبلاغها إلى البابا كان أهمها: تدعيم القلعة وتزويدها بالجنود وكافة الإمكانيات اللازمة للدفاع عنها، وذلك بسبب المعلومات التي توفرت لديهم حول الاتفاق الذي تم ما بين (بربروسا وطرغوت) وأهالي تاجوراء، من أجل إعداد قوة حربية للاستيلاء على القلعة، وإذا ما حدث ذلك فسوف تكون خسارة كبيرة ليس لمملكة صقلية فقط وإنما للمسيحية عامة، وستكون وكراً للقراصنة الذين ستمتلئ بهم منطقة المغرب العربي، وذلك نظراً إلى أن إمكانات المنظمة ليست كافية ولا صالحة لمواجهة هذه الأخطار، واستناداً إلى ما كتب إليكم من طرفنا من تقارير وتعليمات، فنرجو منكم العمل على جمع أربعة آلاف أو خمسة آلاف جندي وإرسالها إلينا حتى تتمكن المنظمة من هزيمة وطرد مراد آغا، وهو أمر لا يمكن إتمامه إلا بتأييد ومساندة ودعم من قداسة البابا (٦٩).

لقد أوضحت تلك التعليمات مدى خضوع المنظمة للبابا وأنهم على استعداد لأيّ عمل يطلب منهم ضد الإسلام والمسلمين سواء إن كان ذلك العمل في البحر أو البر.

أصبح الوضع في مدينة طرابلس أكثر إحراجاً وصعوبة من ذي قبل، وذلك بسبب تولي طرغوت* باشا قيادة الأسطول العثماني في البحر المتوسط عقب وفاة خير الدين بربروس في تموز ١٥٤٦م، حيث أدرك فرسان مالطا وأعوانهم أنهم لا يستطيعون الصمود أمام هذا القائد القوي، والذي أصبح وجوده في البحر المتوسط يخيف الكثير من المسيحيين وقد سجل نجاحاً كبيراً في عملياته البحرية والبرية على السواء، حتى أن أتباعه من المسلمين كانوا يلقبونه بسيف الإسلام (٧٠).

وفي فترة وجيزة من توليه القيادة استطاع أن يغزو كل سواحل نابلي، كما أنه تمكن من الاستيلاء على مركب إيطالي كبير محمل بالبضائع قرب مدينة طرابلس، ويبدو أنه كان متجهاً إلى قوات فرسان العدو، كما حرّر كلاً من سوسة*، والمنستير*، وصفاقس*، من السيطرة الأسبانية.

وحقيقة الأمر أن طرغوت باشا كان خير عونٍ بالنسبة لسواحل المغرب العربي، وتصديه للقراصنة المسيحيين الذين يشكلون خطورة كبيرة على سلامة الأسطول العثماني.

بعد أن سقطت مدن سوسة والمنستير وصفاقس في يد طرغوت باشا، رأى الملك الأسباني شارل الخامس أنه قد أهين وأن قواته قد لاقت هزيمة كبيرة، فأراد أن ينتقم منه وأن يحد من تحركاته، فوجه إليه حملة بحرية سنة ١٥٤٩م تحت قيادة (أندري دوريا Andrea Doria) القائد العام للأسطول الأسباني، إلا أن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح ولم تحقق الهدف المطلوب منها، وكان مصيرها الفشل، حيث تمكن طرغوت من التصدي لها بل وحرّر مدينة المهدية*، من الاحتلال الأسباني سنة ١٥٥٠م.

وبذلك يكون طرغوت باشا قد أصبح يشكل خطراً حقيقاً لمستقبل أسبانيا ليس في إفريقيا فقط وإنما في أوروبا كلها، هنا أدرك شارل الخامس مدى الخطورة التي يمكن أن تلحق بهم إذا لم يسارعوا إلى محاصرته وطرده نهائياً من منطقة المغرب العربي، فاستدعى قائد الأسطول مرة ثانية وجهز له حملة كبيرة أبحرت من نابولي في آذار ١٥٥١م، ورغم ذلك كله إلا أن الحملة كان مصيرها الفشل والهزيمة، حيث استطاع طرغوت باشا أسر عددٍ كبيرٍ من جنودها وأوقع بالأسطول الأسباني هزيمة كبيرة [٧١].

كما استولى على كافة الإمدادات القادمة من صقلية لدعم تلك الحملة، وكانت الكارثة أكبر وأفدح للأسبانيين عندما تمكن طرغوت باشا من الاستيلاء على سفينة القيادة وألحق الضرر الكبير ببقية السفن [٧٢].

وعلى إثر ذلك بدأ التعاون والتنسيق ما بين طرغوت باشا وقائد الأسطول العثماني سنان باشا، من أجل إعداد العدة لحصار مدينة طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا منها.

هذا ولقد ساهم طرغوت باشا بدور كبير في إقناع السلطان العثماني بالإسراع في تجهيز الأسطول العثماني وإرساله إلى طرابلس، بينما سافر شخصياً إلى استانبول وأكد للسلطان صحة المعلومات المقدمة من قبل مراد آغا والتي تحث على ضرورة الإسراع بإرسال الأسطول؛ لأنّ فرسان مالطا يسرفون في القتل والتشريد، ولأن المساعدات الأسبانية مستمرة إليهم، وقدم له شرحاً وافياً عما يفعله المسيحيون بحق مسلمي المغرب العربي، كما أوضح له أهمية تلك المنطقة وما تتمتع به من أهمية عسكرية واقتصادية وأن السيطرة عليها تمكنه من القضاء على أعدائه الأسبان وتحقق له الإمبراطورية الواسعة والمجد الكبير.

وعليه فقد قام السلطان العثماني بتكليف سنان باشا بتجهيز وإعداد الأسطول العثماني والتوجه إلى طرابلس الغرب لتحريرها من خطر فرسان القديس يوحنا، وتحرير وهران وبجايه وتونس من أيدي المسيحيين وضمها إلى الدولة العثمانية، وعلى الفور جهز سنان باشا أسطولاً ضخماً مكوناً من ١١٢ سفينة و٥٢ مركباً ما بين صغير وكبير وأخذ معه ٨٠٠٠ جندي إنكشاري و٤٠٠ محارب وصانع و٦٠٠ فارس بخيولهم، مع كميات كبيرة من المؤن والعتاد، وما إن علم فرسان مالطا بذلك حتى أصابهم الخوف والذعر وطالبوا نائب الملك في صقلية بإمدادهم بالجنود والمؤن والعتاد لمواجهة الخطر العثماني [٧٣].

تجمع الأسطول العثماني شرق البحر المتوسط، وظهر أمام سواحل مالطا يوم ٨ تموز سنة ١٥٥١م بغرض السيطرة عليها وتخريبها، إلاّ أن القائد سنان باشا وعندما رأى قوة حصونها وضخامة أسوارها، وأنه ليس من السهل محاصرتها واحتلالها، وستكلفه

الوقت والجهد، فقرّر تركها والسفر إلى طرابلس بحجة تحريرها أولاً من خطر فرسان مالطا [٧٤].

ثم أبحر بعد ذلك إلى طرابلس حيث وصلها في الخامس من آب ١٥٥١م واتخذت السفن أماكنها أمام المدينة استعداداً للهجوم، اتجه سنان باشا إلى مدينة تاجوراء حيث يقيم مراد آغا، وحاصر مدينة طرابلس براً وبحراً، ثُمّ أرسل مبعوثاً إلى حاكم المدينة يطلب منه تسليمها والخروج منها قائلاً له: ((إذا أبيتم فليس أمامنا إلا القليل)) فرفض هذا الطلب[٧٥]، عندئذ استعددت القوات العثمانية للهجوم على المدينة وأثناء ذلك قَدِم السفير الفرنسي (السنيور دارمونت Darmont) إلى تاجوراء وهو في طريقه إلى استانبول، وقد حاول إقناع سنان باشا بالعدول عن خطته، إلاّ أنه اعتذر للسفير الفرنسي وأوضح له أنه مأمور من قبل السلطان لاسترداد مدينة طرابلس[٧٦]، وأكد له أن السلطان العثماني قد قرّر تصفية الوجود المسيحي في هذه المدينة حتى لو كانت الدولة العثمانية معترفة بحق فرنسا بحماية المسيحية في الشرق [٧٧].

وعندما أدرك السفير الفرنسي أنه لا جدوى من ذلك صمم على الذهاب إلى الأستانة للحصول على ما لم يحصل عليه من سنان باشا، إلاّ أنه لم ينجح في ذلك لأن سنان باشا لم يأذن له بالسفر إلا بعد تحرير مدينة طرابلس من فرسان القديس يوحنا [٧٨].

وعندما اتضح لسنان باشا مماطلة فرسان مالطا وعدم استجابتهم لطلبه، أصدر أوامر لقواته بالهجوم على المدينة يوم التاسع من آب سنة ١٥٥١م، في الوقت نفسه حاول بعض من قوات فرسان مالطا الهروب من القلعة بسبب نقص المياه وقرب القوات العثمانية، وفي الثالث عشر من نفس الشهر اقتحم أربعة آلاف جندي عثماني أسوار القلعة، إلا أنهم فشلوا في ذلك نتيجة لمنعتها وحصانتها [٧٩].

غير أن ذلك الهجوم قد حقّق نتيجة هامة، حيث أرعب جنود الفرسان وغدوا يبحثون عن وسيلة تمكنهم من الهروب خارج المدينة، وما أن علم جاسباري دي فاليير قائد

الفرسان بهم حتى حاول إقناعهم بالعدول عن فكرة الهروب لأن ذلك منافٍ للشرف العسكري، لكنه لم ينجح ووجد نفسه وحيداً بعد أن تخلى عنه جنوده، فاضطر إلى الاستسلام، والدخول في مفاوضات مع سنان باشا، فعرض عليه تخلي قوات الفرسان عن مدينة طرابلس مقابل المحافظة على أفراد الحامية، وأن يتعهد بنقلهم سالمين إلى مالطا أو صقلية [٨٠].

وتشير بعض وثائق أرشيف مالطا عن حقيقة تلك المفاوضات جاء فيها: ((ودامت المفاوضات بيننا وبين العثمانيين على جانب كبير من الأهمية، حيث إن حكومة طرابلس تراقب مجريات هذه المفاوضات بنوع من التفاؤل والأمل، وقد كان العثمانيون مسرورين بعد هذه المفاوضات، إذ أنه تم الاتفاق على خروج من في القلعة بطرابلس من الفرسان في تاريخ محدد والانسحاب منها والذهاب إلى مالطا))[٨١].

وبهذه المناسبة أقيم احتفال كبير في السادس عشر من آب سنة ١٥٥١م، حضره السفير الفرنسي وحاكم مدينة طرابلس، ثم أذن سنان باشا لفرسان القديس يوحنا بالرحيل على ظهر سفينة تحمل العلم الفرنسي في الثامن عشر من آب سنة ١٥٥١م، ولم تستغرق عملية تحرير طرابلس أكثر من عشرة أيام، ثم أبحر الأسطول العثماني متجهاً إلى الأستانة بعد أن حقّق هذا النصر الكبير وبعد أن عهد سنان باشا بولاية طرابلس إلى مراد آغا، وبذلك يكون الحكم العثماني لمدينة طرابلس قد بدأ ويكون مراد آغا أول شخصية عثمانية تباشر الحكم في المقاطعة الجديدة سنة ١٥٥١م، غير أن طرغوت باشا والذي كان يطمح في توليه مدينة طرابلس انزعج لذلك حيث قطع مرساة مركبه ووجه شراعه نحو المغرب وتبعه قادة المراكب الأخرى تاركين سنان باشا لوحده، إلاّ أن طرغوت باشا لم يرض بذلك وأمرهم بالعودة، إلاّ أنهم أصروا على أن يعود معهم فقبل ذلك خدمة للدولة [٨٢].

ونظراً لمكانة طرغوت باشا في حركة الجهاد البحري فقد كافأه السلطان برتبة (أمير أمراء الجزائر) مع إمارة البحر (وزير البحرية) اعترافاً له بخدماته وجهوده القيمة، ولكن رستم باشا الذي كان يشغل منصب الصدر الأعظم قد أبعده عن ذلك المنصب نظراً للعداء الشديد الذي كان بينهما [٨٣].

ويظهر أن طرغوت باشا قد نجح أخيراً في الحصول على إمارة طرابلس سنة ١٥٥٦م، حيث بذل جهوداً كبيرة في تثبيت الحكم العثماني في الولاية الجديدة بما فيها فزان وبرقة حيث أصبحت تدفع الضرائب لمدينة طرابلس في عهده [٨٤].

الخلاصة:

وهكذا بدءاً من آب ١٥٥١م، أصبحت طرابلس الغرب ولاية عثمانية[٨٥]، ومنذ ذلك التاريخ عمد العثمانيون إلى تطبيق الإجراءات الإدارية والعسكرية، على أساس أنّها ولاية جديدة من ولايات الإمبراطورية العثمانية في منطقة المغرب العربي (شمال إفريقيا).

وقد صدمت أوروبا بسقوط مدينة طرابلس باعتبارها قاعدة أمامية لهم، ورغم محاولاتهم المستمرة إلا أن مدينة طرابلس لم تقع تحت سيطرة الأوروبيين مدة ثلاثمائة وستين سنة منذ استيلاء الدولة العثمانية عليها [٨٦].

الهوامش

(١) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٧١.

(٢) رحلة التجاني (قام بها في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي منذ سنة ١٣٠٦هـ . . إلى سنة ١٣٠٨هـ .) تحقيق: ولم مرسي، قدم لها حسن حسي عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٨١م، ص٢٤٠.

(٣) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، المرجع السابق، ص١٧١-١٧٢.

* مدينة تاجوراء: إحدى الضواحي القريبة من مدينة طرابلس، حيث تقع إلى الشرق منها بمسافة ٣٠ كيلومتر، وهي التي أصبحت مركز المقاومة ضد الأسبان في مدينة طرابلس، وكان عروج وخير الدين بارباروس على اتصال مستمر بها . روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٥٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص١٧٤-١٧٦.

* غات: واحة من واحات ليبيا الصحراوية، تقع في الجنوب الغربي من فزان، على مسافة ٤٣٠كم، وفي الجنوب الغربي من مدينة طرابلس بنحو ١١٤٣كم، ومن مدينة غدامس إلى الجنوب بنحو ٦٢٠كم، وأهم القرى التابعة لها تونين والبركة والعوينات، وتقع مدينة غات وسط أرض غنية بالماء مكسوة بالنباتات، وهي مركز مهم للمواصلات عبر الصحراء الكبرى، جعلها ذات نفوذ في قلب الصحراء الكبرى، ولم يحدد المؤرخون سنة تأسيسها، وأول من ذكر غات من الرحالة المسلمين هو ابن بطوطة في رحلته في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي – الثامن الهجري، وسكانها من التوارق وهم من البربر ويتكلمون اللغة البربرية، وبعضهم يعرف اللغة العربية، ويستعملون اللثام على وجوههم فلا

ترى منهم إلا عيونهم، وفيها بعض البساتين ونخلها ليس كثيراً وي شرب سد كانها ويسقون مزروعاتهم من آبار عمقها قليل وماؤها غزير . **رحلـ ـة ابـ ـن بطوطـ ـة**، المسماة تحفة الأنظار في غرائب الأمصار، الطبعـ ـة الأولـ ـى، شد رحه وكتـ ـب هوامشه: طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ص٧٠٦، الـ زاوي، معجم البلدان الليبية، مرجع سابق، ص٢٣٨-٢٤٠.

* مرزق: عاصمة بلاد فزان في العهد العثماني، تقع جنوب غرب مدينة سبها بنحـ و ١٤٥كم، وتقع إلى الجنوب من مدينة طرابلس بنحو ٧٧٥كم . المرجـ ـع الـ سابق نفسه، ص٣١٠.

(٥) ن.أ.بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحديث**، ط، ترجمة وتحقيق: عماد حـ ـاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، ١٩٩١م، ص٤٣.

(٦) روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٣٧.

(٧) روسي، **ليبيا منذ الفتح حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٩٠-١٩١، برنيا، مرجع سابق، ص٣٢-٣٣.

(٨) نص المنشور في كتاب: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسـ ـان مالطـ ـا**، مرجع سابق، ص٣٧.

(٩) إسماعيل، مرجع سابق، ص١٩.

(١٠) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٨٧.

(١١) روسي، **طرابلس تحت الحكم الأسباني وفرسـ ـان مالطـ ـا**، المرجـ ـع الـ سابق، ص٣١، الزاوي، مرجع سابق، ص٢٨٧، الباروني، مرجع سابق، ص٥٩.

(١٢) برنيا، مرجع سابق، ص٣٤.

(١٣) روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٣٢.

(١٤) روسي، **ليبيا منذ الفتح حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٨٣-١٨٥.

(١٥) برنيا، مرجع سابق، ص٣٠.

(١٦) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(١٧) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(١٨) رسالة قنصل البندقية في باليرمو إلى حكومته، بدون تاريخ، للمزيد: روسـ ـي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ٣٥.

(١٩) الزاوي، المرجع السابق، ص٢٩١.

(٢٠) رسالة الملك (شارل الخامس) إلى نائبه في طرابلس بتاريخ ١٥٢٠م، للمزيـ ـد: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، المرجع الـ سابق، ص٣٨-٣٩.

(٢١) ابن غلبون، مصدر سابق، ص١١٤-١١٥، الباروني، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢٢) ابن غلبون، المصدر السابق، ص١١٥، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربـ ـي حتـ ـى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٨٩، الباروني، المرجع السابق، ص٦٧.

(٢٣) ابن غلبون، المصدر السابق، ص١١٥، الزاوي، المرجع السابق، ص٣٧٨.

(٢٤) ابن غلبون، مصدر سابق، ص١١٥، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٨٩، الباروني، مرجع سابق، ص٦٨.

(٢٥) ابن غلبون، المصدر السابق، ص١١٥، الزاوي، مرجع سابق، ص٣٧٨

(٢٦) Guidil Giacomo: Llirestauro del castello di Tripoli cacoparo editore in Triboli, ١٩٣٥ ١٩٣٥. P.١١.

(٢٧) رغم أن الخندق قد تم ردمه الآن، إلاّ أن آثاره ما تزال واضحة، وهو يـ ستعمل ممراً يفضي إلى باب يؤدي إلى الساحة، يسمى باب الخنـ دق . للمزيـ د: فيـ رو، مرجع سابق، ص٧٦.

(٢٨) إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٠.

(٢٩) كواندرو، مرجع سابق، ص١٧.

(٣٠) أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة بـ ين الجزائـ ر وأسـ بانيا (١٤٩٢-١٧٩٢)** الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، د.ت، ص٧٥.

* الموريسكيين: لفظ يطلق على العرب المتنصرين.

* الفورنو: إحدى المدن الإيطالية وميناء هام على ساحل البحر المتوسط بتوسـ كانا، إحدى الدويلات الإيطالية قبل الوحدة ١٨٧٠م، كانت تـ رتبط بعلاقـ ـات تجاريـ ـة واسعة مع ولايات المغرب العربي.

(٣١) Moulay belhamissi histoire de la marine Algerienne. ١٥١٦-١٨٣٠. Entreprise nationale du liver Alger ١٩٨٦. p٢١.

(٣٢) كواندرو، مرجع سابق، ص٢٣.

(٣٣) البارون الفونصو روسو، **الحوليات التونسية من الفتح العربي حتـ ى احـ تلال فرنسا للجزائر**، تعريب وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط٢، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٢م، مقدمة التحقيق، ص٣٩.

(٣٤) ابن غلبون، مصدر سابق، ص١٤٣.

(٣٥) روسو، المرجع السابق، ص٣٩.

(٣٦) عرف عروج باسم برباروس وتعني صاحب اللحية الحمراء ويبدوا أن الاسم قد عرف به أفراد الأسرة بالكامل حتى أصبحت تعرف بأسرة برباروساء.

(٣٧) المدني، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٣٨) يحيى عزيز، **علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالـ ك أوروبـ ـا (١٥٠٠م-١٨٥٠م)** ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، د.ت، ص٣٤.

(٣٩) المدني، المرجع السابق، ص١٧٢.

(٤٠) المرجع السابق نفسه، ص١٩٢.

* بكلربك: كلمة تركية تعني أمير الأمراء.

(٤١) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تعريب: نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص٤٥٣.

(٤٢) عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، تعريب: عبدالسلام أدهم الفرجاني، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م، ص٣٣.

(٤٣) كواندرو، مرجع السابق، ص١٧.

* مرسيليا: مدينة وميناء تجاري فرنسي مهم على ساحل المتوسط ولها علاقات تجارية واسعة مع ولايات المغرب العربي.

(٤٤) كواندرو، المرجع السابق، ص١٨.

* من المعروف أن هذه المنظمة كانت قبل قدومها إلى طرابلس عبارة عن جماعة دينية نذروا أنفسهم للخدمة الدينية والجهاد في سبيل المسيحية ورعاية المحتاجين من فقراء المسيحيين ومساعدة حجاج بيت المقدس واتخذت مقراً لها في بيت المقدس وفي زمن الحروب الصليبية تحولت هذه المنظمة إلى هيئة حربية لمساعدة الجرحى ومنكوبي الحرب وأظهروا عداءهم للإسلام والمسلمين وقد وضعت هذه الجماعة تحت رعاية القديس (جيوفاني باتيستا) وأطلق على أعضائها اسم الاسبتارية نسبة إلى أعمال الاستشفاء التي يقدمونها كما عرفوا باسم (اليوجنين) نسبة إلى (القديس يوحنا) ومع أن القيام على شؤون المستشفيات ظل هو الطابع الغالب على نشاطهم غير أنه كان للفرسان مهام عسكرية حيث ساهموا في محاربة المسلمين في الأراضي المقدسة، وعندما طرد صلاح الدين الأيوبي الصليبيين من بيت المقدس ١١٨٧م لجأ هؤلاء إلى مدينة عكا واستمروا هناك يساعدون الصليبيين في حروبهم ضد المسلمين إلى أن سقطت عكا في أيدي المسلمين عندئذ اتجهوا إلى جزيرة رودس ومن هذه الجزيرة أخذوا يطالبون ملوك أوروبا بحمايتهم، كما ضموا إليهم بعض الجزر المجاورة لهم وقد شملهم البابا بعطفه نظراً لكراهيتهم للإسلام والمسلمين ومن رودس أصبحوا يعملون ضد

المسلمين عن طريق القرصنة وعرقلة حركة الأسطول العثم اني ونتيج ة له ذه الأعمال العدوانية أرسلت الدولة العثمانية عدة حملات للقضاء عليهم وكانت آخ ر تلك الحملات الحملة التي أرسلها السلطان سليمان القانوني ١٥٢٢م ودام ح صارها للجزيرة ستة أشهر حتى أجبروا على تسليمها في ١ يناير ١٥٢٣م بشرط أن يسمح لهم بالجلاء عنها ونقل كافة ما يملكونه، وخرج هؤلاء وقلوبهم تغلي حقداً وكراهية على جميع المسلمين، باحثين عن مكان يضمن لهم مزاولة ن شاطهم القرص ني، وبعد مدة من البحث استقر بهم المقام في روما بدعوة من البابا (كلمنت ال سابع) وأقاموا في (شينفافكيا) وتم تعيين مركز دير المنظمة في (فيتيربو) الت ي تن ازل عنها البابا للمنظمة، ولكن نظراً لعدم صلاحية هذا المكان رأوا أنهم لا يستطيعون مزاولة نشاطهم القرصني ضد الأسطول العثماني لاسترداد جزي رة رودس أو أي جزيرة من جزر البحر المتوسط، ولكن بعد كثير من البح ث والدراس ة ط البوا بمنحهم جزيرتي مالطا وقوزو باعتبارهما أحسن مكان في ذلك الوقت لمواص لة كفاحهم العدواني فاستجاب لهم (شارل الخامس) بشرط ال دفاع ع ن ط رابلس والاستقرار بها، فقبلوا بها .: بريان بلوية، قصة مالطا، تعريب: مصطفى ج ودة، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٩م، ض٤٦ وما بعدها، روسي، **ليبي ا من ذ الفتح العربي حتى س نة ١٩١١م**، مرج ع س ابق، ص١٨٩-١٩٣، روس ي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٤٩-٥٤، بازام ه، مرجع سابق، ص١٠٢، ١٠٣، الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩١-٢٩٣.

(٤٥) بازامه، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٤٦) بازامه، مرجع سابق، ص١٠٤.

(٤٧) انظر التقرير في كل من: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع السابق، ص٥٠-٥١، روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**،

مرجع سابق، ص١٩٠-١٩١، بازامه، المرجع سابق، ص١٠٥-١١١، التليـ سي، مرجع سابق، ص٦٨.

(٤٨) انظر نص هذا المرسوم في كل من: روسي، طرابلس تحـ ت حكـ م الأسـ بان وفرسان مالطا، مرجع سابق، ص٥٢-٥٣، الباروني، مرجـ ـع سـ ـابق، ص٨٦، إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٠، روسي، **ليبيا منذ الفـ ـتح العربـ ـي حتـ ـى سـ ـنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص١٩٢.

(٤٩) الباروني، المرجع السابق، ص٩٠.

(٥٠) المرجع السابق نفسه، ص٩٠.

(٥١) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، مرجـ ـع سـ ـابق، ص١٩٦، روسي، طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا، مرجع سابق، ص٦٠.

(٥٢) التليسي، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩.

(٥٣) روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م**، المرجع السابق، ص١٩٦، روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، المرجـ ـع الـ ـسابق، ص٦١، التليسي، المرجع السابق، ص٦٨.

(٥٤) من أرشيف مالطا (Archive) مالطـ ـا، كتـ ـاب (Bulirum) الفقـ ـرة ٤١٥، ١٥٣١-١٥٣٤م، المسجلة تحت رقم ٢١٥ حرف V، للمزيد: روسي، **طـ ـرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، المرجع السابق، ص٩٧.

(٥٥) برينا، مرجع سابق، ص٤٠.

(٥٦) من أرشيف مالطا، الفقرة، ٤١٥، ١٥٣١-١٥٣٤م، حـ ـرف F ٢٢١، للمزيـ ـد: روسي، **طرابلس تحت الحكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٩٨.

(٥٧) فيرو، مرجع سابق، ص٩٢-٩٣.

(٥٨) عامر، مرجع سابق، ص١٥٦.

(٥٩) محمد خير فارس، **تاريخ المغرب الحديث والمعاصر**، دمشق، سوريا، ١٩٨١م، ص١١٩.

* مراد آغا: علج من أصل أوروبي من مدينة (راج وزا RAGUSA) اختطف ه القراصنة منذ صباه ونقل إلى الآستانة وآل مصيره إلى بلاط السلطان سليم الأول وكان جميلاً وسيماً، وقد عشقته محظية السلطان وأحبت أن يكون قريباً منها، ولما كان من المحرم إدخال الرجال على الحريم السلطاني أجريت له عملية إخ صاء، وبعد موت سيدته آلت إليه ثروة طائلة وأصد بح حـ راً فاذ صرف إلـ ى العمـ ل العسكري، وتميز بالشجاعة، وتعلم اللغة العربية وعمل فـ ي البحـ ر علـ ى مـ تن الأسطول العثماني وترقى فيه، وعندما وضع السلطان سليم الأول أسطولاً عثمانياً تحت قيادة خير الدين بربروسا في غرب البحر المتوسط ضم خير الدين مـ . راد آغا إلـ ى رجاله وهو الذي عينه حاكماً على تاجوراء بعد وفاة القائد خير الـ دين كرمان فيها برينا، مرجع سابق، ص ٣٥-٣٦، ابـ ن غلبـ ون، مـ صدر سـ ابق، ص١٣٧، فيرو، مرجع سابق ، ص ١١٧.

(٦٠) روسي، **طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٦٣.

(٦١) برنيا، المرجع السابق، ص٤١.

(٦٢) عبد العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها**، ط١، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٢، ص٩٢٩.

(٦٣) الشناوي، مرجع سابق، ص٩٢٩.

(٦٤) الزاوي، مرجع سابق، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٦٥) النائب، مصدر سابق، ص١٩٩، ابن غلبون، مصدر سابق، ص٩٣، روسـ ي، **طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٦٣.

(٦٦) برنيا، مرجع سابق، ص٤٢.

(٦٧) الشناوي، المرجع السابق، ص٩٢٩.

(٦٨) مصطفى عبد الله بعيو، **المجمل في تـ ـاريخ لوبيـ ـا**، ط١، القـ ـاهرة، ١٩٤٧م، ص٧٩.

(٦٩) انظر نص تلك التعليمات في كتاب: روسي، **طـ ـرابلس تحـ ـت حكـ ـم الأسـ ـبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٦٦-٦٨.

* طرغوث باشا: وُلِدَ سنة ١٤٨٥م، في بلاد الأناضول التي تقع بآسيا، وهـ ـو ابـ ـن لوالدين فقيرين في قرية تسمى "قرابالا"، ظهرت عليه ملامـ ـح الفطانـ ـة والـ ـذكاء الخارق منذ صغره، ذهب مع والده إلى مصر ليتعلم فيها الحياة العسكرية أيام حكم المماليك، فنبغ في فن الرماية والمدفعية، وعندما اشتد ساعده اشتغل بحـ ـاراً فـ ـي السفن البحرية يجوب البحار حتى صار له خبرة وسمعة كبيرة، وما أن سمع بـ ـه خير الدين برباروس حتى ضمه إلى أسطوله؛ حتى أصبح قائداً لإحـ ـدى فـ ـصائل السفن العثمانية، وبعد وفاة برباروس أصبح طرغوت باشا سـ ـيد البحـ ـر، يُخيِـ ـف الكثير من الأوربيين في البحر المتوسط، وسجل نجاحاً عظيماً في عملياته البحرية والبرية، حتى إن أتباعه المسلمون كانوا يلقبونه بسيف الإسلام، وإلى جانـ ـب أنـ ـه عسكرياً ماهراً، فهو ذو أخلاق عالية، وله معرفة بالجزر والطرق البحرية كربان ماهر . برنيا، مرجع سابق، ص٣٧-٣٨، روسي، **طرابلس تحت حكـ ـم الإسـ ـبان وفرسان مالطا**، المرجع السابق، ص٦٨-٦٩، روسي، **ليبيا منذ الفـ ـتح العربـ ـي حتى سنة ١٩١١م**، مرجع سابق، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٧٠) Brand Ford Ernel the great "siege. P.G ٩٠. first printed ١٩٦١. London"

* سوسة: تقع جنوب العاصمة وتبعد عنها بمسافة ١٤٠ كيلو متر تقريباً، وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها بمسافة ٥٦٠ كيلو متر تقريباً.

* المنستير: تقع جنوب تونس العاصمة وتبعد عنها بمسافة ١٦٤ كيلو متـ ـر تقريبـ ـاً، وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها بمسافة ٥٤٠ كيلو متر تقريباً.

* صفاقس: تقع جنوب تونس العاصمة على الساحل الشرقي وتبعد عنها بمسافة ٢٧٠ كيلو متر تقريباً وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها بمسافة ٤٣٠ كيلو متر تقريباً.
* المهدية: تقع جنوب تونس العاصمة وتبعد عنها بمسافة ٢٠٠ كيلو متر تقريباً وتقع شمال غرب طرابلس وتبعد عنها ٤٧٠ كيلو متر تقريباً.

(٧١) Brand Ford Ernel. Op. cit. p. ٩١.

(٧٢) برنيا، مرجع سابق، ص٤٨، روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص٧١.

(٧٣) عامر، مرجع سابق، ص١٦١.

(٧٤) الباروني، مرجع سابق، ص١٢٦-١٢٧.

(٧٥) فيرو، مرجع سابق، ص١٠٥، برنيا، مرجع سابق، ص٣٠.

(٧٦) سامح، مرجع سابق، ص٥١، فيرو، مرجع سابق، ص١٠٧.

(٧٧) بناء على المعاهدة المعقودة بين الطرفين في يناير ١٥٣٦م والمعروفة بمعاهدة الامتيازات . للمزيد: فريد محمد بيك، **تاريخ الدولة العثمانية**، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٧م، ص٩١-٩٥.

(٧٨) فيرو، المرجع السابق، ص١٠٥.

(٧٩) عامر، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٨٠) المرجع السابق نفسه، ص١٦٢-١٦٣.

(٨١) أرشيف Archiv مالطا، كتاب Ballanom، المسجلة تحت رقم ٤٢٢ الفقرة ٢٢٠ والفقرة ٢٢٣ حرف V مالطا، للمزيد: روسي، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، مرجع سابق، ص١١٧-١١٨.

(٨٢) حاجي خليفة، تحفة الكبار في أسفار البحار، للمزيد: محمد الأسطى، **أوراق عن البحرية الطرابلسية**، ملف البحرية، دار المحفوظات التاريخية، طرابلس.

(٨٣) فيرو، مرجع سابق، ص١٢٠-١٢١.

(٨٤) سامح، مرجع سابق، ص٥٤.

(٨٥) محمود ناجي، **طرابلس الغرب**، ترجمة: عبد السلام أدهم ومحمـ ود الأسـ طى، بنغازي، ليبيا، ١٩٧٠م، ص١٤٩.

(٨٦) جون رايت، **تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور**، ترجمة: عبد الحفيظ الميار، وأحمـ د اليسازوري، ط١، بيروت، ١٩٧٢م، ص٩١.

سياسة الدولة العثمانية تجاه البحر الأحمر

١٩٠٩–١٩١٨م

د. أحمد محسن الخضر

المقدمة:

لم تعد الدولة العثمانية بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م دولة سلاطين وفرمانات تلتزم بها ما تبقى من ولايتها، بل تحولت إلى دولة علمانية في ظاهرها قومية متعصبة في باطنها، وقد نأت بنفسها خلال سنوات ما قبل الحرب الكونية الأولى عن الالتزام بالتنظيمات التي بدأها سلاطين الإصلاح، واتجهت إلى فرض قوميتها ولغتها على العرب والعروبة، مما ولّد تغيراً شعبياً ضدهم، وقد ساقهم تعصبهم هذا إلى حقد وكراهية من العرب الذين ظلوا قروناً مخلصين لدولتهم.

لقد اعتاد الأتراك العثمانيون على تبديل الجلد، فمن دولة ذات قرار واحد إلى دولة قانونية بحسب نهج الغرب الأوربي إلى دولة تقودها زمرة طورانية حاقدة على القوميات الأخرى.

إذا كانت الدولة العثمانية قد نأت بنفسها عن الاصطدام ببريطانيا في اليمن، فإن الحرب الأولى حتمت عليها ضرورة الاصطدام طمعاً بالانتصار، ولجهالتهم في فهم العقلية الأوربية، تصور طوارنيو العثمانيين الجدد أن ما يفرض على ألمانيا في حالة الهزيمة يفرض على دولتهم، ولم يدركوا هذا إلا بعد أن أحاطت قوات أوروبية (من مختلف الجنسيات) لاستانبول وإزمير وكركوك وغيرهم، واضطروا لخيبتهم العسكرية

إلى الانسحاب من الحياة السياسية لتتولى زعامة وطنية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك مسؤولية تحرير أراضيهم من الغزاة الأوروبيين.

لم يكن العثمانيون القدماء ولا الجدد مدركين لواقع الجزيرة والخليج والتشعبات الأسرية لقبائل مناطق البحر الأحمر والساحل العماني.

لقد درس البريطانيون منذ العقد الأخير من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر الواقع الجغرافي للبحر الأحمر، بدءاً من السويس حتى باب المندب بطول ١٢٠٠ ميلاً وعرض تفاوت ما بين ٢٥٠ ميلاً في قسمه الجنوبي و١٣٠ ميلاً في قسمه الشمالي(١).

هذا الامتداد الجغرافي، لم يلق اهتمام العثمانيين الأوائل، وظل موضع إهمال من قبلهم حتى أواخر القرن التاسع عشر، وذلك بعد ما تملكته بريطانيا (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) وإن وُجدت بعض الأسر المحلية المؤيدية للعثمانيين معاندةً وليس عن قناعةٍ، لأن العثمانيين آنذاك لم يكونوا يتطلعون لأكثر من الولاء ودفع الضرائب(٢).

من الصعوبة بشيء قراءة واقع منطقة البحر الأحمر وما جاورها وخاصة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين دون الأخذ بعين الاعتبار أوضاع المنطقة وواقعها المحلي والدولي.

إذا كانت القوى المحلية تشكل العنصر المحلي الأساسي، فهي بالضرورة الأجدر على التفاعل مع أحداث المنطقة بشكل مباشر، لأنه من خلال هذا التفاعل يمكن قراءة الخلفية التاريخية للصراع الدائر بين العثمانيين من جهة والبريطانيين من جهة أخرى، كما يمكن معرفة الجغرافية التاريخية للقوى الموجودة على الساحة التي يمكن التعبير عنها بمصر والسودان كونهما تطلان على البحر الأحمر.

إذا كان السودان يرتبط بمصر ارتباطاً عضوياً باعتبارهما يشكلان كتلة جغرافية واحدة، فإن وحدة هذين البلدين تمت منذ سنة ١٨٨٢ على يد بريطانيا لا لرغبة منها في توحيدهما، وإنما لأسباب سياسية يطول شرحها(٣).

لقد أنهت معاهدتا لندن الأولى والثانية ١٨٤٠-١٨٤١م الأطماع السياسية لخلفاء محمد علي، ومنحتهم ما يشبه الاستقلال الذاتي إلى حد ما، لكنه استقلال منقوص بسبب عدم السماح لولاة الأمر من أسرة محمد علي بالتفكير خارج حدود مصر بما فيها السودان، علماً بأن الخديوي عباس حلمي الثاني الذي اعتلى كرسي الخديوية سنة ١٣١٠هـ ./١٨٩٢م، كان جريئاً وطموحاً، ولكن الصعوبات التي وضعتها بريطانيا بإتقان في طريقه شلت حركته وقيدته(٤).

لقد انهار النشاط السياسي الخديوي أمام الضغوط البريطانية، كما عمدت بريطانيا إلى إقامة عداء مستفحل ما بين الخديوي والدولة العثمانية انطلاقاً من أن التفاهم بينهم قد يشكل عائقاً كبيراً أمام نشاطها في مناطق البحر الأحمر(٥).

١- القوى السياسية الكبرى في المنطقة:

لا شك بأن القوى المحلية في المنطقة أدت دوراً سياسياً واقتصادياً في منطقة البحر الأحمر، لكن مصالحها كانت متفاوتة من عصر إلى عصر، فضلاً عن أنها كانت فاقدة لبوصلتها، فمرة مع الدولة العثمانية، ومرات ضدها، علماً بأن سياسة العثمانيين اتجهت باتجاه المشرق العربي بعدما أوقفت زحفها باتجاه الغرب(٦).

لم يراع العثمانيون الجدد معرفتهم لمناطق الخليج والجزيرة العربية، وإذا كانوا يرغبون بتوسيع نفوذهم خلال المراحل التي سبقت الحرب الأولى، فإنهم سيواجهون موقفاً معادياً من قبل الدول الأوروبية، وقد أشار مصطفى كامل في كتابه (المسألة الشرقية) بالقول: إن مسألة توسع العثمانيين باتجاه البحر الأحمر مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبة ونزاعها مع دولها، وأضاف أن للعداء الديني دوراً كبيراً في

ذلك، ولأن الحروب الصليبية في العصور الوسطى خير شاهد على ذلك، وأن الأحداث التاريخية بموازينها وعللها تشير إلى أن مثل هذه الحروب مستمرة حتى الآن(٧).

ازداد القلق البريطاني بوصول السلطان عبد الحميد إلى سدة العرش، ولا سيما أنه منذ استلامه العرش وجد نفسه أمام عدة مشكلات معقدة وخطيرة، لكنه عجز عن التحرك لأن الغرب الأوربي وخاصة بريطانيا وضعته أمام عقدة (التنظيمات)، وأن من أبرز معالمها وأصعبها عليه وعلى دولته الأخذ بنظم الغرب في الإدارة والجيش، وطرح التنظيم الإسلامي خارج حدود دولته(٨).

لقد أشار السلطان عبد الحميد في مذكراته كيف استغل الإنجليز غفلة أعضا تركيا الفتاة عن طرق المحافل الماسونية، وكذا الألمان الذين أدوا أدواراً مزدوجة يوم كان على سدة العرش كانوا معه، لكن سراً كانوا مع الاتحاد والترقي وبأنفسهم شكلوا تركيا الفتاة في سالونيك بواسطة المحافل الماسونية، وكانت انجلترا تسيطر هي الأخرى على تشكيل تركيا الفتاة في مناستر(٩).

إن ما أورده السلطان عبد الحميد في مذكراته أظهر الصراع الطائفي من قبل الدول الأوروبية على الدولة العثمانية التي انهارت فعلياً منذ عزل عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م.

ظل الاتحاديون يعتمدون سياسة سلاطينهم الأوائل بشأن عدّ الجزيرة العربية جزءاً من أملاكهم، وأن القضية بنظرهم لا تحتاج إلى تسوية، علاوة على ذلك فقد رفضوا بشدة وجهة النظر البريطانية الداعية إلى عدّ القبائل التسع في جنوب الجزيرة العربية مستقلة(١٠).

عرّج الريحاني في مؤلفاته كيف كانت بريطانيا تتسلل خلسة في سياستها مع العشائر المحيطة بعدن بعد احتلالها سنة ١٨٣٩م(١١)، وكيف تحولت من مبدأ الود والصداقة

مع تلك العشائر إلى دور الحماية تطلعاً إلى تقوية نفوذها وسط سيطرتها على تلك المناطق دون إثارة العثمانيين الغارقين في تنظيم دولتهم أو بالأحرى تبديل جلدها(١٢).

لقد تركزت سياسة بريطانيا في البحر الأحمر على اعتبار عدن الحد النهائي لتقدم أي قوة في البحر الأحمر سواء مصر أو غيرها، وتركت العثمانيين يغرقون في صراعاتهم مع القبائل اليمنية وخاصة الفترة الحميدية الذي كان يعدّ وجود بريطانيا ولو اسمياً في أي منطقة مسلمة هزيمة له ولدولته، ولم تكتف بريطانيا بإغراقه، بل أيقظت حركة طورانية متعصبة ضده، مما أضاع كراهيته لها، وأضاع دولته في الصراعات الداخلية(١٣).

لم يكن البريطانيون في غفلة عن القوى الفاعلة في المنطقة، ولهذا ركزوا جهودهم السياسية على الإدريسي في عسير، والإمام الزيدي في القسم الشمالي في اليمن، والعثمانيين في الحديدة وسهل تهامة، وعملوا على إشعال الفتنة والاقتتال بين هذه القوى الثلاث، غير أن الإدريسي والإمام الزيدي يحيى حميد الدين الذي ورث الإمامة عن أبيه سنة ١٩٠٤م توصلا إلى اتفاق، وتكاسل العثمانيون عن إفساد هذا الاتفاق لانشغالهم بأمور كثيرة في مقدمتها الخط الحديدي الحجازي وإخضاع اليمنيين لسيطرتهم(١٤).

قلق نائب المقيم السياسي جاكوب (Jacob) من اتفاق دعان الذي عُقد بين الإمام يحيى حميد الدين والعثمانيين (الاتحاد والترقي) لظروف أكبر من إمكاناتهم، أبرزها احتلال إيطاليا لولاية طرابلس الغرب (ليبيا) سنة ١٩١١م، فلجأ إلى إغراء الإمام يحيى مالياً مقابل إلغائه المعاهدة مع العثمانيين بهدف خلق اتحاد عربي بين الإدريسي في عسير والإمام في صنعاء ضد الاتحاديين(١٥).

بدأت بريطانيا بالتقرب من الإمام، فأمدته بالخبراء، وقدمت له البارود، بهدف زعزعة الصداقة التي أقيمت ما بين الإمام يحيى حميد الدين وبين الوالي العثماني محمود نديم

باشا، فلجأت بريطانيا إلى التواصل مع الإدريسي، وحذرت حكومة بومباي المقيم في عدن من إعطاء الإدريسي أية وعود مكتوبة بل وعود شفهية(١٦).

لقد قسم العثمانيون فيلقهم الثامن المتمركز في اليمن بقيادة أحمد توفيق باشا إلى عدة فرق، وبحسب إفادات بعض الأسرى، فقد كان عدد القوات العثمانية تراوح بين ثلاثين وأربعين ألفاً.

قامت مجموعة من القوات العثمانية بعد إعلان الحرب باحتجاز نائب القنصل البريطاني في الحديدة عندما كان في منزله، كما مُنع القنصل الفرنسي من مغادرة الحديدة(١٧).

لقد أثارت الحرب العالمية الأولى عاطفة المسلمين وخاصة في اليمن، حيث عمد الشيخ أحمد نعمان التابع للعثمانيين لإرسال رسالة إلى سلطان لحج يخبره فيها عن نوايا بريطانيا السيئة تجاه الإسلام، وأن واجب الأخوة الإسلامية يحتم عليه ذلك، كما أخبره أن القبائل اليمنية من زيدية وشوافعة انضمت للقتال تحت لواء العثمانيين للدفاع عن بلادهم ودينهم(١٨).

لقد ظلت بريطانيا تراقب أوضاع العثمانيين في اليمن. في شهر آذار سنة ١٩١٥م قُدِّم للمقيم البريطاني في عدن تقرير عن حالة العثمانيين في اليمن، وصراعهم المحتدم مع القبائل من جهة ومع الأئمة من جهة أخرى، وكانت بريطانيا تفسد كل تفاهم قد يجري ما بين العثمانيين واليمنيين كافة، وقد أشار التقرير ببعض الحقائق عن تواجد القوات العثمانية في اليمن على النحو الآتي(١٩):

- جنوب اليمن في بيت فقيه وزبيد وتوابعها يوجد للعثمانيين خمسمائة رجل، كما يوجد على الطريق ما بين الحديدة وصنعاء مراكز عسكرية عثمانية مهمة في مُناخَه.

- صنعاء وتوجد بها كتيبة مشاة تقدر بستمائة رجل وفرقة مواصلات تقدر بثلاثمائة رجل مع بعض الخيالة إضافة إلى كتيبتين من الجندرمة (الشرطة) تقدر بألف رجل.
- شرق وجنوب اليمن أي في تعز وقحطبه والمخا والشيخ سعيد، وفيها بقية الفيلق العثماني وكتيبة واحدة في المخا وأخرى في الشيخ سعيد، وكتيبة في قحطبة وأخرى موزعة في تلك المناطق المجاورة لها.
- الحديدة، وتمثل الثقل العسكري وفيها أربعمائة جندي إضافة على مجموعة مسلحة من السكان مع أربع مدافع جبلية ومدفعي ميدان.

بعد أن بدأت الحرب، حاول قائد القوات العثمانية قائد لواء تعز (سعيد باشا) شن هجوم على عدن، لكن السلطات التركية لم تمنحه الإذن، كما عارضه والي اليمن وقائد الفيلق العثماني في اليمن.

ما يمكن قراءته من خلال هذا التقرير الاهتمام الذي بذلته القيادة التركية من حيث توزيع قواتها على الطرق الرئيسية في اليمن، لكن هذه القوات لم تقم بأي عمل عسكري ضد القوات البريطانية في عدن، ولهذا فقد ظلت مهام تلك القوات مقتصرة على التهديد والوعيد أكثر مما هي قوة فاعلة ضد البريطانيين[٢٠].

أما المرحلة الثانية في سياسة العثمانيين، فقد واجهتها بريطانيا بالدفاع عن مستعمراتها ضد الاستعدادات المبكرة للعثمانيين الذين ركزوا في خططهم على توجيه حملات قوية إلى قناة السويس مع تحرك فعال في جنوب غرب الجزيرة العربية استعداداً لغزو منطقة لحج إحدى المحميات التي تعتمد عليها بريطانيا في إقامة علاقات وطيدة مع سكان النواحي المجاورة لها[٢١].

إذا كان العثمانيون قد أعلنوا الجهاد ضد البريطانيين، فإن دعواهم لم تحقق نجاحات تُذكر، لأنهم أعلنوا الجهاد دون كسب ود حكام ومشايخ العرب وبالأخص الشريف حسين والإدريسي، ونجحت بريطانيا في كسب ودهم، فأفشلت بصورة غير مباشرة دعوة العثمانيين الجهادية(٢٢).

لجأت الدولة العثمانية خلال المراحل الأولى للحرب العالمية الأولى إلى تهديد مصر وقناتها، وبالفعل فإن الحملة العثمانية الثانية فشلت لأن القوات البريطانية امتلكت مقومات استعداد كافية لمواجهة الحملة العثمانية(٢٣).

جَهد العثمانيون والألمان لمعرفة الوضع العسكري للإنجليز في مصر، وذلك من خلال الاستعانة بتنظيماتهم بسويسرا التي باشرت التفكير في توجيه بعض الأفراد إلى مصر للحصول على معلومات عسكرية وسياسية عن الوضع فيها، غير أن ثورة الشريف حسين سنة ١٩١٦م بدلت الموقف السياسي والعسكري لبريطانيا، وسحقت الوضع السياسي العثماني، فسارعت بريطانيا إلى تقديم الدعم المالي والعسكري للشريف حسين، وكلفت سردار السودان (وينجت) بمسؤولية الإشراف العسكري على عمليات الشريف حسين في الحجاز، وطلبت إليه التعاون الكامل مع قائد الأسطول في البحر الأحمر(٢٤).

أسهم المكتب العربي بالقاهرة في دعم بريطانيا من خلال النشرات الخاصة عن موقف بريطانيا والدعاية لها، كما نشر عدة كتب عن أقاليم الحجاز واليمن وعسير وعدن، وقد أحبطت هذه الدعاية وتلك الكتب المحاربين العثمانيين وخاصة العناصر العربية المجندة بصورة قسرية في القوات العثمانية، لدرجة أن بعض هؤلاء الجنود انسحبوا من صفوف القوات العثمانية لاسيما بعد ما أعلن الشريف حسين ثورته(٢٥).

- سياسة بريطانيا حيال علاقات الإمام يحيى بالعثمانيين:

لم يترك العثمانيون الجدد وسيلة صلح لاستغلالها مستقبلاً في تحسين علاقاتها باليمنيين ومناطق البحر الأحمر والساحل العماني إلا وسلكوها، لأن وصول الاتحاديين إلى السلطة قطع أمل العرب والمسلمين منهم، ولهذا فإن التفاؤل البريطاني تضاعف في تلك المرحلة وخاصة أن بريطانيا تصدت بقوة لأطماع الإيطاليين والفرنسيين الراغبين بالوصول إلى سواحل البحر الأحمر. فقد وفدت وفود إلى المقيم البريطاني في عدن من عقلاء اليمن وكبار زعاماتها مثل السيد محمد بن يحيى بن الهادي، والشريف أحمد بن محسن شريف بيحان، وقايد بن أحمد في الحجرية، ودار مقبل والسيد عبد الله الواتسري وقبيلتي حاشد وبكيل يعلنون من خلال تلك الوفود الاعتماد على الدعم البريطاني حتى ولو لم تساعدهم بعمليات عسكرية، لكنهم يريدون السلاح والمال[٢٦]، لكن بريطانيا تلكأت لأنها فهمت أن هدف هذه الوفود الإطاحة بالإمام يحيى حميد الدين، والهدف الثاني لهم طرد العثمانيين، وبما أن السياسة التقليدية للحكومة البريطانية هي عدم التدخل في النزاعات الداخلية للعرب، فقد آثرت الالتزام بسياستها، إضافة إلى ذلك فإن بريطانيا إذا قامت بذلك فإنها ستجعل من الإمام يحيى حميد الدين عدواً دائماً وسوف يعلن الجهاد ضدها بسياسته القائمة على مخاطبة الأعداء والأصدقاء على حد سواء[٢٧]، وأن العثمانيين لن يكون لهم أي تواجد في البحر الأحمر، فالحرب بدأت تتكشف عن خسارة ألمانيا وتركيا، وبذلك ستخرج تركيا صاغرة من اليمن إن لم يكن بجهودها فإن جهود اليمنيين كافية، وأن الحسين شريف مكة باشر الانتهاء من طرد الأتراك من معظم بلاد الشام[٢٨].

عمدت بريطانيا سنة ١٩١٧ إلى نقل الإشراف السياسي والعسكري لقواتها من عدن إلى القاهرة، كخطوة استباقية لمواصلة اتصالاتها مع الشريف حسين، ولأن واقع عدن لا يسمح لمفاوضيها بحرية التحرك الدبلوماسي القائم على الإقناع قبل تقديم حقائق

وأدلة ضد العثمانيين، ولأنها لامست الوتر الحساس للشريف حسين المتطلع إلى أن يكون ملكاً على العرب إضافة إلى شرافة مكة.

ما يمكن قوله أن السنوات الأربع للحرب خلفت دماراً واسعاً في المناطق العربية خاصة والعالم أجمع، لكن آثار هذه الحرب على العثمانيين خاصة أدت بالخلافة العثمانية إلى الزوال نظراً لقدرة الدول الأوروبية على استعادة قوتها الذاتية في مرحلة نموها الاستعماري.

لم تكن نوايا أوروبة تقسيم الدولة العثمانية من باب الحقد عليها، بقدر ما هو حقد على المكون البشري الذي تحتويه بنية الدولة التي ظلت لقرون متماسكة وتفرض هيبتها على العالم الأوروبي بشكل قسري وقمعي.

هذه الأحداث المتراكمة من كراهية إلى تحالف ووعود، تدفع للبحث في سياسة الدولة العثمانية في المنطقة العربية عامة والبحر الأحمر خاصة بعد إعلان الحرب بينها وبين بريطانيا.

أجمعت معظم الدراسات الاستراتيجية على أن الدولة العثمانية المتربعة كقوة على الخارطة الدولية أشبه بجسم عظيم منهك ملقى على الأرض، رأسه في أوروبة استانبول وجسمه في آسيا وقدمه اليمنى في العراق، وقدمه اليسرى في جزيرة سيناء، بينما يعد الأناضول القلب الحقيقي لهذا الجسم[٢٩].

إزاء هذا الوصف الذي التصق بالدولة العثمانية، فمن غير المعقول كما يضيف الوصف، القدرة على القيام برحلة لمنطقة الخليج، المنطقة البترولية التي يعتمد عليها سير الأسطول البريطاني لمواجهة العثمانيين فيما إذا فكروا جدياً بالسيطرة على القناة خلال الحرب الكونية الأولى.

لجأ العثمانيون بعد إعلان الحرب سنة ١٩١٤ إلى تكثيف وجودهم ورسم خططهم على نطاق أوسع بالتعاون مع الألمان وقد تجسد هذا الجهاد على النحو التالي:

أولاً) إعلان الجهاد المقدس ضد بريطانيا وحلفائها، حيث قامت اللجنة العثمانية للدفاع الوطني والمؤلفة من شيخ الإسلام أنور باشا* والسفير الألماني باختيار عدد من المبعوثين لنشر فتوى الجهاد المقدس في سائر المدن الإسلامية.

ثانياً) نشرت الدعايات المضادة للإنكليز بأنهم منعوا وصول إمدادات الغذاء إلى الأماكن المقدسة، وذلك إمعاناً في إثارة شعور المسلمين[٣٠].

ثالثاً) استكمال الاستعدادات لغزو مصر وإغلاق القناة، وذلك بإيحاء من المعسكر الألماني بحسب ما أفاد الجنرال علي فؤاد باشا أحد الأعضاء البارزين في الحملة العثمانية[٣١].

رابعاً) تنفيذ بعض الإجراءات العسكرية في البحر الأحمر، حيث عمد جمال باشا قبل الحملة (عندما كان وزيراً للبحرية العثمانية) بتنظيم البحرية من جديد ووضع موانئ البحر الأحمر تحت إشراف قومندان البحر الأحمر[٣٢].

خامساً) الاتصال بالعرب، وقد كانت الدولة العثمانية على معرفة جيدة بقوة هذا العامل، لكنها تأخرت في التعامل معه، فلقد سبقتها بريطانيا بعقود، وحينما دخل العثمانيون هذا المعترك، كان العرب منقسمين على أنفسهم ما بين مؤيد للدولة ومعارض لها.

وبحسب ما أوردته التقارير البريطانية، فإن العثمانيين لجؤوا بعد اندلاع الحرب للوصول إلى اتفاق مع أمراء العرب، بهدف أن يقضوا على الحياد على الأقل، إن لم يدخلوا الحرب إلى جانبنا[٣٣].

---

* وضعه المؤلف في هذا المنصب كنوع من الاستهزاء به.

وقد أفاد خير الدين الزركلي أن العثمانيين أرسلوا وفدين إلى عبد العزيز آل سعود ترأس الأول طالب النقيب ومع محمود شكري الألوسي فوعدهم بعدم منع تجار نجد من تمويل الجيش العثماني بالمواد التموينية[٣٤].

ردت بريطانيا على مساعي العثمانيين بالسعي مسبقا لكسب الشعور الإسلامي لصالحها أو على الأقل عدم إثارة المسلمين دينياً، فبدأت أولاً بمسلمي الهند، وتمكنت من كسبهم لصالحها، كما لجأت لكبح جماح هذا الشعور، فاستقطبت شريف مكة حسين بن علي الذي لم يتردد لحظة في الوقوف إلى جانبها، عندما علم أن بريطانيا ستختاره ملكاً للعرب[٣٥].

من الخطوات التي اتخذتها بريطانيا حماية قناة السويس ومصر أيضاً، لأنهما يشكلان ثقلاً استراتيجياً مهماً وخاصة في مرحلة الحرب، فقامت بعدة ترتيبات في مصر تكفل لها ولحلفائها الاستفادة من مصر والقناة خلال مرحلة الحرب الدائرة[٣٦].

لم تكتف بريطانيا بهذه الإجراءات، بل عمدت إلى السيطرة على جميع فنارات الدولة العثمانية، وكلفت المستر تشيتهام في القاهرة بمواصلة الاتصال مع الأسطول والجيش لتنفيذ ذلك، وحرمان البحرية العثمانية من القيام بعمليات في البحر الأحمر نقطة الصراع المركزي بين الدولتين[٣٧].

أدركت بريطانيا أن ضرب القوات العثمانية في مناطق البحر الأحمر سيحطم آمالها، ويشغلها عن ضرب قناة السويس، انطلاقاً من أن مناطق الجزيرة بما فيها اليمن تواجه حرباً ضروساً، لأن اليمنيين منقسمون على ذاتهم، فضلاً عن ذلك، فإن الإمام يحيى الذي أقام اتفاقاً مع العثمانيين لن يستمر إذا نشبت الحرب، وبالفعل أعلن الإمام يحيى حميد الدين أن العثمانيين محتلون، وهم لا يمثلون المسلمين في حربهم مع الألمان، وأعلن استعداده لبدء الحرب مع القوات العثمانية، ولا سيما بعد ما علم أن الوفود

اليمنية التي توجهت لمقابلة المقيم البريطاني في عدن لم توفق في مهمتها، لأن بريطانيا لا تريد أن تحول الإمام يحيى من صديق إلى عدو دائم[٣٨].

إن موقف الإمام يحيى حميد الدين من العثمانيين وقواتهم المرابطة في اليمن دفع بريطانيا إلى الإيعاز للمستر تشيتهام وأحد ضباط الأسطول في مصر بتكليف دوريتين بريطانيتين في البحر الأحمر، الأولى من جدة إلى السويس بما فيها العقبة، والثانية من جدة إلى عدن، والهدف من إنشاء هذه الدوريات الآتي:

١) منع وضع ألغام في البحر الأحمر من أي طرف صديق أو معادٍ.

٢) منع وصول الإمدادات للحاميات العثمانية المتواجدة في الموانئ اليمنية مثل الحديدة والمخا واللحية.

٣) إيقاف إرسال قوات أو مبعوثين لمصر أو للموانئ السودانية من طرف الجانب العثماني مهما كانت الأسباب والدوافع.

٤) تأمين الاتصال البريطاني بأمراء ومشايخ العرب في اليمن والجزيرة بما فيها مشايخ وأمراء الساحل العماني.

٥) القيام بتوجيه ضربات ضد القوات العثمانية في البحر الأحمر، واعتبار كل من جدة وينبع كمدن خارجة عن نطاق الأماكن المقدسة[٣٩].

تلكأت الدولة العثمانية في الاتصال مع العرب، منطلقة من أنهم رعاياها وهم ينضوون تحت حمايتها منذ قرون، لكن قادتها تناسوا أنهم متمسكون بقوميتهم الطورانية ويرفضون الاعتراف بلغة العرب القومية، وأن ما أسفر عنه مؤتمر باريس سنة ١٩١٣م يجعل العرب في حل من هذه التبعية، وأنهم مرغمون قومياً للدفاع عن وجودهم[٤٠]، ومما زاد في كراهية العرب للعثمانيين ما فعله جمال باشا عند إعدام

الأحرار العرب، وأن إعدامهم تسبب في إشعال الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين سنة ١٩١٦م.

إذا كانت الخطة التي اتبعتها بريطانيا حيال حماية مصالحها في البحر الأحمر حماية وقائية فعلى الأقل أشعرت عرب اليمن والجزيرة بنوع من الاطمئنان، وأن محاولة العثمانيين إعلان الجهاد ضدها لن تلقى تأييداً عربياً كبيراً.

أدركت بعض الزعامات العربية أن اشتراك الدولة العثمانية في الحرب تزامن مع مرحلة ضعفها وشيخوختها، وأنها تفردت بالاشتراك دون التشاور حتى مع رجال الدين العرب، وتأكد أنها لا تنظر إليهم أكثر من تابعين لها يأتمرون بأمرها، وعليهم تجاهل مصالحها الوطنية، ولقد تناست الزعامة العثمانية أن غالبية جيشها من المسلمين، بعكس بريطانيا التي كونت جيشها من عناصر بشرية مختلفة جندتها من مستعمراتها وخاصة الهند[٤١].

بالعودة إلى أحداث ما قبل الحرب، فإن الدولة العثمانية لجأت إلى بعض الإجراءات التي فهمت على أنها غيّرت من نهجها الذي كان متبعاً زمن السلطان عبد الحميد الثاني وأن تعيين الشريف حسين شريفاً على مكة سنة ١٩٠٨م دللت على اتباعها سياسة جديدة[٤٢].

لقد تفاوتت الآراء بشأن إنشاء سكة حديد الحجاز، فالبعض عدّها مفخرة من مفاخر السلطان عبد الحميد الثاني، علماً بأنه اتهم في إنشائها بأنه يتطلع لجمع العالم الإسلامي حول شخصه، والبعض الآخر أكد أن هدف إنشائها هو تقوية سلطة الدولة العثمانية في اليمن وما حولها.

لا شك بأن الشريف حسين لدى تسلمه منصب الشرافة أعاد له مكانته وهيبته وكان على الاتحاديين التعامل مع الشريف بشكل مغاير عما كان سابقاً لدرجة أن ولاتهم في الولايات الأخرى غير قادرين على مواجهة الشريف حسين بحلول سنة ١٩١٦م، فلجأ

الاتحاديون إلى عزل ستة ولاة ممن أظهروا عجزهم عن مواجهة الشريف، هذا التصرف أضعف من شعبية الدولة العثمانية ليس في بلاد الشام فحسب بل في معظم العالم الإسلامي، حتى أن مسلمي إفريقيا والهند وباكستان وغيرهم تعاطفوا مع الشريف ضد الأسلوب المتبع من الاتحاديين.

لم يكن بمقدور الاتحاديين تقوية نفوذهم في مناطق البحر الأحمر من خلال اعتماد سياسة القوة وفرض الطاعة والولاء من خلال ولاة عسكريين.

كما أن تعيين وهيب بك على الحجاز بدلاً من كامل بك والفريق خيري بك، وجمع السلطتين في يده، لا تؤهله لمواجهة الشريف حسين وكذلك فإن أطماع الإدريسي في عسير بدأت بالتصاعد وذلك على حساب الوجود العثمانى في المنطقة.

الخاتمة:

لقد زُعزع الوضع العثماني في العالم الإسلامي، لأن الاتحاديين بدؤوا بضرب الجميع إن لم يكن بقوة السلاح، فعلى الأقل بالمعنويات، هذا الأسلوب لن يجدي نفعاً في حال قامت الحرب، لأن المصلحة الوطنية والقومية ستعلو على كل المصالح، وأن الاتحاديين وإن تخلصوا من السلطان عبد الحميد الثاني، فإنهم اصطدموا بعدة زعامات عربية مسلمة، حملت راية السلطان عبد الحميد ولو بشكل اسمي، وبتعبير آخر الموقف لا يسمح لهم بالدعوة إلى الجهاد، وإذا حاولوا فإن زعامات مسلمة سترفض ذلك أو لن تستجيب، إضافة إلى أن بريطانيا ستقف لهم بالمرصاد، لأنها ضمنت قناعات الكثير من الزعامات العربية الإسلامية، أكثر مما كان للعثمانيين من مؤيدين.

ما يمكن قوله، قد يتعثر البحث في تقديم رؤية حول موقف الدولة العثمانية حيال البحر الأحمر، لأن الموقف سياسي مضطرب، قد تفرض الحرب اتباع عدة سلوكيات مصلحية من الأطراف المتصارعة على البحر الأحمر والمناطق المجاورة له.

لكن الوثائق العثمانية أفادت بأن الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين سعت جاهدة لحماية البحر الأحمر من التجاذبات السياسية، ففي المرحلة الأولى خاض العثمانيون صراعاً حاداً مع البرتغاليين الذين قدموا إلى المنطقة خلسة، وفي مرحلة أخرى كان الصراع مع البريطانيين الذين احتلوا عدن، وأوقفت محاولاتهم الهادفة إلى إقامة كيانات قبلية للنواحي التسع التي كان عددها ست وعشرون إمارة ومشيخة وسلطنة كونت بذاتها دولاً مستقلة عن بعضها إلا في حالة أعمال السلب والنهب التي كانت تمارس من قبل تلك الأطراف، وقد تمكنت الدولة العثمانية بقوة وجعلت النواحي التسع جزءاً من سناجق (ألوية) تعز وصنعاء وناحية حضرموت، وأعطت صلاحية إدارة حضرموت للشيخ بدر بن عبد الله الكثيري(٤٣).

لقد أقامت الدولة العثمانية قواعد بحرية وحربية في الموانئ المقامة على طول ساحل البحر الأحمر، غير أن هجمات القبائل، وانشغال القوات المتواجدة في اليمن أعاق كثيراً تطوير تلك القواعد، وأفسح المجال لبريطانيا لتكون سيدة على البحر الأحمر، بعد أن قسمت أهالي تلك المناطق إلى زعامات قبلية ووجهت أنظار حكام تلك الإمارات إلى تحطيم بعضهم بعضاً من خلال حدود صنعتها بريطانيا تماشياً مع مصالحها، ولم يثبت بأن الدولة العثمانية سعت لصنع كيانات انطلاقاً من أنها ديار إسلامية يجب حمياتها والدفاع عنها(٤٤).

حواشي البحث وهوامشه

(١) عبد اللطيف بن محمد الحميد، ال**بحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني البريطاني خلال الحرب الأولى ١٣٣٢-١٣٣٧هـ ./١٩١٤-١٩١٨م**، الرياض، ١٤١٥هـ ./١٩٩٤م، ص١١.

(٢) أنور عبد العليم، **البحار والمحياطات**، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٤م، ص٢٥٣.

(٣) شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الدمشقي، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، بغداد، (د.ت)، ص١٦٥.

(٤) عمر بارقان، **الأطماع التركية في مناطق الجزيرة والخليج**، أنقرة، ١٩٨٥م.

(٥) محمد فؤاد شكري، **مصر والسودان**، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣م، ص٥.

6 -Hurewitz, J.c. the middle rastand north africa in world politics vol.1,2 nd edi londom, 1975, pp.271,272.

7 -Ismail hakki uzu carsili, osmanli devletininve kizil deniz, ankara, 1984, s.415.

(٨) محمد أنيس، **الدولة العثمانية والشرق العربي**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٠٠.

(٩) مصطفى كامل، **كتاب المسألة الشرقية**، الطبعة الأولى، مصر، ١٨٩٨م، ص٥.

10 -Livis bernard, the emergence of modern turkey second edition, oxford, 1982, p22.

11 -Pears edwins (csir) life of abdul hamid, reprint edition newyork, 1973, pp 47-48.

12 -Gravin. R.T. op,cit, pp175-199.

(١٣) أمين الريحاني، **ملوك العرب**، ج١، بيروت ١٩٨٠م، ص٤٤٥-٤٤٧.

(١٤) رضا نور، **عثماني تاريخي**، استانبول ١٩٢٤م، ج٣، ص٥٥٨.

(١٥) المصدر السابق، ج٣، ص٥٦١.

(١٦) الوثائق البريطانية Fo 371/2139, Aden, 19th .

(١٧) محمد الحميد، مرجع سابق.

18 -bombag political – jepl, bombag 3istoctobey (pro) fo 371/2139, aden 11 november 1914.

(١٩) الوثائق البريطانية، المصدر السابق، التاريخ نفسه، والسنة نفسها.

(٢٠) الوثائق البريطانية (pro) fo 371/2478 aden .

21 -ismail hakki (مرجع سابق) C.3.S 357.

(٢٢) محمد الحميد، مرجع سابق، ص٣٤١.

(٢٣)أحمد رفيق، **عمومي بيوك تاريخي**، استانبول ١٣٩٣هـ .، ج٣، ص١٧٠.

24- رضا نور، مصدر سابق، ج٤، ص٥٥٨.

25- محمد الحميد، مرجع سابق، ص٢٤٥.

26 -Lord llogad, Egypt since cormer. London 1933 pp221-223.

27 -Same series and vol, from vr. 7th Augst 1917.

28 -Same series and vol, from vr. 26th May 1917

29 - (pro) fo371/3049, secret, Arabia, 11722.

(٣٠) أحمد، فينة، **عمومي بيوك تاريخي**، مصدر سابق، ص٣٥٧.

(٣١) محمد الحميد، مرجع سابق، ص١٠٨.

32 -(pro) fo 371-2349, s.i.R no224 November 1914.

(٣٣) علي فؤاد، **كيف غزونا مصر**، (د.ت)، ص٤٥-٤٨.

(٣٤) المرجع السابق نفسه، ص٥٠-٥١.

35 -(pro) fo 371-2349, s.i.R no245224 Desember 1914.

(٣٦) خير الدين الزركلي، **الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز**، ط٣، دار الملايين، بيروت، ١٩٧٧م، ص٦٠.

(٣٧) أجمعت جميع مصادر تلك المرحلة على اختيار الشريف حسين بن علي ملكاً على العرب، فأعلن الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م وبعدها أعلمته بأنه ملك على الحجاز فتركته لقمة سائغة أمام ابن سعود المدجج بالسلاح الحديث من بريطانيا نفسها (المؤلف).

38 -(pro) fo 371-1968, the war, conf-tele no76224 Augest.9.1914.

(٣٩) الليفتنانت كولونيل كيرزي، **العمليات الحربية في مصر وفلسطين**، ترجمة محمد عل فهمي وأحمد الأورفلي، ط١، ١٩٤٩، ص١٧-٢١.

(٤٠) المصدر السابق نفسه، ص٤٠-٤٨.

41 -Same series and vol, secret lo, London, 11th November 1914.

(٤٢) علي محافظة الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤م، ط٢، بيروت، ١٩٧٨، ص١٢٩-١٤٢.

(٤٣) لطيفة محمد سالم، **مصر في الحرب العالمية الأولى**، ١٩١٤-١٩١٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، مكتبة جامعة القاهرة، ص٣٥-٣٧.

(٤٤) طالب محمد وهيم، مملكة الحجاز (١٩١٦-١٩٢٥) **دراسة في الأوضاع السياسية**، ط١، جامعة البصرة، ١٩٨٢م، ص٣٥-٣٨.

قراءة في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية حيال القضية الفلسطينية من روزفلت حتى ترومان

د. محمد قنطار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

المقدمة:

عدّ الربع الأول من القرن العشرين بداية تحول في مسار أحداث الشرق الأدنى وخاصة حيال القضية الفلسطينية، التي عُدّت بحق محور الأحداث في المشرق العربي.

لقد فكرت بريطانيا التي مُثّلت لقرون، شرطي الخليج العربي والجزيرة من جهة وحراسة مصالحها في مصر وبلاد الشام من جهة أخرى، ضرورة التخلص من العبء الذي تعهدت به للزعامات اليهودية بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. فقد صدر وعد من وزير خارجيتها بلفور، عام ١٩١٧م يتضمن هذا الأمر. وقد أدركت بريطانيا بأن محاولة تهدئة العرب بإصدار بعض الكتب التي لا قيمة لها عملياً. ولكنها قد تخفف عنها عبئاً ثقيلاً وعلى هذا الأساس صدر ما يسمى "بالكتاب الأبيض أو الكتب"، لكن انخراط الولايات في المشرق العربي وحاجتها للدعم اليهودي إزاء

سياستها المستقبلية في المنطقة جعلها تتبنى مسؤولية الدفاع عن اليهود ورفض مضمون الكتاب الأبيض التي أصدرته بريطانيا.

وهذا الموقف الأمريكي بدّل المعادلة بشكل مغاير لما كانت بريطانيا تتبعه.

واستمر الموقف الأمريكي الرافض لسياسة بريطانيا في الكتاب الأبيض الثالث حتى سنوات الحرب الأخيرة ، فقد أُعلن على لسان روزفلت في آذار ١٩٤٤م بأن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقاً عليه وأن الرئيس مقتنع بأن: (الذين يناضلون من أجل وطن قومي يهودي سوف يحصلون على العدل حينما يتم التوصل إلى القرارات في المستقبل).[١]

وهكذا شكل الموقف الأمريكي المتحفظ على السياسة البريطانية تجاه فلسطين، بداية لضغط أمريكي أخذ يتزايد مع مرور السنين، ويؤثر على السياسة البريطانية لاتخاذ اتجاه جديد إزاء سياسة الوطن القومي لليهود. وبالرغم من الاتجاه الأمريكي الجديد في دعم الحركة الصهيونية، فإن الاهتمام الأمريكي بالوطن القومي والحركة الصهيونية يعود إلى الحرب العالمية الأولى، ولكن بشكل أقل التزاماً نظراً لمصالح أمريكا المحددة في المنطقة آنذاك، ونظراً لسياسة العزلة التي كانت تسيطر على سياسة أمريكا الخارجية.

كانت بريطانيا هي التي مهدت لأمريكا أن تتعرف على المنطقة، فلما كانت الحكومة البريطانية تضع المسودات الأولى لوعد بلفور خلال الحرب العالمية الأولى حضر الكولونيل هاوس (House) مندوب الرئيس الأمريكي ويلسون (Wilson) جلسة مجلس الوزراء البريطاني التي أصدرت تصريح بلفور في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧م، ومعنى ذلك أن اهتمام أمريكا بالصهيونية لم يبدأ مع الحرب العالمية الثانية وإنما بدأ منذ ولادة ذلك التصريح عام ١٩١٧م [٢].

وفي العشرينيات سيطرت على الولايات المتحدة الأمريكية سياسة شبه حيادية، ولذلك أخذ اهتمامها بالمشاكل الخارجية خارج الأمريكيتين يقل، ومما زاد من هذه العزلة، اتخاذ الكونغرس قراراً بالحد من السلطة التنفيذية في مجال السياسة الخارجية. واستمر هذا الحال حتى عام ١٩٣٩م، حينما بدأت نذر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق، مما أدى إلى عودة الاهتمام الأمريكي بالمنطقة والتي كانت تعدّها واشنطن منطقة نفوذ إستراتيجي وسياسي بريطاني. ولكن بمجرد أن اضطلعت الولايات المتحدة بدور فعال في الحرب، وبالذات على مسرح الشرق الأوسط (٣)، حتى أخذت تتطلع لدور أكبر في المنطقة، خاصة وأن مصالحها الاقتصادية أيضاً كانت توجهها للاهتمام أكثر بالشرق الأوسط. وتعزز هذا الموقف لأن الحكومة البريطانية تطلعت بشغف لمزيد من الاهتمام الأمريكي، فاضطرت إلى الاعتراف بمصالح أمريكا الاقتصادية ولا سيما في الخليج العربي، مما ساعد على تضاؤل التنافس الاقتصادي بينهما، وبدأت لندن تنظر إلى مسؤولياتها في فلسطين تجاه اليهود على أنها عبء لا يطاق، لذلك أخذت الخارجية البريطانية تفكر في محاولة استدراج الولايات المتحدة بطريقة ما، لمشاركتها المسؤولية، وظلت هذه الرغبة العامل الرئيس في تفكير وزارة الخارجية البريطانية فيما يتعلق بفلسطين.(٤)

أولاً: انتقال النشاط الصهيوني من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأميركية:

أدركت الصهيونية أن دور بريطانيا كدولة عظمى بدأ بالتراجع، وأن الأنظار بدأت تتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية كأقوى دولة بعد الحرب، وتزامن هذا مع تطلع أمريكا إلى الخروج من القارة الأميركية والبحث عن مناطق نفوذ جديدة. ولهذا رغبت الصهيونية في أن تمتلك منافع الدعم الأمريكي، وأن تعمل على تطوير المعارضة الأمريكية للكتاب الأبيض الثالث إلى موقف أكثر صلابة والتزاماً، بحيث يؤثر على

السياسة البريطانية التي أصبحت في نظر الصهيونية غير مناسبة لها. فالصهيونية رغم صلتها الوثيقة مع بريطانيا التي احتضنتها ورعتها ومنحتها وعداً بوطن قومي في فلسطين، إلا أنها وجدت أن من صالحها الآن أن تعيش في أحضان الولايات المتحدة وتضع نفسها وإمكاناتها في خدمة مشاريعها، فقررت أن تنقل مركز نشاطها من لندن إلى واشنطن.

كما قامت بإعادة بناء الدوائر الصهيونية العاملة في الولايات المتحدة لتتمكن من زيادة الضغوط في الظروف الحرجة. كما تقرر في المؤتمر الصهيوني السادس والعشرين الذي عقد قبل الحرب في جنيف عام ١٩٣٩م إنشاء لجنة خاصة في الولايات المتحدة، وتشكيل مجلس الطوارئ الصهيوني الأمريكي عام ١٩٣٩م، بهدف التنسيق للعمل الصهيوني والتواصل مع سائر دوائر الحركة الصهيونية وفروعها في الخارج والإعلان عن رغبات الصهيونية (٥).

وفي عام ١٩٤١م، تشكلت أيضاً لجنة فلسطين الأمريكية التي ضمت ثمانية وستين عضواً من مجلس الشيوخ وعشرين عضواً من مجلس النواب وعدداً من حكام الولايات، وقد نشطت هذه اللجنة في الدعوة لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. فكان لهذا أكبر الأثر في التأكيد على المدى الذي وصل إليه النفوذ الصهيوني في أروقة الحكومة الأمريكية (٦).

تمثل النجاح الأكبر للنشاط الصهيوني في الولايات المتحدة بانعقاد مؤتمر بلتيمور في نيويورك في أيار١٩٤٢م تحت إشراف لجنة الطوارئ الصهيونية الأمريكية، وسط موجة من الدعاية الصهيونية عن الخطر "النازي" على اليهود، وحضرته أبرز القيادات الصهيونية في العالم، وعدد كبير من الصهاينة الأمريكيين، وبعض أعضاء الوكالة اليهودية في فلسطين، وعدد من أعضاء مجلس الشيوخ برئاسة هاري ترومان. فكان هذا المؤتمر الصهيوني هو الأول منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. ومن خلال

مباحثاته ظهر أنه لم يكن هناك إلحاح على صداقة بريطانيا، ومَثَّل هذا الاتجاه ديفيد بن غوريون (David Ben Gurion) رئيس اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية، الذي طالب بنبذ فكرة الوطن الثنائي، لأنها تعنى إعطاء عرب فلسطين تمثيلاً متساوياً مع اليهود في الحكومة، فكان خطابه بمثابة عرض للسياسة الصهيونية. وقد ظهر تأثير آراء بن غوريون في القرارات التي تبناها المؤتمر، والتي نصت على رفض الكتاب الأبيض الثالث، والذي يعدّ بمثابة إلغاء لحقوق اليهود في الهجرة إلى فلسطين. كما قرر المؤتمر تأليف قوة يهودية عسكرية تقاتل مع الحلفاء وتحت علمها الخاص. وأكد على ضرورة فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتخويل الوكالة سلطة الإشراف على الهجرة، والقرار الأخير نَصَّ على إعلان فلسطين كومنولث يهودي (٧).

كانت هذه القرارات تعبيراً واضحاً وصريحاً للبرنامج الصهيوني الجديد، فالمؤتمر كان انعطافاً حقيقياً في حياة اليهود. وكاستمرار لجهود الصهيونية في حشدها ليهود الولايات المتحدة وراء برنامج بلتيمور، دعت إلى عقد مؤتمر آخر في مدينة بتسبرغ (PITTSBURGH) الأمريكية عام ١٩٤٣م، بهدف إصدار قرار مشترك يتعلق بوضع اليهود بعد انتهاء الحرب. وفي المؤتمر الجديد تم الاقتراع على برنامج بلتيمور، فحاز على أغلبية الأصوات. وتعدّ نتيجة هذا المؤتمر نصراً للصهيونية في مسعاها لربط اليهودية الأمريكية بعجلتها، وأصبح بإمكان المنظمة الصهيونية الزعم بأنها تمثل الأغلبية الساحقة من يهود أمريكا وذلك من خلال نفوذها المالي(٨).

ومن ناحية أخرى هدفت الحركة الصهيونية إلى كسب دعم وتأييد الشعب الأمريكي لصالحها، فلم تترك وسيلة ولا أسلوباً من الاتصالات إلا واستخدمته، وبهذا تكون الصهيونية قد رتبت أوراقها، وأعدت خططها ووزعت الأدوار على جميع مؤسساتها، حتى تتفرغ للخطوة الاستراتيجية الكبرى، الهادفة لكسب موافقة الحكومة الأميركية على البرنامج الصهيوني الجديد والذي يهدف إلى تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين(٩).

ثانياً: السياسة الأمريكية تجاه فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية:

بعد صدور الكتاب الأبيض الثالث وتحفظ الحكومة الأمريكية عليه أخذت الصهيونية في اعتبارها استغلال هذا الموقف لصالحها، فأرسل السفير البريطاني في واشنطن مذكرة عام ١٩٣٩م إلى وزارة الخارجية جاء فيها، أنه قد استقبل وفداً من المنظمة الصهيونية وأخذوا يشرحون القلق الذي يساورهم بسبب الإشاعات التي انتشرت عن عزم بريطانيا تنفيذ بنود الكتاب الأبيض، وما ينتج عن ذلك من حظر للهجرة، ومنع لانتقال الأراضي، لذلك فالسفير يلح على تزويده بمعلومات عن مدى صحة هذه الإشاعات ليتمكن من إزالة هذه الشكوك، نظراً لأهمية النفوذ اليهودي في أمريكا، والتي تتطلع بريطانيا إليها بودٍ وصداقة. وقد أثارت هذه الرسالة وزارة الخارجية، وتم عقد عدد من الاجتماعات لصياغة رد مناسب على استفسارات السفير، وساد اعتقاد أنه من الضروري جداً إرضاء يهود أمريكا لضمان مساعدتهم في محاربة أصحاب الدعوة إلى الانعزال، والاتجاهات المضادة لبريطانيا في الولايات المتحدة، فقال تشرشل (Churchill) الذي رغب في إرضاء يهود أمريكا: "يجب أن نمتنع عن أي عمل يضيف إلى الأعباء التي يجب علينا تحملها أو إلى الأعباء التي يجب أن يتحملها أفضل أصدقائنا الرئيس روزفلت (Roosevelt)[١٠]، ولكن وزارتي المستعمرات والخارجية لم تكن توافق على هذا الاتجاه الذي يتزعمه تشرشل، لأنهما لا تزالان تقيمان اعتباراً للعرب وتودان كسب رضاهم، لذا فهما تريان أن يكون الرد على السفير في واشنطن بضرورة الإيحاء للصهيونية بأن مسألة تطبيق الكتاب الأبيض لا تزال قيد الدراسة ولم يتم التوصل إلى قرار بشأنها [١١].

وهذا كله يدل على خشية بريطانيا من الموقف الأمريكي الذي ربما يكون لغير صالحها واستمرت الصهيونية في مساعيها الحثيثة لجر الإدارة الأمريكية إلى مسألة فلسطين. ففي عام ١٩٤٢م تقدمت مجموعة من الحاخامات بمذكرة حول فلسطين لوزارة الخارجية الأمريكية، فردَّ الوزير عليهم ببيان أشار فيه إلى اهتمام أمريكا

بالعمل الذي تم بموجبه وعد بلفور، والذي لعب فيه مواطنو أمريكا دوراً بارزاً، وأسف للاضطهاد الذي يتعرض له اليهود، وأما بالنسبة لمسألة الوطن القومي فيذكر: «أعتقد أنه يتوجب علينا إيجاد عالم متسامح يعيش فيه اليهود مثل أي شعب آخر أحراراً يتمسكون بالشرف والسلام»[١٢]. ويتضح من هذا البيان أن الخارجية الأمريكية لم تكن تحبذ الموافقة بشكل تام على الضغوط الصهيونية لذا كان جوابها دبلوماسياً لا يلزم الإدارة الأمريكية بأي ارتباط.

وظهر الاهتمام الأمريكي بشكل أكبر عندما حرصت الحكومة على إرسال مبعوثين للمنطقة عام ١٩٤٢م فبعثت الكولونيل هارولد هوسكنز (Col. Harold Hoskins) الذي يجيد اللغة العربية وأمضى شهوراً عدة في المنطقة، وأشار في تقريره إلى زيادة التوتر وأنه لا يمكن تأسيس دولة يهودية في فلسطين إلا باستخدام القوة[١٣].

ولم يكن هذا المبعوث الوحيد فالمفتي يذكر أثناء وجوده في العراق أنه جاء مبعوث أمريكي اسمه روبرت دونافان (Robert Donovan) عام ١٩٤١م موفداً من قبل الرئيس روزفلت (Roosevelt) والتقى بالمفتي، وطلب منه أن يؤيد السياسة البريطانية، ولكن المفتي أجابه كيف يمكننا تأييد السياسة التي تعمل لتهويد بلادنا، فأجابه المبعوث بأن هذه المسألة يمكن تسويتها بعد الحرب، وأن مسألة انفراد هذا المصدر بذكر هذا المبعوث لا يجعلنا ننفيها فقد يكون ما ورد فيه حدث بالفعل، وأن إغفال المصادر الأخرى له يعود إلى عدم نجاح مهمة هذا المبعوث أو أنها كانت مهمة سرية استطلاعية [١٤].

فكان هؤلاء المبعوثين من الحكومة الأمريكية هم الرواد الأوائل من الولايات المتحدة من أجل التجوال في المنطقة، ومحاولة الاقتراب من أماكن الأهداف، وإرسال تقارير أكثر دقة. وأخذ الاهتمام الأمريكي يتطور بالتدريج وبشكل أكبر، فلما قرب موعد انتهاء الهجرة اليهودية في ٣١ آذار ١٩٤٤، اضطرت الحكومة الأمريكية وتحت

ضغط متواصل من اليهود الأمريكيين، للتدخل مع البريطانيين لفتح أبواب فلسطين أمام المزيد من الهجرة. فبعث وزير الخارجية الأمريكي إلى السفير البريطاني في واشنطن في ١٢ كانون الأول ١٩٤٣م ليخبره بأن الرئيس روزفلت (Roosevelt)، يرغب ويطلب أن تمدد بريطانيا الفترة الزمنية المحددة للسماح بالهجرة، فرد عليه السفير البريطاني بقوله: «إن الحكومة البريطانية تخطط في الواقع لتمديد الموعد النهائي بسبب عدم استخدام جميع شهادات الهجرة المتوفرة». فكان لهذا الاتفاق في وجهات النظر بين الولايات المتحدة وبريطانيا بخصوص استمرار الهجرة أكبر الأثر على إقدام الحكومة البريطانية على الإعلان على لسان وزير خارجيتها عن تمديدها للفترة الزمنية الخاصة بانتهاء موعد الهجرة[١٥].

كما تم التداول في نفس العام بين الدولتين حول اقتراح قدمه العقيد الأمريكي هوسكنز (Hoskins) يقضي بإصدار إعلان مشترك ينص على عدم اتخاذ قرارات نهائية خاصة بفلسطين حتى نهاية الحرب، ويجب أن تتم استشارة كاملة للعرب واليهود. وافقت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على صيغة هذا النص، ولكن وزارة الخارجية اعترضت عليه فتأخر صدوره. وفي لقاء روزفلت (Roosevelt) وتشرشل(Churchill) في آب ١٩٤٣م تقرر تعليق هذا البيان، على أن يتم النقاش بخصوص مسألة فلسطين بين الحكومتين من وقت لآخر. ويتضح من هذا البيان أن بريطانيا أصبحت لا تنفرد في قرار حول فلسطين بدون استشارة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا أصبحت الولايات المتحدة أكثر تورطاً في المشكلة الفلسطينية[١٦].

وفي عام ١٩٤٤م الذي كان عام انتخابات الرئاسة للجمهورية في أمريكا، دخلت القضية الفلسطينية في صلب السياسة الأمريكية المحلية، وتطلّب ذلك مضاعفة نشاط وجهود المنظمات الصهيونية للحصول على بيانات تأييد من جميع الأشخاص المهمين في الحياة العامة، بما في ذلك أعضاء الكونغرس. ونظراً للمواقع الحيوية التي يحتلها اليهود في العديد من المدن والولايات الهامة، يمكن فهم الأسباب التي دفعت العديد من

المرشحين إلى التسليم بالمطالب الصهيونية أو دعمها وتأييدها، فالكثير من المسؤولين الأمريكيين يعتبرون اتخاذهم موقفاً مؤيداً لليهود يعزز ويقوي مراكزهم في الحكومة. لذا أصبح اتخاذ مواقف أمريكية محددة حول فلسطين يعتمد على الاعتبارات الداخلية أكثر من اعتماده على السياسة الخارجية. ففي ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٤م قدم للكونغرس مشروعان متطابقان ومتشابهان بخصوص فلسطين، قدم أحدهما السيد كومبتون (Compton) النائب الجمهوري والثاني قدمه النائب الديمقراطي رايت (Wright)، كما قدم مشروع قرار آخر لمجلس الشيوخ من عضوين من الحزب الجمهوري والديمقراطي روبرت واغنر (Robert Wagner) وروبرت تافت (Robert Taft) حول أوضاع اليهود المشردين في أوروبا، ونصت بأنه على الولايات المتحدة أن تعمل بكافة الوسائل لاتخاذ الإجراءات اللازمة لفتح أبواب فلسطين أمام اليهود، وإتاحة الفرصة لاستيطانهم فيها لكي يتمكنوا من إعادة إنشاء كومنولث يهودي في فلسطين [١٧].

وهذان القراران يتشابهان مع برنامج بلتيمور الذي دعا إلى إقامة دولة يهودية، والفارق الوحيد بينهما يظهر في أن القرارين يستخدمان كلمة «إعادة البناء» بدلاً من «إنشاء كومنولث»، وذلك للإيحاء بأنه كانت هناك دولة واختفت، والأمر مجرد مساعدة إعادة بناء هذه الدولة، أما كلمة «إنشاء» فتوحي بأنهم يطالبون بتأسيس دولة جديدة، وأحيل القرار المقدم للكونغرس إلى لجنة الشؤون الخارجية بالمجلس، ورأس اللجنة النائب صول بلوم (Sol Bloom) من نيويورك، وعُرف بميوله الصهيونية، وكان يأمل بأن توافق اللجنة على القرار حتى دون إجراء تصويت عليه، ولكن وزارة الخارجية وقفت بالمرصاد أمام التصديق على هذه القرارات، لأنها رأت أنها ستثير الخلافات في فلسطين والعالم العربي، مما يعرض موقف الحكومة الأمريكية للخطر، كما أن نشر القرارات السابقة سيؤدي إلى غضب العرب، وأن ما توقعته وزارة الخارجية حدث بالفعل، فقد احتجت الحكومات العربية حين علمت بنبأ الإعداد لهذه

القرارات، ولكن تمت طمأنة العرب بأنه حتى لو أجازها الكونغرس فهي غير ملزمة للحكومة، وإنما تعبر عن وجهة نظر شخصية للأعضاء. وجاء في مذكرة الخارجية المقدمة للرئيس روزفلت (Roosevelt) بالرغم من أن بريطانيا هي المسؤول الأول عن فلسطين، إلا أن حكومة الولايات المتحدة ترى عدم اتخاذ قرار بشأن تغيير الوضع في فلسطين حتى يحين الوقت المناسب وعندئذ يجب أن تتوصل الحكومات المسؤولة عن إقامة السلام، والحفاظ على القانون والعدل إلى تسوية عادلة لكل القضايا المشتركة بالاستشارة الكاملة للعرب واليهود على السواء [١٨].

وقد شاركت وزارة الدفاع وزارة الخارجية في تحفظها على المصادقة على القرارات السابقة، لأنها ستؤدي إلى مضاعفات خطيرة في مناطق فيها مصالح عسكرية وحيوية لأمريكا، وقد أدلى المارشال جورج (George) رئيس الأركان الأمريكي بشهادته أمام لجنة الشؤون الخارجية، ونتيجة لكل هذه الاعتراضات تم سحب القرارات. ولكن فشل الصهيونية السابق في الحصول على قرارات من الكونغرس لم يحبطها، فقامت بجهود مكثفة وتحركات نشطة حتى استجابت الأحزاب للضغوط[١٩].

وفي حزيران ١٩٤٤م أعلن الحزب الجمهوري قراره الداعي إلى فتح أبواب الهجرة إلى فلسطين أمام اليهود، والسعي لتمليكهم الأراضي، كما أعلن الحزب الديمقراطي تأييده ودعمه لما ورد في برنامج بلتيمور. فقد جاء في إحدى بياناته تحبيذه لفتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية، واستيطان اليهود دون أية قيود، وأن مثل هذه السياسة ستؤدي إلى إقامة دولة ديمقراطية حرة[٢٠].

وقد استاءت وزارة الخارجية من هذه التصريحات ولفتت الأنظار إلى التأثيرات السيئة التي سوف تحدثها على الرأي العام العربي، وحثت زعماء الأحزاب على الامتناع – خلال الحملة الانتخابية – عن إصدار بيانات وتصريحات من هذا النوع[٢١].

وهكذا أصبحت مشكلة فلسطين تشغل الأوساط السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن رسخت مسألة فلسطين في أذهان الرأي العام كواحدة من أهم وأخطر قضايا الساعة، وأن أعداداً كبيرة من الشخصيات غير اليهودية المؤثرة أصبحوا أبطالاً مؤيدين للوطن القومي اليهودي، ومما يؤكد ذلك أن السفير البريطاني في واشنطن السيد هاليفاكس (Halifax) حين كتب إلى وزارة الخارجية في تموز ١٩٤٥م أشار إلى أن الكتاب الأبيض الثالث خلال الحرب الثانية حال دون إنقاذ كثير من اليهود من الاضطهاد النازي. وهكذا فاليهود في مقدورهم أن يثيروا ضد بريطانيا حملة شديدة بسبب نفوذهم القوي في أوساط الإدارة الأمريكية والكونجرس ووسائل الإعلام، واقترح هاليفاكس أن تعرض بريطانيا على الولايات الأمريكية أن تتحمل نصيباً في مسؤولية الانتداب، أو على الأقل أن تحاول إشراك دولة عظمى في مسؤوليتها في فلسطين. وختم السفير رسالته قائلاً: «بالنسبة للأمريكيين يجب أن يظلوا يمارسون الضغط والنقد والنفوذ دون تحمل أية مسؤولية فهو أفضل وضع لهم، وفي اعتقادي أنه يكون على العكس بالنسبة لنا»[٢٢]. وما كان من تشرشل إلا أن أخذ اقتراح هاليفاكس بكل جدية، وكتب إلى وزارة المستعمرات وقيادة الأركان قائلاً: «لا أعتقد أنه يجب أن نأخذ المسؤولية على عاتقنا لإدارة هذا المكان الصعب - فلسطين - بينما يتفرغ الأمريكان للنقد فقط. وأنا لا أعرف أية فائدة عادت على بريطانيا العظمى من هذا الجهد المؤلم، وجهة أخرى يجب أن تأخذ دورها الآن»[٢٣].

هذه الأفكار تكشف أموراً هامة تستحق التوقف عندها والتأمل فيها وخاصة أنها صادرة من تشرشل Churchill، المعروف عالمياً بدعمه وتأييده وحماسه للصهيونية، ففلسطين لم تشكل في أي وقت كان مسألة حياة أو موت بالنسبة لميزان مدفوعات المملكة المتحدة، أو بالنسبة لمستوى المعيشة فيها، أو للأمن العسكري البريطاني، أو لعلاقات الكومنولث البريطاني. إن أثر فلسطين الرئيسي والحيوي هو في تأثيرها على

العلاقات الأنجلو – أمريكية في وقت لا تستطيع فيه بريطانيا البقاء بدون الدعم المالي والإستراتيجي الأمريكي (٢٤).

ثالثاً: سياسة روزفلت Roosevelt تجاه القضية الفلسطينية:

تعرضت سياسة الرئيس الأمريكي روزفلت لكثير من الانتقادات بسبب غموضها وعدم وضوح اتجاهاتها، فقد أخذ روزفلت يردد بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية بأن منطقة الشرق الأوسط كلها بما فيها فلسطين مسؤولية بريطانية. وعند لقائه بوايزمان (Weitzman) عام ١٩٤٠م بغرض بحث احتمالات اتخاذ سياسة جديدة في فلسطين تختلف عن سياسة الكتاب الأبيض الثالث، وصف وايزمان نتائج زيارته أنها لم تكن مرضية، بمعنى أنه لم ينجح في أن يقنع الرئيس الأمريكي بتبني أهداف الصهيونية. واتسم رد روزفلت بالسلبية تجاه طلب اليهود التسليح، شارحاً أن البريطانيين هم المعنيون بالمنطقة. حتى أن روزفلت لم يطرح أي جديد على الرسالة التقليدية التي يبعث بها كل رئيس أمريكي إلى اللجنة الأمريكية الفلسطينية في أيار ١٩٤٢م، فقد أدرك روزفلت وإدارته خطورة الموقف الحربي، وكان من الضروري الحفاظ على التوازن، وعدم تعريضه لأية اهتزازات، بالتصريحات والإعلانات المؤيدة للصهيونية، الأمر الذي يمكن استغلاله من جانب الألمان الذين كانوا يتقدمون في شمال أفريقيا عام ١٩٤٢م (٢٥).

وظهر تعاطف روزفلت مع الصهيونية بشكل واضح عند معالجة مسألة اللاجئين اليهود، فقد اهتم بالمسألة من ناحية إنسانية. كما أنه لم يشأ أن يجعل من صيحات الصهاينة وحملتهم الدعائية النشطة وسيلة للضغط عليه. لذلك حرص على المشاركة في مؤتمر برمودا عام ١٩٤٣م، الذي أحيى إنشاء اللجنة الحكومية للاجئين واقترح أماكن أخرى يلجأ لها اليهود المضطهدون. كما عمل روزفلت على تشكيل مجلس لاجئي الحرب لاتخاذ كل الإجراءات التي تتعلق بإنقاذ ضحايا الاضطهاد، ولكن سياسة

روزفلت لإنقاذ اليهود لم تحظ بالإعجاب من قبل الصهيونية لأنها لم تحقق أهدافهم السياسية، فقد واجه روزفلت عاصفة من الانتقادات [٢٦].

وفي عام ١٩٤٣م الذي يعتبر بداية التورط الأمريكي الرسمي والفعلي في القضية الفلسطينية أخذ مندوبو الولايات المتحدة في منطقة الشرق الأوسط، بإرسال تحذيرات متكررة حول الانفجار المحتمل في فلسطين، نتيجة لنشاطات الصهيونية في أمريكا خاصة بعد انتشار أنباء مؤتمر بلتيمور الذي دعت فيه الصهيونية صراحة لإقامة دولة يهودية. وفي نيسان ١٩٤٣م بعث الملك عبد العزيز آل سعود بمذكرة إلى الرئيس الأمريكي روزفلت، بعد أن أدرك أن الموقف يتطلب الوقوف في وجه الدعاية الصهيونية التي استغلت ظروف الحرب على نطاق واسع، فجاءت رسالة الملك عبد العزيز فيها استنكار لتعاطف بعض أعضاء الكونغرس مع الحركة الصهيونية، وطالب بعدم ربط قضية فلسطين بمشكلة اللاجئين اليهود، ورد روزفلت على الرسالة السابقة بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٤٣م معرباً عن تقديره لتعاون الملك وتفهمه المتعاطف، وأكد بأنه يجب ألا يتخذ أي قرار يمس فيه وضع فلسطين الحالي دون أن يسبقه أي تشاور كامل مع العرب واليهود[٢٧]. وقد اعتبرت هذه الرسالة تاريخية، واتخذ تاريخها تحديداً لبداية السياسة الأمريكية الرسمية نحو فلسطين، فهي لأول مرة تستخدم صيغة المشاورات الكاملة، وأصبحت هذه الصيغة مع تعديلات طفيفة، حجر الزاوية للسياسة الأمريكية في فلسطين واستمرت خلال السنوات التالية.

وأخذ تورط أمريكا في القضية الفلسطينية يؤثر على العرب والصهاينة منذ اللحظة التي أعطى فيها الرئيس روزفلت ضماناته للملك عبد العزيز، فكان هذا التعهد بمثابة التزام من الرئيس الأمريكي باسم حكومته بالاشتراك في حل المشكلة الفلسطينية. فروزفلت يعتقد أنه إذا أمكن جر العرب واليهود معاً وإشراكهم في محادثات ودية فإنه من الممكن تسوية خلافاتهم الأساسية. ففي رسالة أخرى بعثها روزفلت إلى الملك عبد العزيز في تموز ١٩٤٣م جاء فيها: (إن العرب واليهود المهتمين بالقضية، يجب أن

يصلوا إلى تفاهم ودي فيما يختص بالأمور التي تمس فلسطين من خلال جهودهم الشخصية)[٢٨]. ولتحقيق هذا التفاهم كان روزفلت يرى أن الملك عبد العزيز يمكن أن يمثل الجانب العربي، لذلك أوفد العقيد هوسكنز (Colonel Hoskins)، ليقوم بزيارة شخصية للملك، لمعرفة ما إن كان سيشترك في محادثات مع وايزمان أو غيره من ممثلين عن الوكالة اليهودية ليتم البحث معهم عن حل بخصوص مشكلة فلسطين يرضى به كل من العرب واليهود، فرد الملك عبد العزيز على هوسكنز باستياء شديد قائلاً: (إنه لا يود رؤية وايزمان لأنه لا يتكلم نيابة عن فلسطين، ولن يوافق على تسليم فلسطين لليهود)[٢٩].

واستمر روزفلت باهتماماته بمشكلة فلسطين وبحثه عن حل لها، فبعد عودة هوسكنز من الشرق الأوسط واجتماعه بروزفلت ومناقشة مسألة فلسطين، طرح روزفلت فكرة إنشاء وصاية على فلسطين، بحيث يتم تعيين ثلاثة أشخاص يمثلون الديانات الثلاث المختلفة أي الإسلام والمسيحية واليهودية أوصياء، وبعد ذلك بحث هذه الفكرة أيضاً مع الحكومة البريطانية، وقد تحمست لها الخارجية البريطانية، ولكن انتهت هذه الفكرة عند هذا الحد ولم تعد تذكر بعد ذلك أبداً. وإن محاولة جمع العرب واليهود على أرضية مشتركة ثبت استحالتها، إضافة إلى جانب احتمال إثارة الشرق الأوسط بمحاولة غير ناضجة في تسوية القضية الفلسطينية، كانا سبباً في تأجيل أي قرار بخصوص فلسطين حتى تحين الفرصة المناسبة[٣٠].

ثم جاءت الانتخابات الأمريكية بعد ذلك، ولما رأى روزفلت تصريح مرشح الحزب الجمهوري ديوي Dewey المؤيد للصهيونية، والداعي إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين، لم يجد بداً من أن يسير على نفس النهج لكسب الأصوات اليهودية، ويخرج عن تحفظه السابق، فبعث بتصريح في تشرين الأول ١٩٤٤م إلى السناتور واغنر (Wagner)، ومنه إلى مؤتمر المنظمة الصهيونية الأمريكية في أتلانتيك سيتي (Atlantic city) يعبر فيه عن تأييده الشخصي لاقتراح إنشاء كومنولث يهودي. وبعد انتهاء

الانتخابات وفوز روزفلت بالرئاسة الأمريكية عاد إلى ممارسة سياسته المتحفظة. ففي رسالة بعث بها روزفلت إلى واغنر Wagner ذكر أن هجرة اليهود إلى فلسطين تؤدي إلى مذبحة بين العرب واليهود [٣١].

وفي مؤتمر (Yalta) يالطا الذي عقده الحلفاء في ١٥ شباط ١٩٤٥م أعدت وزارة الخارجية الأمريكية مذكرة حول فلسطين ليتم التباحث بشأنها من قبل المنظمة العالمية التي سيتم إنشاؤها بعد الحرب، وفي طريق عودته من يالطا عرج روزفلت على مصر، والتقى الملك عبد العزيز آل سعود على ظهر الطراد الأمريكي كوينسي Quincy في البحيرات المرة بقناة السويس في ١٣ شباط ١٩٤٥م، وبعد الحديث عن شؤون الحرب قال روزفلت للملك عبد العزيز: «إنه يشعر بمسئولية شخصية تجاه اليهود اللاجئين»[٣٢]، بل إنه ألزم نفسه إلزاماً بالمعاونة في حل هذه القضية، فماذا لدى الملك من اقتراح لحلها. فرد عليه الملك عبد العزيز قائلاً: (فلنعطهم وذريتهم خير أراضي وخير بيوت الألمان الذين اضطهدوهم) [٣٣]. ولم ييأس روزفلت من أنه سوف يقنع الملك عبد العزيز بقبول هؤلاء اللاجئين في فلسطين، ولكن الملك عبد العزيز رفض كل عروضه، وفهم مقاصده فقال: (لنجعل العدو الظالم هو الذي يدفع الثمن وهذه هي الطريقة التي يتبعها العرب في حربهم، وعلى المجرم أن يدفع التعويضات، وليس على الشاهد البريء، وما هو الضرر الذي أنزله العرب بيهود أوروبا، فالألمان هم الذين سرقوا بيوتهم وأرواحهم فليدفع الألمان الثمن)[٣٤].

بعد ذلك وعد الرئيس الأمريكي الملك عبد العزيز آل سعود بأنه لن تتخذ أية خطوات بشأن القضية الفلسطينية دون التشاور مع الزعماء العرب [٣٥]، وقد ترك هذا اللقاء مع الملك عبد العزيز انطباعاً حسناً في نفس روزفلت حيث قال: (لقد عرفت عن القضية الإسلامية والقضية اليهودية في خمس دقائق أكثر مما كان يمكن أن أعرفه من خلال عشرات الرسائل)[٣٦]. وهذه الوعود والتصريحات تتناقض مع السياسة الأمريكية كما أعلنت في بيانات الأحزاب السياسية (الديمقراطية والجمهورية)، ولكن كل هذا يعكس

الاهتمام الأمريكي باستقرار العالم العربي، ونفطه الذي يعتبر أمراً حيوياً بالنسبة لازدهار الاقتصاد العربي [٣٧].

ولقد أصيب الصهاينة بصدمة عنيفة نتيجة لكل ما صرح به روزفلت. لذلك سعى الحاخام ستيفن وايز (Stephen Wise) رئيس المجلس الصهيوني الأمريكي لمقابلة الرئيس روزفلت لتهدئة الغضب الذي ظهر في الصحافة الصهيونية. وهدأ القلق مؤقتاً باستقبال الرئيس روزفلت له في ١٦ آذار من العام نفسه، وسمح روزفلت له بأن يصرح بعد هذه المقابلة على لسانه بما يلي: (لقد حددت موقفي من الصهيونية بوضوح ولم أغير ذلك الموقف وسأسعى إلى تحقيقه بأسرع وقت ممكن)[٣٨]. وبعد ذلك التصريح مباشرة تسلم روزفلت رسالة شديدة اللهجة من العاهل السعودي احتجاجاً على تصريحه الأخير، ورد عليه روزفلت قبل وفاته بأسبوع مؤكداً موقفه، وآراءه السابقة التي قطعها على نفسه أثناء محادثتهما قبل عدة أسابيع حيث قال في رسالته للملك عبد العزيز: «لن أتخذ بصفتي رئيس أمريكا أي إجراء يكون معادياً للشعب العربي، وهذه الوعود المتناقضة الموروثة في المشكلة الفلسطينية كانت متضمنة في الافتراض الأمريكي بالمسؤولية الجزئية لحل المعضلة بشكل يرضي جميع الأطراف المعنية».

وعموماً كانت سياسة روزفلت تتميز بعدم الثبات والغموض، ومن الصعب الكشف عن حقيقتها، وبناء عليها أصبح لدى كل من العرب واليهود ما يؤكد اعتقادهم بأن روزفلت يحرص على مصالحهم. وقد اختلفت الكثيرون في تقييم سياسته، فمثلاً يدعي وكيل وزارة الخارجية الأمريكية سمنر ويلز Sumner Welles، أن سياسة روزفلت كانت دائماً إلى جانب الصهيونية. وأما بالنسبة للرسائل الأخيرة التي بعثها روزفلت وفيها وعد العرب بألا تمس مصالحهم فان وزارة الخارجية هي التي أعدتها، وروزفلت وقع عليها بشكل روتيني دون أن ينتبه، كما أن هذه الرسائل تحتوي على أكثر من معنى، ولم يرد فيها تعهد رسمي ولكن هذا الرأي يناقضه ما ذكره وزير الخارجية نفسه

Edward Stettinius إدوارد ستتينيوس الذي يقول: «إن روزفلت لم يكن على غير علم بالأهمية الإستراتيجية والاقتصادية والسياسية لمنطقة الشرق الأوسط لذلك لن يعمل على المساس بالمصالح الأمريكية في هذه المنطقة[٣٩]».

وهذا التضارب في الآراء حول موقف روزفلت الغامض من القضية الفلسطينية يرى البعض أنه يعود إلى أنه لم تكن لديه فكرة صحيحة وسليمة عن قضية فلسطين، ولكن يصعب أن نقبل هذا التفسير لإزالة الغموض من موقف روزفلت. ولعل هذا التناقض في سياسة روزفلت يعود إلى رغبته في كسب الطرفين العرب واليهود، فأصبح موقفه يبدو متناقضاً إذا نظر له من زاوية محايدة.

ب- ترومان والقضية الفلسطينية:

بعد وفاة روزفلت في الثاني عشر من نيسان ١٩٤٥م خلفه نائبه هاري ترومان (Harry Truman)، وبدأت الصهيونية تمارس ضغوطها للحصول على تأكيدات منه تشير إلى التزامه بوعود الحزب الديمقراطي المؤيدة للصهيونية. وعلى أية حال فلم يرث ترومان أية سياسة أمريكية واضحة من الرئيس روزفلت بخصوص فلسطين، وقد قام الحاخام وايز Wise بزيارة لترومان، وكان وزير الخارجية ستتينيوس سبق وحذر الرئيس بأن زعماء الصهاينة سيحاولون أن يحصلوا على تأييد منه للمخطط الصهيوني لفتح باب الهجرة وإقامة الدولة اليهودية، وقد رد ترومان على وايز بأنه على وفاق تام مع سياسة روزفلت حول فلسطين وسوف يفعل ما يستطيع لتنفيذها، فترومان كان مجبراً على التمسك بسياسة روزفلت حيث أكد في جوابه على خطاب رئيس وزراء مصر (النقراشي باشا) أن الولايات المتحدة لن تتخذ أية إجراءات مهمة خاصة بفلسطين دون استشارة كل من العرب واليهود، فترومان كان مجبراً على اتخاذ هذا الموقف نظراً للموقف العالمي والأمن القومي. ولكن تغير موقف ترومان وحدث انحراف كبير لصالح الصهيونية في مؤتمر بوتسدام في ٢٧ أيار ١٩٤٥م، حيث

أبرقت له المنظمات تلح عليه لاستخدام نفوذه لتسوية قضية فلسطين وفقاً لحاجات اليهود ومطالبهم، ولما تناقش ترومان مع تشرشل ثم مع آتلي (ATTLEE) بعد تغير الوزارة البريطانية، قال ترومان إن حكومته تؤيد إدخال أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين[٤١].

وهكذا استطاعت الصهيونية أن تضمن أنها ستحقق نجاحاً أكبر مع هذا الرئيس الجديد الذي كان يفتقر إلى الشهرة والتأييد الشعبي، لذلك نجحت الصهيونية في احتضانه، وقد وجد ترومان في الصهيونية السند الذي يحتاجه، كما أنه لم يستطع مقاومة نفوذ الصهيونية. كما أن الظروف العالمية بعد انتهاء الحرب، وتغير ميزان القوى، وعدم ارتباط ترومان بأي التزام تجاه العرب، جعلته في حلٍ من أي وعد قدم للعرب ومنحته بالتالي حرية الانحياز الكامل لليهود بشكل لا لبس فيه ولا غموض.

خلاصة البحث:

ما يمكن قوله أن الحرب العالمية الثانية أبرزت دور الولايات المتحدة الأمريكية، في منطقة الشرق الأوسط بشكل كبير، فبعد أن كان صانعو السياسة الأمريكية ينظرون إلى المنطقة على أنها دائرة نفوذ بريطاني، فإنهم نشطوا أثناء الحرب، إلى منافسة واضحة لبريطانيا، .وتعاونوا معها، في مناطق عديدة، لكنهم عارضوها، في مناطق أخرى. وبعد الحرب، أعادوا ترتيب الأولويات الأمريكية، في منطقة الشرق الأوسط؛ إذ أمسى العنصر الإنساني، التبشيري، غير قادرٍ على النهوض بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية، في هذه المنطقة، وحلت محله المصالح النفطية، والصهيونية، التي استأثرت بدور أكبر في صنع السياسة الأمريكية.

والواقع أن الصهيونية العالمية لم تنقل نشاطها إلى الولايات المتحدة الأمريكية إبان الحرب بسبب الكتاب الأبيض الثالث فحسب، بل لأنها شعرت بانتهاء دور بريطانيا العالمي خلال الحرب وإحلال الولايات المتحدة الأمريكية محلها. وفي أثناء المناقشات

التي دارت في مؤتمر بلتيمور، أوضح ديفيد بن جوريون أن إنشاء حكومة ثنائية في فلسطين، أو نشوء أيّ حكم يضم العرب واليهود أمر غير ممكن، وأنه ليس هناك إلا حل واحد هو إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، حيث لقي كل التأييد من قبل واشنطن وخصوصاً أن نفوذ اليهود المالي والإعلامي كان عميقاً داخل جسد السياسة الأميركية وكانوا يقيمون وزناً كبيراً لهم، حيث أنشأ الصّهاينة في الولايات المتّحدة شبكة واسعة من المنظّمات تزيد عن 300 منظّمة تشكّل حاليّاً العمود الفقري للوبي الصّهيوني(٤٢)، و٢٣٠ اتّحاداً محلّيّاً وصندوقاً للرّعاية وجمعيّة للعلاقات العامّة، وأكثر من ٥٠٠ محفل. وحقيقة الأمر أن الولايات المتحدة الأمريكية قد بنت إستراتيجيتها منذ منتصف القرن العشرين على أساس وراثة الدولتين البريطانية والفرنسية وأخذ مكانهما بمنطقة الشرق الأوسط، ومنذ ذلك الحين انتقلت الهيمنة من الدول الغربية إلى يد الولايات المتحدة الأمريكية بصفة مطلقة، وأخذت مكانها على قمة النظام الرأسمالي العالمي، وأصبحت الإستراتيجية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط يحكمها مبدأ توازن القوى أو التوازن الدولي الذي أصبح يتحكم في العلاقات الدولية إلى درجة كبيرة بحيث أصبح عاملاً حاسماً للتحكم في مصير السلام أو الحرب. وهنا التقت الإستراتيجية الأمريكية مع الدور الإستراتيجي للصهيونية في منطقة الشرق الأوسط، والتي تستطيع أن تحقق المصالح الأمريكية من خلال التوافق المشترك على قيام دولة الكيان الصهيوني وجعله السرطان الذي يفكك ويجزأ قسمي الوطن العربي، وتأمين حصول الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها على إمدادات البترول من منطقة الشرق الأوسط بشكلٍ يسير فيما بعد.

إن موقف أمريكا حيال القضية الفلسطينية تجسد من خلال رؤسائها الذين أجاز لهم قانونهم التباهي في موضوعات لاتمس الأمن القومي الأمريكي، غير أن هذا القانون أجاز لهم في الوقت نفسه تحديد نطاق الأمن القومي الأمريكي وبهذا غدا القانون ألعوبة في يدي رؤسائها.

حواشي البحث وهوامشه

(١) في أثناء لقاء وايزمان بالسفير الأمريكي في باريس خلال انعقاد المؤتمر: قال وايزمان له (إن ساعة الصفر قد حانت بالنسبة لليهود وإن وايزمان يمد يده مرة أخرى لأمريكا كي تتوسط لمساعدتهم). - Michaele Jansen, the united states and the Palestinian people , (Beirut , 1975) p 7.

(2) ibid.p8.

(3) Gardell Hull, Memories, (new york, 1948) p 1530.

(4) Evav. Wilson , the Palestine paper 1943 – 1947 Palestine studies , V.11 no.4 – (summer 1973) p 24.

(٥) وقد جاء هذا التصريح خلال مقابلة شخصية للرئيس الأمريكي مع الدكتور وايزمن والدكتور سلفر من أجل تهدئة غضب الصهاينة. Wilson, op. cit, p 25.

(٦) محمد شديد، **الولايات المتحدة والفلسطينيون**، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٨ – ٣٠.

(7) Gavriel Cohen, Churchill & Palestine 1939 – 1942 (Jerusalew: 1976)p.152.

عندما شاركت القوات الأمريكية جنباً إلى جنب مع بريطانيا في عمليات البحر الأبيض المتوسط ١٩٤٢م.

(8) Ibid p p 153 – 154.

(9) Stevens, R.B. American Zionism & Forign policy 1942 – 1947 (New York, 1962) p3 ; Hurewitz, op. cit, p 144.

(10) Stevens , op. cit. p p 4-14 Weizmann, op. cit, p 536.

(11) Francis Willams , ((prime minister attlee on president truman's Palestine policy ((1945 – 1946)).

- In W. khalidi, from haven to conouset (Beirut , 1971) p.1.

(12) Michael J.Couen, Palestine and the Great powers 1945 – 1948 (Princeton, 1982),p 14.

(13) Ibid p 12 – 14.

(14) Gardell Hull, Memories, (new york, 1948),p 1544.

(15) Wilson , op. cit, p 38.

(١٦)

(17) Hull, op. cit, p 153

(18) Hull, op. cit, p 1534.

(١٩) وعرف القراران بأرقام ٤١٨ –٤١٩. Stevens, op. cit, p p 39 -40.

(20) Hull, op. cit, p 1543.

(21) Wilson, op. cit., p 41.

(22) Ibid.

(23) Wilson, op. cit., p. 42 ; Stevens, op. cit., p. 41.

(24) M.Cohen, Palestine. P.15.

(25) M.Cohen, Palestine,op. cit. p 15.

(26) Ibid p. 17.

(27) Stevens, op. cit., p p 66 – 67.

(28) J.s Hurewitz, the struggle of palestine,2008, p 175.

(٢٩) أحمد حسين العقبي، **أسرار لقاء الملك عبد العزيز والرئيس روزفلت**، الرياض ١٤٠٤ هـ ،. ص١٤٧، ١٤٨. وأحمد عبد الغفور عطار، **ابن سعود والقضية الفلسطينية**، بيروت ١٩٧٤، ص ١٨٤، ١٨٥. وأيضاً، Cohen, op. cit.,. P 191.

(30) Hull, op. cit, p 1564.

(٣١) خير الدين الزركلي: **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، بيروت، ١٩٨٥م ص ١١٢١ – ١١٢٤.

– عطار، المرجع السابق، ص ١٥٩.

(32) Stevens, op. cit., p 76 ; Wilson, op. cit., p 41.

(33) Hull, op. cit..

(٣٤) يالطا مدينة بجمهورية روسيا السوفييتية عقد فيها هذا المؤتمر أواخر الحـ ـرب العالمية – اشترك فيه روزفلت وتشرشل وستالين للإعداد لمرحلة ما بعد الحرب، للمزيد أنظـ ر : Yalta Conference." Funk and Wagnalls New Encyclopedia. World Almanac Education Group, 2003. SIRS DISCOVER. Philadelphia. 2 April 2006. Keyword: Yalta Conference, p30.

(35) Stevens, op. cit., p 89.

(٣٦) العقبي، المرجع السابق، ص ١١٦.

(٣٧) المرجع السابق، ص ١١٦.

(38) Charles D. Smith , Palestine and the Arab Israeli conflicet. (New York , 1988) p 25.

(39) Hurewitz, op. cit, p 214.

(40) Smith, op. cit, 25.

(41) Stevens, op. cit., p 89.

(42) Ibid p 122 - 128.